مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop



من الكاتبة التي كانت الملهمة لمسلسل شبكة «فوكس» التراسي الشهير «العظام BONES» والتي تُرجمت كتبها إلى ثلاثين لغة في مختلف أنحاء العالم

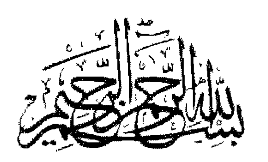


لُغزُ العِظام

رواية

لُغْزُ العِظَام





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
BREAK NO BONES
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من الناشر
SCRIBNER
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

لُغْزُ العِظَام

رواية

تأليف
كاثي رايكس

ترجمة
سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-271-1



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

1

لا تـــنفك بعض الأنماط عن التكرر، مثلما يحدث عندما تنهي أمراً ما بشكل ناجح، ثم يتدخل شخص ما ليفسد عليك الاحتفال بنجاحك الكبير.

حـــسناً، عـــدت إلى المبالغة، لكن حقيقة الأمر ليست بعيدة كثيراً عن هذا الوضـــع. تبيّن لي أن الحصيلة مقلقة أكثر من اكتشاف كسرة من الخزف، أو قرن لصهر المعادن.

حـــدث كل ذلك في الثامن عشر من شهر أيار، أي قبل يوم واحد من انتهاء دورة التنقـــيب عـــن الآثار. لقد انشغلت بالإشراف على عشرين طالباً ينقبون في موقـــع للآثـــار في **دي ويز**، وهي جزيرة نائية تقع إلى الشمال من تشارلستون في كارولاينا الجنوبية.

تواجد معنا صحفيٌ يمتلك نسبة الذكاء ذاتها التي تمتلكها العوالق.

تـــناول صـــاحب العوالق هذا دفتر ملاحظات ذا شريط لولبي ضام، بينما أشـــرق دماغـــه بصور **دامر وبوندي**: "ست عشرة جثة؟ هل تمّ التعرّف على الضحايا؟"

"تعود هذه القبور إلى ما قبل التاريخ".

جالـــت عيناه إلى الأعلى، وتضيّقتا تحت جفنين منتفخين: "أتعنين أنها تعود للهنود القدماء؟"

"إنها تخصّ الأميركيين الأصليين".

لم أستطع منح هذا الرجل جائزة عن دقة معلوماته السياسية: "هل حملوني على تغطية أخبار الهود القدماء؟"

فقلت بصوت بارد: "من تعني بقولك حملوني؟"

"إنهم جماعة صحيفة **مولتري نيوز**، وهي الصحيفة الناطقة باسم منطقة كوبر الشرقية".

تمتار تشارلستون بأنها مدينة اللطف والرقة اللذين ميّزا الأيام العابرة، أما قلب هذه المدينة فهي **البنينسولا** (شبه الجزيرة)، وهي ضاحية شُيّدت بيوتها في زمن ما قبل الحرب. تشتهر المدينة كذلك بالأسواق الموجودة في الهواء الطلق، والتي يحدها نهرا آشلي وكوبر. يحدّد التشارلستونيون المدينة بهذين النهرين، ويشيرون إلى الجوار باسمي آشلي الغربية، أو كوبر الشرقية. وتضمّ هذه الأخيرة جبل بليزانت، بالإضافة إلى ثلاث جزرٍ أخرى، وهي: سوليفان، وجزيرة النخل، ودي ويز.

سألته: "وأنت من تكون؟"

"**هومر وينبورن**"

بدا الرجل بالنسبة إليّ أقرب إلى **هومر سيمبسون**، بسبب ظلّه المائل، وبطنه المنتفخ.

"إننا مشغولون هنا يا سيد **وينبورن**".

تجاهل **وينبورن** ما قلته له: "ألا يُعتبر ذلك عملاً غير قانوني؟"

"حصلنا على تصريح، فالجزيرة قيد التطوير، كما أن هذه القطعة من الأرض مخصصة لبناء المنازل".

"ولماذا تشغلين نفسك بهذا العمل؟" تصبّب العرق من جبهة **وينبورن**. لاحظت أن قرّادة تعبر ياقة قميصه، وأنه سحب منديلاً ورقياً من جيبه.

"إنني عالمة أنثروبولوجيا (علم الإنسان) في كلية تابعة لجامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت. أنا موجودة هنا مع طلابي بناءً على طلب الولاية".

حمل القسم الثاني من تصريحي هذا بعض المبالغة، بالرغم من أن القسم الأول كان صحيحاً. حدث الأمر على الشكل التالي:

اعتادت عالمة آثار العالم الجديد في جامعة كارولاينا الشمالية على حمل طلابها على إجراء تنقيبات خلال الفترة القصيرة التي تسبق الصيف، أي في شهر أيار (مايو) من كل سنة. أعلنت تلك السيدة في أواخر شهر آذار (مارس) أنها قبلت شغل منصبٍ في **بيرديو**. أضافت تلك السيدة أنها بسبب انشغالها بإرسال الطلبات طيلة الشتاء، فقد تجاهلت هذه الدراسة الميدانية لهذا العام، وبسبب عدم تعيينها للمدرّس المناسب، فلم تعيّن موقع التنقيب.

تدربت في فترة تخرجي، وفي بداية عملي المهني، على الأموات الذين مضت فترة لا بأس بها على موتهم، مع أن اختصاصي كان في حقل علم التحقيقات الجنائية. عاينتُ آلاف الهياكل العظمية التي تعود لعصور سحيقة، والتي استُخرجت من الروابي التي كانت تُستخدم للدفن في أميركا الشمالية.

تُعتبر الدراسة الميدانية واحدة من أكثر صفوف شعبة الأنثروبولوجيا شعبيةً عند الطلاب، وعادةً ما يبلغ عدد الطلاب الحدّ الأقصى للصف. تسبّب غياب زميلتي غير المتوقع بذعرٍ بالغ لدى رئيس الشعبة، ورجاني أن أشغل منصبها لأن الطلاب كانوا ينتظرون بشغف لصفهم هذا. قال لي إن هذا الترتيب يعني عودتي إلى جذوري! وسأستمتع أيضاً بأسبوعين على شاطئ البحر! وسآخذ أجراً إضافياً! اعتقدتُ أيضاً أنه سيقدّم لي سيارة بويك مع عرضه هذا.

اقترحت أن يُعرض هذا المنصب على **دان جافر**، وهو عالم الآثار الأحيائي، وزميلي في جهاز الطب الشرعي والتحقيقات الجنائية في بالميتو ستيت العظيمة في جنوب دولتنا. واقترحت أسماء مماثلة يعمل أصحابها في مكتب الطب الشرعي في مدينة شارلوت، أو حتى في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مونتريال، وهما الوكالتان اللتان أقدم لهما استشاراتي بصورة منتظمة.

أبدى رئيس الشعبة اهتماماً باقتراحي هذا. لقد وجد أن فكرتي كانت جيدةً، لكن التوقيت لم يكن كذلك. فقد كان **دان جافر** في طريقه إلى العراق.

اتصلت **بجافر**، فاقترح أن تكون دي ويز هي مكان التنقيب. أوضح لي أن هناك قراراً قد اتّخذ بهدم مقبرة، وأنه حاول تأخير عمل الجرافات حتى يتمّ التأكد من قيمة المكان الأثرية. وأضاف أن صاحب مشاريع البناء الجديدة دأب على تجاهل طلباته.

بعـــد ذلك، اتصلت بمكتب آثار الولاية في كولومبيا الذي وافق على عرضي بالقيام بحفر عدة خنادق تجريبية، وهو الأمر الذي أزعج صاحب المشاريع كثيراً.

وجدت نفسي هنا آخر الأمر مع عشرين طالباً، وها أنا في اليوم الثالث عشر، وهو اليوم ما قبل الأخير للتنقيب، بصحبة رجل يمتلك نفس مستوى الدماغ الذي تمتلكه العوالق.

بدأ صبري بالنفاد، وبدا مثل حبلٍ بليَ من كثرة الاستخدام.

بدا لي أن **وينبورن** يستفسر عن نوع من بذور الحشائش: "ما هو اسمك؟"

كـــنت دافعـــاً للانصراف، لكنني نصحت نفسي أن أعطيه ما يريد، لأنه ســيغادر في آخـــر الأمر، أو أنه – وبقليل من الحظ – سيموت من جرّاء الحرارة الشديدة.

"**تمبرنس برينان**".

قال بشيء من السخرية: **تمبرنس**؟"

"نعم، يا **هومر**".

هزّ **وينبورن** كتفيه: "لا يتردد هذا الاسم كثيراً على مسامعي".

"أدعى **تمب**".

"إنه اسم مدينة في يوتاه".

"إنها في أريزونا".

"صحيح، لكن إلى أي قبيلة ينتمي هؤلاء الهنود؟"

"أعتقد أنهم ينتمون إلى قبيلة السيوي".

"وكيف عرفتم أن العظام مدفونة هنا؟"

"علمنا ذلك عن طريق زميل لنا في جامعة USC – كولومبيا".

"وكيف عرف زميلكم؟"

"لاحـــظ وجـــود روابٍ صغيرة أثناء قيامه بمسح المنطقة، وذلك بعد انتشار أخبار الإعلان عن قرب البدء بمشاريع عمرانية هنا".

خـــصّص **وينبورن** لحظة من وقته ليكتب بعض الملاحظات على دفتره اللولبي الجانـــبي، أو لعلـــه كان يناور لكسب الوقت كي يستطيع التفكير في سؤال قد.

تناهت إلى أسماعي أصوات ثرثرة الطلاب، وأصوات الدلاء. سمعت من فوقي نعيق نورس، وتبعه بعد قليل ردّ نورسٍ آخر.

لا أعتقد أن أحداً سيرشح هذا الرجل لنيل جائزة بوليتزر: "رواب؟"

"جرى ردم المكان بالأصداف والرمال بعد إقفال المقابر".

"ما هي فائدة إعادة نبشها؟"

بلغ السيل الزبى مع هذا المعتوه، لذا واجهتُه بتفاصيل غامضة لإنهاء المقابلة.

"مـــا زالت تقاليد الدفن عند سكان السواحل الجنوبية الشرقية الأصليين غير مفهـــومة. أعـــتقد أن هـــذا الموقع سيقدم الدليل على الروايات العرقية والتاريخية المتوارثة، أو أنه سيدحضها. يعتقد الكثير من علماء الإنسان (الأنثروبولوجيين) أن شعب **السيوي** يشكل جزءاً من مجموعة **الكوسابو**. وتقول بعض المصادر إن تقاليد الدفن عند **الكوسابو** قد اشتملت على إزالة اللحم عن جثة المتوفى، ووضع العظام في رزَم، أو في صناديق. تحدّثت مصادر أخرى عن تعليق الجثث من أجل السماح بحدوث عملية التحلّل، وذلك قبل وضعها في مقابر جماعية".

"يا للحماقة! إنه تصرّف شائن".

"هل هذا التصرف شائن أكثر من إفراغ الدم من الجثة من أجل استبداله بمواد حافظة، ثم حقنها بالشمع والعطور، ووضع بعض مساحيق التجميل للإيحاء بالحياة، وبعد كل ذلك وضع الجثة في تابوت لا يتسرّب إليه الهواء من أجل مقاومة عملية التحلّل؟"

نظـــر **وينبورن** نحوي، وكأنني تكلمت باللغة السنسكريتية: "ومن يقوم بكل هذه الأعمال".

"نحن نفعل هذا".

"إذاً ماذا وجدتم؟"

"وجدنا عظاماً".

لاحظتُ أن القرادة بدأت تزحف باتجاه الجهة العليا من رقبة **وينبورن**: "هل وجدتم عظاماً فقط؟"

هل حان الوقت للسيطرة على الوضع؟ سحقاً لهذا الرجل الشديد الإزعاج.

عـــدت إلى عـــادتي في التكلم بلغة رجل الشرطة والمحقق الجنائي: "يعطينا الهـــيكل العظمي فكرةً واقعية عن الشخص. يعطينا فكرة عن جسمه، وعمره، وطـــوله، وأصـــله. ويعطينا في حالات عديدة لمحة عن تاريخه الطبي، أو طريقة مـــوته". تعمـــدت النظر إلى ساعتي، ثم تابعت بلغة عالمة الآثار: "تُعتبر العظام القديمـــة مـــصدراً مهماً لمعلوماتنا عن السكان المنقرضين. إنها تعطينا فكرة عن طـــريقة عيـــشتهم، وكيف ماتوا، وما هي الأطعمة التي تناولوها، بالإضافة إلى الأمراض التي أصيبوا بها...".

اتجهت نظرة **وينبورن** إلى أعلى كتفي. التفتُّ حولي.

شـــاهدت **توفـــر بـــرغيس** يقترب مني، ولاحظت أن بعض أشكال المواد العضوية وغير العضوية قد التصقت بوسطه الذي سفعته الشمس. بدا الرجل قصيراً وبديـــناً، واعتمـــر قبعة محبوكة، ووضع على عينيه نظارة ذات إطار سلكي، وبرز أيضاً شارباه القصيران، وإجمالاً ذكّرني هذا الفتى بطالب يدعى **سُمي**.

"ظهر شيء غريب في الحفرة الشرقية الثالثة".

انتظـــرت المزيد من التفاصيل، لكن **توفر** لم يقدّمها لي. لم أفاجأ بذلك، لأن مواضيع **توفر** في الامتحانات تشتمل على إجابات ذات جملة واحدة، وها هو الآن يقدّم لي نموذجاً آخر عن طريقته هذه.

قلت متملقةً: "شيء غريب؟"

"إن مفاصله واضحة".

أعطـــاني الـــرجل جملـــةً تامة. إنها جملة مرضية، لكنها لا تحمل الكثير من المعلومات. شبكت أصابعي في إشارة تقول: "أعطني المزيد من التفاصيل".

غيّر **توفر** وضعية وقوفه على قدميه العاريتين، ولم يكن هذا العمل سهلاً عليه نظراً لوزنه الضخم: "نميل إلى الظن أنه حديث العهد".

"سأتفحّصه في عشرين دقيقة".

أومأ **توفر**، واستدار، ثم مشى بتثاقل نحو مكان التنقيب.

وصـــلت القرّادة إلى أذن **وينبورن**، وبدا أنها تفكّر في المسارات البديلة المتاحة لها: "ماذا يعني أن مفاصله واضحة؟"

"يعني ذلك أنها موجودة في ترتيبها التشريحي الصحيح. تُعتبر هذه الظاهرة غير معتادة بالنسبة للجثث التي يُنقل مكان دفنها، وبالنسبة إلى الجثث التي دُفنت بعد نزع اللحم عنها. تظهر العظام في هذه الحالة في وضع غير منتظم، وتكون بشكل مجموعات أحياناً. ويلاحظ أحياناً وجود مفاصل واضحة في هيكل عظمي واحد، أو اثنين، من بين الجثث الموجودة في المقابر الجماعية".

"لماذا؟"

"توجد أسباب كثيرة لهذه الظاهرة. يحدث أحياناً أن يموت شخص ما بعد إغلاق المقبرة الجماعية مباشرةً. ويُحتمل أن ترغب الجماعة بالرحيل، ولذلك لا يتوفر لها الوقت الكافي لانتظار عملية التحلل".

مضت عشر ثوانٍ كتب فيها الرجل شيئاً على دفتر ملاحظاته، وبعدها اختفت القرادة عن نظري.

"ماذا يعني أن الهيكل حديث العهد؟"

"يعني أن الجثة قد وضعت في القبر في وقت لاحق. أتحب إلقاء نظرة عن قرب؟"

وضع **وينبورن** منديلاً على جبهته، ثم تنهد وكأنه يؤدي دوراً ما فوق خشبة المسرح: "هذا ما أكسب عيشي منه".

شعرت أنني سأنهار قريباً: "توجد قرادة على ياقة قميصك".

تحرّك **وينبورن** بوتيرة أسرع من تلك المتوقعة من رجل بوزنه، وجذب ياقته، ثم كرّر حركته هذه، ثم مرّر يده على رقبته بحركة سريعة. طارت القرادة نحو الرمال، وأصلحت وضعها، وبدا لي أنها معتادة على طرد الناس لها.

انطلقتُ، وتجنبت في طريقي عشرات من القنادس البحرية التي بدت رؤوسها ساكنة وسط الهواء المثقل بالرطوبة. اقترب مؤشر ميزان الحرارة من التسعين درجة (فهرنهايت) وما زلنا في شهر أيار (مايو). أعرف أنني أحب المناطق الجنوبية، لكنني متأكدة من أنني لن أحب التنقيب هنا في فصل الصيف.

تحركت بسرعة، ووثقت أن **وينبورن** لن يستطيع مجاراتي. هل هذا تصرف غير لائق؟ نعم، لكن الوقت ضيّق بالنسبة لي، ولن أسمح بتضييعه على مراسل صحفي بليد.

يضاف إلى ذلك أنني قلقت كثيراً من وجود تلك القرادة.

سمعت ما يشبه لحناً لإحدى الفرق التي لا أعرف اسمها. انطلق أحد الطلاب بالعزف على صندوقه. أفضّل أن أستمع إلى أصوات طيور البحر، وأصوات الموج، مع أن المقطوعات التي اختارها الطلاب هذا اليوم تعتبر أفضل من تلك التي اعتادوا عزفها على أدوات حديدية.

انتظرت **وينبورن**، وانشغلت بتفحص الحفر ريثما يصل. لاحظت أن أخدودين اختباريين قد حُفرا وطُمرا. لم يُظهر الأخدود الأول أي شيء غير التراب الخالص، لكن الأخدود الثاني احتوى على عظمة بشرية، اعتُبرت أنها إثبات مبكر لشكوك **جافر**.

رأيت ثلاثة أخاديد أخرى ما تزال مفتوحة وقد انكبّ أحد الطلاب على واحد منها، وانشغل بسحب دلوه، وعربلة التراب من خلال مناخل تستند على دعائم حصان النشر.

انشغل **توفو** بالتقاط الصور في آخر أخدود لجهة الشرق. وجلس بقية أفراد فريقه القرفصاء، وركّزوا على عمله.

انضم **وينبورن** إليّ لاهثاً في قمة الأخدود. مسح جبهته وجهد لالتقاط أنفاسه.

قلتُ: "إنه يوم حار".

أومأ **وينبورن**، ولاحظت أن وجهه أصبح بلون عصير توت العلّيق.

"هل أنت بخير؟"

"أنا على أفضل ما يرام".

مشيت صوب **توفو**، لكنّ صوت **وينبورن** استوقفني.

"لدينا رفقة".

عندما استدرت، رأيت رجلاً يرتدي قميص بولو زهريّ اللون وبنطالاً كاكياً. أسرع الرجل في مشيه عبر الكثبان الرملية، ولم يكلّف نفسه عناء الاستدارة حولنا. بدا الرجل صغير الحجم إلى حدٍّ يقارب حجم الأطفال، لكنّ شعره القصير المائل إلى اللون الرمادي تبعثر على فروة رأسه. عرفت الرجل على الفور. إنه رجل

مقاول يطوّر أحياء سكنية بكاملها، ويمثل الفساد بعينه. يدعى هذا الرجل **ريتشارد ل. ديكي دوبري**.

كان **دوبري** يسير وبرفقته كلبه الذي يتميّز بجسمه الطويل وقوائمه القصيرة، والذي بالكاد يرتفع لسانه وبطنه عن الأرض.

عانيت أولاً من مراسل صحفيّ، والآن جاء **دوبري**. أعتقد أننا متجهون في يومنا هذا نحو شجار شديد.

تجاهل **دوبري وينبورن**، وأسرع باتجاهي. تلكأ الكلب ليبخّ على مجموعة من القنادس البحرية.

كلنا سمعنا عمّا يسمى المسافة الشخصية، وهي تلك المسافة من الفراغ التي نحتاجها لتفصل ما بيننا وبين الآخرين. بالنسبة لي تبلغ تلك المسافة نصف متر. وإذا تخطى أيّ شخص هذه المسافة فمن شأن ذلك أن يربكني.

يميل بعض الغرباء للاقتراب منا كثيراً بسبب ضعف سمعهم أو بصرهم. فيما يقترب آخرون بسبب عاداتهم التي تختلف عن عاداتنا. إلا أن الأمر مختلف بالنسبة **لديكي**. **فديكي** يعتبر أن قرب المسافة يعطيه قوة أكبر على التعبير.

وقف **دوبري** على بعد قدم واحد من وجهي. صالب الرجل ذراعيه، وأخذ يحدّق بي.

قال مصرحاً وليس سائلاً: "ستنتهون غداً حسبما أتوقع".

تراجعت قليلاً: "سننتهي غداً".

بدا وجه **دوبري** شبيهاً بوجه طائر، وظهرت عظامه الحادة الأطراف تحت جلده الزهري اللون والشفاف.

"سأقدم في الأسبوع القادم تقريراً أولياً إلى مكتب جيولوجي الولاية".

شرد الكلب، وبدأ يتشمم ساقي التي بدا أن عمرها يقارب الثمانين سنة على الأقل.

"لا تكن قاسياً مع السيدة الشابة يا **كولونيل** (الكلب)... ينسى هذا الكلب أصول التصرف أحياناً، ويبدأ بالتطفل".

حكّت السيدة الشابة الأذن الجرباء لذلك الكلب.

"من العار أن نخيّب آمال الناس بسبب مجموعة من الهنود القدماء".

ابتسم **دوبري** ابتسامة أؤكد أنه يعتبرها تميّز "الجنتلمان الجنوبي". أعتقد أنه تدّرب عليها أمام المرآة أثناء انشغاله بقصّ شعرات أنفه.

قلتُ: "ينظر الكثيرون إلى تراث هذه البلاد باعتباره قيّماً".

"لكننا لا نستطيع مع ذلك أن ندع هذه الأشياء تؤثر على عملية التقدم، أليس كذلك؟"

لم أجب.

"هل تتفهمين موقفي أيتها السيدة؟"

"نعم سيدي. أنا أتفهمه".

أعرف أنني أمقت موقفه هذا. ينحصر هدف هذا الرجل بجمع المال بأية وسيلة لا تدينه أمام القانون. لا يرى هذا الرجل بأساً بإزالة غابات المطر، والمستنقعات، وتلويث شاطئ البحر، وإزالة الكثبان الرملية، وهو المفهوم ذاته الذي ساد في هذه البلاد عند قدوم الإنكليز. أعتقد أن **ديكي دوبري** مستعد لتفجير معبد آرتميس، إذا كان يقف عائقاً أمام تشييد بعض المنازل.

حافظ **وينبورن**، الذي كان يقف خلفنا، على هدوئه. أعلم أنه كان يُصغي إلى الحديث.

ابتسم الرجل ابتسامة تميّز مفوّض مايبيري: "وما هي الأمور التي سيتضمنها التقرير".

"سيرد في التقرير أن المنطقة تضمّ أرضاً كانت تستخدم للدفن في فترة ما قبل وصول كولومبس إلى هذه البلاد".

تلاشت ابتسامة دوبري العريضة، لكنه حافظ على قسم منها. أحس **الكولونيل** (الكلب) بالتوتر، أو ربّما أحس بالضجر، فتركني واتجه نحو **وينبورن**. مسحت يدي ببنطالي القصير.

"تعرفين أولئك الأشخاص في كولومبيا جيداً مثلما أعرفهم. إن تقريراً من النوع الذي تتحدثين عنه سيوقفني عن العمل لفترة من الوقت. سيكلفني هذا التأخير الكثير من المال".

"إن موقع الآثار هو مورد ثقافي غير متجدد، وإذا زال عن الوجود فهو يزول إلى الأبد. لا يسمح لي ضميري أن أدع احتياجاتك المادية تؤثر على استنتاجاتي يا سيد **دوبري**".

تلاشت ابتسامة **دوبري** بالكامل هذه المرة، وبدأ ينظر إليّ ببرودة.

"سننظر في الوضع".

خفّفـــت لهجـــة التشدق التي يتميّز بها أبناء المناطق الجنوبية من وطأة التهديد المبطّن.

"نعم أيها السيد، سننظر في الوضع".

تناول **دوبري** علبة سجائر كولز من جيبه، وأشعل سيجارة. رمى الرجل عود الثقاب على الأرض، وسحب دخان سيجارته عميقاً، وأومأ، ثم عاد باتجاه الكثبان الرملية، وأسرع **الكولونيل** في إثره.

ناديته: "سيد **دوبري**".

توقف **دوبري**، لكنه لم يستدِر ليواجهني.

"إن المشي فوق الكثبان الرملية هو عمل غير مسؤول من الناحية البيئية".

تابع **دوبري** طريقه بعد أن لوّح بيده علامة عدم اكتراثه.

بدأ صدري يغلي بالغضب والاشمئزاز.

"أجزم أن ديكي ليس خيارك المفضّل ليكون رجل العام".

استدرتُ لأجد **وينبورن** ينهمك بفتح عود علكةٍ من ماركة **جوسي فروت**. راقبـــته وهو يُدخل العلكة في فمه، وانتظرته حتى يرمي بالورقة على الأرض، أي مثلما فعل **دوبري** بعود ثقابه.

فهم الرجل قصدي.

اســـتدرت مئة وثمانين درجة، وانطلقت بصمت نحو الحفرة الثالثة شرقاً. لم أسمع **وينبورن** وهو يجدّ بالسير ورائي.

صـــمت الطلاب عندما انضممت إليهم. تبعتني ثماني أعين عندما قفزت إلى داخل الأخدود. ناولني **توفر** مالجاً. جلستُ القرفصاء، وسرعان ما غمرتني رائحة التراب الذي قلّبَ حديثاً.

امتزجت الرائحة بشيء آخر ذي رائحة كريهة. لاحظت أنها غير نفاذة، لكنها موجودة.

اشتممت رائحة كان يجب أن لا تنتشر هنا في هذا المكان.

انقبضت معدتي.

استندت على قدمي ورجلي، وبدأت بتفحص الجسم الغريب الذي اكتشفه **توفر**، والذي كان عبارة عن جزء من عمودٍ فقري يطل من جدار الأخدود الغربي إلى الخارج.

تبرع الطلاب الذين تحلقوا من فوقي بإعطائي تفسيرات.

"كنا ننظف الجوانب، كما تعلمين، حتى يصبح بإمكاننا التقاط صور الطبقات الجيولوجية".

"لاحظنا تراباً كثير الرطوبة".

أضاف **توفر** تفصيلاً موجزاً.

لم أصغ إليه لأنني كنت أزيل المزيد من التراب بالمالج، حتى بدأ منظر جانبي للعظام المدفونة بالبروز في غرب الأخدود. اتجه قلقي شمالاً مع كل حركة كشط قمت بها.

ظهر عمود فقري وحافة حوض عليا بعد عمل استمر ثلاثين دقيقة.

تراجعتُ وجلستُ، وأحسست بوخزة من الفزع تزحف على قمة رأسي.

بدت العظام مربوطة بالعضلات والأربطة.

طنّت الذبابة الأولى، وتكسرت أشعة الشمس على جسمها الزمردي اللون، حينما رحت أحدق بالعظام.

يا الله.

نفضت التراب عن ركبتيّ أثناء نهوضي. تعيّن عليّ الوصول إلى جهاز هاتف.

أظن أن **ديكي دوبري** لديه ما يقلق عليه أكثر من قضية السيوي القدماء.

2

يفخـــر سكان جزيرة **دي ويز** كثيراً بنقاء بيئتهم الناتج عن العيش بعيداً عن الازدحام. ويُذكر أن خمساً وستين بالمئة من مساحة مملكتهم الصغيرة هي محميات طبيعـــية. لم تـــشمل عمليات التطوير ما نسبته تسعين بالمئة من مساحة الجزيرة. ويقول السكان إنهم يفضلون الأشياء على طبيعتها من دون صقل ولا تشذيب.

لا يمكـــنك الوصول إلى هذه الجزيرة عن طريق جسر، بل يمكنك الوصول إليها عن طريق عبّارة أو سفينة، أما العربات التي تستخدم محركات الاحتراق الداخلي فهي مخصـــصة لخدمات البناء وتسليم البضائع فقط. تذكرتُ ذلك لتوي، فالجزيرة تمتلك سيارة إسعاف، وسيارة إطفاء، وعربة أخرى لمكافحة نيران الغابات مجهزة للسير على كافة أنواع الطرق. يحب السكان بساطة العيش، لكنهم ليسوا ساذجين بالكامل.

اســـألني أنـــا؟ أعتقد أن الطبيعة رائعة عندما نمضي إجازة بين أحضانها، لكن الأمر مؤلم جداً عندما نحاول تقصي حقيقة وفاة مشكوك بأمرها.

تـــبلغ مساحة **دي ويز** ألفاً ومئتي آكر، أما منطقة عمل فريق الحفريات الذي يعمل تحت إشرافي، فكانت في أقصى الطرف الشرقي للجزيرة، أي في غابة مجاورة للبحـــر تقع ما بين بحيرة تيميشاو والمحيط الأطلسي. ويدل هذا الموقع على استحالة التقاط إشارات الهاتف الخلوي.

تـــركت **توفر** ليشرف على الموقع، ومشيت بمحاذاة الشاطئ حتى وصلت إلى ممـــر خشبي عريض يُستخدم لعبور الكثبان الرملية، ثم قفزت إلى واحدة من نصف

دزينة من عربات الغولف. أدرت مفتاح التشغيل، وعندها هبطت حقيبة على المقعد الذي بجانبي، ثم رأيت قفا **وينبورن** المغطى بالبوليستر يأخذ مكانه. لم ألاحظ أن الرجل يتبعني بسبب انشغالي بالعثور على هاتف.

حسناً، لربما يكون وجوده معي أفضل من تركه يتجوّل بمفرده من دون إشراف أيّ شخص.

انطلقت، أو شغّلت، هذه العربة الكهربائية. أسرع **وينبورن** بوضع يده على اللوحة التي تضمّ مؤشرات القيادة، بينما رفع يده الثانية ليتمسك بدعامة تتدلّى من السقف.

سرت بالعربة على خط موازٍ للمحيط على طريق *سرب البجع*، ثم انعطفتُ إلى مدخل **دي ويز**، ثم تجاوزت مقصورة المتنزهين، ومررت بجوار البركة، وملاعب كرة المضرب، إلى أن وصلت إلى ***مركز الطبيعة***. وصلت إلى آخر البحيرة الضحلة، ثم توجّهت شمالاً نحو اليسار. توقفت في آخر رصيف العبّارات، ثم استدرت نحو **وينبورن**.

"وصلنا إلى آخر الخط".

"ماذا؟"

"كيف وصلتَ إلى هنا؟"

"وصلتُ بالعبّارة".

"وستعود بالعبّارة".

"مستحيل".

"يمكنك إذاً اختيار الطريقة التي تريدها".

أساء **وينبورن** فهم ما قصدته فاسترخى في مقعده.

قلت موضحةً: "اسبح".

"لا تستطيعين بكل بساطة...".

"اخرج".

"لكنني تركت عربةً في موقعك".

"سيعيدها أحد الطلاب".

انـــزلق **وينبورن** إلى الأرض بعد أن تحوّل وجهه إلى قناعٍ من الانـــزعاج.

"يوماً طيباً يا سيد **وينبورن**".

اتجهت شرقاً نحو طريق مركز الإدارة القديم، ومررت بمحاذاة بوابات حديدية مزخـــرفة وســـط جدران زيّنت بأصداف عشوائية الأشكال، ووصلت إلى مجمّع الأشـــغال (أو المـــصالح) العامـــة في الجزيرة. يضمّ المجمّع محطة مكافحة الحرائق، ومصلحة معالجة المياه، والمكتب الإداري، ومنـــزل مدير الجزيرة.

شـــعرت وكأنني أول من يدخل إلى مدينة ألقيت عليها قنبلة نيوترونية، أي حين تظل الأبنية سليمة، لكن سكان المدينة المصابة يهلكون جميعاً.

أصـــبتُ بالإحـــباط، فعدت للاستدارة حول البحيرة الضحلة. ركنت العربة خلف بناءٍ يتألف من جناحين تحيط به شرفة كبيرة. يُعتبر هذا البناء المكان الوحيد الذي يجد فيه الغرباء سريراً ومكاناً لتناول شراب الشعير. يسمى هذا البناء **منـــزل هايلر** ويحتوي على أربعة أجنحة للنـــزلاء، ويضمّ كذلك مطعماً صغيراً. يضمّ هذا البناء أيضاً **المركز الاجتماعي** للجزيرة. ترجلت من العربة، وأسرعت باتجاه المبنى.

لم أســـتطع إلا الإعجـــاب بهذا البناء أثناء اقترابي منه بالرغم من انشغالي بما وجدتـــه في الحفرة الشرقية الثالثة. أراد المصممون الذين صمموا **منـــزل هايلر** أن يعطوه ملامح البناء القديم الذي تعرّض لعقود من أشعة الشمس وهواء البحر المشبع بـــالملح. رأيت أخشاباً باهتة، وبعض البقع الطبيعية. بدا المكان أثرياً مع أن تاريخ بنائه لا يعود إلى أكثر من عشر سنوات.

ظهـــرت امرأة من باب جانبي كانت على النقيض من هذا المبنى. بدت **آلثيا هونـــيكت هَـــني يونغ بلود** امرأة مسنّةً، لكنها تعطي الانطباع بأنها عتيقة. تقول التقالـــيد المحلية أن **هَني** (عسل) قد شهدت عملية منح الملك ويليام الثالث لجزيرة دي ويز إلى توماس كاري في عام 1696.

بقـــي تاريخ **هَني** موضوعاً للتخمينات المستمرة، لكن سكان الجزيرة يتفقون على نقاط محددة. زارت **هَني** جزيرة دي ويز للمرة الأولى بصفتها ضيفة على عائلة **كولتـــر هايلـــر**. حدثت هذه الزيارة في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. عاشت عائلـــة **هايلـــر** حياة متقشفة على هذه الجزيرة منذ شرائهم لها في عام 1925. لم

تـــتواجد محطة كهرباء في هذه الجزيرة، و لم تتواجد أجهزة الهاتف أيضاً. استفادت هـــذه العائلـــة من بئر مياه يستخدم طاحونة هوائية. أعتقد أن هذه الجزيرة ليست بالمكان المناسب لقضاء عطلة مريحة على شاطئ البحر.

وصلت **هَني** إلى الجزيرة برفقة زوجها الذي تتباين الآراء بالنسبة لموقعه في فئة الأزواج. ثابـــرت **هَني** على زيارة الجريرة بعد موت زوجها إلى أن انتهى بها الأمر بالـــزواج من أحد أفراد عائلة **أر. أس. راينولدز**، وهي العائلة التي اشترت الجزيرة مـــن عائلـــة **هايلر** في عام 1956. واشتهرت عائلة **راينولدز** بشركات الألومينيوم التابعة لها. امتلكت **هَني** الخيار في أن تفعل ما تريده، وبالطبع اختارت أن تبقى في دي ويز.

أقدمت عائلة **راينولدز** على بيع أراضيها إلى شركة استثمارية في عام 1972، وبـــدأ أول البيوت السكنية الخاصة بالبروز في غضون عقد من السنين بعد عملية البـــيع هـــذه. شيدت **هَني** أول بيت منها، وكان عبارة عن بيت صغير مؤلفٍ من طابق واحد يطل على مدخل **دي ويز**. عُيّنت **هَني** في مركز **عالمة طبيعة الجزيرة**، وذلك عند إنشاء شركة **الحفاظ على الجزيرة**.

لا يعرف أحد عمر **هَني** الذي امتنعت عن الإفصاح عنه لأيّ كان.

اعتادت **هَني** على افتتاح حديثها مع الآخرين بإشارتها إلى الطقس: "سيكون يوماً حاراً".

"نعم، سيدة **هَني** سيكون كذلك بالتأكيد".

"أتوقع أن تصل درجة الحرارة هذا اليوم إلى التسعين (فهرنهايت)".

اعتادت **هَني** على التشديد على مقاطع كلماتها، تلك المقاطع التي اختارت لها معـــاني بذاتها. علمت من خلال محادثاتي العديدة معها أن هذه المرأة المسنة تستطيع استخدام أحرف العلة بشكل لا يقدر عليه أي شخص آخر.

حاولت أن أسرع في تجاوزها. قلتُ مبتسمة: "أتوقع ذلك".

"أشكر الله وملائكته على وجود أجهزة تبريد الهواء".

"نعم سيدتي".

"هل تحفرون قرب البرج القديم؟"

بُني هذا البرج لتحديد مواقع الغواصات أثناء الحرب العالمية الثانية: "لا يبعد مكان عملنا كثيراً عن هذا البرج".

"هل وجدتم شيئاً؟"

"نعم سيدتي".

"رائع. نستطيع إذاً أن نعرض بعض النماذج التي وجدتموها في متحفنا الطبيعي".

لا أعتقد أنها تستطيع عرض هذا النوع من النماذج.

ابتسمتُ، وبذلتُ محاولة ثانية لمتابعة طريقي.

التمعت أضواء الشمس على ضفائرها البيضاء المائلة إلى اللون الأزرق: "سأزوركم في أحد الأيام. يتعيّن عليّ أن أكون مطلعة على كل شيء يحدث في المدينة. هل سبق لي وأخبرتك...".

لا أحب أن أصرف هذه المرأة عن حديثها، لكنني كنت مضطرة للوصول إلى جهاز هاتف: "اعذريني من فضلك يا آنسة **هَني** فأنا على عجلة من أمري".

ربتت **هَني** على ذراعي: "بالطبع أنت مستعجلة، لكن هلاّ زرتني؟ نستطيع أن نذهب لصيد السمك ما إن تنتهي من عملك. يعيش ابن شقيق زوجي هنا الآن، وهو يمتلك قارباً رائعاً".

"حقاً؟"

"بالتأكيد يمتلك هذا القارب، لأنني أعطيته إياه بنفسي. لم أعد أستطيع إدارة الدفة مثلما كنت أفعل في الماضي، لكنني ما زلت على حبي للصيد. سأناديه ونستطيع عندها أن ننطلق".

انطلقت **هَني** نزولاً في الممر بعد انتهائها من إعطائي المعلومات، ولاحظت أنها منتصبة القامة مثل جذع شجرة صنوبر.

نزلت الدرج درجتين في القفزة الواحدة، وتوجّهت إلى الشرفة، ثم دخلت إلى المركز الاجتماعي. وجدت المركز خالياً مثلما هي حالة مركز الأشغال العامة.

هل عرف السكان شيئاً أجهله؟ أين ذهب الجميع بحق الجحيم؟

دخلت إلى المكتب، ومشيت نحو طاولة مكتب، ثم طلبت رقم الاستعلامات، ونقرت رقم هاتف. أجابني صوت بعد الرنّة الثانية.

"مكتب المحقق الجنائي لمقاطعة تشارلستون".

"أنـــا **تمـــبرنس بـــرينان**. اتصلت منذ أسبوع من الزمن. هل عادت المحققة الجنائية؟"

ســـبق لي أن أجـــريت اتصالاً مع **إيما روسو** بعد وقت قصير من وصولي إلى تشارلـــستون، لكـــنني شـــعرت بخيبة أمل عندما علمت أن صديقتي موجودة في فلوريدا، وأنها تمضي أول إجازة لها في غضون خمس سنوات. أعتقد أن هذا حصل بسبب سوء تخطيط من جانبي، إذ كنت أستطيع أن أراسلها عبر البريد الإلكتروني قـــبل قدومي. لم تسر صداقتنا على هذا المنوال، فعندما نكون بعيدتين عن بعضنا بعضاً تخف اتصالاتنا كثيراً، لكن عندما نجتمع مجدداً فإننا نتعانق، وكأننا افترقنا قبل ساعات قليلة فقط.

زودتني عاملة الهاتف بأحدث المعلومات: "ستكون معكِ بعد قليل".

رحت أتذكر أثناء فترة الانتظار هذه لقائي الأول مع **إيما روسو**.

حدث ذلك منذ ثماني سنوات عندما حضرتُ إلى جامعة تشارلستون بصفتي محاضـــرة زائـــرة. وكانت **إيما** قد انتُخبت للتو لتولي منصب محققة جنائية لمقاطعة تشارلـــستون، لكنها تدربت على التمريض قبل ذلك. شكّكت إحدى العائلات باســـتنتاجها لطـــريقة الوفاة، وكانت غير محددة، بالنسبة لبحثها الذي أجرته على هـــيكل عظمي. احتاجت **إيما** إلى استشارتي، لكنها خشيت أن أرفض تقديمها لها. أصـــرّت **إيمـــا** على الحصول على استشارتي بصفتها صادرةً عن طرف خارجي، فجمعت العظام في كيسٍ كبير من النايلون، وأحضرته إلى قاعة المحاضرات. تأثرت بإصرارها وتصميمها، فقررت مساعدتها.

إيما روسو.

اســـتخدمت نكـــتة اعتدنا على استخدامها مرة بعد مرة: "عندي رجل في حوضٍ مستعد للموت كي يقابلكِ".

"إنه يوم السعد يا **تمب**. هل حضرتِ إلى تشارلستون فعلاً؟"

لم تـــشبه مخارج أحرف العلة التي تنطق بها **إيما** تلك التي تنطق بها **هَني**، لكنها اقتربت منها كثيراً.

"ســـتجدين رسالةً هاتفية في مكان ما بين مجموعة بريدك. إنني أجري تنقيباً أثرياً ميدانياً يقوم به الطلاب في دي ويز. كيف هي فلوريدا؟"

"إنها حارة ورطبة. لو كنتِ أعلمتِني بقدومك مسبقاً لكنت غيّرت برنامجي".

"إن أخذك لإجازة يدلّ على أنك كنت بحاجة ماسة لها".

لم تُجب **إيما** على تصريحي هذا: "هل ما زال **دان جافر** بعيداً عن المجموعة؟"

"أُرسل الرجل إلى العراق حتى وقتٍ ما في الشهر القادم".

"هل التقيتِ بالآنسة **هَني**؟"

"أوه، نعم".

"أنا أحب هذه السيدة العجوز. إنها تفوح بالكحول والخل".

"إنها كذلك. اسمعي **إيما**، قد أكون في ورطة".

"هاتِ ما لديك".

"وضعني **جافر** في ذلك الموقع معتقداً أنه مقبرة تعود لقبيلة سيوي، وكان محقاً في ذلك لأننا عثرنا على عظام منذ اليوم الأول، لكنها كانت عظاماً تعود لفترة ما قبل تأسيس أميركا. وجدنا أن العظام جافة وشديدة البياض، كما أنها تحتوي على تلف كثير حدث بعد الوفاة".

لم تقاطعني **إيما** بتوجيه أسئلة أو تعليقات.

"اكتشف الطلاب هذا الصباح هيكلاً عظمياً حديث العهد مدفوناً على عمق 45 سنتم تقريباً. بدت العظام صلبة، كما أن الفقرات مرتبطة بنسيجٍ ليّن. نظفت على قدر ما اعتبرته ضرورياً من دون تلويث الهيكل. فكّرت بعد ذلك أنه من الأفضل أن يتولى أحد غيري هذا الموضوع، وأنا لا أعرف من يتولى إدارة أمور دي ويز".

"يمـــتلك الشريف صلاحيات تخوله التحقيق في الأمور الجنائية، لكنني أحتفظ لنفسي بصلاحية تقييم الوفيات المشتبه بها. هل لديك أية افتراضات؟"

"لا أمتلك افتراضات تخصّ السيوي القدماء".

"أتعتقدين أن الجثة المدفونة حديثة العهد؟"

"دشّن الذباب مطبخ حساء أثناء انهماكي بإزالة التراب عن العظام".

مرّت فترة صمت. استطعت تصوّر **إيما** وهي تتطلع إلى ساعتها.

"سأكون عندك في غضون ساعة ونصف الساعة. أتحتاجين لشيء؟"

"أحتاج إلى كيس يتسع لهيكل عظمي".

انتظرت وصول **إيما** على الرصيف على متن عبّارة ذات محركين من نوع سي راي.

لفّـــت المـــرأة شعرها تحت قبعة يستخدمها لاعبو البيسبول، وبدا أن وجهها أنحـــف ممـــا أتذكـــره. وضعت **إيما** على عينيها نظارة من ماركة **دولشي غابانا**، وارتدت بنطال جينـــز، وبلوزة صفراء اللون كُتب عليها بخط أسود ***المحقق الجنائي لمقاطعة تشارلستون***.

شاهدت سي راي وهي تُنـــزل مصداتها وتناور للوقوف بمحاذاة الرصيف أثناء عملـــية ربـــط العبّارة. وصلت إلى مكان رسو العبّارة. ناولتني **إيما** كيساً يتسع لوضع هيكل عظمي فيه، وشاهدتها وهي تحمل أجهزة تصوير، ثم قفزتْ إلى الرصيف.

شـــرحت لهـــا عـــندما استقلينا العربة أنني عدت إلى الموقع بعد الانتهاء من مكالمتـــنا، ثم أشّـــرت علـــى مساحة مربعة تبلغ أبعادها 25 سنتم، وقلت لها إنني الـــتقطت سلـــسلة من الصور. وصفت لها بتفصيل أكبر الأشياء التي رأيتها على الأرض، وحذّرتها من أن طلابي أصبحوا متحمسين لما اكتشفوه.

لم تـــتكلّم **إيما** كثيراً أثناء قيادتي للعربة. بدت مزاجية، وشاردة. ويُحتمل أنها ظنت أنني أخبرتها بكل شيء تحتاج إلى معرفته، أو كل ما عرفته أنا.

تلفتُّ يمنة ويساراً بين الفينة والأخرى. منعتني نظارة **إيما** الشمسية من معرفة تعابيرها. تبدلت أنماط الأضواء والظلال على وجهها.

لم أخبرها أنني غير مرتاحة، وقلقة، وأنني قد أكون مخطئة وأضيّع وقتها.

دعني أكون أكثر دقة. شعرت بقلق أكبر من احتمال أن أكون على حق.

ماذا يعني وجود قبر ضحل في شاطئ منعزل؟ وماذا يعني وجود جثة متحللة. لم أستطع التفكير إلا بالقليل من التفسيرات التي تضمّنت جميعها وجود وفاة مشتبه بها وجرى من الجثة.

بـــدت **إيما** هادئة من حيث المظهر. ولكنني كنت أعرف أنها منشغلة، مثلي، بتـــصور عـــشرات أو مـــئات من الاحتمالات. تشمل هذه الاحتمالات أجساداً محروقةً، ورؤوساً مقطوعة، وأطفالاً محنطين، وأجزاء من أجساد ملفوفة بكيس من الـــنايلون. لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لي. رحت أتساءل إن كان إفراز الأدرينالين عند **إيما** يماثل المستوى الذي يجري عندي.

قطع سؤال **إيما** المفاجئ أفكاري: "هل هذا الفتى من ضمن طلابك؟"

تبعتُ خط نظرها.

شـــاهدت **هومر وينبورن**. يتسلل ذلك التافه عندما يدير **توفر** ظهره ليلتقط الصور بآلة التصوير الرقمية الصغيرة الحجم التي يمتلكها.

"ذلك السافل".

"سأعتبر ذلك موقفاً سلبياً من جانبك".

"إنه مراسل صحفي".

"لا يُفترض به أخذ الصور".

"بل لا يُفترض به التواجد هنا على الإطلاق".

أســـرعت بالتـــرجل مـــن العـــربة لأواجه **وينبورن**: "ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟"

تحوّل طلابي إلى لوحة جامدة.

انحنى كتف **وينبورن** الأيمن بينما انـــزلقت ذراعه إلى خلف ظهره.

قلت بنبرة حادة: "أعطني **النيكون** (آلة التصوير)".

"لا تمتلكين الحق بمصادرة ممتلكاتي".

"اخرج من هنا حالاً، وإلا سأستدعي الشريف الذي سيأمر بسجنك".

"دكتورة **برينان**".

وقفـــت **إيمـــا** خلفـــي. شاهدتُ عينيْ **وينبورن** تضيقان ما إن قرأ الكلمات المكتوبة على بلوزتها.

أضـــافت **إيمـــا** بصوت المنطق: "لعل باستطاعة هذا السيد أن يراقب عن بُعْد".

حـــوّلت حملَقتي الغاضبة من **وينبورن** إلى **إيما**. شعرت بغيظ شديد إلى درجة أنني عجزت عن التفكير بجواب مناسب. تفتقد عبارة "لا، مطلقاً" للدقة، أما عبارة "بالتأكيد لا" فتبدو ركيكة.

أومـــأت **إيما** لا شعورياً باتجاهي كي أوافق. إن **وينبورن** محق بالطبع. إنني لا أمـــتلك السلطة لمصادرة ممتلكاته، أو لإعطائه الأوامر. أعتقد أن **إيما** محقة بدورها، فمن الأفضل أن نوجّه الصحافة بدلاً من رفضها أو إغضابها.

أم هل أن المحققة الجنائية تخطط مسبقاً لحملتها الانتخابية القادمة؟

نطقـــت بجـــوابٍ لم يكـــن أفضل من ذلك الذي استبعدتُه في ذهني: "كما تشائين".

مدّت **إيما** يدها: "إنما بشرط أن تحتفظ بالكاميرا في مكان آمنٍ".

وضع **وينبورن** الكاميرا في يدها موجهاً ابتسامة تنمّ عن شيءٍ من الرضا.

تمتمتُ: "يا للتافه".

"كم تريدين أن يبتعد السيد **وينبورن** عنا؟"

"ما رأيك لو يبتعد إلى داخل البلاد؟"

تبيّن لي مع المستجدات التي ظهرت أن وجوده أو عدم وجوده كان أمراً قليل الأهمية.

عـــبرنا في غـــضون ساعات منطقة ثقبٍ أسود غيّرت من مفهوم حفرياتنا، وموسم صيفنا، ورؤيتي للطبيعة الإنسانية.

3

بدأ **توفر** وشاب آخر يدعى **جو** العمل برفشين ذوي مقبضين طويلين، وانهمكا بنـــزع الطبقة العليا من التراب في المربع الذي رسمته، والذي تبلغ مساحته 3 أمتار مربعة. لاحظنا وجود تغيّر في لون التراب بعد أن وصل الحفر إلى عمق 15 سنتيمتراً.

حان الوقت إذاً للاستعانة بفريق **آي**.

الـتقطت **إيمـا** صور فيديو، وأخرى ساكنة للمربع، ثم عملتُ وإياها بالمالج لإزاحة التراب من حول البقعة الملوثة. عمل **توفر** على غربلة التراب. أعتقد أن هذا الفـتى يحـتل المرتبة الأولى عالمياً في الغربلة، مع أنه قد يكون أحمق بعض الشيء. وثابـر الطلاب على زيارة مكان عملنا للاطلاع على تطوّر الأمور. لاحظت أن حماستهم كانت تتناقص بنسبة طردية مع تزايد عدد الذباب.

اسـتطعنا عـند حلـول الساعة الرابعة الكشف عن عظام الجذع، وعظام الأطـراف، والجمجمة، وعظام الفك. لُفّت هذه البقايا بقماش أصبح تالفاً. رأيت خصلات من الشعر الأشقر الشاحب اللون تعلو هذه العظام.

اتـصلت **إيما** لاسلكياً بمكتب **جونيوس غوليت**، الذي يشغل منصب شريف مقاطعـة تشارلستون. لم تتغيّر الإجابة على اتصالاتها والتي أفادت أن **غوليت** ليس موجوداً، وأنه مشغول بمعالجة اضطراب محلي.

لازَمَـنا **وينبورن** مثلما يلازم الكلب طريدة. تحوّل وجهه إلى ما يشبه الوحل على الرصيف نتيجة تزايد الحرارة والرائحة في المكان.

تجمّـــع الطلاب عند الساعة الخامسة، واستقلوا عربات الغولف، ثم اتجهوا بها نحـــو العـــبّارة. وحده **توفر** أبدى رغبته بالعمل طالما كان ذلك ضرورياً. انهمكنا جميعاً؛ هو، و**إيما**، وأنا بنقل التراب. تصبب العرق منا، ودأبنا على إطلاق صيحات لطرد الذباب.

اختفى **وينبورن** عندما انهمكنا بوضع آخر العظام في كيس النايلون. لم أنتبه عندما غادر المكان. التفتُّ مرة لأجده مختفياً هكذا وبكل بساطة.

افترضت أن **وينبورن** قد انطلق ليُخبر محرّر جريدته، ولينشغل بلوحة مفاتيحه. لم تهتم **إيما** كثيراً، فوجود جثة ليس بذلك الخبر المثير في مقاطعة تشارلستون، والتي تشهد ستاً وعشرين جريمة سنوياً من بين سكانها الثلاثمئة ألف.

حافظـــنا على انخفاض أصواتنا، وعلى كتمان ما نقوم به بناءً على طلب **إيما**. ولم يحـــصل **وينـــبورن** علـــى أية معلومات قد تعيق التحقيق. وقالت إن التغطية الإعلامـــية قد تكون شيئاً مساعداً لنا، وأن الحصول على تقارير تتعلّق بالأشخاص المفقودين قد يفيد أخيراً بالتعرف على هوية صاحب الجثة. بقيت متشككة بموقفها هذا، لكنني لم أقل شيئاً لأن هذه هي منطقة صلاحيتها هي.

تبادلت مع **إيما** حديثنا الحقيقي الأول خلال توجهنا إلى رصيف الميناء. هبطت الـــشمس، وأرسلت أنوارها القرمزية من خلال الأشجار وعلى الطريق. وتسلّلت رائحة هواء الصنوبر المشبع بالملح من الغابات والمستنقعات إلى عربتنا رغم تحركنا، لكنها كادت تضيع نتيجة الرائحة الصادرة عمّا نحمله معنا في المقعد الخلفي.

لم أستبعد أن تكون الرائحة صادرة عني، لذلك لم أستطع الانتظار كي أنتهي من استحمامي، وتنظيف نفسي بالشامبو، وكذلك إحراق ملابسي.

سألتْ **إيما**: "ما هي انطباعاتك الأولية؟"

"لاحظت أن العظام محفوظة جيداً، لكنني لاحظت عند فحصي لتلك الفقرات الأولى غياب الأنسجة اللينة بصورة أكبر مما توقعت. رأيت بعض الأربطة، وبعض ألياف العضلات في أعمق المفاصل. تأتي معظم الرائحة من قطعة القماش".

"أعـــتقد أن الجـــثة كانت ملفوفة بتلك الملابس، ولم يكن صاحبها يرتديها، صحيح؟"

"صحيح".

سألتني **إيما** عن الوقت الذي مضى على وفاة الضحية.

"يتوجب عليكِ فحص الحشرات التي هي في داخل الكيس لتحديد تلك المدة".

"سأستعين بعالِم حشرات. هل يمكنك إعطائي تخمين تقديري؟"

هززت كتفيّ: "أستطيع القول إنه في هذا المناخ، ونظراً لدفن الجثة في مكان ضحل، فقد مضى عامان على الأقل، وخمس سنوات كحدٍّ أقصى".

تسارعت أفكار **إيما** من أجل تحديد هوية الضحية: "جمعنا الكثير من الأسنان".

"نعم، هذا صحيح. استطعنا جمع ثمانية عشر سنّاً من الفم، ووجدنا ثمانية ملقاة على الأرض، وحصلنا على ثلاثة أخرى نتيجة عملية الغربلة".

أضافت **إيما**: "كذلك حصلنا على شعرٍ".

"نعم".

"إنه شعر طويل".

"لا مغزى لذلك إن كنتِ تفكرين بجنس الضحية. انظري إلى **توم وولف**، **وويلي نيلسون**".

"**وفابيو**".

إنني أحب هذه المرأة فعلاً.

سألتها: "إلى أين تأخذين هذه البقايا؟"

"تذهب كل الأشياء التي هي من ضمن صلاحيتي إلى مشرحة MUSC (جامعة كارولاينا الجنوبية الطبية). يقوم الأطباء المختصون بعلم الأمراض هناك بإجراء كل عمليات التشريح التي نطلبها منهم. إنني أجري هناك كل ما أحتاجه من أبحاث في الطب الأنثروبولوجي الشرعي، وأجري هناك كل الفحوصات التي أحتاجها لأسنان الضحايا. أعتقد أنني لن أحتاج إلى مختص بعلم الأمراض في هذه القضية".

"تلف الدماغ وبقية الأعضاء منذ زمن بعيد. سيُجرى التشريح على العظام فقط. ستحتاجين إلى **جافر**".

"إنه في العراق".

قلتُ: "سيعود في الشهر القادم".

"لا أستطيع الانتظار تلك المدة الطويلة".

"أنا مرتبطة بهذا الصف الميداني".

"سينتهي الصف في الغد".

"يتعيّن عليّ نقل كل المعدات إلى جامعة (UNCC)، وكذلك إعداد التقرير، وتسليم علامات الطلاب".

لم تعلّق إيما بشيء.

"ويُحتمل أن تكون بعض القضايا تنتظرني في شارلوت".

استمرّت إيما بعدم التعليق.

"أو حتى في مونتريال".

تابعت القيادة وسط أجواء الصمت التي سادت لفترة، واكتفينا بالاستماع إلى نقيق الضفادع، وهمهمة العربة. بدا صوت إيما عندما استأنفت الحديث مختلفاً، وأكثر نعومة، وأكثر إصراراً بطريقة هادئة.

"لعل أحدهم يفتقد هذا الشخص".

فكّرت بهذا القبر الموحش الذي نبشناه قبل قليل. فكّرت بمحاضرتي التي ألقيتها منذ وقتٍ طويل، وذلك الرجل الملقى في الحوض.

توقفت عن محاولتيَ التملّص من هذه المهمة الجديدة.

استأنفنا الحديث أثناء تحميلنا للقارب والاستعداد للانطلاق به من منطقة الرصيف. ضاعت كلماتنا في الهواء ما إن ضغطت إيما دواسة الوقود، وسيطر ضجيج المحرك على حديثنا، وتعالت أصوات الأمواج التي يشقها القارب بمقدمته.

أوقفت سيارتي على رصيف ميناء جزيرة النخيل، الذي يمتدّ على لسان ضيّقٍ من اليابسة يقع ما بين جزيرتي سوليفان ودي ويز، وكذلك تركتْ المحققة الجنائية شاحنتها المقفلة هناك. لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق معدودة لنقل شحنتنا المخزنة.

ودّعــتني **إيمــا** بكلمتين قبل انطلاقها في الممر المائي الذي يفصل بين شاطئَي الجزيرتين.

"سأتصل بكِ".

لم أجادلها. شعرت أنني متعبة وجائعة وقلقة. أردت الذهاب إلى المنــزل كي أســتحم، ولأتــناول بعض الروبيان (القريدس) البارد، وحساء السرطانات اللذين تركتهما في الثلاجة.

شاهدت **توفر برغيس** وهو يترجل من عبّارة، وذلك أثناء اقترابي من رصيف الحــوض. انــشغل الــرجل بالاستماع إلى جهازه **الأي بود**، وبدا أنه لم يرَني أو يسمعني.

راقــبت تلمــيذي عــندما قفز إلى سيارته الجيب. فكّرت كم أن هذا الفتى غريب. أعتقد أنه غريب الأطوار، مع أنه ما زال بعيداً عن التفوق. إنه مقبول من زملائه، لكنه منعزلٌ على الدوام.

مثلي تماماً عندما كنت في مثل سنه.

أضأت مصباح سقف سيارتي المازدا، وتناولت هاتفي الخلوي من صندوق الأغــراض الشخــصية، ثم تفحّــصت إشارات الإرسال. برزت أمامي ثلاثة خطوط.

تلقيت أثناء غيابي ثلاث رسائل. لم أستطع تذكر أصحاب أرقامها.

ألقيت نظرةً على ساعتي التي أشارت إلى 8:45.

شعرت بخيبة الأمل. أعدت الهاتف إلى مكانه، وخرجت من باحة السيارات، ثم توجّهت إلى الجزيرة، وانعطفت إلى اليمين باتجاه جادة النخيل. لم تكن الزحمة في أوجها، مع أنني أعرف أن هذا الوضع لن يستمر طويلاً. ستعمد السيارات إلى سدّ هذه الطرقات مثلما يفعل الطمي أثناء نــزول المطر العاصف.

مكثت في منــزل صديقة لي يقع على الشاطئ. عمدت **آن** عندما غادرت ســوليفان قبل سنتين إلى عدم تضييع الوقت. احتوى منتجعها الجديد هذا على خمــس غــرف للنوم، وستة حمامات، ومساحة تكفي لاستضافة ضيوف كأس العالم في كرة القدم.

سرت عبر بعض الطرقات الفرعية، وناورت باتجاه ذلك الشاطئ، ثم دخلت في الشارع الذي يقع منزل **آن على محاذاته**، وركنت السيارة تحت المنزل. تقودك **جادة المحيط** حتماً إلى قلعة آن البحرية.

لاحظت أن جميع النوافذ مظلمة في وقت عودتي، ولم يكن الظلام قد حلّ بعد. توجّهت مباشرة لأخذ "دوش" في الحمام الخارجي من دون أن أنير المصابيح الكهربائية. خلعت ملابسي، وأدرت صنبور المياه الساخنة. أمضيت عشرين دقيقة مع رائحة إكليل الجبل، والنعناع، والكثير من رغوة الصابون، شعرت بعدها أنني استعدت بعضاً من حيويتي.

غادرت الحمام، وجمعت ملابسي في كيس من النايلون، ثم قذفتها في سلة النفايات. لم أرغب أن أضع هذه الملابس المتسخة في غسالة **آن** ماركة **المايتاغ**.

دخلت المنزل من خلال الشرفة الخلفية وأنا لا أرتدي سوى المنشفة، ثم تسلّلت نحو غرفتي. أدخلتُ ملابسي الداخلية وفرشاة أسناني في شعري. يا للروعة.

تفحّصت رسائلي الواردة أثناء تناولي للحساء. لا رسائل. أين **رايان** إذاً؟ نقلت هاتفي الخلوي وطعام عشائي إلى الشرفة، ثم استرخيت على كرسي هزّاز.

تطلق آن اسم **البحر على امتداد أميال** على منزلها هذا. يمتدّ الأفق هنا من هافانا إلى هاليفاكس.

يمتلك المحيط تأثيراً ساحراً في هذا المكان. انهمكت بتناول طعامي، ولم أجد نفسي إلا وأنا أستيقظ مذعورة على صوت هاتفي الخلوي. رأيت صحني والوعاء الذي كان يحتوي على الحساء فارغين تماماً. لم أستطع أن أتذكر متى أغلقتُ عينيّ.

سمعتُ صوتاً غير ذلك الذي رغبتُ بسماعه.

"يو".

توقف الجميع عن استخدام كلمة "يو"، ما عدا أعضاء الأخويات وزوجي الذي أعتبره غريب الأطوار.

شعرت بإنهاك شديد منعني من التذاكي: "نعم يا رجل".

"كيف تسير تنقيباتك؟"

تخيّلت العظام الراقدة الآن في مشرحة MUSC. تخيّلت أيضاً وجه **إيما** عندما ابتعدت عني عند رصيف الميناء، و لم أشأ التحدث عن هذه الأمور.

"تسير سيراً حسناً".

"هل تنوين الانتهاء غداً؟"

"تـــوجد بعض القضايا العالقة التي تتطلب وقتاً أكثر مما توقعت. كيف حال **بيردي**؟"

"إنـــه يـــراقب **بويد** أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع. يعـــتقد هـــرِّك أن كلبي قد جاء من العدم لينغص عليه حياته. ويعتقد هذا الكلب الصيني أن تلك الهرة ما هي إلا لعبة مكسوة بالزغب".

"ولمن السيطرة؟"

بدا منطقياً جداً إلى درجة تساءلت معها إن كان طرأ شيء ما عليه: "إن **بيرد** هو النجم المتألق بالتأكيد. متى تعودين إلى شارلوت؟"

أجبتُ بصوت متعب: "لست متأكدةً بعد. لماذا؟"

"حـــضر رجـــلٌ إلى مكتبي البارحة. قال لي إنه عالق بقضايا مالية مع **أوبري هيرون**، ويبدو أن ابنته قد تورطت معه كذلك".

يُكثـــر القس **أوبري هيرون** من ظهوره على شاشات التلفاز. وينتشر أتباعه المتحمسون القلائل على امتداد المناطق الجنوبية الشرقية، ويُعرفون باسم **طائفة رحمة الله**. تمـــتلك هـــذه الطائفة مركز إدارة لها ومحطة تلفزيونية، كما تدير عدة مياتم لأطفـــال مـــن دول العالم الثالث، وعدة عيادات طبية مجانية في ولايتي كارولاينا وجيورجيا.

اعـــتاد القـــس **هيرون** على إنهاء برنامجه التلفزيوني بعبارة "تبرّعوا بالكثير من المال".

"تبرعوا بالكثير من الأموال النقدية".

سألته: "هل من مشكلة؟"

"يكتـــنف الغمـــوض تقاريـــر الـــرجل المالية، وعلمت أنه عزل نفسه عن الاتصالات الخارجية، أما القس **هيرون** فقد أصبح أقل تعاوناً في كل القضايا".

"ألا يُفترض أن يستأجر **دادي** محققاً خاصاً؟"

"هذا ما فعله **دادي**، لكن الرجل اختفى".

"هل تشك في مثلث بيرمودا؟"

"أشك بمخلوقات من الفضاء الخارجي".

"إنك محام يا **بيتي**، ولست تحرياً".

"يتعلق الأمر بالكثير من الأموال".

"حقاً!"

تجاهل **بيتي** ملاحظتي هذه.

سألته: "هل دادي قلق فعلاً؟"

"تخطى دادي مرحلة القلق، وأصبح خارج الجهة الأخرى أيضاً".

"أتعني أنه تعدى قضية المال، أم قضية ابنته؟"

"إنه سؤال ذكي. يريد **فلين** استخدامي لتفحص دفاتره المحاسبية. ويريدني أن أضغط على القس. يكفيني أن أتسبب بقليل من الجزع عند الابنة. عرضت عليه أن أزور القس".

"وإخافته أيضاً!"

"سيجري هذا عن طريق خبرتي القانونية".

ركّزت أكثر على فهم ما يجري.

قلتُ له: "يتمركز القس في تشارلستون".

"تحدثت مع **آن**، وعرضت عليّ الإقامة في منــزلها إذا كنتِ لا تمانعين".

تنهدتُ بطريقة تجعل **هومر وينبورن** يشعر بالفخر: "متى؟"

"ماذا عن يوم الأحد؟"

تذكرت ملايين الأسباب: "لمَ لا".

أنــبأتني همهمــة الهاتــف بمكالمة واردة. أنــزلت الهاتف، ولاحظت على شاشــته الكريــستال الأرقــام التي كنت أنتظر رؤيتها. رأيت أرقام مركز هاتف مونتريال.

"سأنهي المكالمة إنني مضطرة يا **بيتي**".

أنهيتُ اتصالي معه.

"هل أتصل في وقت متأخر جداً؟"

رسمـــتُ علـــى فمي أول ابتسامة لي منذ اكتشاف الهيكل العظمي في الحفرة الشرقية الثالثة: "لا، مطلقاً".

"هل أنت وحدك؟"

"وضعت رقمي في غرفة الرجال في هايمان لثمار البحر (هايمان سي فود)".

"أحب ملاحظة رقتك عندما تشتاقين إليّ".

يعمـــل **آنـــدرو رايان** تحرياً في **قسم الجرائم الكبيرة** التابع **لشرطة مقاطعة كيبيك**. هل توضحت الصورة لديك يا قارئي العزيز: **بيرنان** عالمة الأنثروبولوجيا (علـــم الإنسان) التي تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي؛ **ورايان**، رجل الشرطة الذي يعمل في قسم الجرائم لدى شرطة كيبيك. عملنا معاً في كشف الجرائم لمدة تزيد على عقد من الزمان.

انشغلت حديثاً بالعمل على أشياء أخرى أيضاً. أتحدث عن الأشياء الشخصية.

تسببت إحدى هذه الأشياء الشخصية بحدوث تغيّر في رنّة صوته.

"هل كان يومك جيداً في التنقيب؟"

أخـــذت نَفَساً عميقاً، ثم توقفت. هل أخبره بما حدث؟ أم أنه من الأفضل أن أنتظر؟

استغل **رايان** فترة ترددي.

قال يحثني: "ماذا حدث؟"

"وجدنا شيئاً مدفوناً بشكل غير مألوف. وجدنا هيكلاً عظمياً كاملاً مع آثار من الأنسجة اللينة، وبعض الملابس".

"أتظنين أنه حديث العهد؟"

"نعـــم. اتصلت بالمحققة الجنائية، وعملنا على نبشه سوياً. وضعنا الهيكل في المشرحة".

أعتـــرف أن **رايـــان** رجل ساحر، وأنه متبصّر، لكنه يصبح مزعجاً في بعض الأحيان. أستطيع أن أعرف رد فعله قبل أن تنطق شفتاه بذلك.

"لماذا تقحمين نفسك بهذه الأشياء يا **بريان**؟"

"أقدّم دائماً ملخصات جيدة عن مؤهلاتي".

"هل ستقدمين الاستشارات؟"

"إنني أفكّر بطلابي".

عزفت الريح مقطوعة وسط أغصان النخيل، وتناهت أصوات ضربات الموج عبر الكثبان الرملية.

"هل ستتولين هذه القضية؟"

لم أؤكد أو أنفي هذا الاحتمال.

سألته: "كيف هي الأمور مع **ليلي**؟"

"شهد هذا اليوم ثلاثة حوادث فقط لإغلاق الباب بعنف. وشهد توافقاً طفيفاً، لكن لم يتكسّر الزجاج أو تتطاير قطع خشبية من الأثاث. أعتبر ذلك علامة على أن الزيارة تسير سيراً حسناً".

برزت **ليلي** كحدث جديد في حياة **رايان**، والعكس صحيح أيضاً. بقيت الابنة والأب يجهلان كل شيء عن بعضهما بعضاً لمدة عقدين من الزمان، إلى أن قامت والدة **ليلي** بإجراء اتصال.

تعرفت لوشيتا على **رايان** في إحدى عطلاتها الأسبوعية عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها. حملت منه، لكنها لم تخبر صديقها الغامض بالأمر، فتركت كندا لتتوجّه إلى منزل عائلتها في جزر الباهاماس. تزوجت **لوشيتا** في تلك الجزر، لكنها تطالقت عندما أصبحت **ليلي** في الثانية عشرة من عمرها لتعود بعدها إلى نوفا سكوتيا. بدأت **ليلي** بالاختلاط مع أصدقاء يحبون الملذات بعد تخرجها من المدرسة الثانوية. تعودت الفتاة على تمضية السهرات خارج المنزل، وألقي القبض عليها ذات مرة بتهمة حيازة المخدرات. فهمت **لوشيا** مغزى هذه الإشارات، ويعود ذلك إلى أنها جرّبت الحياة في الظلام فيما مضى، وهي تعرف أنها التقت **برايان** في تلك الفترة، أي في فترة تمرده على الواقع التي سبقت تخرّجه من الجامعة. علمت **لوشيا** أن حبيبها السابق أصبح شرطياً، فقرّرت أنه يستطيع المشاركة في جهودها لإنقاذ ابنته المراهقة.

أصـــابت هذه الأخبار **رايان** في الصميم، لكنه تقبل فكرة الأبوة، وراح يبذل ما بوسعه. شكّلت زيارته إلى نوفا سكوتيا أحدث غزوة له في عالم ابنته، لكن **ليلي** لم تجعل من مهمة أبيها عملاً سهلاً.

قلتُ: "سأنصحك بكلمة واحدة؛ الصبر".

يعرف **رايان** أنني أعاني من مشاكلي مع ابنتي **كاتي**: "عُلِمَ، أيتها الحكيمة".

"كم ستمكث في هاليفاكس؟"

"سأرى كم سيستغرق الأمر، لكنني متمسك بفكرة الانضمام إليكِ إذا كنتِ مستعدة للبقاء هناك لفترة من الوقت".

يا للفتى الرائع.

"يـــبدو أن الأمور آخذة بالتعقد. اتصل بي **بيتي** للتو وقال إنه يُحتمل أن يأتي إلى هنا ليمضي يوماً أو يومين".

انتظر **رايان** بصمت.

دعــــته **آن** عندما علمت أن لديه بعض الأعمال في تشارلستون. ماذا أستطيع أن أقـــول؟ إنـــه منـــــــزل **آن** الـــذي يحـــتوي على أسرّة كثيرة تتسع لجماعة الكاردينالات.

"أيحتوي المنـــزل على أسرّة، أو على غرف نوم".

يستطيع **رايان** في بعض الأحيان أن يكون مثل كرة مخربة.

أنهيت الموضوع معه: "هل ستتصل بي غداً؟"

"أتريدين أن أمحو رقمك من جدار غرفة الرجال؟"

"تستطيع المراهنة على ذلك أيها البحار".

شـــعرت بالانـــزعاج بعد مكالمتي مع **بيتي ورايان**، ولعل هذا الشعور كان بسبب غفوتي نتيجة الإرهاق. علمت أنني لن أستطيع النوم بسهولة بعد ذلك.

ارتديت بنطالي القصير، وسرت حافية القدمين عبر الطريق الواسع. لاحظت أن المد قد انتهى، وأن الشاطئ قد تقدم في المياه مسافة خمسين ياردةً. ومض عدد لا يحصى من النجوم فوقي. سمحت لأفكاري بالتحليق أثناء سيري مع الأمواج.

بقي **بيتي** حبي الأول، وظلّ حبي الوحيد لمدة تزيد عن عقدين من الزمن.

تأملت في أن **رايان** هو مغامرتي الأولى منذ خيانة **بيتي** لي.

وفكّرت **بكاتي** فهي ابنتي الرائعة والطائشة، وهي على وشك التخرج أخيراً، من الجامعة.

تأملـــت أكثر في ذلك القبر المحزن في دي ويز. إن التحقيق في الوفيات الناتجة عـــن العنف هو وظيفتي. إنني أشاهد هذا النوع من الوفيات كثيراً، لكنني لا أعتاد عليه أبداً.

بـــدأت أفكـــر في العنف باعتباره هوساً أبدياً يُصاب به الذين لديهم القوة، ويستخدمونه ضد الأشخاص الذين هم أقل قوة منهم. ويسألني أصدقائي عن كيفية تحمّـــل وطـــأة العمل الذي أقوم به. إن الأمر بسيط، لأنني التزمت بالقضاء على المهووسين، قبل أن يتمكنوا من قتل المزيد من الأبرياء.

يتـــسبّب العـــنف بإحداث جروحٍ في الجسد، ويتسبّب بإحداث جروحٍ في الـــروح كـــذلك. إنه يجرح المفترِسين والمفترَسين، والمفجوعين كذلك. إنه يجرح الإنسانية بأجمعها. ينتقص العنف من إنسانيتنا كثيراً.

أعـــتقد أن الوفيات المجهولة تشكّل أقصى إهانة للكرامة الإنسانية. إن تمضية الأبدية تحت الأرض، أو الاختفاء في قبر مجهول من دون أن يعلم أحد، ومن دون أن يعلـــم الأحـــباء بالرحيل، يندرج من ضمن هذه الإهانة. لا أستطيع أن أجعل الأمـــوات يعـــودون للحياة مجدداً، لكنني أستطيع أن أعيد ربط الضحايا بأسمائهم، وأستطيع أن أغلق ملفات الذين تجاهلهم الناس لفترة طويلة. استطعت بهذه الطريقة مساعدة الأموات على التحدث ثانيةً والتفوّه بكلمة وداعٍ أخيرة، وأن يتحدثوا في بعض الأحيان عن الأسباب التي أنهت حياتهم.

أعـــرف أنني سأوافق على ما ستطلبه إيما مني. ويرجع ذلك إلى طبيعتي، وإلى مشاعري. لن أتخلّى عن هذه المهمة.

4

استلقيتُ على سريري في الصباح التالي وأنا أُحدّق في انبلاج يوم جديد. فلقد نسيت يوم أمس أن أسدل الستائر، وهكذا تمكنت، من خلال زجاج الواجهة الانزلاقية، من مشاهدة أنوار الفجر وهي تلقي بألوانها على المحيط، وعلى الكثبان الرملية، وعلى الشرفة الخارجية.

أغمضتُ عينيّ، ورحت أفكر **برايان**. لم يشكل ردّ فعله أي مفاجأة لي لأنني أعرف أنه يريد تسليتي، لكنني تساءلت عمّا عساه يقول فيما لو كان موجوداً هنا. ماذا سيقول لو رأى ذلك القبر؟ ندمت على إزعاجه بأخباري. اشتقتُ إليه بعد أن مضى ما يزيد عن الشهر على فراقنا.

اتجهت أفكاري نحو **بيتي**، ذلك الشخص المحبب، الساحر، والخائن. أقنعت نفسي أنني سامحته، لكن، هل سامحته فعلاً؟ وإذا لم أسامحه، فلماذا إذاً لم أتقدم بطلب الطلاق، وأتحرر منه نهائياً؟

تذكرت المحامين وكل تلك الأوراق المطلوبة، لكن هل هذا هو كل ما في الأمر؟

تقلّبت على جنبي، وجذبت اللحاف حتى ذقني.

فكّرت **بإيما** التي سرعان ما سوف تتصل بي. بمَ سأجيبها؟

لا أمتلك سبباً لرفض طلب **إيما**. أعرف بالتأكيد أن تشارلستون ليست من ضمن منطقة عملي، لكن **دان جافر** سيغيب عن المنطقة لعدة أسابيع. أعرف أيضاً

أن آن سمحت لي بالإقامة في **البحر على امتداد أميال** طالما أردت ذلك، وأن **رايان** موجود في **نوفا سكوتيا**، لكنه تحدث عن المجيء إلى تشارلستون. أعرف أيضاً أن **كاتي** موجودة في تشيلي لاشتراكها في دورة دراسية عن الأدب الإسباني مدتها أربعة أسابيع.

ابتسمتُ عندما تذكّرتُ أن ابنتي أطلقت اسم **سرفانتس وكيرفيزا** على برنامجها الصيفي هذا. أعرف أنه مهما كان نوع المشروع فإن هذه المواد الدراسية الثلاث ستنهي سنوات دراستها الست لنيل درجة بكالوريوس في الفنون. يا لروعة الأمر!

عدت بأفكاري إلى **إيما**. وعدت إلى مأزق **إيما**.

يستطيع طلابي نقل المعدات إلى UNCC، وأستطيع أنا إتمام عملية التقييم من هنا وإرسال علاماتهم بالبريد الإلكتروني. أستطيع أيضاً أن أفعل نفس الشيء بالنسبة لتقريري الحسّي الذي سأقدمه لعالمة آثار الولاية.

هل تكدّست القضايا في مكتبي في مونتريال؟ أستطيع الاتصال هاتفياً للتأكد من ذلك.

ماذا أفعل الآن؟

سيبدو الأمر أسهل فيما لو تناولت بعض البايغل المحمص، وبعض القهوة.

أبعدت الأغطية عني، ثم ارتديت ملابسي.

استحممت بسرعة، وربطت شعري على طريقة ذيل الحصان. انتهيت.

أعتقد أن هذا هو ما جذبني إلى علم الآثار، فأنا لست مضطرة لوضع مساحيق التجميل، ولا لزوم لاعتمار أي قبعات فرو، أو وضع الموس على الشعر. إن كل يوم هو يوم جمعة عادي، وحتى أقل من عادي.

انشغلتُ بالعمل على المحمصة بينما بدأت القهوة بالغليان. ارتفعت الشمس خلال هذا الوقت، وبدأ النهار يصبح أكثر دفئاً. ومجدداً، توجّهت إلى الخارج.

أعتبر نفسي مدمنة على سماع الأخبار التي لا أستطيع الاستغناء عنها. ويبدأ نهاري، عندما أكون في المنزل، بمشاهدة أخبار محطة سي. أن. أن، وقراءة الصحيفة. أقرأ صحيفة ***الأوبزرفر*** عندما أكون في شارلوت، أما عندما أكون في

مونتريال فأقرأ صحيفة ***الغازيت***، وكذلك أتصفّح جريدة ***النيويورك تايمز*** الإلكترونية. ألجأ أحياناً إلى ***يو. أس. آي. توداي*** أثناء سفري، من دون أن أنسى الصحافة المحلية، ولا حتى الصحف المصغرة الحجم عندما أكون مضطرة.

لا يتمتع منزل **البحر على امتداد أميال** بخدمة التوصيل إلى المنازل. وتابعت أثناء تناولي الطعام قراءة جريدة ***البوست والكورييه*** التي اشتريتها يوم الخميس الفائت، ولم أكد أقرأ عناوينها.

حملت الصحيفة أخباراً مثل موت عائلة نتيجة حريق أتى على منزلها. وأرجعت الصحيفة أسباب الحريق إلى احتكاك في الأسلاك الكهربائية.

ذكرت الصحيفة أيضاً أن شخصاً رفع دعوى على شركة تقدم لحم الدجاج، وذلك بعد أن وجد أذناً في طبق سلطة الكرنب الذي اشتراه من مطعمها. لم تجد الشرطة عاملاً فاقداً أذنه من بين العاملين في المجموعة التي تزود المطعم بسلطة الكرنب. أضافت الصحيفة أن اختباراً للحمض النووي قد أُجري.

ذكرت الصحيفة خبر اختفاء رجل، وأضافت أن السلطات تطلب مساعدة الأهالي لإيجاده. ترك **جيمي راي تييل** شقة أخيه الكائنة في شارع جاكسون حوالى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين، يوم الثامن من شهر أيار (مايو)، وكان متوجهاً إلى عيادة أحد الأطباء بناء على موعد مسبق. لم يُشاهد الرجل منذ ذلك الحين.

دلّتني خلايا دماغي على مكان محدد. هل هو جزيرة دي ويز؟

استبعدت هذا الاحتمال لاستحالته، لأن **تييل** كان من بين الأحياء قبل أحد عشر يوماً. أعرف أن الضحية الراقدة في الكيس لم تستنشق الأوكسجين منذ سنتين على الأقل.

رنّ هاتفي بينما كنت أستعد للانتقال إلى القسم الأسبوعي لأخبار المناطق المجاورة. تفحّصت الشاشة كي أعرف هوية المتصل. حان وقت المنازلة الآن.

تتّصف **إيما** بأنها منازلة من الدرجة الأولى، فلقد توجّهت مباشرة إلى صلب الموضوع.

"أتريدين أن ***يربحوا***؟"

تذكّرت المحاضرة التي ألقيتها على نفسي على الشاطئ.

سألت: "متى؟"

"ما رأيك بيوم غد، الساعة التاسعة صباحاً؟"

"أعطيني العنوان؟"

دوّنت العنوان عندي.

رأيت على بعد عشر ياردات من الشاطئ زوجاً من الدلافين يندفعان خارج الماء ثم يعودان إلى الأعماق. التمع ظهراهما بأنوار الشمس الصباحية، فعكست ألوان الخزف الصيني الأزرق المائل إلى الرمادي. شاهدتهما يقفزان إلى الأعلى، ثم يغطسان ليختفيا في عالم لا أعرف عنه شيئاً.

رحت أفكّر وأنا أحتسي قهوتي.

فكّرت أيضاً بالعالم المجهول الذي أوشك على دخوله.

مضى ما تبقى من النهار بهدوء.

شرحت لطلابي عندما وصلت إلى الموقع الأمور التي حصلت بعد مغادرتهم يوم أمس. انشغلت بتدوين آخر ملاحظاتي، ووضع الصور، بينما انشغل الطلاب بإعادة التراب إلى الخنادق المحفورة. عملنا معاً على تنظيف الرفوش، والمواج، والفراشي، والغرابيل، ثم أعدنا العربات إلى رصيف الميناء، ثم استقلينا عبّارة ***آجي غواي*** في رحلة عبورها عند الساعة السادسة.

تناولت مجموعتنا في تلك الأمسية القريدس (الروبيان) والمحار الذي يقدّمه ***بيت النوارق*** الذي يقع عند *مدخل الجزيرة*. اجتمعنا ثانية في شرفة منزل آن بعد أن انتهينا من تناول الطعام، وعقدنا آخر اجتماع للصف. راجع الطلاب أعمالهم، ودقّقوا بتصنيفات كل القطع القديمة والعظام. أعاد الطلاب بحلول الساعة التاسعة توزيع المعدات بين عرباتهم، ثم تبادلوا العناق، ورحلوا.

عانيت من الحالة المعتادة التي تنتابني عادة بعد انتهاء تجربتي الجماعية. أعترف أنني ارتحت بالتأكيد لأن هذا الصف الميداني قد انتهى من دوان حوادث تُذكر،

ولأنــني أستطيع الآن الانصراف إلى التركيز على الهيكل العظمي التي تتولاه **إيما**. تركني غياب الطلاب مع شعور بالفراغ والكآبة.

أعــرف أن الطــلاب قــد يتسببون ببعض المتاعب، لا شك في ذلك. إنهم يتسببون بصخب متواصل، وبتهريج لا ينتهي، وهم يُظهرون عدم الاهتمام أحياناً. أعرف أيضاً أن طلابي مليئون بالحيوية والحماسة، ومفعمون بروح الشباب.

جلست للحظات قليلة في منــزل **آن**، الذي يساوي مليون دولار، خيّم عليّ فــيه صمت مطبق. شعرت، ومن دون وجود سبب منطقي، أن هذا هو السكون الذي يُنذر بالشؤم، ولا يبشّر بالهدوء.

تــنقلّت في أرجاء المنــزل، وأطفأت الأنوار، ثم صعدت الدرج الذي يؤدي إلى غرفتي. فتحت الأبواب الزجاجية، وارتحت كثيراً لسماع صوت الأمواج وهي تتكسر على الرمال.

وجدت نفسي عند الساعة الثامنة والنصف من الصباح التالي وسط الأفعوانية الــتي تسمى **جسر نهر كوبر**. وجدت نفسي في أعلى هيكل ينتمي إلى مرحلة ما بعــد الحداثــة، ويــربط **جــبل بليزانت** والجزر البعيدة عن الشاطئ، مع البر في تشارلــستون. يدفعني هذا الشيء إلى تذكّر نوعٍ ضخم من الديناصورات متجمد بصورة الفولاذ، على الطريقة الانطباعية، وذلك بسبب أعمدته الفولاذية الضخمة وجــسوره المقوسة. يرتفع الجسر كثيراً فوق اليابسة، وما تزال **آن** تتمسك بشدة حتى تبيضّ مفاصل أصابعها في كل مرة تعبر فيها هذا الجسر.

تتواجد MUSC في الجزء الشمالي الغربي لشبه الجزيرة، وفي منتصف الطريق ما بين القلعة والمنطقة التاريخية. تابعت سيري على الطريق السريع الذي يحمل رقم 17، ودخلــت جادة راتلريدج، ثم سرت عبر المخيّم لأصل إلى موقف السيارات الذي حدّدته **إيما** لي.

شــعرت بالــدفء يغمــر رقبتي وشعري. تابعت سيري عبر شارع **سابين**، ووصــلت إلى بــناية حجرية ضخمة تعرف ببساطة على أنها المستشفى الرئيسي. اســتطعت تحديد مدخل المشرحة بحسب تعليمات **إيما**، ثم صعدت المنحدر المؤدي

إلى المدخل. ضغطتُ على زر الجرس الموجود بقرب مكبّر صوت مستطيل الشكل. سمعت صوت همهمة محرك بعد ثوانٍ قليلة، ورأيت ارتفاع أحد البابين المعدنيين الرماديين.

بدت **إيما** في حالة مرعبة.

علا الشحوب وجهها، أما ثوبها فكان مجعداً. بدت المساحات الواقعة تحت عينيها كبيرة جداً.

قالت بهدوء: "هاي".

تبدو هذه طريقة غريبة لإلقاء التحية، لكن هذه هي طريقتنا كجنوبيين لتحية الآخرين. حسناً: "هاي".

أمسكت بإحدى يدي **إيما** وسألتها: "هل أنتِ بخير؟"

"أشعر بصداع نصفي".

"نستطيع تأجيل عملنا".

"إنني بخير الآن".

ضغطت **إيما** على زر، فبدأ الباب بالانغلاق خلفي.

قلتُ لها: "لن أغادر المدينة. نستطيع القيام بعملنا عندما تكونين في حالة أفضل".

أجابت بصوت هادئ: "أنا بخير".

قادتني **إيما** صعوداً عبر منحدر إسمنتي. لاحظت عندما وصلنا إلى أرضية مستوية بابين فولاذيين يعملان بالضغط، وخمّنت أنهما يقودان إلى غرفة البرادات. شاهدت أمامي باباً عادياً لعله يؤدي إلى قسم من المستشفى يعجّ بالناس. أقصد أن أقول إنه يؤدي إلى أقسام مثل قسم الطوارئ، OB-GYN، وغرفة العناية الفائقة. تعمل تلك الأقسام من أجل حياة الآخرين. إنني موجودة هنا في الجهة المعاكسة، أي جهة الموت.

لمست **إيما** أحد البابين المعدنيين: "ها قد وصلنا".

عبرنا إلى تلك المنطقة، وأقدمت **إيما** على جذب المقبض. غمرَنا هواء بارد حاملاً إلينا رائحة اللحم المبرد والعفن.

تبلغ أبعاد الغرفة ستة عشر، وعشرين قدماً على وجه التقريب، واحتوت على دزينة من العربات المدولبة، والتي تحتوي على صوان غير ثابتة. استلقت على ست من هذه العربات أكياس الجثث، وبدا بعضها منتفخاً، أما الأكياس الأخرى فبالكاد كانت منتفخة.

اختارت **إيما** كيساً بدا مسطحاً بشكلٍ يرثى له. أطلقت **إيما** مكابح إحدى العربات، وجرّها إلى الرواق، بينما أبقيت باب الغرفة التي اختارتها مفتوحاً.

نقلنا مصعد نحو طابق علوي. ووصلنا إلى جناح التشريح، وغرفة الخزائن. شاهدت أبواباً تؤدي إلى أمكنة لم أستطع تمييزها. لم تتكلم **إيما** كثيراً، وامتنعت أنا عن إزعاجها بأسئلتي.

انشغلت و**إيما** بتبديل ملابسنا العادية وارتداء ملابس العمل، وأوضحت لي أثناء ذلك أن هذا اليوم سيخصَّص لي. سأقوم بعمل عالمة الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، أما هي فستقوم بدور المحقق الجنائي. سأقوم أنا بإعطاء الأوامر، وستقوم هي بمساعدتي. ستعمد **إيما** في وقت لاحق إلى إدخال النتائج التي أتوصّل إليها في ملف القضية المركزية، وتضمّها إلى جانب آراء خبراء آخرين، ومن ثمّ ستصدر أحكامها.

عدنا إلى غرفة التشريح حيث دقّقت **إيما** بالأوراق، وكتبت رقم القضية على بطاقة تعريف، ثم التقطت صوراً لكيس الجثث غير المفتوح. شغّلتُ جهاز الكمبيوتر المحمول، وقمت بترتيب ملفات العمل على اللوحة.

رغبت أن أستخدم نظام التصنيف العائد للمحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون: "ما هو رقم القضية؟"

رفعت **إيما** بطاقة التعريف: "أعطيتها رقم 02 - غير محدد. إنها قضية الوفاة التي تحمل رقم 277 التي ترفع للمحققة الجنائية لهذا العام".

أدخلت رقم CCC-2006020277 إلى نموذج القضية عندي.

نشرت **إيما** ملاءة فوق طاولة التشريح، ثم وضعت قطعة منخل معدنية فوق الحوض. ربطنا بعد ذلك مئزرين من النايلون خلف رقبتينا وخصرينا، وأقدمنا على تثبيت كمامات على فاهينا، ثم ارتدينا القفازات.

فتحت إيما زمام الكيس.

رأيت الشعر في كيسٍ صغيرٍ من النايلون، أما الأسنان المنـــزوعة فوضعت في كيس آخر. وضعتُ هذين الكيسين على طاولة التشريح.

بقـــي الهـــيكل سليماً كما تذكرته في حالته الأولى، وشاهدت فقرات قليلة وعظمتي الساق والفخذ من الجهة اليسرى مربوطتين ببقايا الأنسجة الجافة. أعرف أن العظام المنفصلة عن مفاصلها قد اختلطت أثناء عملية النقل.

بـــدأنا باســـتخراج الحـــشرات الموجـــودة في الكيس، ووضعناها في قوارير بلاســـتيكية. انصرفت وإيما إلى إزالة التراب عن كل عظمة بأقصى حرص، وقمنا بتـــرتيب هـــذه العظام ليصار إلى فحصها في وقتٍ لاحق. عمدت أثناء عملنا إلى وضع العناصر حسب ترتيبها التشريحي على الملاءة.

انتهيـــنا عند الظهيرة من الأعمال المتعبة في عملية التشريح. وضعنا حوضين وأربـــع قوارير على الطاولة، بينما وضعنا الهيكل على طاولة أخرى، ونشرنا عظام اليدين والأطراف، فبدت مثل نماذج الكاتالوج (البيان المصور) العائد لشركة توريد بيولوجية.

أوقفـــنا العمل لنأخذ استراحة الغداء. اختارت إيما زجاجة كوكاكولا كبيرة وحلـــو. أمـــا أنا فاخترت بعض الرقائق وشطيرة طون لم تعجبني كثيراً. عدنا إلى جناح التشريح عند الساعة الواحدة.

انشغلت بأخذ جردة العظام والتعرف عليها، وفصلت عظام الجهة اليمنى عن عظـــام الجهة اليسرى، وانشغلت إيما بالتقاط المزيد من الصور. خرجت بعدها من الغرفة حاملةً معها الجمجمة، والفك، والأسنان المنـــزوعة لتأخذ لها صور الأشعة السينية.

عادت إيما بينما كنت أركّز على تحديد جنس الضحية. شكّكت أن الضحية كـــان من الذكور نظراً إلى أن معظم العظام كانت كبيرة، وحملت أربطة عضلية متينة.

سألتها: "هل أنت مستعدة لتحديد جنس الضحية؟"

"أعاني من صداع".

أعرف أنني أحببت هذه المرأة.

تناولت عظمة حوضية نصفية، وأشرت إلى الجزء الأمامي منها.

"ألاحـــظ أن عظمة العانة قصيرة ومكتنـــزة، أما فرعها الأسفل فهو سميك. لاحظي أن زاوية ما تحت العانة تشبه الحرف V أكثر مما تشبه الحرف U".

قلّبت العظمة، وأدخلت إصبعي إلى التجويف الذي يقع تحت العظمة الحوضية العريضة. أضفت: "كما أن الشق الوركي ضيق".

"تميلين إلى اعتبار كروموزوم الضحية من فئة Y (فئة الذكورة)".

أومأتْ: "دعينا نتفحص الجمجمة".

ناولتني **إيما** إياها.

رحت أقلّب الجمجمة، ولاحظت وجود أثر صدمة على خط الوسط خلفها: "ألاحظ أن حافتّي الحاجبين كبيرتان، وحواف المحجرين غير حادة... النتوء القذالي كبير بما يكفي ليتطلب عنواناً خاصاً به".

"إنه فتىً بالتأكيد".

دونت ملاحظة "ذكر" على النموذج عندي وقلت: "آه، نعم".

سألتْ **إيما**: "ماذا بشأن العمر؟"

يظهـــر آخـــر الأضراس الطاحنة عادة خلال آخر سنوات المراهقة، أو أوائل العـــشرينيات، أي في نفـــس الـــوقت الذي يبدأ فيه الهيكل العظمي بأخذ شكله النهائـــي. إن نمو الهيكل العظمي النهائي يتشكّل في انصهار ذروة صغيرة تظهر في عظمـــة التـــرقوة، عند طرفها القريب من الرقبة. يظهر هذا الانصهار عند عظمة الترقوة مع ضرس العقل في نفس الوقت، ويُعتبر هذا مؤشراً جيداً على الوصول إلى سن البلوغ.

سألتها: "هل انتزعت كل الأضراس الطاحنة؟"

أومأت **إيما**.

تناولت عظمة الترقوة.

وضـــعت العظمة بعد تفحّصها على الطاولة: "العظام الوسطية تامة النمو... ويعني ذلك أنه ليس بفتى".

عــدت إلى عظــام الحـــوض. وجّهت اهتمامي نحو جهة البطن، وهذه المرة ركّزت على الجهة التي لامستْ عظمة الحوض النصفية الأخرى أثناء الحياة. يلاحَظ في حالـــة الـــبالغين الصغار أن هاتين الجهتين تمتلكان مسطحين يشبهان وادي نهر **شـــيناندواه**، بمرتفعاته ووديانه، ومع التقدم بالعمر تبدأ هذه المرتفعات بالبلى، أما الوديان فتمتلئ.

قلـــتُ: "يلاحظ أن عظم الالتصاق العاني ناعم السطح، ويتميّز بحافة مرتفعة حول محيطه. دعينا نتفحص صور الأشعة السينية للأسنان".

ضغطت **إيما** على المفتاح الكهربائي لصندوق الضوء، ثم وضعت عشر شرائح مـــستطيلة الـــشكل تناولتها من ظرف صغير وبني اللون. رتّبت هذه الشرائح في صـــفين، أحدها للأسنان العلوية والأخرى للأسنان السفلية، وحرصت على وضع صورة كل سنّ في ترتيبه الصحيح.

تمتلـــئ تجاويف الأسنان وأقنية جذورها بالعاجين (عاج الأسنان) الثانوي مع تقـــدم الإنسان بالعمر. يظهر السن معتماً في صور الأشعة السينية كلما كان أقدم. تـــدلني الـــصور على أن هذه الأسنان تعود لإنسان بالغ يتراوح عمره ما بين سن الـــشباب ومنتصف الأربعينيات. لاحظت إضافة إلى ذلك أن كل جذور الأسنان الطاحنة مليئة بالكامل حتى نهاياتها، وأن بلى التاج كان في حدّه الأدنى.

قلتُ: "تتوافق الأسنان مع العظام".

"ماذا يعني كل هذا؟"

"إنه في الأربعينيات، لكن تذكري أن الذكور يتنوعون".

قالت **إيما**: "هذا رائع. ماذا بشأن عرق الضحية؟"

عدت إلى الجمجمة.

أعرف أن تقييم المؤشرات التي تدلّ على العِرْق يكون متعباً في العادة. التقت العظـــام الأنفـــية على خط الوسط في زاوية حادة (تشبه الزاوية التي يشكلها برج الكنيسة). لاحظت أن الفتحة الأنفية الضيقة تتميّز بحافة حادة في أسفلها، كما أنها تحتضن نتوءاً عظمياً في وسطها.

"يتميز الأنف بأنه ضيق وبارز، أما صفحة الوجه فمسطحة".

راقبتني **إيما** عندما سلّطت أنوار مصباح كهربائي على قناة الأذن.

"تبدو الفتحة البيضاوية المؤدية إلى الأذن الداخلية بوضوح".

عندما رفعت رأسي لاحظت أن **إيما** تمسّد جبهتها بحركات دائرية.

"سأمرّر معطيات القياسات من خلال برنامج **فورديسك 3.0**. يبدو لي أن هذا الرجل يشبه ما رأيته في إحدى صفحات كتاب صور القوقازيين".

"إنه ذكرٌ أبيض في الأربعين من العمر تقريباً".

"سأقول، لنكون أقرب إلى الصواب، إن عمره يتراوح ما بين الخامسة والثلاثين والخمسين".

"وما هو المجال الزمني لحدوث الوفاة؟"

أشرت إلى القوارير البلاستيكية الموجودة على الطاولة: "يوجد الكثير من الحشرات غير المكتملة النمو، وبعض الخنافس الميتة، بالإضافة إلى جلود الخنافس الفارغة. يستطيع عالِم الحشرات الذي تتعاملين معه أن يحدِّد فترة PMI".

"يستغرق تحليل الحشرات وقتاً طويلاً. أرغب بتعميم المواصفات على NCIC".

أشارت **إيما** إلى المركز الوطني لمعطيات الجرائم، وهو عبارة عن جدول ضخم من المعلومات المتعلقة بسجلات الجرائم، والهاربين، والممتلكات المسروقة، والأشخاص المفقودين والمجهولي الهوية. يستطيع المرء الاستفادة أكثر من قاعدة البيانات الضخمة هذه، إذا كان المدى الزمني أقصر.

"قلت في البداية إن المدى الزمني يتراوح ما بين سنتين إلى خمس سنوات، لكن إذا أردنا عدم استبعاد أية احتمالات، فيتعيّن توسيع هذا المدى ليصبح ما بين سنة وخمس سنوات".

أومأت **إيما**: "إذا لم نحصل على شيء من **أن. سي. آي. سي**، فسأبدأ العمل من أجل الحصول على تقارير عن الأشخاص المفقودين".

قلتُ: "سيساعد بحثنا كثيراً معرفة حالة الأسنان لأن هناك قطعة معدنية موجودة في فمه".

"سيقوم الطبيب المختص بعلم الأسنان بعمل مخطط لحالة الأسنان يوم الاثنين".

عـــادت إيما لتمسيد جبهتها، ومع أنها جهدت في هذا، إلا أن شحوبها ازداد كثيراً.

قلتُ: "سأقوم بأخذ قياسٍ لعظام الساق كي أستطيع تحديد الطول".

شاهدت إيماءة خفيفة: "هل تبقّت مؤشرات أخرى؟"

هززتُ رأسي. لم ألاحظ أية كسور مشفية، و لم أشاهد أية عيوب خلقية، و لم أجد أية مميزات عظمية غريبة.

"وما هو سبب الوفاة؟"

"لم يتَّضح السبب بعد، فليس هناك من كسور، ولا مدخل أو مخرج رصاصة، ولا تـــوجد شقوق ناتجة عن آلةٍ حادة. أريد رؤية العظام تحت التكبير بعد تنظيفها بالكامل، لكن ليس الآن".

"أتريدين أخذ صور أشعة سينية للجسم بكامله؟"

"لا ضرر في ذلك".

رنّ جرس هاتف إيما عندما كنت منهمكة بقياس عظمة فخذ. سمعتها تتكلم عندما مشت نحو الطاولة لتفتح الغطاء.

"إيما روسو".

أصغت إيما بانتباه.

قالت بحذر: "أستطيع الاحتمال".

مرّت فترة سكون.

"هل الأمر سيئ إلى هذه الدرجة؟"

مرّت فترة سكون أطول.

تعقّد الوضع أكثر: "وماذا الآن؟"

نظرتُ.

أدارت إيما ظهرها لي، كان وجهها مخفياً عني، لكن صوتها أخبرني أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام.

5

ألقـــت **إيما** هاتفها الخلوي على الطاولة، وأغمضت عينيها، ثم بقيت ساكنة. راقبتها مع معرفتي أنها تحاول تهدئة صداعها.

ســبق لي وعانــيت مـــن الصداع النصفي، ولذلك فأنا أعرف الألم الذي يصاحبه. أعرف أيضاً أن قوة الإرادة لن تصمد. وأعرف أنه لا شيء بإمكانه تهدئة أوعية الرأس المتوسعة إلا الزمن والنوم، بالإضافة إلى الأدوية.

عـــاودت تركيـــزي على أخذ القياسات. فضّلت أن أنتهي من تقدير الطول حـــتى تـــتمكن **إيما** من الذهاب إلى بيتها وترتاح فيه، وإذا أرادت مناقشة المكالمة الهاتفية فالأمر يعود لها.

سمعت صوت الباب يُفتح، ليعود ويُغلق ثانية.

انتقلت من لوحة قياسات العظم إلى حاسوبي المحمول، ثم سمعت صوت الباب يُفتح مجدداً. سمعت صوت أقدام تمشي فوق البلاط بينما كنت أُدخل آخر رقم لي، ثم طلبت من الحاسوب المحمول أن يُجري الحسابات.

وقفـــت **إيما** قرب كتفيّ: "تفحّصت الملابس. لم أجد حزاماً، ولا حذاءً، ولا حـــتى أية مجوهرات أو ممتلكات شخصية. لم أجد شيئاً في الجيوب أيضاً. وجدت بعـــض النسيج المتعفن، وعلامات تدلّ على الماركة بالكاد استطعت قراءتها، لكنني أعتقد أن البنطال هو بقياس ثمانية وثلاثين في الطول. إذا افترضنا أن البنطال يعود له بالفعل، فيمكنني القول إن الرجل لم يكن قصيراً".

تحـــرّكت قليلاً كي تتمكّن من رؤية الشاشة بطريقة أفضل: "يتراوح طوله ما بين 175 و182 سنتم".

حدّقت **إيما** بتقديرات الطول، ثم تقدّمت نحو الطاولة. مدّت يدها، ومسّدت الجمجمة.

جـــاء صـــوت **إيما** ناعماً ورقيقاً مثل المداعبة: "من أنت، أيها الرجل الأبيض الذي يبلغ الأربعين من عمره؟ أنت بحاجة إلى اسم، أيها الرجل العظيم".

بدت اللحظة شخصية ومؤثرة، شعرت وكأنني متطفلة.

لكنني أعرف بالضبط ما قصدته **إيما**.

ينظـــر الجمهور هذه الأيام إلى الحمض النووي وكأنه العصا السحرية للعدالة المعاصـــرة، وذلك بفضل أفلام الجريمة التي تُعرض على التلفزيون. نشرت **هوليوود** الأسطورة القائلة إنه بإمكان هذه السلسلة الحلزونية المزدوجة أن تكشف سرّ كل الألغـــاز، وأن تفتح كل الأبواب، وأن تصحّح كل الأخطاء. أتمتلك عظاماً؟ إذا لا توجد مشكلة. استخرج بعضها ودع ذلك الجزيء الصغير ينشر سحره.

أعرف أن الأمر لا يسير هكذا بالنسبة للجثث المجهولة الأسماء. إن امرأة مجهولة، أو رجلاً مجهولاً يبقيان في عالم المجهول، وتزال عنهما أية إشارات تدلّ على الحياة. إن عدم تحديد هوية الشخص يعني افتقاد ذلك الشخص للعائلة، ولطبيب أسنان، ولمنـــزل نستطيع البحث فيه عن فرشاة أسنانه، أو العلكة اللتين يستهلكهما.

مجهول الاسم.

تـــستطيع **إيمـــا** الآن أن ترســـل CCC-2006020277 إلى النظام، مستعينةً بـــالملخص الذي أعددناه، ليقوم هذا النظام بالبحث عن أشخاص مفقودين تتوافق معطياتهم مع المعطيات التي لدينا. إذا حصلنا على عدد معقول من الأسماء المتوافقة مع مواصفاتنا فعندها سنتمكّن من طلب الحصول على السجلات الطبية وسجلات الأســـنان. سنقوم بعدها بالاتصال بأقارب الضحية للحصول على نماذج من أجل إجراء اختبار الحمض النووي.

نـــزعت قفازيّ، ونظرت إلى ساعة يدي. أشارت عقاربها إلى الرابعة وخمس وأربعين دقيقة.

قلتُ: "أمضينا ثماني ساعات هنا. إليك الخطة. سنجتمع هنا مجدداً نهار الاثنين. ستطلبين أنت أخذ صور أشعة سينية تشمل كامل الجسم. سأشاهد الأفلام، وسأتفحص العظام بالمجهر بينما يقوم طبيب الأسنان بعمل تخطيط لأسنان الضحية. تستطيعين بعد كل هذا إرسال المواصفات عبر نظام NCIC".

استدارت **إيما** نحوي. ساعدت الأضواء الفلورية على أن يبدو وجهها أشبه بوجه جاهز للتشريح.

قالت بتثاقل: "إنني عرافة متغطرسة".

"ما هي العرافة؟"

"لست متأكدة".

"ستذهبين إلى المنزل".

لم تجادلني.

بدت فترة الظهيرة ثقيلة ورطبة في الخارج. وبلغت فترة الازدحام ذروتها، واختلط دخان عوادم السيارات مع مزيج الهواء المالح من الميناء. بدت المدينة برائحتها وكأنها في فصل الصيف، مع أننا لا نزال في شهر أيار (مايو).

مشيت مع **إيما** جنباً إلى جنب أثناء هبوطنا المنحدر. تردّدت قليلاً قبل افتراقنا، ثم فتحت شفتيها كي تتكلم. ظننتُ أنها تريد أن تحدثني عن المكالمة الهاتفية. تمنّت لي، بدلاً من ذلك، عطلة نهاية أسبوع سعيدة، ثم مشت بتثاقل عبر الرصيف.

بدت سيارتي مثل الفرن. أنزلت زجاج النوافذ، ووضعت أسطوانة مدمجة **لسام فيشر**. تردّدت ألحان أغنيته **الناس يعيشون** داخل السيارة. بدت هذه الألحان حزينة، وعنيفة، لكنها ناسبت مزاجي تماماً.

عبرت نهر كوبر، ولاحظت وجود سحابات رعدية جاثمة فوق الأفق الشرقي. تستعد عاصفةٌ عاتيةٌ للهبوب. قررت أن أتوقف قليلاً عند متجر **سيمونز لثمار البحر**، ومن ثم أتناول غدائي بمفردي.

بدا المتجر خالياً. رأيت الصناديق الفولاذية مليئةً ببقايا حصيلة صيد اليوم فوق الثلج المسحوق.

تحـــرّكت كل خلية من خلايا ما **تحت المهاد البصري** عندي لدى رؤية سمك سيف البحر.

يفعـــل مثلـــي أولــئك الذي يخافون على البيئة. يحمل هؤلاء باستمرار على ***الإفراط بالصيد! تناقص كميات السمك! وعدم التقيّد بقوانين الصيد!***

حـــسناً. ألا يُفتــرض، علـــى كل حال، أن تكون أسماك سيف البحر محملةً بالزئبق؟

نظرت "إلى الماهي ماهي".

لم أسمع أي احتجاج من منبر الوعظ الشرس القابع في مقدمة المخ عندي.

اعـــتدت علـــى تـــناول غدائـــي في الهواء الطلق، ومشاهدة الطبيعة تعرض مسرحيتها الضوئية المؤلفة من ثلاثة مشاهد. تخيّلت وجود الإعلان الضخم عن هذه المسرحية.

المـــشهد الأول، يتلاشـــى ضوء النهار ويبدأ الليل بطيئاً بطرد النهار. المشهد الثاني، تومض عروق البرق وكأن الغيوم السوداء المائلة للخضرة ترقص **الفاندانغو** (رقصة إسبانية). المشهد الثالث، يظهر اللون الرمادي شيئاً فشيئاً وسط الهمار المطر على الكثبان الرملية، وتبدأ الريح بالتلاعب بأشجار النخيل.

نمتُ مثل طفلة.

اســـتيقظت في الـــصباح التالي لأجد أشعة الشمس وهي تتسلّل عبر الستائر. ترامت إلى مسامعي أصوات ضربات غامضة.

نهـــضتُ محاولـــةً تحديد مصدر الضجة. هل تسبّب الإعصار بنـــزع مصراع إحدى النوافذ؟ أم أن الفاعل هو شخص ما موجود في المنـــزل؟

نظرت إلى الساعة. أشارت عقاربها إلى الثامنة والأربعين دقيقة.

وضعت ردائي، ومشيت على رؤوس أصابعي باتجاه الدرج، ثم نـــزلت بضع خطـــوات، وانحنيت لأستطيع رؤية الباب الأمامي. رأيت شبح رأسٍ وكتفين عبر النافذة ذات الزجاج المحجّر البيضاوي الشكل.

ضـــغط الـــرأس بأنفـــه على الزجاج ثم تراجع بينما بقيت أراقب ما يجري. وعادت الطرقات.

تجنّبت الحركات المسرحية، وعدت أدراجي على رؤوس أصابعي، ثم زحفت باتجـــاه غـــرفة النوم الأمامية. أرجعت الستارة جانباً، وتطلّعت نحو الأسفل باتجاه الطريق الذي يؤدي إلى مدخل المنـــزل. تأكّدت من وجود سيارة **بيتي**، التي تبدو كلعبة على الطريق، كما أنها مركونة في مواجهة سيارتي المازدا.

رجعـــت إلى غـــرفة الـــنوم، وارتديت الملابس التي كنت أرتديها البارحة، وأسرعت إلى الطابق السفلي.

وصلت إلى الباب فتحوّلت الطَرَقات على النافذة إلى خدش للزجاج.

أدرت المزلاج، وازداد الخدش بصورة هستيرية.

أدرت مقبض الباب.

اندفع الباب إلى الداخل. واندفع **بويد** إلى الأمام وحطّ بمخالبه على صدري. جهـــدت لأســـتعيد توازني، بينما نـــزل الكلب وبدأ يسير بحركات دائرية حول كاحليّ، وهكذا أصبحنا مربوطين معاً بلجامه.

فقـــد **بيردي** أعصابه نتيجة هذا الاضطراب فانطلق من صدر **بيتي**. نشر الهر مخالـــبه وأذنيه بشكل انسيابي، واندفع عبر الرواق، ثم توجّه نحو المنطقة الخلفية من المنـــزل.

تبعه **بويد** (الكلب) بسبب اضطرابه، أو لأنه سرّ لخروجه من السيارة، وراح لجامه يتمايل وراءه بينما راح ينـــزلق على أرضية الرواق، ثم بعد ذلك على أرضية غرفة السفرة، قبل أن يصل إلى أبواب المطبخ.

اندفـــع **بـــيتي** لـــيعانقني على طريقة شبيهه **روبين ويليامز**: "صباح الخير يا تشارلستون!"

دفعـــت بـــيتي براحتَـــي يديّ: "بحق الله يا **بيتي**، بأي وقت مبكر غادرت شارلوت؟"

"لا ينتظر الزمن أي شخص، يا حلوة".

"لا تنادني هكذا".

"إذاً، يا حبة الزبدة".

سمعت تحطّم شيء ما في مكان ما من البيت.

توجّهت نحو المطبخ: "أغلِق الباب".

تبعني **بيتي**.

رأيـــت **بويد** يبحث في محتويات وعاء الكعك المحلى الذي تحطم. اكتفى **بيرد** بالمراقبة من مكان آمنٍ على سطح الثلجة.

قلتُ: "هذا أول شيء عليك شراءه من أغراض **آن**".

"وضعته في القائمة".

تطلع **بويد** إلى الأعلى وقد مرّغ أنفه بفتات الحلوى، ثم عاد ليلعق ما تبقى من حلوى **لورنا دوونـــز**.

ملأت وعاء بالماء وسألت: "ألم تستطعِ إيجاد بيت لإيواء الكلب".

"يحب **بويد** التواجد على الشاطئ".

"أعـــرف أن **بـــويد** مستعد ليحب الغولاغ (معسكرات إصلاح العمال) إذا أطعموه فيها".

وضـــعت وعـــاء الماء على الأرض. بدأ **بويد** يقفز، ومدّ لسانه فأصبح أشبه بـــسمكة الأنقلـــيس الطويلة والأرجوانية اللون. انشغل **بيتي** بتفريغ سيارته، بينما انهمكـــتُ بإعـــداد طعام الفطور. اشتملت الأغراض التي أنـــزلها على وعاء طعام للهـــر، ووعـــاء آخر لوضع الفضلات، وطعامٍ للكلاب والهررة، وعلى أحد عشر كيـــساً مـــن أكياس المتاجر الكبرى، وحقيبة كبيرة، وكيس لوضع الثياب، وقطعة قماش خشنٍ صغيرة.

لم يغيّر **بيتي** من عاداته، فهو ما زال يسرف في الإنفاق على المآكل والمشرب، لكنه يبدو مثل رجل غابٍ بالنسبة للملابس.

لا يـــستطيع زوجـــي الغريب أن يجد قمصاناً على مقاس رقبته أبداً، فكل ياقـــات القمصان تبدو واسعة جداً على رقبته النحيفة. لا يشكل ذلك مصدر قلقٍ له أبداً. لم يتغيّر نظام تفصيل جسمه الثلاثي منذ أن التقيته في السبعينيات. يرتدي الرجل بنطالاً قصيراً، أو بنطال جينـــز، كلما كان ذلك ممكناً، بالإضافة إلى سترة رياضية عندما يصفف شعره، ويرتدي كذلك بذلة وربطة عنق عندما يذهب إلى المحكمة.

ارتدى **بيتي** لهذا اليوم قميص غولف روزاسين، وبنطالاً كاكيّ اللون يصل إلى ركبته، وانتعل حذاءً رياضياً، ولم يضع جوارب في رجليه.

تناولت كرتونة بيضٍ من أحد الأكياس: "أتعتقد أنك اشتريت ما يكفي من البقالة؟"

"اشتريت الكثير من الطعام من أجل قضاء وقتٍ قليل".

"إنك تبذل قصارى جهدك".

رسم **بيتي** ابتسامة عريضة على شفتيه: "هذا صحيح. تصوّرت أنك لا تنتظرينني على مائدة الفطور".

في الواقع، انتظرته أن يأتي عند المساء.

غمز **بيتي** على طريقة **بيتي بيترسون**: "كدت أتابع طريقي عندما رأيت السيارة الثانية".

توقفت عن كسر البيض على الفور: "أية سيارة أخرى؟"

"كانت متوقفة في الخارج. ابتعدت السيارة ولهذا دخلت".

"ما هو نوع السيارة الأخرى؟"

هز **بيتي** كتفيه: "إنها داكنة، وكبيرة، وذات أربعة أبواب. أين تريدين وضع وعاء الهر؟"

أشرت بذراعي نحو غرفة صغيرة، واختفى **بيتي** مع وعاء الهر.

أصبت بالذهول، وبدأت بخفق البيض. من هو الشخص الذي جاء إلى هنا في وقتٍ مبكر من صباح الأحد؟

عاد **بيتي**، وبدأ بغرف بعض البن المطحون: "لعله كان سائحاً يبحث عن بيت على الشاطئ. أعرف أن الكثيرين مستعدون لتأجير بيت من الأحد إلى الأحد".

أخرجت الخبز من المحمصة، ووضعت قطعتين إضافيتين: "لكن الإيجار لا يبدأ قبل الظهيرة".

"حسناً، لعل أحدهم يغادر البيت الذي استأجره، ولعله يكون قد توقف ليبرمج **أون ستار** قبل أن يبدأ بقيادة سيارته نحو توليدو".

ناولت **بيتي** منديلين وبعض أدوات الطعام. وزّع **بيتي** الأدوات على الطاولة ثم جلس إلى الطاولة.

مشى **بويد**، ووضع ذقنه على ركبة **بيتي**. فانحنى **بيتي**، ومسّد أذن كلبه.

"إذاً أصبح الصف الميداني شيئاً من الماضي. أتنوين الذهاب إلى الشاطئ هذا اليوم؟"

أخبرته عن الهيكل العظمي الذي اكتشفته في **دي ويز**.

"يا للأسف".

ملأت كوبي قهوة، وناولت **بيتي** طبقاً، ثم جلست على الكرسي المقابل له. ترك **بويد** ركبة **بيتي** وتوجّه إلى ركبتي.

"إنه رجل أبيض في الأربعين من عمره. لا توجد أية علامات تدلّ على شيء غير طبيعي".

"لا شيء سوى أن الرجل كان في قبرٍ غامض".

"وما عدا ذلك، هل تتذكر **إيما روسو**؟"

تباطأ **بيتي** في مضغه للطعام، ورفع شوكةً في الهواء: "أتعنين تلك المرأة ذات الشعر البني، والثديين...".

"إنها المحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون. سيقوم أحد أطباء الأسنان بتخطيط أسنان تلك الضحية المجهولة يوم الاثنين، وستعمد **إيما** إلى إرسال المواصفات عبر نظام NCIC".

أصدر **بويد** صوتاً ينمّ عن الاستهجان، وطرق على ركبتي بذقنه ليعلمني أنه ما زال هنا، أو أنه ما زال ينتظر الحصول على البيض.

سألني **بيتي**: "كم ستطول إقامتكِ هنا؟"

"سأبقى طيلة الوقت الذي تتطلّبه مساعدة **إيما** بتلك العظام. إن عالمة الأنثروبولوجيا المحلية غائبة هذه الأيام. أخبرني الآن عن قضية **هيرون**".

"حضر الزبون يوم الأربعاء. إنه يدعى **باتريك برتولدز فلين**. يطلق عليه أصدقاؤه اسم بوك".

أنهى **بويد** تناول حصته من البيض.

"إنـــه تافـــه وتفكـــيره محدود. قدمت القهوة إلى **فلين** فأخبرني أنه لا يتناول المنبهات. تصرّف وكأنني عرضت عليه أن نشترك بتناول بعض الحشيشة".

أبعد **بيتي** طبقه. أسرع **بويد** للاستدارة ثانية حول الطاولة ما إن سمع صوت الطبق أثناء تحريكه على سطح الطاولة. أطعم **بيتي** الكلب قطعة من الخبز المحمص.

"أعـــتقد أنـــه أقـــدم على استعراض يدلّ على الغرور. إنها مواجهة مباشرة وصريحة".

"قدّمتَ تحليلاً مذهلاً للشخصية. هل **فلين** هو زبون قديم عندك؟"

هزّ **بيتي** رأسه: "لم يكن زبوني قبل الآن. قال لي **فلين** إن أمه من لاتفيا، وقال إن اسمها هو دانيا كالينين، وأضاف أنه انتقاني لأنه يعتبرني منتمياً إلى قبيلته".

"وماذا يريد؟"

"اســتغرق دهـــراً ليـــبلغني ما يريده. استفاض بالحديث عن الكتاب المقدس والناس غير المحظوظين في هذه الحياة، وعن المسؤولية التي تفرضها المسيحية. بدأت في الواقع بأخذ ملاحظات سريعة على ورقتي في كل مرة سمعت فيها كلمة *التزام، أو واجب*. أقلعت عن أخذ الملاحظات عندما وصلت إلى الملاحظة رقم مليون".

لم أرَ نهاية قريبة لهذه القصة لذلك التزمتُ بالصمت. فسّر **بيتي** سكوتي وكأنه تأنيب له.

"ظنّ **فلين** أنني آخذ ملاحظات. أتريدين المزيد من القهوة؟"

أومأت، فأسرع **بيتي** ليملأ كوبينا. ثم جلس، واسترخى في مقعده.

"أريـــد إيجاز القصة لك. دأب **فلين** ومجموعة من زملائه الإنجيليين على تمويل **هيرون وكنيسة رحمة الله**. ويبدو أن المتبرعين قد خاب ظنهم في الفترة الأخيرة من جرّاء ما يرونه من انعدام التقارير المالية".

كشط **بيردي** الطاولة بمخالبه، ثم تحرّك بسرعة ليخرج من الغرفة. لاحظت أن نظرة **بويد** لم تنصرف عن طبق **بيتي**.

"تورطت ابنة **فلين** مع **هيرون** منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات. تنقلت **هيلين**، وهذا هو اسمها، بالعمل في العديد من عيادات الفقراء التي يموّلها ذلك القس. يقول **فلـــين** إنها دأبت على الاتصال به في البداية لتخبره عن العمل البائس الذي تقدمه

كنيســة رحمــة الله للفقراء، وكيف أنه من المريح أن يقدم المرء مساعدته في هذه الجهود".

نفخ **بيتي** على كوب قهوته، ثم ارتشف منه.

"قلّــت الاتــصالات مع مرور الوقت. وبدت **هيلين** مشوشة عندما تتصل، واشتكت من شحّ الأدوية في العيادة التي تعمل فيها، وأنها أصبحت في حالة مزرية، كما أن المرضى لا يدفعون ما يتوجّب عليهم بالكامل. بدأت **هيلين** تميل إلى الظن بــأن **كنيسة رحمة الله** تتلاعب بسجلات المحاسبة، وأن الأطباء الذين يشرفون على العيادة هم الذين يجنون كل شيء".

ارتشفنا المزيد من القهوة.

"اعترف **فلين** أنه لم يُظهر ما يكفي من التعاطف مع ابنته، وأضاف أنه أعتبر أن ابنــته تقود حملة للدفاع عن الفقراء. ويبدو أنها تظاهرت بذلك أكثر من مرة. قــال الرجل أيضاً إنه يريد أن تسلك ابنته مساراً مهنياً تقليدياً. تغيّرت العلاقة بين الرجل **وهيلين** نتيجة لذلك، فأصبحت باردة ومشوشة. أعتقد أن **بوك** ليس بذلك الرجل الدافئ أو المشوش".

"إذاً، يــريد **فلين** وأصحابه أن يحصلوا الآن على حسابات تبيّن كيفية إنفاق الأموال. لماذا غيروا مواقفهم؟"

"انقطعت الاتصالات بغض النظر عن الأسباب. وتلكّأت **كنيسة رحمة الله** في البداية عن الاستجابة لطلب **فلين** ربما بسبب انشغالها بكسب أتباع جدد".

"لا يتجاوب **فلين** بلطف مع الذين يتجاهلونه".

"صــحيح، وهكــذا تصبح قضية الأموال من مهماتي الأساسية، لكن برزت أمامنا قضية أخرى. اختفت **هيلين** عن الأنظار، ولم يكلف **هيرون** نفسه عناء تقديم أي تفسير إلى **فلين** ليشرح له سبب اختفائها. أعتقد أن اهتمام **فلين** بقضية **هيرون** نتج جزئياً عن الصلف، والكبرياء المجروحة، وجزئياً عن الشعور بالذنب".

"كم مضى على غياب **هيلين**؟"

"لم يسمع **فلين** عن ابنته شيئاً منذ ما يزيد عن ستة أشهر".

"ماذا بشأن السيدة **فلين**؟"

"توفيت منذ عدة سنوات، ولا وجود للأقارب".

"هل انتظر **فلين** إلى هذه الأيام كي يبدأ البحث عن **هيلين**؟"

"انــتهت مكالمتهما الهاتفية الأخيرة بشجار. قالت له **هيلين** إنها لا تريده أن يتصل بها بعد الآن، وهكذا كفّ الرجل عن محاولته إجراء الاتصالات. إن السبب الوحــيد الــذي حدا به لإثارة قضية **هيلين** في هذا الوقت يرجع إلى أنه قرر البدء بالتحقيق المالي، ولشعوره أنه يستطيع معرفة أسباب رحيل **هيلين** في الوقت ذاته، أو هذا على الأقل هو ما قاله لي".

قوّست حاجبي نتيجة الدهشة.

"إن **فلين** رجل شديد الصلابة".

"ألَم يسأل **هيرون** عن **هيلين**؟"

"نعــم، لقد فعل ذلك، لكن التمكن من الالتقاء بالقس يشبه محاولة شخص الالــتقاء بالبابا. أبلغ رجال **هيرون فلين** أن **هيلين** قد أخبرت بعض رجال **كنيسة رحمــة الله** قبل مغادرتها أنها تسعى للحصول على وظيفة في إحدى العيادات المجانية في لوس أنجلوس. أضافت **هيلين** أن العيادة هي من ضمن عملية أكبر".

"إذاً هذا هو السبب؟"

"نجح **فلين** في إقناع رجال الشرطة بالتحقيق مع صاحبة الشقة التي استأجرتها **هيلين**. قالت صاحبة الشقة إن **هيلين** قد أرسلت لها ظرفاً بالبريد يحتوي على رسالة ذكرت فيها أنها راحلة. احتوى الظرف أيضاً على مفتاح الشقة، بالإضافة إلى بدل الإيجــار المستحق. قالت السيدة إن **هيلين** تركت بعض الأغراض، لكن ليس من بيــنها شــيء قــيّم. تألفت الشقة من غرفة واحدة، واشتملت على مطبخ وحمام صغيرين".

"ومــاذا بــشأن الحــسابات في المصارف؟ وماذا عن بطاقات الائتمان؟ أو تسجيلات مكالمات الهاتف الخلوي؟"

"لم تؤمن **هيلين** بجدوى الممتلكات الدنيوية".

"لعــل هذه هي القصة بكاملها، ولعلها انتقلت للجانب الآخر من الشاطئ، وأرادت أن لا يعرف أحد أي شيء عنها".

"يُحتمل ذلك".

فكّرت للحظة. لا أعتقد أن القصة صحيحة بكاملها.

"إذا افترضـــنا أن **فلين** كان من كبار المتبرعين، ألا يُفترض أن يلتقيه **هيرون** شخصياً؟"

"أتعتقدين أن مليوناً ونصف من الدولارات هو مبلغ كبير بما فيه الكفاية؟ أنا أوافق معك. يُفترض أن يبذل **هيرون** أقصى جهوده كي يحدّد مكان وجود **هيلين**. يوجد أمر غريب آخر، لماذا لم يبدأ **فلين** جهوده هذه قبل الآن؟ إن اهتمامي يتركّز الآن على الأموال".

ارتشف **بيتي** آخر قطرة من كوب قهوته، ثم وضع الكوب على الطاولة.

"أو بحـــسب تعبير ذلك المحسن الإنساني الكبير **جيري ماك غواير** الذي قال فتّش عن المال".

6

انطلـــق **بيتي** بعد انتهائنا من تناول الفطور مباشرة ليقوم بزيارته المفاجئة إلى **كنيـــسة رحمة الله**. استرخيت على الشرفة، ووضعت عشرين سجلاً أزرق اللون، لكن **بويد** لم يبتعد عن قدميّ.

وجـــدت صـــعوبة كـــبرى في التركيز بسبب هواء المحيط، أو ربما بسبب تلك الامتحانات التي أصحّحها في المنـــزل. لم أستطع إبعاد ذهني عن ذلك القبر في دي ويز، أو عن العظام الموضوعة فوق طاولة التشريح، أو حتى عن وجه **إيما** الذي يطفح بالألم.

تذكـــرت أن **إيما** همّت بالكلام عندما خرجنا من المستشفى، ثم غيّرت رأيها. هـــل كانت على وشك أن تفسّر لي ما علمته من المكالمة الهاتفية؟ تأكدت من أن المكالمة الهاتفية أزعجتها. لماذا؟

هـــل كانت على وشك أن تخبرني شيئاً يتعلّق بالهيكل العظمي؟ أم أنها تخفي عني هذه المعلومات؟ إنه احتمال بعيد.

انـــشغلت بـــتدوين العلامات إلى أن عجزت عن التحمّل. ألقيت نظرة على جـــدول المـــد بعد الساعة الواحدة بقليل، ثم انتعلت حذائي النايك، ومشيت عدة أمـــيال بمحـــاذاة الشاطئ مع **بويد**. لم يبدأ موسم الازدحام بعد، ولذلك لم تطبّق القـــوانين المتعلقة بتحديد حالات السماح للكلاب التي هي من غير لجام بصرامة. ألقـــى الكلـــب بنفسه وسط الأمواج بين الحين والآخر، ومشيت فوق المنطقة التي كانت الأمواج تنسحب منها. ولم تكترث طيور الطيطوى بنا.

مشيت في طريق عودتي من هذه الجولة في جادة **المحيط**، وتناولت صحف نهار الأحد. أسرعت بالاستحمام، ثم ألقيت مع **بويد** نظرة على محتويات المخزن.

وجـــدنا ســـتة أنـــواع من شرائح اللحم المطهوة الباردة، وأربعة أنواع من الأجبان، ومخلّلات حلوة وحارة، وحنطة، وجاودار، وخبز البصل. وجدنا كذلك ســـلطة الكـــرنب والبطاطا، والكثير جداً من رقائق البطاطا المقلية، أكثر من تلك الموجودة في مصنع فريتو - لاي.

أعرف أن **بيتي** يعاني من نواقص عدة، لكن باستطاعة هذا الرجل أن يملأ مخزناً بالمواد الغذائية. حضّرت بعض البسترما، وبعض الجبن السويسري وسلطة الجاودار، ثم فتحت زجاجة كوكاكولا مخصصة للحمية، وأخرجت الصحف إلى الشرفة.

أمـــضيت ساعةً ونصف وسط شعور من السعادة مع صحيفة ***نيويورك تايمز***. ولم أحتـــسب المدة التي أمضيتها في حلّ لغز الكلمات المتقاطعة. قرأت أيضاً كل الأخبار المهمة، واستمتعت بها.

تـــناولت الخبـــز المحمص، وما تبقى من البسترما التي تقاسمتها مع **بويد** الذي استغرق بعدها بإغفاءة قرب قدميّ.

كـــدت أضيّع شطيرتي بعد مرور عشر دقائق من البدء بقراءة صحيفة ***بوست وكوريـــيه***. تصفّحت القسم المحلي الموجود في الصفحة الخامسة. وظهر أمامي عند منتصف الصفحة تقريباً عنوان كُتب بخط عريض ولافت.

جثة مدفونة في شاطئ منعزل

تشارلستون، أس. سي. عثر طلاب الآثار الذين كانوا ينقبون في موقع في جزيرة دي ويز، على شيء ليس من ضمن جثث الهنود المتوفين منذ زمن طويل. عثـــر الفـــريق، الـــذي تترأسه الدكتورة تمبرنس برينان، التي تعمل في جامعة كارولاينا الشمالية - شارلوت، على قبر حديث العهد تشغله جثة جديدة.

رفـــضت بـــرينان التعليق على هذا الاكتشاف المريع، لكن يبدو أن هذه الـــبقايا تعـــود إلى رجل بالغ. وقال توفر برغيس وهو أحد طلاب التنقيب، إن الجثة كانت ملفوفة بالملابس، ومدفونة على عمق يقل عن 60 سنتم تحت سطح الأرض. يقدّر برغيس أن القبر قد حُفر في غضون السنوات الخمس الماضية.

لم يتمّ استدعاء رجال الشرطة إلى المكان، لكن المحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون، إيما روسو، اعتبرت هذا الاكتشاف مهماً إلى درجة أنها أشرفت شخصياً على نبش القبر. يُذكر أن روسو التي انتخبت للمرة الثانية لمنصبها هذا، قد تعرّضت لانتقادات في المدة الأخيرة بسبب دور مكتب المحقق الجنائي في معالجته الخاطئة لقضية وفاة حدثت السنة الماضية على متن سفينة سياحية.

نقلت بقايا الشخص المجهول بعد نبشها من دي ويز إلى مشرحة مستشفى MUSC. رفض الموظفون الذين يعملون في مشرحة المستشفى التعليق على هذه القضية.

— *خاص* بوست وكوريه من مراسلها **هومر وينبورن**

أظهرت صورة (غير واضحة تماماً) بالأبيض والأسود، وجهي، وقفا إيما. أظهرتنا الصورة مستندتين على أيدينا وركبتينا في دي ويز.

هرعت إلى المنزل، وتبعني بويد. أمسكت بسماعة أول هاتف رأيته، وطلبت رقماً معيناً. جاءت تصرفاتي متسرعة إلى حدّ أنني اضطررت لطلب الرقم نفسه مرتين.

أجابني المجيب الصوتي.

"يا للّعنة!"

انتظرت الإشارة التي تسمح لي بترك رسالة، وهمت على وجهي من غرفة إلى غرفة.

بيب.

"هل تصفّحتِ جريدة اليوم؟ هل أنتِ سعيدة هكذا! أصبحنا في الأخبار!"

توجّهت إلى الغرفة المزججة، وألقيت بنفسي على الأريكة. نهضتُ، فانزلق **بيردي** إلى الأرض، ثم اختفى عن أنظاري.

"تستطيعين نسيان *أخبار مولتري*. نال **وينبورن** قصب السبق! تصفّحي ***بوست وكوريه***. إن ذلك الرجل هو في طريقه إلى القمة!"

عرفت طبعاً أنني أصرخ في وجه آلة، لكنني لم أتمكن من التوقف.

"لا عجب...".

انساب صوت **إيما** بتثاقل، وبدا الأمر وكأنني أيقظتها من نومها: "أنا هنا".

"لا أعجب إن كان ذلك المتطفل الحقير قد سلمنا آلته النيكون. احتفظ ذلك التافه بكاميرا احتياطية، وأخفاها بعناية بالغة!"

"**تمب**".

"هــــل أخفى هذا الرجل كاميرا ذات عدسة واحدة في بنطاله القصير! أم هل أخفى كاميرا ذات زاوية تصوير عريضة في قلمه! أم لعله أخفى كاميرا فيديوية في مكان ما! من يعرف؟ لعلنا سنظهر في برنامج ***المحكمة التلفزيونية!"***

سألتني **إيما**: "هل انتهيتِ؟"

"هل قرأتِ المقالة؟"

"نعم".

فكّرت بسحق سماعة الهاتف: "ما رأيكِ فيها؟"

"ما رأيي بماذا؟"

"ألستِ غاضبة؟"

"بالطبع أنا كذلك، وأستشيط غيظاً. هل انتهيت من تنفيس غضبكِ؟"

إذاً هذه هي حقيقة الأمر، أي أنني أنفّس عن غضبي.

بــــدا صــــوت **إيمــــا** بطيئاً: "إن هدفنا هو تحديد هوية الهيكل العظمي، وقد يساعدنا انكشاف هذا الأمر".

"كان هذا هو توجّهك نهار الجمعة".

"ما زال كذلك".

"إن مقالة **وينبورن** قد تنبه القاتل".

"إذا كـــــان هناك من قاتل. يُحتمل أن يكون الرجل قد مات نتيجة جرعة مفرطة. ويُحتمل أن يكون أصحابه قد خافوا وتخلصوا من جثته في مكان ظنوا أن أحـــــداً لن يجده فيه. أعتقد أننا لا نواجه أمراً أخطر من خرق الفصل السابع عشر".

"سأهاجم".

"إننا أمام تخلص غير لائق من جثة. اسمعي، لعل أحد ما يفتقد هذا الشخص. إذا كـــان هذا الشخص من السكان المحليين، فلعله سيقرأ المقالة ويتّصل بنا هاتفياً. يتعيّن عليك أن تعترفي بذلك، وسبق لك أن اعترفت أن **وينبورن** قد فاقنا ذكاءً".

رفعت يديّ في الهواء في حركة تدلّ على عدم التصديق.

اعـــتاد **بويد** أن يحرّك شعرات حاجبيه عندما يرتبك، وهذا ما فعله الآن من مكانه الآمن قرب الباب.

قالت **إيما**: "أراكِ غداً صباحاً".

صعدت الدرج، وتوجّهت إلى الحمام، ثم أسندت جبهتي على المرآة. شعرت ببرودة المرآة تضغط على جلدي المتورد.

يا للصحفيين الفضوليين، والمتدخلين! اللعنة على وينبورن!

أخذت نَفَساً عميقاً، وأخرجته ببطء شديد.

إنني مزاجية. أعترف بذلك. أفقد أعصابي بين حين وآخر، وأبالغ برد فعلي. أعتـــرف بهذا أيضاً. أكره هذه النوبات، وأمتعض من الذين يقدرون على الضغط على ذلك الزر في رأسي.

أعـــتقد أن **إيما** محقة عندما اعتبرت أنه لا ضرر من تلك المقالة. نفّذ **وينبورن** مهمته، ونجح في التغلب علينا بمناوراته.

أخذت نفساً عميقاً آخر.

لم أشعر بالغضب تجاه **وينبورن**. غضبت من نفسي لأنني سمحت للرجل الذي يمتلك دماغ العوالق بالتغلب عليّ.

انتصبت واقفةً، وحدّقت بنفسي في المرآة، وبدأت بالتقييم.

رأيـــت عيـــنين مشرقتين بلون البندق يعتبرهما بعض الناس عميقتين. ظهرت بعض التجاعيد على زواياهما، لكنهما تظلان أفضل ميزاتي.

رأيـــت العظام العالية لخديّ، والأنف الذي يميل إلى الصغر، والفك الثابت. ولاحظت القليل من شعرات الشيب في رأسي، لكنّ الشعر البنيّ - العسلي ما زال هو السائد.

تراجعت قليلاً لأحصل على نظرة تشمل كامل جسمي.

يبلغ طولي 157 سنتم، أما وزني فيبلغ 60 كلغ.

أعتقد أن هذه هي نتيجة لا بأس بها عموماً لمن مشى مسافة أربعين ميلاً.

توقفت عند نظرة العينين البندقيتين في المرآة. تردّد صوت مألوف في دماغي.
قومـــي بوظيفـــتك يا بريتان. تجاهلي الشرود وركّزي. أنهي مهمتك. هذا هو واجبك، انتهي من المهمة.

مشى **بويد** ولمس ركبتي. فوجّهت إليه تعليقي التالي.

تحـــركت شـــعرات حاجبيه بطريقة هستيرية: "اللعنة على **وينبورن**، وعلى العنوان الذي تمسّك به".

رفـــع **بـــويد** أنفه إلى الأعلى في حركةٍ تدلّ على موافقته التامة. فربّتُ على رأسه.

رشـــشتُ المـــاء على وجهي، ووضعت بعض مساحيق التجميل، وجدلت شـــعري ولففـــته في أعلى رأسي، ثم أسرعت إلى الطابق السفلي. انشغلت بتعبئة أطباق الحيوانات، وفجأة سمعت صوت إغلاق الباب بعنف.

"لقد عدتُ يا عزيزتي!"

ظهر **بيتي** حاملاً المزيد من أكياس البقالة.

"هل تخطّط للاجتماع مع رفاقك من رجال البحرية؟"

أدّى **بيتي** تحية عسكرية، وأجابني بشعار رجال البحرية: "سيمبر فاي".

تناولت مرطباناً من سمك الرنكة المخلّل من الكيس الذي حمله **بيتي**، ووضعته في الثلاجة.

اســـتدار **بيتي** من حولي، وتناول زجاجة من **سام آدامز**، ثم فتحها مستخدماً مقبض أحد الأدراج.

منعتُ نفسي عن تأنيبه. لم تعد عادات **بيتي** السيئة من اختصاصي أنا.

قـــال **بيتي**: "أمضيت وقتي في محاولة استمالة بعض الأشخاص للتجاوب مع أسئلتي".

قلت في محاولة مني لتفسير كلامه: "ألم تستطعِ الاقتراب من **هيرون**؟"

"لا".

"إذاً ماذا فعلت؟"

"شاهدت الكثير من الصلوات، ومن الأصوات المفرحة التي تسبّح الله. عممت صورة **هيلين** على بعض المؤمنين بعد انتهاء الاحتفال".

"وبعد ذلك؟"

"لاحظت أن معظمهم يتميّز ببطء في الفهم بشكل لافت".

"ألم يتذكرها أحد؟"

تناول **بيتي** صورة من جيبه، ووضعها على الطاولة. اقتربت من الطاولة كي أتفحّصها.

لاحظت أن الصورة ضبابية بعض الشيء، وأنها صورة مكبرة عن صورة مأخوذة من رخصة القيادة، أو عن صورة جواز السفر. حدّقت الشابة في هذه الصورة بالكاميرا من دون أن تبتسم.

افتقدت **هيلين** للجمال، مع أن ملامحها كانت متناسقة بطريقة لطيفة. فرقت شعرها في منتصف رأسها، ولفّته حول مؤخرة رقبتها.

أعترف أن **هيلين فلين** تمتلك القليل الذي يميزها عن آلاف النساء الأخريات المساويات لها في السن.

قال **بيتي**: "انشغلت بعد ذلك بالتحدث مع صاحبة الشقة التي استأجرتها **هيلين**. لم أحصل على الكثير من المعلومات. قالت تلك السيدة إن **هيلين** كانت مهذبة، واعتادت على دفع الإيجار في الوقت المحدد، ولم تكن تستقبل زواراً. اعترفت لي أن الفتاة بدت قلقة بعض الشيء في المدة الأخيرة، وأن رحيل **هيلين** كان مفاجأةً لها. لم تمتلك السيدة أية فكرة عن نية **هيلين** بالرحيل إلى أن وصل الظرف الذي احتوى على الدفعة الأخيرة من الإيجار المستحق".

نظرت مجدداً على الوجه الذي يظهر في الصورة. بدا أنه من السهل نسيانه، ولهذا أدلى من شاهدها بأوصاف غير مفيدة عنها. قالوا إنها متوسطة الطول، ومتوسطة الوزن، لكنّ أحداً لا يتذكر وجهها.

سألته: "ألا يمتلك **فلين** صوراً أخرى لابنته؟"

"ما من صور تعود إلى ما بعد دراستها الثانوية".

"غريب".

"إن **فلين** رجل غريب حقاً".

"ذكرتَ لي أنه استخدم محققاً خاصاً".

أومأ **بيتي**: "استخدم رجل شرطة سابق يدعى **نوبل كروكشنك**، كان يعمل سابقاً في شرطة شارلوت – ماكلنبيرغ".

"وهل اختفى **كروكشنك** هكذا ببساطة؟"

"توقّف الرجل عن إرسال التقارير والرد على المكالمات الهاتفية. قمتُ ببعض الأبحاث بنفسي، ووجدت أنه لم يكن الرجل المفضل في دائرة شرطة شارلوت – ماكلينبيرغ. طُلب منه تقديم استقالته من تلك القوة في عام أربعة وتسعين، بسبب تعاطيه المخدرات".

"هل تمتع الرجل بخيارات عديدة؟"

"لم يتمتع الرجل بذكاء خارق، ولم يصبح **كروكشنك** مرشحاً ليكون رجل التحري الخاص المفضل لهذا العام. ويبدو أنه استخدم حيلة اختفائه مع زبائن آخرين. اعتاد الرجل على التعهد بالقيام بمهمات، وبعد أن يقبض أتعابه مقدماً، ينغمس باحتساء الكحول".

"ألا يخسر التحري الخاص رخصته بسبب ذلك؟"

"يبدو أن **كروكشنك** لا يؤمن بشيء اسمه مستندات، كما أنه يعاني من مشكلة مع شرطة شارلوت – ماكلينبيرغ".

"ألم يعرف **فلين** أن **كروكشنك** كان يحتسي الخمر، ولا يحمل رخصة للعمل؟"

"لقد استخدم **فلين** بواسطة شبكة الإنترنت".

"إن خيارات الشبكة محفوفة بالمخاطر على الدوام".

"ادّعى **كروكشنك** في إعلانه أنه متخصص بالأشخاص المفقودين، وهو الاختصاص الذي احتاج **فلين** إليه. أُعجب الرجل أيضاً بفكرة أن **كروكشنك** عمل في شرطة شارلوت وتشارلستون".

"متى استأجره **فلين**؟"

"فعـــل ذلك في شهر كانون الثاني (يناير) الماضي، أي بعد مضي عدة أشهر علـــى اختفاء **هيلين**. يعتقد **فلين** أن مكالمتهما الهاتفية الأخيرة قد جرت في أواخر شهر آذار (مارس). أبلغه **كروكشنك** أن عملية البحث تحقّق تقدماً، لكنه لم يعطه أية تفصيلات إضافية. و لم يسمع منه أي شيء بعد ذلك".

"ما هي الأماكن التي قصدها **كروكشنك** ليحتسي الكحول فيها؟"

"ذهـــب ذات مرة إلى **أتلانتيك سيتي**، ومرة أخرى إلى **فيغاس**. لا يعني ذلك أن كل زبائن **كروكشنك** كانوا ساخطين منه، لأن معظم الذين قابلتهم يعتقدون أنهم حصلوا على نتائج معقولة مقابل المال الذي دفعوه".

"وكيف حصلتَ على أسمائهم؟"

"ســـلّم **كروكشنك فلين** قائمة بزبائنه. بدأت بهؤلاء، ثم انتقيت أسماء جديدة في مرحلة لاحقة".

"ما الذي تعرفه عن نشاطات **كروكشنك** الأخيرة؟"

"لم يقـــبض **كروكـــشنك** آخر شيك أرسله إليه **فلين**، وكان دفعة مستحقة عن شهر شباط (فبراير). و لم يحرّك الرجل بطاقة ائتمانه، ولا حسابه المصرفي، منذ شهر آذار (مـــارس). بقي عليه مبلغ يزيد عن ألفين وأربعمئة دولار من حساب بطاقة الائتمان، وبقـــي له مبلغ أربعمئة واثنين وخمسين دولاراً في الحساب المصرفي. ودفع الرجل آخر فاتورة هاتفية مستحقة عليه في شهر شباط (فبراير). وأُقفل الحساب منذ ذلك الحين".

"لا بد أنه كان يمتلك سيارة".

"لا نعرف شيئاً عنها".

"وماذا بشأن هاتفه الخلوي؟"

"توقّـــف اشتراكه في أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر) بسبب عدم الدفع، ولم تكن المرة الأولى التي يتوقّف فيها اشتراكه".

"وأيّ تحرٍ خاص يعمل من دون هاتف خلوي هذه الأيام؟"

هـــزّ بـــيتي كتفيه: "لعل الرجل يحب أن يعمل بمفرده، ويُجري كل مكالماته الهاتفية من منـــزله".

"ماذا بشأن عائلته؟"

"إنـــه مطلّق، ومن دون أولاد. لم يكن الانفصال ودياً. تزوجت الزوجة ثانية و لم تسمع أي شيء عنه منذ سنوات عديدة".

"وماذا عن أشقائه وشقيقاته؟"

هزّ **بيتي** رأسه: "كان **كروكشنك** وحيد والديه اللذين توفيا منذ مدة. تحوّل الرجل نحو التوحد والانعزال عند تعرضه لأزمته مع شرطة شارلوت، و لم يُعرف أنه كان قريباً من أحد".

عدت لموضوع **كنيسة رحمة الله**.

"ما هي خطوتك التالية بعدما فشلت بالوصول إلى **هيرون**؟"

أشار **بيتي** بإصبعه إلى السماء: "لا تخافي أيتها السيدة الجميلة، فذلك العارف الآتي من لاتفيا قد بدأ السباق لتوه".

عـــندما تعرفت على **بيتي** كان طالب حقوق، وكان قد اتّخذ له هذا اللقب منذ بداية دراسته. لم أعرف أبداً من أطلقه عليه، ولطالما شككت أنه **بيتي** نفسه.

أغمضت عينيّ قليلاً، ثم ركّزت انتباهي مجدداً نحو البقالة. تناولت جبن الفيتا، ووضعت العلبة في الثلاجة.

أرجع **بيتي** كرسيه إلى الوراء قليلاً، وأسند قدميه على حافة الطاولة.

بـــدأت بمحاولة الاعتراض، لكنني تذكّرت أن هذه ليست مشكلتي. أليست هذه مشكلة **آن** وحدها؟

"وكيف كان يومك يا حلوتي؟"

تناولت صحيفة **بوست وكوريه**، ووضعتها على الطاولة، وأشرت نحوها.

قرأ **بيتي** مقالة **وينبورن**.

"هاي، ألاحظ هنا استخداماً رائعاً لقوافي كلمات العنوان".

"إنه شعر خالص".

"أفهم من هذا أنك لست راضية عن نشر هذا الفنّ للخبر في الصحف".

"لست راضية عن أية كلمة وردت في مقالته".

لم يـــسبق لي أن فكّـــرت **بتوفر** بالذات. متى استطاع **وينبورن** إجباره على الكلام؟ وكيف أقنع **توفر** بالإدلاء بتصريحه هذا؟

"ليست الصورة بهذا السوء".

رميت **بيتي** بنظرة مني.

"ما هي قصة تلك السفينة السياحية التي تورطت صديقتك فيها؟"

"لا أعرف".

"هل تعتزمين أن تسأليها؟"

"بالتأكيد لا".

وضـــعت الفلفل المشوي، وشرائح سمك السلمون، وشراب بين وجيري في الثلاجة. وأودعت رقائق الشوكولاته والفستق في الخزانة. ثم التفتّ ثانية نحو **بيتي**.

"هناك رجل توفي، ولا تعرف عائلته بأمره بعد. أعتبر أن رواية **وينبورن** تعتبر تعدياً على خصوصية الأسرة. هل أنا مخطئة في هذا؟"

هزّ **بيتي** كتفيه، ثم شرب شراب الشعير.

"الأخبار هي الأخبار يا عزيزتي. أتعرفين إلى ماذا تحتاجين؟"

قلت بحذر: "إلى ماذا؟"

"تحتاجين إلى القيام بنـــزهة".

"تناولت شطيرة عند الساعة الثالثة".

نهض **بيتي** موقعاً كرسيه على الأرض، ثم أمسكني من كتفيّ، وجعلني أستدير، ثم دفعني بلطفٍ خارج المطبخ.

"اذهـــبي وأحضري صحيفة، أو أي شيء مماثل، وانضمي إليّ عند الثامنة في العزبة".

"لست متأكدة من ذلك يا **بيتي**".

لم أكـــن متأكدة بالفعل، لأن كل خلية من خلايا دماغي كانت ترفع علماً لتحذيري.

مضى على زواجي من **بيتي** قرابة عشرين سنة لم ننفصل فيها إلا لمدة قصيرة جداً. أعرف أن زواجي قد فرض عدة تحديات عليّ، إلا أن التجاذب الجنسي بيننا لم يكن من بينها أبداً. استمتعنا كثيراً في بداية عهدنا بالزواج، وما زلنا قادرين على ذلك الآن.

لولا أن **بيتي** قد كسر كل العهود.

أقلقـــني هـــذا الانجذاب نحو **بيتي**. أعرف أن أموري تسير بشكل مرضٍ مع **رايـــان**، لـــذلك فأنا لا أريد أن أفعل أي شيء يهدِّد علاقتي به. أتذكر أيضاً أننا أصبحنا في آخر ليلة قضيناها معاً، مثل ولدين في صندوق شاحنة شيفي.

قال **بيتي**: "لا أعرف! انطلقي".

"**بيتي**...".

"يتوجّب عليك أن تأكلي، وأنا أيضاً. سنقوم بذلك معاً، لكن على القليل من الرمال".

أعـــرف أن هناك شيئاً ما في أعماقي يربط ما بين الطعام والتفاعل الإنساني. اعـــتدت عـــندما أكـــون وحدي في المنـــزل أن أعيش على الشطائر، أو الأغذية المثلجة. واعتدت عندما أسافر وحيدة أن أطلب إحضار الغداء إلى غرفتي، وأتناوله برفقة **ليترمان**، **أو رايموند**، **أو أوبراه**.

بدت لي الرفقة أمراً حسناً، بالإضافة إلى أنني أعتبر **بيتي** من الطهاة الماهرين.

"لا تعبره موعداً غرامياً يا **بيتي**".

"بالطبع لا".

7

صحّحت أوراق ثلاثة اختبارات إضافية قبل أن أضجر من التصحيح. تقلّبت على جانبيّ فوق وسائدي، وتنقلت في عالم ما بين اليقظة والنوم، وحلمت بأشياء لا معنى لها. شاهدت نفسي وأنا أركض على الشاطئ، وفي مرة أخرى شاهدت نفسي وأنا أرتّب العظام مع **إيما**.

رأيت نفسي في موضعٍ آخر وأنا أجلس في حلقةٍ من حلقات جمعية ***مدمني شرب الخمور المجهولين***. رأيت **رايان** معنا، و**بيتي**، وذلكَ الشخص الطويل الأشقر الشعر. انشغل الثلاثة بتبادل الأحاديث، لكن وجوههم كانت في الظلمة، لذلك لم أتمكن من مشاهدة تعابيرها.

استيقظت لأجد نفسي في غرفة يغمرها ضوء الشمس البرتقالي، ووجدت النسائم تتلاعب بأوراق أشجار النخيل الصغيرة المزروعة أمام الشرفة الخارجية. أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة وعشر دقائق.

مشيت إلى الحمام، وفككت شعري المرفوع إلى الأعلى، لأن خصلات شعري اختارت أن تذهب كل واحدة في اتجاهها الخاص. بلّلتُ هذه الخصلات، وتناولت فرشاة شعري، ثم بدأت بالتجفيف بواسطة جهاز الهواء الحار. توقفت قبل أن أنتهي من التجفيف. لماذا أفعل هذا؟ ولماذا شغلت نفسي بوضع بعض مساحيق التجميل على وجهي؟ رميت بالفرشاة جانباً، وهرعت إلى الطابق السفلي.

يرتبط منـــزل **آن** بالشاطئ بطريق خشبي عريض. وتحتل العزبة (غرفة صغيرة للاســـتراحة) مـــوقعاً في أعلى نقطة في هذا الطريق. وتشرف العزبة على الكثبان الـــرملية. شـــاهدت **بيتي** هناك يحتسي الشراب، بينما كان آخر وهج صادر عن الشمس الغاربة يبعث الدفء في شعره.

إنـــه نفـــس شعر **كاتي**. ويبدو أن البصمة الجينية المشتركة كانت قوية جداً بينهما، بحيث إنني أعجز عن النظر إلى شعر أحدهما من دون رؤيتي للآخر.

ســـرت حافية القدمين، ولذلك لم يلاحظ **بيتي** تقدمي باتجاهه. تمكّن الرجل مـــن إيجاد غطاء طاولة، وحمّالة شموع فضية، وإناء للزينة، ووعاء لحفظ مكعبات الـــثلج. أعـــدّ **بيتي** المكان لشخصين، كما لاحظت وجود براد صغير على أرضية العزبة.

حافظت على جدّيتي، وسيطر عليّ إحساس بالخسارة.

لا أؤمـــن عادةً بفلسفة وجود *رفيق واحد للروح*، لكنني عندما التقيت **بيتي** تحـــوّل الانجذاب نحوه إلى اندماجٍ نووي، أما عندما تلامست أذرعنا، فأحسست بالـــنار تـــسري في أعماقي. وأسرع قلبي بدقاته عندما كنت أراه وسط حشدٍ من الناس. علمت منذ البداية أن **بيتي** هو الرجل الذي سأتزوجه.

نظرت إلى وجه **بيتي** الآن. ورأيت بعض الخطوط والسمرة فيه، ولاحظت أن جبهـــته زحفت قليلاً إلى الشمال. اعتدت أن أرى ذلك الوجه عند استيقاظي كل صـــباح لفترة تزيد عن عقدين من الزمان. امتلأت تلك العينان بالجزع عند ولادة ابنتـــنا. أعرف أن يديّ قد لامستا تلك البشرة آلاف المرات. أعرف كل منحنيات جسده، وكل عضلة فيه، وكل عظمة من عظامه.

أتذكر كل عذرٍ اختلقته شفتاه.

وأتذكر كل مرةٍ مزّقت الحقيقة فيها قلبي.

انتهى الأمر، لا فائدة.

"مرحباً أيها المتأنق".

نهض **بيتي**، والتفت ناحية مصدر صوتي: "ظننت أنك أخلفت الموعد".

"آسفة، لقد استغرقت في النوم".

"أتريدين طاولة قرب النافذة سيدتي؟"

جلست على كرسي. ثنى **بيتي** ذراعه وتناول زجاجة كوكاكولا للحمية من وعاء مكعبات الثلج، ثم وضعها على معصمه كي أدقّق فيها.

قلت: "إنها سنة ممتازة".

سكب **بيتي** الشراب في كوبي، ثم بدأ بنشر الطعام. وضع أولاً القريدس البارد، ثم سمك السلمون المرقط المدخن، وسلطة الكركند، والجبن الأبيض الطري المملح، وقطع من خبز الأرّز، والتابينايد.

أشك بقدرة زوجي الغريب الأطوار على البقاء في عالم يفتقد للمخازن التي تبيع المواد الغذائية.

تناولنا الطعام، وراقبنا أشعة الشمس المتسللة وهي تتغير من اللون الأصفر إلى اللون الرمادي. بدا المحيط هادئاً، وتناهت إلى أسماعنا سيمفونية الأمواج في عزفها أثناء تمدّدها بلطف على الشاطئ. سمعنا بين الحين والآخر صوت طائر البحر وأجابه بعد حين طائر آخر.

انتهينا من تناول الفطائر بينما بدأ اللون الرمادي بالتحول إلى الأسود.

نظّف **بيتي** الطاولة، ثم وضعنا أقدامنا على الدرابزون.

"يناسبك الشاطئ يا **تمب**. تبدين رائعة".

بدا **بيتي** رائعاً هو الآخر، وخصوصاً بشعره الأشعث على طريقة **بيتي بيترسونز**.

كرّرت تحذيري السابق له: "لا تعتبر هذا بمثابة موعد غرامي يا **بيتي**".

أجاب ببراءة: "ألا أستطيع التحدث عن واقع كونك رائعة؟"

ظهرت الأنوار الصفراء الخافتة في المنازل المحاذية للشاطئ. إنه يوم آخر يوشك على الانتهاء. استغرقت مع **بيتي** بمشاهدة هذا المنظر، بينما كان النسيم المثقل بالملوحة يتلاعب بشعرنا.

لاحظت أن نبرة صوته أصبحت أكثر عمقاً عندما تكلم ثانيةً.

"إن ما يصعب عليّ تذكره هو سبب افتراقنا".

"افترقنا لأنك مزعجٌ كثيراً، ولأنك خائن مدهش".

"الناس يتغيرون يا **تمب**".

بدت كل التعليقات على كلامه هذا باهتة، لذلك لم أُعلّق بشيء.

"أتعتقدين...".

رنّ هاتفي الخلوي في تلك اللحظة. تناولته من جيبـــي، وضغطت على الزر لأجيب.

انساب صوت **رايان**: "كيف حال أجمل امرأة في هذا الكوكب؟"

أنـــزلت قدميّ، واستدرت بمقعدي نصف استدارة.

"هل انشغلتِ كثيراً هذا اليوم؟"

" لم يكن بذلك السوء".

"هل من شيء جديد عن هيكلك العظمي؟"

"لا".

مـــلأ **بيتي** كوبه بمزيد من الشاردوناي، ثم دفع بزجاجة كوكاكولا باتجاهي. هززت رأسي إشارة لعدم رغبتي بالكوكاكولا.

انسابت أصوات عبر الهاتف، أو أن **رايان** قد لاحظ تحفظي: "هل جاء اتصالي في وقت غير مناسب؟"

صرخ نورس في الأعالي:

"أنا على وشك إنهاء غدائي".

"هل أنتِ على الشاطئ؟"

أردت أن أقـــول له "إنها ليلة جميلة"، لكنني اعتبرتها عبارة باهتة، فاستبدلتها بقولي: "أراد **بيتي** أن نقوم بنـــزهة".

بقي **رايان** صامتاً لبرهة كاملة، ثم أجاب: "حسناً".

"كيف حال **ليلي**؟"

"إنها بخير... سأتحدث معك في وقت لاحق يا **تمب**".

أقفل الخط فيما أبقيت السماعة في يدي.

سأل **بيتي**: "هل من مشكلة؟"

هززت رأسي بالنفي، ثم نهضتُ: "سأدخل إلى المنزل. شكراً على الغداء، كان رائعاً بالفعل".

"على الرحب والسعة".

شرعت بالسير على الطريق الخشبية.

"**تمب**".

استدرت.

"أحب أن أتحدث إليك عندما تصبحين مستعدة للإصغاء".

مشيت باتجاه المنزل، وشعرت بنظرات **بيتي** تلاحق ظهري.

استغرقت في إغفاءتي طيلة فترة ما بعد الظهر، أي إلى ما بعد الساعة الثالثة بكثيراً.

هل قلقي بشأن انزعاج **رايان** هو سبب اضطرابي؟ لم يردّ **رايان** على مكالماتي المتعددة.

هل انزعج **رايان** فعلاً؟ أم أنني أصبحت شديدة الارتياب؟ ألم يكن هو الذي قصد نوفا سكوتيا لزيارة **ليلي**. أليست والدة **ليلي** في نوفا سكوتيا أيضاً؟

مهما يكن الأمر.

تساءلت عن السبب الذي يزعج **إيما**؟ لا بد أن الشخص الذي اتصل بها يوم السبت لم يحمل إليها أخباراً مفرحة. هل تواجه متاعب جديدة في قضية السفينة السياحية؟

تساءلت عن الشخص الذي ركن سيارته خارج منزل **آن** في صبيحة هذا اليوم؟ أيمكن أن يكون **ديكي دوبري**؟ هدّدني ذلك الرجل، لكنني لم أحمل تهديده على محمل الجد. هل سينتقل دوبري إلى التهديد الجسدي؟ لا أعتقد أنه سيفعل ذلك شخصياً، لكنه قد يرسل شخصاً آخر يكلّفه بتنفيذ تهديداته.

هل **لدوبري** علاقة ما بالهيكل العظمي المدفون في دي ويز؟ بدا ذلك افتراضاً ذهب بعيداً.

هــل تــسببت البكتيريا بتلويث عظام رجل الجليد فعلاً؟ وهل أمضى ذلك الرجل خمسة آلاف سنة في جبال الألب ليقع الآن فريسة للميكروبات؟

لمــاذا تــوجد طريقتان لكتابة معجون الطماطم في الإنكليزية Ketchup و Catsup؟ ومن أين أتى الاسم على أي حال؟

تقلّبت فوق السرير لساعات طويلة، ثم استغرقت بنومي يوم الاثنين إلى وقت تعدّى ما خططت له.

وصــلت إلى المستشفى بعد الساعة العاشرة. ووجدت أن **إيما** قد سبقتني إلى هــناك. سبقني أيضاً طبيب الأسنان الشرعي، بجسده البدين وبذلته الرياضية التي لا بــد أنــه اشتراها في وقت إقفال متجر كاي مارت. قدّمته **إيما** لي على أنه **بيري غرايمز**.

اكتــشفت أن مصافحة **غرايمز** هي من النوع الذي يحار المرء بكيفية التعاطي معها. إنها أضعف من تدوم، وأقوى من قدرة المرء على التخلص منها.

حرّرت يدي أخيراً بعد أن وجّهت ابتسامة نحو **غرايمز**. بادلني الابتسامة، وبدا لي أنه أشبه ببرميل ملفوف بالمخمل الأزرق.

اكتــشفت أن **إيما** قد انتهت من نقل الهيكل العظمي من البراد. استلقى هذا الهــيكل على نفس العربة المدولبة التي شغلها يوم السبت، ولاحظت أن ظرفاً بنياً كبيراً يغطي أضلاعه. وانتشرت صور الأشعة السينية لأسنانه فوق علبة الضوء.

تــبرّع **غرايمز** بتقديم شرح لوضعية الهيكل التركيبية نقطةً فنقطة، وشرح لنا الحالــة الــصحية للفــم، والسجل الطبي لأسنان الهيكل الذي يحمل رقم CCC-2006020277. بــدا أن صــاحبه كــان يُهمل تنظيف أسنانه بالفرشاة، أو بخيط الحرير. شرح لنا وجود حشوات الأضراس، وكل الفجوات التي لم تُعالَج، وتراكم القــلاح (الصفرة التي تعلو الأسنان)، أضاف أن الرجل لم يقصد طبيب أسنان قبل ســنوات عديدة من موته. لم أستطِع التركيز على ما قاله، لأنني كنت على عجلة للانتقال إلى العظام.

أخيراً، انتهى **غرايمز** من محاضرته، وأسرع بمغادرة الغرفة بصحبة **إيما** من أجل تعبئة نموذج قضية **للمركز الوطني لمعطيات الجرائم**. تفحّصت الصور التي التُقطت

للجسم واحدة فواحدة. بدأت بالجمجمة، وبالأطراف العليا، ثم الأطراف السفلى، والحوض.

لم أدهش للنتيجة، فأنا لم ألاحظ شيئاً واضحاً عندما اهتممت بالعظام.

انتقلت إلى منطقة الجذع.

عمد تقنيّ المختبر إلى بسط الأضلاع، وقام بتصويرها من الأعلى لأنها لم تحتوِ على آثار اللحم. لم ألاحِظ أي شيء يثير الشبهة في الجانب الأيمن. أوشكت على الانتهاء من تفحّص الجانب الأيسر عندما لاحظت علامة داكنة، بشكل هلال، قرب الطرف الذي يلامس العمود الفقري للضلع الثاني عشر.

تقدّمت نحو العربة المدولبة، واخترت ضلعاً، ثم أخذته لأتفحّصه تحت المجهر. بدا التشوه تحت التكبير بشكل كسر صغير محاط بكتلة عظمية صغيرة عند طرف العظمة السفلي. بدا التشوه حقيقياً بالرغم من صغره.

هل نتج الكسر عن نصل سكين؟ وهل تعرض رجلنا المجهول إلى الطعن؟ أم هل نتج هذا الكسر عن عمل حدث بعد الوفاة؟ أم نتج عن ضربة مالج؟ أم هل أنه نتج عن حلزون، أو إحدى القشريات؟ لم أصل إلى إجابة مقنعة رغم أنني قلّبت الضلع على أكثر من زاوية، وبالرغم من زيادتي لقوة التكبير، وبالرغم من تعديل وضعية المجهر الذي يعمل بالألياف البصرية.

عدت إلى صور الأشعة السينية، وتفحّصت عظام الصدر والترقوة، وعظام الكتف، ثم انتقلت إلى بقية الأضلاع. بدا كل شيء في مكانه الطبيعي.

انتقلت بعد ذلك إلى العمود الفقري. لاحظت أنه تمّ تصوير الفقرات بعد فصلها ووضعها بشكل منبسط، أي مثلما كانت حال الأضلاع، وجُمعت الفقرات وصوّرت ثانية من الجانبين.

يُصاب عادة القوس الخلفي، أو المنطقة الخلفية من الفقرات، وتكون هي المنطقة التي تتلقى الضربة، عندما تتمّ عملية الطعن. شاهدت صور الفقرات واحدة تلو الأخرى. لم تعطِني أي واحدة منها منظراً واضحاً لهذه المسطحات.

عدت إلى الهيكل العظمي مجدداً، وبدأت الفحص عظمةً فعظمة. قمت بتقليب وتفحّص كل عظمة تحت العدسة المكبرة المحاطة بمصباح فلوري.

لم أجد شيئاً إلى أن حدّقت جيداً بالعمود الفقري.

تختصّ كل عظمة بشيء معيّن، حتى الفقرات. إن الفقرات العنقية السبع تدعم الـــرأس وتسمح بحرية حركة الرقبة. أما أضلاع الصدر الاثني عشر فهي التي تدعم القفـــص الصدري. أما الفقرات الخمس الموجودة في الظهر فتتوسط قوس الظهر. وتشكل عظمات أسفل الظهر الخمس جهة الذيل من الحزام الحوضي. إنها وظائف مختلفة، وأشكال مختلفة.

شدّت انتباهي فقرة العنق السادسة.

إنـــني أقوم هنا بتبسيط شديد. تمتلك فقرات العنق وظائف أخرى إلى جانب دعـــم الـــرأس، وإحدى هذه الوظائف هي توفير مرور آمن للشرايين المتوجهة إلى مؤخـــرة الدماغ. يشتمل ممر العبور هذا على فجوة صغيرة- أو ثقب- تتواجد في العظمـــة المـــستعرضة، ومنصة عظمية صغيرة تتواجد ما بين كتلة الفقرة وقوسها. يحمـــل الهـــيكل العظمي، الذي يحمل الرقم CCC-2006020277 كسراً مفصلياً عمودياً، يمتدّ من العظمة المستعرضة اليسرى عبر الفجوة.

قـــرّبت العظمة من العدسة. فوجدت كسراً دقيقاً جداً في جانب القوس من الفجوة.

لم أجـــد أثراً يدلّ على عملية التئام مفصلي، فتأكدت من أن الكسرَين نتجا عـــن صـــدمة تعرضت لها عظام حية. يبدو أن الإصابة تتزامن مع وقت حصول الوفاة.

استرخيت في مقعدي لأفكر بالاحتمالات.

ماذا تعني إصابة الفقرتين C-6، وأسفل الرقبة؟

هـــل نتجتا عن سقطة؟ تتسبب السقطات بانضغاط شديد على نحوٍ مفاجئ. يـــؤدي هـــذا الانضغاط في العادة إلى كسر في الفقرات، لكنّ الكسور الناتجة عن السقطات تبدو ضاغطة بطبيعتها، وعادة ما تؤثر على كامل الفقرات. لاحظت أنني أمام كسرٍ مفصلي للعظمة المستعرضة.

هل نتج الكسر عن عملية خنق؟ يؤثر الخنق عادة على العظمة اللامية، وهي عظمة صغيرة تتواجد في مقدمة الحنجرة.

هل نتج عن مقبض سوط؟ إن هذا أمر مستبعد.

هل نتج عن ضربة على الذقن؟ أم على الرأس؟

لم أستطع التفكير بمشهد يتناسب مع النمط الذي أشاهده أمامي.

تابعت البحث وسط خيبة أمل شديدة من جانبي.

وجدت أشياءً أكثر.

تميّزت فقرة الصدر الثانية عشرة بشقّين شبيهين بذلك الذي لاحظته في الضلع الثاني عشر. لاحظت أن الفقرتين الأولى والثالثة من فقرات أسفل الظهر حملتا شقاً واحـــداً في كـــلٍّ منهما. بدت أنماط هذه الشقوق محيرة، مثلما هو الكسر الذي لاحظته في الرقبة.

هل ما أشاهده هو مجرد آثار سكين؟ أعرف أنه لكي يتمكن المرء من اختراق فقرات أسفل الظهر، يتوجّب عليه أن يطعن بشدة كي يخترق كامل البطن. ويتعيّن أن تكون الطعنة قوية جداً.

فكّرت في هذه الشقوق الصغيرة جداً والتي نتجت عن آلة حادة.

ماذا جرى بحق الجحيم؟

عادت **إيما** فيما أنا مستغرقة بالتفكير بالاحتمالات.

سألتها: "هل ذهب **غرايمز**؟"

أومـــأت **إيما**. لاحظت اختفاء الألوان التي ظهرت سابقاً على وجهها، وهو الأمـــر الـــذي كثّف الدوائر السوداء الموجودة تحت عينيها: "انتهينا من النموذج، والأمر يعود الآن إلى الشريف".

يـــستمرّ **النظام الوطني لمعطيات الجرائم** بالعمل في كل الأوقات، ومن دون توقـــف. ولا يُـــسمح بالوصول إليه إلا للأفراد الاتحاديين الموكلين بفرض النظام، ورجال أمن الولايات، ورجال الأمن المحليين.

"هل سيعمل **غوليت** على إرسال النموذج على الفور؟"

رفعت **إيما** يديها راسمةً إشارة *من يدري*، وتناولت كرسياً من جانب الجدار. تهالكت على الكرسي وأسندت مرفقيها على فخذيها.

سألتها: "ما الأمر؟"

هزّت إيما كتفيها: "يبدو الأمر محبطاً في بعض الأحيان".

انتظرتها كي تكمل.

"لن يضع غوليت عبارة أولوية على هذه القضية. وما هي احتمالات إيجادنا لنتيجة عندما نُدخل مواصفات هذا الرجل في النظام؟ تفرض القوانين الجديدة أن يكون الشخص معاقاً، أو ضحية كارثة طبيعية، أو أن يكون محتجزاً، أو مختطفاً، أو معرضاً للخطر، قبل إدخال معطياته إلى النظام".

"ماذا يعني هذا الكلام؟"

"يعني أن يكون الشخص مفقوداً برفقة شخص آخر، وتحت ظروف توحي أن سلامته (أو سلامتها) الجسدية في خطرٍ شديد".

"هل يعني هذا أن الكثير من الأشخاص المفقودين لا تدخل أسماؤهم في النظام إطلاقاً؟ وأنه يُحتمل أن لا تكون معطيات الرجل قد أُدخلت عند اختفائه؟"

"يسود الاعتقاد أن معظم الأفراد البالغين المفقودين قد اختفوا بإرادتهم. ويشمل ذلك الأزواج الذين غادروا المدينة مع عشيقاتهم، والزوجات المتعطشات اللواتي يتطلعن إلى أشياء أكثر، وكذلك الأشخاص المدينين المتهربين من دفع ديونهم".

تذكرت قضية شغلت وسائل الإعلام منذ عهدٍ قريب: "أو مثل العروس الهاربة".

استرخت إيما في جلستها، ومدّت قدميها: "إن مثل هذه القضايا الرئيسية هي التي تغذّي عقلية المرء. إنك محقة، لأن الغالبية العظمى من الأشخاص البالغين المفقودين هم من الأشخاص الذين يحاولون الهرب من واقع حياتهم فحسب. أعلم أنه لا وجود لقوانين تمنع هذا النوع من الأشخاص من الاختفاء، كما أن إدخال معطيات هؤلاء من شأنه إرباك قاعدة المعلومات هذه".

أغمضت إيما عينيها، وأرجعت رأسها إلى الخلف مستندة على الحائط.

التفتُّ نحو العربة المدولبة وقلتُ: "أشك أن هذا الرجل قد اختفى هكذا، وبكل بساطة. انظري إلى هذا".

سمعت حركة، ثم تبعها صوت حاد بينما كنت مشغولة بترتيب الفقرات.

استدرتُ.

ورأيت **إيما** مكومةً على الأرض المبلطة.

8

وقعت **إيما** على أعلى رأسها. تحدّب ظهرها في حين تشنجت أطرافها وساقاها، وبدت مثل أرجل عنكبوت أحرقتها الشمس.

هرعت نحوها، ووضعت إصبعين من أصابعي فوق حنجرتها. لاحظت أن نبضها ثابت لكنه ضعيف.

"**إيما**!"

لم تردّ عليّ.

أنزلت جسد **إيما** ليصبح مستلقياً على الأرض، ووضعت خدها بلطف على البلاط. بعدها انطلقت نحو الرواق.

"مساعدة! أحتاج إلى مساعدة طبية هنا!"

فُتح الباب، وظهر وجهٌ من خلاله.

"انهارت **إيما روسو**. اتصلوا بقسم الطوارئ".

تقوس حاجبا وفم صاحب الوجه.

"الآن!"

انسحب الوجه. ركضت عائدةً نحو **إيما**. اقتحم مساعدان طبيان الغرفة بعد مرور عدة لحظات، وانهمرت أسئلتهما أثناء انهماكهما بوضع **إيما** على العربة المدولبة.

"ماذا حدث لها؟"

"لقد انهارت".

"هل قمتِ بتحريكها؟"

"قلبتها كي تتمكن من التنفس".

"هل تعاني من مشاكل صحية؟"

نظرت نحوه بعينين طارفتين نصف مفتوحتين.

"هل كانت تأخذ أدويةً؟"

شعرت باليأس فأنا لا أعرف إن كانت تخضع لعلاجٍ معيّن.

"ابتعدي عن طريقنا من فضلك".

سمعت أزيز الدواليب المطاطية على البلاط، وكان صوتها أشبه بصرير ناعم..

انغلق باب غرفة التشريح بشدة.

أغمضت **إيما** عينيها. شاهدت أنبوباً يبدأ من ذراعها اليسرى ويصل حتى كيس المصل المعلق فوق رأسها. ثُبّت الأنبوب بأشرطة لاصقة بيضاء اللون. لاحظت أن لون هذا الشريط اللاصق لا يختلف كثيراً عن لون جلد **إيما**.

عرفت هذه المرأة ككتلة نشاط عاتية مليئة بالطاقة، ولطالما كانت قوةً من قوى الطبيعة. بدت الآن صغيرة وضعيفة على سريرها في المستشفى.

مشيت ببطء عبر الغرفة، وأمسكت بيد صديقتي.

فتحت **إيما** عينيها.

"أنا آسفة يا **تمب**".

فاجأتني كلماتها، ألست أنا من يجدر به الاعتراض. ألم أكن أنا من تجاهل علامات وجعها؟

"استريحي الآن يا **إيما**. سنتحدث لاحقاً".

"إنه ورم ليمفاوي غير خبيث".

"ماذا؟"

اجتاحتني موجة من ردّ فعل إنكاري. أعرف تماماً الأشياء التي تتحدّث عنها **إيما**.

لاح شـــبح ابتسامة باهتة على شفتيها: "أعاني من ورم ليمفاوي غير خبيث (NHL)، وأنا لا أتحدث هنا عن لعبة الهوكي".

شعرت أن شيئاً بارداً بدأ يتجمع في صدري: "منذ متى؟"

"منذ مدة؟"

"حدِّدي لي طول هذه المدة؟"

"عدة سنوات".

"ما هو هذا الورم؟"

شعرت أن سؤالي هذا لا معنى له، لأنني لا أعلم شيئاً تقريباً عن الأورام الليمفاوية.

"ليس بالورم المستغرب، إنه ورم ليمفاوي لخلايا - ب الكبيرة".

أجابتني وكأنها سمعت العبارة أو قرأتها آلاف المرات. يا الله، يبدو أن هذا هو ما حصل فعلاً.

بلعت ريقي: "وهل تخضعين لعلاج؟"

أومـــأت **إيما**: "كنت في فترة نقاهة، لكنني انتكست. إنني أخضع حالياً لنظام CHOP لكـــنني أتلقاه خارج العيادات. إنني أتناول فينكريستين، وبريدينسولون، ودوكسوريوبيسين، وسايكلوفوسفامايد. إن أشدّ ما يخيفني هو أن أصاب بعدوى. أعـــرف أن الأدويـــة المـــسممة للخلايا تفتح الباب على مصراعيه أمام العدوى، وأعرف أن أي تعرض لهجوم عنقودي يستطيع أن يجعلني طريحة الفراش".

أردت أن أغمـــض عـــينيّ، وأن تنتهي كل الأشياء التي أسمعها الآن، لكنني أبقيتهما مفتوحتين.

رسمـــت ابتسامة اضطرارية على شفتيّ: "إنك امرأة جبارة، ستكونين على ما يرام".

"عرفت يوم السبت أنني لا أستجيب للعلاج بالصورة التي يأملها طبيبـــي".

تذكـــرت المكالمة الهاتفية التي حملت الأنباء السيئة. هل هذه الأخبار هي التي أوشكت **إيما** على إبلاغي إياها عندما خرجنا من المستشفى؟ وهل استغرقت كثيراً بالعمـــل علـــى ذلك الهيكل العظمي بحيث لم أصغِ إليها؟ وأخيراً هل أقدمت على شيء جعلها تيأس من إفشاء سرها لي.

"هل أخبرتِ أحداً؟"

هزّت **إيما** رأسها.

"إذاً لم يكن الصداع النصفي هو ما أصابك يوم السبت؟"

"لا".

"كان عليكِ أن تثقي بي يا **إيما**. كنت تستطيعين الوثوق بي".

هزت **إيما** كتفيها: "لا تستطيعين مساعدتي، فلماذا أُقلقكِ؟"

"هل أعلمتِ الموظفين الذين يعملون في مكتبك؟"

تـــوهجت نظرة غريبة في عينيها: "خسرت بعض الوزن وبعض الشعر، لكنني ما زلت قادرةً على القيام بوظيفتي".

"بالطبع، ما زلتِ قادرة على القيام بوظيفتك".

مسّدت يد **إيما**. أعرف أنني أفهم هذه الصديقة، لكن بشكل جزئي.

تهـــتم **إيمـــا** بواجـــباتها كـــثيراً، وهي لا تدع أي شيء يمنعها من تأدية هذه الواجبات. إننا نتشارك معاً في هذه الميزة.

تتمـــتع **إيمـــا روسو** بدافع آخر. إنها تتمتع بقوة محركة لم أفهمها تماماً. هل تـــسيطر عليها الرغبة في الحصول على السلطة؟ أم الحصول على التمايز؟ هل هي رغبة مهووسة للتفوق؟ هل تتحرك على وقع طبول لم أسمعها؟

لا أتمـــتع بموهبة الاعتناء بالآخرين، فاخترت استخدام عبارة مستهلكة: "يحرز الطب تقدماً كبيراً في معالجة الأورام هذه الأيام".

"أنتِ محقة تماماً".

رفعـــت **إيما** راحة يدها، فلاقيتها براحة يدي، ثم أنـــزلت يدها بعد ذلك إلى السرير.

إنهـــا خلايا – ب الكبيرة المنتشرة. إنها نوع متقدم من الورم الليمفاوي. بدا ذلك السرطان مدمراً فضلاً عن تحركه بسرعة كبيرة.

شـــعرت بعـــينيّ تحرقانني. نجحت مجدداً بإبقائهما مفتوحتين. نجحت كذلك برسم ابتسامة على شفتيّ.

انساب لحن **الرجال الفاسدون** من خزانة بجانب السرير.

قالت **إيما**: "إنه هاتفي الخلوي".

"هل هذا هو لحن نشيد الشرطة؟"

أشارت **إيما** باهتمام: "إنه في كيس النايلون بين ثيابي".

أمسكت بالهاتف وكانت الموسيقى قد توقفت. تفحّصت **إيما** هوية المتصل، وضغطت على زر إعادة الاتصال.

أعرف أنه يتوجّب عليّ الاعتراض ونصحها بالاستراحة وتجنب الإرهاق، لكن ذلك كان بلا معنى. أعرف أن **إيما** ستفعل ما تريد. إننا نشترك معاً في هذه الخاصية أيضاً.

"**إيما روسو**".

سمعت صوتاً خافتاً على الجهة الأخرى من الخط.

قالت **إيما**: "أنا مقيدة".

بدأت بالتساؤل عن معنى كلامها أنها مقيدة.

أسكتتني **إيما** بإشارة من يدها.

أغمضت عيني، لكن **إيما** وجّهت إلي إصبعاً تحذيرياً.

"من هو المتصل؟"

أجاب الصوت الخافت، لكنني لم أفهم أي شيء من كلماته.

"أين؟"

أشارت **إيما** إليّ كي أحضر إليها شيئاً لتكتب عليه. تناولت قلماً وورقة صغيرة من حقيبتي الصغيرة. أصدر أنبوب المصل صوتاً عندما بدأت **إيما** بالكتابة.

"من يتولى القضية؟"

تحدث الصوت الخافت مطولاً.

"أعطني التفاصيل".

نقلت **إيما** الهاتف إلى الجهة الأخرى، ولهذا لم يعد بإمكاني أن أسمع الصوت. تطلّعت عيناها باتجاه ساعة يدها، لكنها لم تكن موجودة في مكانها. أشارت إلى ساعتي، فمددت معصمي باتجاهها.

"لا تلمسوا الجثة. سأكون هناك في غضون ساعة".

انتهت المكالمة. أسرعت إيما إلى نـــزع الغطاء عنها، ثم أرجحت ساقيها على الجهة الأخرى من السرير.

وضعت يداً على كل ركبة من ركبتيها: "مستحيل. أعتقد أنك فقدت وعيك منذ ساعات قليلة، إلا إذا كنت مخطئة".

"يقـــول طبـــيب الطـــوارئ إن فقداني لوعيي نتج عن الإرهاق الذي يسببه العلاج، لكن كل مؤشراتي الحيوية تعمل بانتظام".

أعرف أنها لم تنجح في انتقاء الكلمة المناسبة: "إرهاق؟ انهرتِ كلياً، وكدت تتركين دماغك على الأرض".

"أنا بخير الآن".

وقفت إيما، وخطت خطوة واحدة، لكن ركبتيها انثنتا. استندت على اللوحة المثبـــتة فوق السرير، وأغمضت عينيها، ثم أجبرت أعضاء جسدها على استئناف عملها.

همست: "إنني بخير".

لم أزعـــج نفـــسي بالجدال. أمسكت يديها وساعدت إيما على الرجوع إلى سريرها، ثم سحبت الغطاء فوق خصرها.

قاومتني قليلاً: "لديّ الكثير من الأعمال".

قلت لها: "لن تذهبي إلى أي مكان حتى يسمح لك الطبيب بالمغادرة".

أغمضت إيما عينيها بطريقة كادت تتسبب بانهمار الدمع من عينيّ.

تطلّعـــت نحـــو صديقتي التي تفتقد إلى الزوج والأولاد، حتى أنه لا علم لدي عـــن وجود شخص يحبها. أخبرتني ذات مرة عن شقيقة غريبة، لكن ذلك حدث مـــنذ ســـنوات عديدة. ولا تمتلك إيما أي شخص في حياتها مقرّب منها على حدّ علمي.

"هل لديك أصدقاء يمكنهم الاعتناء بك؟"

حـــدّقت إيما بشيء وهمي في الغطاء: "لدي أسراب منهم، لست بتلك المرأة المتوحدة الغريبة التي تظنينها".

قلت كاذبة: "أنا لا أفكر بك مطلقاً بهذا الشكل".

دخـــل طبـــيب الطـــوارئ المقيم في تلك اللحظة إلى الغرفة. لاحظت شعره الأســـود اللماع، وبدا وكأنه موجود هنا منذ أن دخل ريغان إلى البيت الأبيض. شاهدت اسمه **بلس** مكتوباً على بطاقة معلقة على صدره.

تخيّلت أن هذه البطاقة هي نوع من التحية العفوية؟ ***أتمنى لكم دوام النعمة.***

بدأ **بلس** بتقليب الأوراق المتعلقة **بإيما**.

قالت **إيما**: "أخبرها أنك لا تعتبرني المتبرعة التالية بأعضائها (بعد وفاتها)".

نظر **بلس** باتجاهي: "إنك على ما يرام".

قلتُ: "لكنها غابت عن الوعي منذ ساعتين".

التفت **بلس** نحو **إيما**: "يتسبّب العلاج الذي تخضع له بالوهن أحياناً. لا يجدر بك الاشتراك في سباق الماراتون، وسأسمح لك بالخروج فيما عدا ذلك، لكن على افتراض أن تتصلي بطبيبك الذي يعالجك".

رفعت **إيما** إبهامها (علامة النجاح).

قلتُ: "إنها مصممة على البدء بالعمل فور خروجها".

قال **بلس**: "لا أحبذ هذه الفكرة. اذهبي إلى البيت، وخذي قسطاً من الراحة كي تستعيدي قوتك".

قالت **إيما**: "لن ألعب في الخط الأمامي لصالح **نمور كارولاينا**".

انشغل الطبيب بتدوين بعض الملاحظات في سجله: "ماذا تعملين؟"

قلتُ: "إنها المحققة الجنائية".

توقف **بلس** عن الكتابة وتطلع نحو **إيما**: "لهذا بدا الاسم مألوفاً لدي".

ظهـــرت ممرضـــة مـــن المدخل، وسرعان ما طلب منها **بلس** نـــزع أنبوب المصل.

استأنف **بلس** تقليب أوراق بياناته: "إن صديقتك بخير. لا تعملي في ما تبقى من هذا النهار. إذا لم تستريحي فربما ستتعرضين إلى نوبة ثانية".

هـــرعت **إيما** إلى هاتفها لتتصل **بغوليت**، وذلك بعد مرور لحظات قليلة على مغادرة **بلس** للغرفة. لم يكن الشريف موجوداً، ولهذا قالت **إيما** إنها سترسل نماذج **النظام الوطني لمعطيات الجريمة** شخصياً.

ارتـــدت ملابـــسها بعدما أنهت الاتصال، ثم خرجت من الغرفة. تبعتها وأنا مـــصممة علـــى أن أبقى بقربها لإقناعها بالذهاب إلى منـــزلها. عزمت على البقاء قربها كي أقدم لها المساعدة إذا ما تعرضت إلى نوبة ثانية.

تـــساعدنا معاً لنضع الهيكل رقم CCC-2006020277 في كيسه النايلوني، ثم طلبنا من تقنيّ المختبر أن يعيده إلى البراد. عمدنا بعد ذلك إلى وضع صور الأشعة، وبقية الأوراق التابعة له في مكانها. دأبت أثناء ذلك على ترويج خطتي التي تقضي بذهاب **إيما** كي تستريح في بيتها.

دأبت **إيما** على ترديد عبارة ***أنا بخير***.

بدت مغادرة المستشفى بمثابة مواجهة حوض مليء بالعسل الدافئ. ركضت **إيما** نـــزولاً على المنحدر وكأنها تقصدت أن تُبقي على مسافة تفصل بيننا.

لحقتها، فأطلقت محاولة أخيرة.

جـــاءت لهجتي أكثر حدّة مما قصدت في البداية، ويرجع ذلك إلى خيبة أملي مـــن فشل جدالي معها: "**إيما**. تبلغ درجة الحرارة خمسة وتسعين فهرنهايت، وأنت متعبة. لا أؤمن بوجود قضية لا تحتمل التأجيل حتى الغد".

زفرت **إيما** دلالة على تضايقها من كلامي.

"جاءت المكالمة الأخيرة من المحققين الذين يعملون معي. عثر رجلان على جثة في الغابات هذا المساء".

"دعي المحققين الذين يعملون معك يعالجونها".

"قد تكون قضية بالغة الحساسية".

"كل وفاة هي قضية بالغة الحساسية".

"عجباً يا **تمب**. عملت على آلاف القضايا، وأظن أنني لم ألاحظ هذا".

اكتفيت بالنظر إليها.

رفعـــت **إيمـــا** خصلات شعرها عن جبهتها: "آسفة. اختفى فتى يبلغ الثامنة عـــشرة من عمره منذ ثلاثة أشهر. يعاني الفتى من الاكتئاب المزمن، ولا يمتلك أي أموال، ولا جواز سفر، أو أية ممتلكات".

"هل شك رجال الشرطة بعملية انتحار؟"

أومأت **إيما**: "لم يعثروا على رسالة منه، أو على جثته. يظنّ المحققون أن الجثة التي عثر عليها تعود له".

"دعي المحققين يتولون عملية النبش".

"لا تمـــتلك مجـــالاً للخطأ في هذه القضية، فوالد الفتى سياسي محليّ. يُمضي الوالد أوقاته مع الرجال النافذين في السلطة، وكلمته نافذة، وهو غاضب الآن. إن هذه عوامل خطرة".

تساءلت مجدداً إن كانت صدمة حادث السفينة السياحية ما زالت تؤثر عليها أكثر مما أظن.

"من دلّ المحقق على المكان؟"

"تدلّت البقايا من شجرة. تقع الشجرة على بعد أقل من ميل من أقرب عنوان معروف لذلك الفتى".

تخيّلت المشهد. فبدت الصورة مألوفة جداً لديّ.

"هل أبلغ الوالد؟"

هزت **إيما** رأسها.

انتقلت إلى الخطة – ب.

قلـــتُ مقتـــرحةً: "ما رأيك بهذا؟ أبلغِي الوالد أن اختفاء ابنه يحظى بالأولوية المطلقة. قولي له إن جثة قد وُجدت، لكن مرور ثلاثة أشهر على الوفاة يجعل عملية التحقق من الجثة صعباً بسبب التحلل. قولي أيضاً إن الأمر يتطلب خبرة من الخارج لتحديد هوية صاحب الجثة".

فهمـــت **إيما**، كعادتها، قصدي على الفور: "يريد مكتب المحقق الجنائي أفضل خبرة ممكنة، والكلفة ليست عقبة في هذا السبيل".

"أنا معجبة بطريقة تفكيرك".

ابتسمت **إيما** ابتسامة باهتة: "هل ستقومين بهذا فعلاً؟"

"هل تتمتعين بالسلطة التي تخوّلك إقحامي في القضية؟"

"نعم".

"سأقوم بذلك شرط أن تعديني بالذهاب للاستراحة في سريرك على الفور".

قـــدّمت **إيما** اقتراحاً مضاداً: "ما رأيك بهذا؟ أقوم أنا بتسليم الشريف النماذج الخاصة **بالمركز الوطني لمعطيات الجريمة**، وسأحثّه على العمل على قضية الهيكل في دي ويـــز. وتشرفين أنتِ على استعادة الجثة المعلقة. وسنبقى على اتصال فيما بيننا عبر الهاتف".

"لكن بعد أن تنامي".

"نعم، نعم".

يبدو أننا توصلنا إلى رسم خطة.

9

سأورد الآن كل ما تعرفه **إيما** عن القضية.

تميّز **ماثيو سمرفيلد الرابع** بأنه ابن عائلة لا تتساهل مع النقائص. تدعى والدته **سـالي بنت ميدلتون**، وهي تتحدر من عائلة ميدلتون التي كان أفرادها أعضاء في أول كونغرس على صعيد البلاد. تخرّج الوالد من السايتادل (القلعة)، وكان أكثر الأعضاء نفوذاً في المجلس البلدي لمدينة تشارلستون.

حاول **ماثيو الرابع** أن يحذو حذو **ماثيو الثالث**، لكنه تعرّض للّوم بسبب تدخين الماريجوانا عندما كان طالباً. اختار الوالد أن يكون صارماً رغم محبته لولده، فقرّر طرده من منزل العائلة.

انتقل **ماثيو الرابع** للعيش مع أصدقائه، واستطاع كسب بعض المال عن طريق شراء الأرز والفاصولياء المجففة من متاجر **بيغلي ويغلي**، وإعادة تعبئتها وبيعها للسياح بشكل حساء فاصولياء يحتوي على ثلاث عشرة حبة، و**خليط جون**. ترك الشاب **مات** كشكه الكائن قرب شارع الخليج الشرقي، في سوق المدينة القديم، في يوم الثامن والعشرين من شهر شباط. قصد هذا الشاب شارع ميتنغ واختفى، وكان حينها في الثامنة عشرة من عمره.

أوصلتني تعليمات **إيما** إلى نهر واندو، وإلى الشمال من منتزه غابة **فرانسيس ماريون القومية**، وهي عبارة عن غابة بشكل مثلث وتتألف من سهلٍ ساحلي تبلغ مساحته ربع مليون آكر، ويحده شمالاً نهر شانتي، وتحدّه شرقاً القناة المائية الداخلية

المحاذيـــة للـــساحل، وتحدّه غرباً بحيرة مولتري. تأثرت هذه المنطقة كثيراً بإعصار هوغو الذي ضربها بشدة عام تسعة وثمانين، لكن الغطاء النباتي في غابة **فرانسيس ماريون** عاد إلى الظهور بنفس الحيوية التي تتميّز بها الغابات البرازيلية. رحت أفكر طوال قيادتي للسيارة بالمفاجآت التي تنتظرني هناك.

لم أجـــد أساســـاً لقلقي. اصطفّت العربات بكثافة وراء بعضها. وتواجدت سيارات الشرطة بكثرة هناك مطلقة العنان لأضوائها. لاحظت أيضاً وجود العربة المخصـــصة للمحققة الجنائية، وسيارة الجيب التابعة لحرس المتنـــزه، بالإضافة إلى سيارة شيفي نوفا تعرضت لأكثر من صدمة. لاحظت أيضاً وجود عربتَي "SUV" اســـتند ركابهمـــا على دفاعاتهما الأمامية، ولاحظت أيضاً أنهم يرتدون السراويل القصيرة وأن وجوههم تحمل تعابير متماثلة من الفضول الشديد، ولا بد أنهم بدأوا برواية ما حدث بينهم وبين أنفسهم.

ســـررت لأنـــني لم أشاهد عربات تابعة لوسائل الإعلام، لكنني شككت أن يستمر هذا طويلاً نظراً لكثافة الحشد.

لم أشـــاهد، بالإضـــافة إلى حـــشد الفضوليين، سوى رجل شرطة واحد، وصـــبيين أســـودين. نـــــزلت من السيارة بعد أن تناولت حقيبتي وتوجّهت نحو الحشد.

بـــدا لي أن الصبيين الحليقَي الرأس هما في حوالى السادسة عشرة من العمر. ارتـــدى الـــصبيان ملابس فضفاضة يرتديها لاعبو كرة السلة عادة، وتتألف من قميصين وسروالي جينـــز. خمّنت، نتيجة تقرير **إيما**، أنهما الولدان المحظوظان اللذان عثرا على الجثة.

لاحظت أن رجل الشرطة هو رجل صغير الجسم، أما عيناه فيتراوح لونهما ما بـــين البني والأسود. علمت عندما نظرت إلى بطاقته أن اسمه **ها. تايبـــي**. حرص المـــساعد **تايبـــي** على اعتمار قبعة تصل إلى حاجبيه بالرغم من الرطوبة الشديدة، ورأيت تغضنات وجهه العميقة.

انتبه **تايبـــي** لتقدمي، فأوقف استجوابه ونظر باتجاهي. بدا أنفه حاداً بعظامه الضئيلة والبارزة. تصوّرت أن زملاءه ينادونه *الصقر*.

نظر الصبيان نحوي وقد صالبا أذرعهما، ومالا برأسيهما حتى كادا يلامسان كتفيهما. خلا وجه **تايـــي** من أية تعابير، وهكذا بقيت لي الحرية لتفسير مشاعره بالطريقة التي أختارها. اخترت أن أفسر ملامحه على أنها تدلّ على الغرور.

تقدمت من الفتيان الثلاثة الذين يعملون بجهد.

عرّفت بنفسي، وشرحت لهم علاقتي مع المحققة الجنائية.

مال **تايـــي** برأسه نحو الغابة.

"إن الجثة هي في تلك الناحية".

الناحية؟

"يدّعي ابنا المنطقة هذان أنهما لا يعرفان شيئاً".

مال ابنا المنطقة برأسيهما، وتبادلا الابتسامات فيما بينهما.

تكلّمت مع أطولهما: "ما اسمك؟"

"جمال".

"ماذا حدث يا **جمال**؟"

"أخبرناه بما حدث".

"أخبرني أنا".

هزّ جمال كتفيه: "رأينا شيئاً يتدلّى من الشجرة، هذا كل ما في الأمر".

"هل عرفتما هوية الشخص الذي يتدلّى من الشجرة".

"لم تكن ملامح ذلك الرجل واضحة".

"ما هو سبب تواجدكما في هذه الغابة؟"

تبادلا الابتسامات مجدداً: "إننا نستمتع بالطبيعة".

سمعنا صوت سيارة تقترب، فالتفتنا جميعاً نحو الطريق.

رأيـــنا علـــى المنعطف سيارة فورد إكسبلورر بيضاء ذات نجمة زرقاء على جانـــبها. راقبـــنا السيارة حتى توقفت وراء إحدى سيارات الكروزر. ترجّل منها رجل، ولحقه كلبه.

بدا الرجل طويلاً، ولعل طوله يصل إلى 185 سنتم، ولاحظت أنه ذو صدر عـــريض وكأنـــه ملاكـــم. ارتـــدى الرجل بذلةً كاكية اللون، ووضع نظارة

يستخدمها الطيارون. بدا لي أن الكلب البنّي اللون ينتمي إلى سلالة كلاب الصيد.

بدأت أشعر وكأنني عارية. سأحضر **بويد** معي في المرة القادمة.

تقدّم الرجل باتجاهنا، وشعرنا أنه ينظر إلى نفسه وكأنه يتمتع بصلاحية التحدث مع الحاكم في أي وقت يشاء. شاهدت عبارة **الشريف جونيوس غوليت** مطرزة على الجانب الأيسر لقميصه الأبيض المجعد.

أسدل جمال ذراعيه، ووجّه يديه نحو الأسفل. أدخل الفتى أطراف أصابع يديه في جيبيه.

رفع **تايبي** طرف قبعته: "عمت مساءً يا سيدي. تقول السيدة إنها تعمل مع المحققة الجنائية".

"تحدثت مع الآنسة **روسو**. ويبدو أن هذا صحيح".

لفظ الرجل كلمة **روسو** وكأنه يلفظ كلمة **روزا**.

تحرّك الكلب باتجاه الغابة متوقفاً قليلاً عند كل شجرة من بعض أشجارها.

تفحصني **غوليت** صعوداً ونزولاً. مدّ الرجل ذراعه بعد ذلك وصافحني بقبضة حديدية تكفي لسحق كرة.

تكلم الرجل من دون لحن: "أنتِ الدكتورة القادمة من شارلوت".

"أنا عالمة الأنثروبولوجيا".

"تستعين الآنسة **روسو** بخدمات **جافو** في العادة".

"أنا متأكدة من أنها أخبرتك بوجوده خارج البلاد".

"يبدو الأمر غريباً بعض الشيء، لكن القرار يعود للآنسة **روسو**. هل أطلعتك على خلفية القضية؟"

أومأت.

لا ينتمي هذا الشريف إلى فئة الذين يحبون تقديم أنفسهم، فدخل في صلب الموضوع مباشرة: "يعيش الفتى على بعد أقل من ميلٍ واحد من هذا المكان مع جماعة من أصحابه. هل رأيتِ الجثة؟"

"وصلت لتوي".

اتسعت ابتسامة جمال حتى كادت تتعدى وجهه: "أصبح ذلك الرجل طعاماً للديدان".

استدار **غوليت** بوجهه ببطء. بدا وجهه خالياً من أية تعابير عدا الضجر. مرّت فترة سكون طويلة وغير مريحة: "ألا تعتقد أنك ذهبت بعيداً يا بني في عدم احترامك للموتى".

هزّ جمال كتفيه: "يا رجل، إن رأس ذلك...".

وجه **غوليت** إصبعاً سميناً باتجاه صدر الفتى: "هل ستقفل فمك كي تتمكن من الإصغاء؟ إن طعام الديدان الذي تتحدّث عنه هو واحد من الأرواح التي خلقها الله، أي مثلنا تماماً... ولربما مثل روحك أنت يا بني".

حدّق الشابان بأحذيتهما الرياضية بشكل مركّز.

وقال لي: "تجدين هناك طريقاً يقود إلى المستنقعات. لا يُعتبر ذلك القسم من المتنزه مرغوباً فيه من قبل السكان المحليين والسياح. وتُعتبر تلك المنطقة فقيرة بالصيد، بالإضافة إلى وجود الكثير من الحشرات التي تجعل من التخييم أمراً غير مريح".

أومأتُ بالموافقة.

"أتمنى أن تكوني جاهزة لذلك".

أومأت مرة ثانية.

"أعتقد أنه لا يمكن لأي شيء أن يرعب ذلك المسكين بعد الآن".

سبقنا الكلب بينما مشيت وراء **غوليت**.

مشينا باتجاه الغابة، وركّزت تفكيري على مشهد طريقة موت الفتى. سأعمد من الآن فصاعداً إلى تجاهل التفاصيل، ولن أركّز إلا على الأشياء المهمة. أعتزم أيضاً أن أنتبه إلى كل نبتة خضراء، وإلى كل غصن مكسور مهما كان صغيراً. أعتزم كذلك أن أهتم بكل رائحة، وكل حشرة. بدأت أستعد لتجاهل الأحاديث التي يتبادلها الذين من حولي، والتي سأعتبرها مجرد ضجيج فارغ.

بدت الغابة هنا مزيجاً كثيفاً من أشجار الصنوبر، والأشجار الصمغية، والشوكران، وشجر الزان. احتلت أشجار القرانيا، والمشتركة، وبعض الجنبات

الأخرى الصف الأدنى في العلو. تشبّع الهواء نتيجة لوجود كل هذه الأشجار بحلاوة الألوان التي سمّرتها الشمس.

مشى **غوليت** بسرعة. تسلّلت أنوار الشمس من خلال شبكة الأشجار الموجودة فوقنا محدثةً لوحة هندسيةً حرةً من الأضواء والظلال. اهتزت أوراق الأشجار بين الحين والآخر محدثةً أصواتاً تشبه أصوات بعض الكائنات المرتعبة. أحسستُ أن الأرض التي نمشي عليها ناعمة ومشبعة بالرطوبة.

مشينا مسافة عشرين ياردة داخل الغابة قبل أن نصل إلى فسحة صغيرة. رأيت مستنقعاً إلى يميني، ولاحظت أن سطح مياهه الذي يشبه سطح زجاجٍ أسود اللون يبقى ساكناً إلى أن يغطس فيه أحد اليعاسيب، أو بعض الحشرات الأخرى التي تبحث عن الماء.

أحاطت شجيرات صنوبر بالمستنقعات. بدت الأشجار وكأنها وصلت في نموها إلى حدٍّ معيّن ثم توقفت، أو كأنها أشجار بدائية، وبدا أن جذوعها ذات اللون الشبيه بلون الحبر الداكن مختفية. لاحظتُ أن جذور هذه الأشجار كثيرة العقد ومكسوة بالطحالب الخضراء.

شاهدت شجرةً واحدة من نوع السنديان الأبيض تقف وحيدة على حافة المستنقع. تدلت جثة من أقرب غصون هذه الشجرة إلى الأرض، وبالكاد ارتفعت أصابع القدمين عن الأرض.

اقتربت من هذا المشهد الكئيب، وتساءلت عن سرّ تلك السوداوية التي دفعت باتجاه مثل هذه النهاية. ما هي تلك الحالة الذهنية المعذبة التي **دفعت** بهذه الروح المتألمة إلى التفكير بهذه الأنشوطة، وشد الحبل جيداً، ثم القفز؟

وقف رجال الشرطة والمدنيون يتحدثون، ويطردون الذباب، ويقتلون البعوض. بدت كل قمصان الرجال متجعدة، ورسم العرق هلالاً داكناً تحت كل إبط.

انشغلت امرأة بالتقاط صور فيديو، وتدلت آلتا تصوير من رقبتها. شاهدت شعار المحقق **الجنائي لمقاطعة تشارلستون**، مطرزاً على قميصها.

عبرت الفسحة، وقدّمت نفسي. قالت لي إن اسمها **لي آن ميلر**. بدت وكأنها

تعمل لصالح شركة أخشاب، ورأيت ضفائرها بلونها الأحمر النحاسي وكأنها تدلت من زجاجة.

"أتمانعين إن تفحّصت الجثة؟"

رفعـــت **ميلـــر** شعرها، ووجهت ابتسامة تماثل باتساعها ميناء تشارلستون: "ابدئي على الفور يا عزيزتي".

"لا أمانع إذا انتظرتُ ريثما تنتهين من التصوير".

حرّكت **ميلر** رقبتها أكثر من مرة، ثم رسمت نفس الابتسامة العريضة مجدداً: "لا أستطيع العمل وأنتِ حولي، إلا إذا أردت أن لا أعمل بالطريقة الصحيحة".

بادلـــتها الابتـــسامة بالرغم من الظروف المحيطة بنا. بدت **لي آن ميلر** امرأة يـــستطيع المـــرء أن يجـــد عندها الراحة النفسية، أو النصح، أو حتى مجرد ضحكة مناسبة.

انـــشغل **غوليت** بالتحدث مع أحد الرجال بينما كنت اتّجه نحو الشجرة. لم أعطه سوى القليل من الانتباه لأنني انشغلت بمحاولة استيعاب الصورة بكاملها.

تـــدلّت الجـــثة مـــن الشجرة بواسطة حبل أصفر من ثلاثة أطواق. وضعتْ الأنشوطة في مكان منخفض من الرقبة، أي قرب مستوى الفقرتين العنقيتين الثالثة والرابعة. اختفى من فوق هذا الموضع الرأس، والفقرتان العنقيتان الأعلى.

لاحظـــت أن العظام مغطاة بأنسجة متعفنة. بدت الملابس فضفاضة، وكأنها معلقـــة على فزاعة. شاهدت بنطالاً أسود اللون، وسترة قطنية متينة، وهي الملابس الـــتي توحي أن عملية الشنق قد جرت أثناء طقسٍ أكثر برودة. ولاحظت وجود الجوربين البنيين، وحذائين عاليين باليين.

حذاءان عاليان.

تطلّعـــت من حولي. ووجدت عظام الساق اليمنى على بعد عشرة أقدام من الجثة، وشاهدت علماً أصفر عليها.

مـــشيت باتجاه العظام. وجدت أن عظام القدمين والنهايات القصوى لعظمتي الـــساق الكـــبرى (الظنبوب) والقصبة الصغرى، قد بقيتا في الحذاء. أما النهايات الأدنى لهـــذه العظام فكانت مفقودة، ولاحظت أن عظام القصبات الكبرى كانت



متـــشققة ومتكـــسرة. وبدت على عظمة الفخذ نفس الأضرار التي ظهرت على العظام الأخرى.

اقترب مني **غوليت**: "اشرحي لنا هذا".

"إن الحيوانات تقتنص الفرص، ومعظمها جاهز لتنظيف العظام من اللحم إذا ما أتيحت لها الفرصة".

حطّت بعوضة على ذراعي ولدغتني. فقتلتها، وتابعت طريقي.

استلقت الجمجمة في منحدر على مسافة تبعد ستة أقدام عن الشجرة، وقد التف عليها جذر من جذور الشجرة والذي نبت من جذعها. بدت الجمجمة بالية بدورها.

رأيت الجمجمة خالية من اللحم هي الأخرى.

بقي **غوليت** إلى جانبي: "لا أعتقد أن حيواناً قد قطعها".

سمعـــت صوت أجنحة ترفرف من فوقي. تطلّعت لأشاهد غراباً يستقر على غصن من غصون الشجرة: "يتسبّب تعرض الجثة المشنوقة بسقوط الرأس في أحيان كثيرة. وتقوم العصافير بالمساعدة في هذه العملية أحياناً، أما الحيوانات فتركّز على تنظيف الساقين من اللحم".

أخذت أتفحص الفك وأنا أتكلم.

قلتُ: "إن الفك مفقود".

قال ببساطة: "أنا أهتم بالأمر".

جلـــست القرفـــصاء كي أستطيع تفحّص الرأس بتركيز أكبر، بينما انهمك **غولـــيت** بتوجـــيه الأســـئلة إلى ميلر. اختار كلب **غوليت**، لأسباب يدركها هو وحـــده، أن ينضم إليّ. لا أستطيع بحالٍ من الأحوال أن أسمح بوجود كلب يفكر بأخـــذ *دليل الجريمة* مني، لكنه كان كلبَ **غوليت**. أعتقد أنني أمتلك ما يكفي من الحكمة كي أُحجم عن تحدي الشريف المقاوم للصدمات.

وضـــعت قفازاً في يدي اليمنى، وأخذت بعض الملاحظات الذهنية. لاحظت أنـــه لم يتـــبقَ سوى القليل من الشعر. انتهت الشمس من تبييض هذه الجمجمة، والتفّت تشكيلة منوعة الألوان من الجذور الصغيرة فوق سطحها. رأيت عدداً كبيراً من الخنافس الصغيرة ما تزال تتجول في تجاويفها.

قلّبت الجمجمة بلطف مستخدمةً إصبعاً واحداً.

التصقت بقع من النسيج على الخد الأيمن والصدغ الأيمن، وظهرت آثار بقع نتجت عن الأرض التي وُجدت الجمجمة عليها. بقيت عين واحدة، ولاحظت وجود حبة زبيب أسود نصف مجففة في محجر امتلأ بالتراب وبقايا الأعشاب.

أرجعتُ الجمجمة بكل حرص إلى مكانها الأصلي، بينما عبرت غيمةٌ قرص الشمس. خفت ضوء الشمس قليلاً، وانخفضت درجة الحرارة. شعرت برعشة برد. بقيتُ أحدّق ببقايا آثار اليأس القاهر الظاهر أمامي.

عدت لتفحص الجثة، وتقدمت لأختبر التربة الموجودة تحت القدمين مباشرة. لم أجد أثراً للدود، لكنني لاحظت غلافات اليرقات التي تشكل دليلاً على عبورها. تناولت قارورة بلاستيكية من حقيبتي، وملأتها بعيّنة منها.

ربض كلب **غوليت**، واكتفى بالمراقبة، وتدلّى لسانه من زاوية فمه.

لحتُ **غوليت** عائداً: "لم نجد الفك".

نهضتُ واقفةً.

"ما رأيك بإرسال عدة رجال يتوزعون في الغابة بشكل مروحة كي يبحثوا عنه".

سارع **غوليت** لإعطاء الأمر بذلك، بينما فكّرت في بعض التفاصيل.

خلا المكان من براز الحيوانات، لكن المكان احتوى على جلود الحشرات المنزوعة، وعلى الخنافس، وعلى النمل. وجدنا بعض الشقوق (الحزوز) على جذع الشجرة، وبعض الكشط على فرع رئيسي منها. لاحظت أن طرفي الحبل منسولان، وأن عقدة الأنشوطة موجودة على قفا الجانب الخلفي من الرقبة.

"تريد **ميلر** أن تعرف كم ستحتاجين من الوقت بعد".

قلتُ: "لقد انتهيت".

دوّى صوت **غوليت**، ثم رسم شكل دائرة بيده: "حان وقت العمل".

عبرت **ميلر** إلى مكان دخولنا إلى الفسحة بعد أن رفعت إبهامها، وتحدثت إلى أحد الرجال الذين كانوا يراقبون، واختفى الرجل على الفور.

استعانت **ميلر** بمُشاهد آخر لنقل الحمّالة إلى مكان الشجرة. فكّت أربطة الحمّالة، وأنزلت أحزمةَ الأمان إلى الجانبين، وفكّت زمام كيس النايلون المخصص لوضع الجثة، ثم ردّت الغطاء إلى الخلف.

انضمّ إلينا المُشاهد الأول بعد أن أحضر سلماً قابلاً للانثناء. أشار **غوليت** للرجل باتجاه أعلى الشجرة.

فتح الرجل السلم إلى أبعد مدى له، ثم تسلّق درجاته، وثبّت نفسه مستعيناً بذراعيه، وأبعد غصن الشجرة عنه. تدخّل **غوليت** ليشرف على ما يجري.

راقب الآخرون عن بعد، وتسمرّت أعينهم على الجثة.

ناولت **ميلر** الرجل الذي تسلق الشجرة مقصاً للتقليم طويل المقبضين. عمدت بعد ذلك مع مساعدها إلى تعديل مكان الحمّالة، ثم أدخلتْ ساق الضحية في طرف الكيس بحرصٍ شديد. رفعت **ميلر** الطرف الآخر بحيث أصبح أقرب ما يكون إلى الجثة المعلّقة، وعلى خط متوازٍ معها.

تطّلع الرجل الذي تسلّق الشجرة نحو **ميلر** متسائلاً عن الخطوة التالية.

بقي وجه **غوليت** خالياً من كل التعابير: "أنزله، لكن بلطف".

تدخلت قائلة: "ابتعد عن الأنشوطة قدر ما تستطيع".

انحنى المتسلّق قليلاً إلى الأمام، ثم وضع الحبل بين شفرتَي المقص القصيرتين والمقوستين، وضغط على المقبضين.

تقدّمت قليلاً لأجهّز نفسي لتوجيه اتجاه الجثة كي تدخل في الكيس.

نجح المقص بقطع الحبل في المحاولة الثانية.

رفعت ميلر طرف الكيس الذي تمسك به، وخفض الرجل الذي يساعدها الطرف الذي يُمسك به. رفعتُ ذراعيّ كي أمنع الجثة من الانزلاق باتجاهي.

انزلقت الجثة إلى مكانها في الكيس. تعرّق الاثنان وهمهما أثناء إنزالهما الكيس من فوق رأسيهما ليضعاه فوق الحمّالة.

قلتُ: "أعتقد أنكِ قُمت بذلك قبلاً".

أومأت ميلر، ومسحت بساعدها العرق المتصبب من وجهها.

بــدأ **غولــيت** بتفتــيش الملابس التي كانت على الجثة بحثاً عن بطاقة هوية الضحية، بينما انصرفت **ميلر** لجمع الرأس وعظام الساقين.

لم يجد الرجل شيئاً في البنطال، وكذلك في القميص.

ثم ترددت عبارة غير *معقول* في المكان.

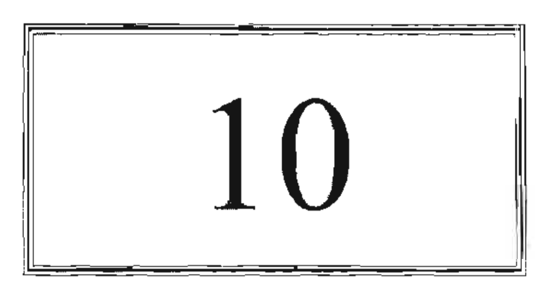
ســحب **غولــيت** محفظةً من إحدى جيوب السترة. بدا جلد المحفظة مترهلاً بسبب عملية التحلّل التي اخترقت القماش.

اســتخدم **غولــيت** ظفر إبهامه لفتح غطاء المحفظة الأمامي. بدت المحفظة من الداخل مبلّلة ومتصلبة.

اســتخدم الــشريف نفس الظفر لإزالة التراب عن سطح الطبقة البلاستيكية الأولى.

أظن أن خديه قد تغضنا بمقدار يقل عن حجم شعرة واحدة.

"حسناً، حسناً".



"إنها رخصة قيادة صادرة عن ولاية كارولاينا الجنوبية العظيمة".

اســـتمرّ **غوليت** يحكّ البلاستيك بظفره، ثم وضع نظارته فوق رأسه، وراح يحرّك المحفظة يمنةً ويسرةً.

قـــدّم **غوليت** المحفظة إلى **ميلر**: "يستحيل أن يكون هذا الفتى المسكين **ماثيو سمرفيلد**".

قلّبت المحققة الجنائية المحفظة البلاستيكية كما فعل الشريف، ثم أعطتني إياها: "لك الحق في ذلك. إن الحروف أصغر من أن تراها عيناي المسنّتان".

لاحظـــت أنه يستحيل أن تكون صورة ذلك الرجل عائدة لفتى، وذلك رغم الـــتلف الشديد الذي أصابها. امتلك صاحب الصورة ملامح مترهلة، ونظارة ذات إطار أسودَ اللون، وشعراً خفيفاً وناعماً. جهدتُ كي أستطيع قراءة حروف الاسم المطبوعة على يمين الصورة.

قلـــتُ: "يـــبدو الاســـم قريباً من **شيستر**، وكلمة ما (اسم الأب)، وعائلته بـــيني، أو لـــربما كانـــت **بيكني**، أو **بينكني**، لكن بقية المعلومات ليست واضحة بالمرة".

تناولت **ميلر** كيساً ينفتح بزمام (سحّاب) منـــزلق، وقمتُ أنا بوضع المحفظة فيه. وأسرعتْ **ميلر** إلى إعطاء **غوليت** هذا الكيس الصغير.

"سنـــسلّم بقايا هذا السيد المتوفى إلى المشرحة، هذا إذا لم يكن لديك مانع.

وسترغب الآنسة **روسو** بمعرفة هوية الضحية، وذلك كي يصار إلى إبلاغ الأقرباء بأسرع وقتٍ ممكن".

نظـــرت **ميلر** إلى ساعتها، وسرعان ما حذا الجميع حذوها، أي على طريقة جرّاء "بافلوف" (التقليد العفوي لتصرف الآخرين).

قال **غوليت**: "سنغادر عند السابعة، فلن تحدث أشياء أخرى هذه الليلة".

أومـــأ الـــشريف باتجاهي أنا **وميلر** وعدّل من وضع نظارته على أرنبة أنفه، وصفّر لكلبه، ثم انطلق باتجاه الطريق.

انشغل المساعد بتحرير الجزء المتبقي من الحبل، بينما وصلتُ **وميلر** إلى اقتناع يفـــيد بعـــدم قدرتنا على الحصول على معلومات إضافية من هذا الموقع. تمامست عـــرائش العنب، والأجمات الآشنة، من فوقنا. أزّت أسراب البعوض، بينما راحت البرمائيات تعزف سيمفونيتها وسط الظلمة الكئيبة للمستنقع.

جـــنحت الـــسماء للاستـــسلام لظلمة هذه المنخفضات، بينما أغلقت **ميلر** الأبـــواب المـــزدوجة لعربة المحققة القضائية. شاهدتُ وجهها المبقع نتيجة لدغات البعوض، أما العرق فتكفّل بجعل ظهرها وصدرها داكنين أكثر.

قلتُ: "سأتصل **بإيما** في أقرب وقت، وسأعطيها المعلومات التي توصلنا إليها".

"شكراً لك يا حلوتي. جعلتِني أرتاح من همٍ آخر".

اتصلت **بإيما** بينما كنت في طريقي. أجابت بعد ثلاث رنّات، وبدا لي صوتها رقيقاً ومنفعلاً. شرحت لها ما جرى.

"لا أعرف كيف أشكرك".

قلتُ: "لا داعي لذلك".

"سيرتاح آل **سمرفيلد**".

إنـــه المشهد المعتاد. تتلقى إحدى العائلات خبراً مفرحاً، بينما تتلقى إحدى العائلات الأخرى أخباراً سيئة. قلت بفتور: "نعم".

سمعت صوت نفسٍ قوي من الجهة الأخرى، ثم لا شيء.

"ماذا؟"

"لقد فعلتِ الكثير".

"لم أفعل شيئاً في الواقع".

"لا أحب أن أطلب منك شيئاً آخر".

"اطلبي".

مرّت فترة تردد، ثم سمعتها: "لدي جلسة علاج في الغد. أنا...".

"متى موعد الجلسة".

"عند الساعة السابعة".

"سأمر لاصطحابك عند السادسة والنصف".

"شكراً لك، يا تمب".

كاد الارتياح الذي بدا في صوتها يدفعني للبكاء.

وصلتُ، مرة أخرى، إلى المنـــزل ورائحة الموت تفوح من ملابسي. اتجهت مباشـــرة- مرة أخرى- إلى الحمام الخارجي، ووقفت تحت ماء ساخن حتى أقصى درجـــة أســـتطيع تحملها، وانهمكت بفرك جسمي بالصابون حتى غطته الرغوة، وكررت ذلك مرة بعد أخرى.

استقبلني **بويد** بحماسه المعتاد، ووقف على قائمتيه، ثم راح يدور حول قدميّ راســـماً شكل 8. بينما اكتفى **بيردي** بالمراقبة معبراً عن سخطه، أو عن استخفافه. يصعب على المرء أن يفسّر مشاعر الهررة.

ارتـــديت بعض الملابس، وملأت أوعية طعام الكلب والهرة، ثم ألقيت نظرةً علـــى هاتـــف المنـــــزل. لم يتصل **رايان**، كما أنه لم يترك لي رسالة على هاتفي الخلوي.

لم أشـــاهد سيارة **بيتي** مركونة على طريق المنـــزل الخاص. بدا المكان خالياً من كل شيء ما عدا "بيرد" والكلب.

فككـــت قـــيد **بويد** فانطلق بحركات دائرية هستيرية فوق أرضية المطبخ، ثم أنهاهـــا بخفـــض مخالبه الأمامية، بينما رفع ردفيه إلى الأعلى. اصطحبته في نـــزهة طويلة على الشاطئ.

رجعنا إلى المنـــزل، وأسرعت إلى تفحّص هاتفي، و لم أجد شيئاً.

سألت **بويد**: هل أتّصل **برايان**؟"

حرّك الكلب شعرات حاجبه، وحرّك رأسه.

"أنـــت على حق، فإذا كان مستاءً سنعطيه بعض المجال، أما إذا كان منشغلاً فسوف يقوم بالاتصال عندما يستطيع".

تسلّلت إلى غرفتي، وفتحت الأبواب المنـــزلقة لواجهتي الزجاجية، واستلقيت على السرير. ربض **بويد** على الأرض. بقيت مستيقظةً لوقتٍ طويل، وأصغيت إلى صوت الأمواج، واستمتعت برائحة المحيط.

وثـــب **بـــيردي** إلى السرير، والتفّ على نفسه بجانبي من دون أن ألاحظه. استسلمت إلى النوم عندما بدأت بالتفكير بشيء آكله.

أثبت **غوليت** أنه على حق. لم يحدث شيء تلك الليلة.

"بينكني؟"

وصـــلتُ و**إيما** في صباح اليوم التالي - بعدما تجاوزت عقارب الساعة الحادية عـــشرة - إلى غرفة العلاج التي تقع على مسافة شارعين إلى الشرق من المستشفى الرئيسي. ارتدت **إيما** رداءً فضفاضاً من الأثواب المخصصة لمرضى المستشفى. امتدّ أنـــبوب حقن وريدي إلى ذراعها اليسرى، بينما حملت في يدها اليمنى هاتفاً خلوياً وقربته من أذنها. هل هذا مجرد عمل استعراضي تقوم به المحققة الجنائية، والتي قررت إعفاء نفسها من تطبيق القانون الذي يمنع استخدام الهواتف الخلوية في المستشفيات.

سألت **إيما**: "الخط البري؟"

مرّت فترة سكون.

"ما هو العنوان؟"

مرّت فترة سكون أخرى.

"أعرفه، سأذهب إلى هناك في غضون ساعة تقريباً".

أنهت **إيما** المكالمة، وتكلمت معي.

"شستر تايروس بينكني".

قلتُ لها: "اقتربتُ جداً من الاسم الحقيقي".

"قُطع خط الهاتف، لكن العنوان لا يبعد كثيراً عن روكفيل".

"ألا يبعد المكان كثيراً إلى جهة الجنوب؟ ويقع قرب كيواه وسيبروك؟"

"إنه في جزيرة وادمالو. إن المنطقة زراعية بالكامل".

فكّرت بما قالته.

"ارتحل السيد **بينكني** مسافة طويلة جداً ليشنق نفسه".

دخلت امرأة إلى الغرفة قبل أن تتمكّن **إيما** من الإجابة. ارتدت المرأة معطفاً أبيض اللون، ولاحظت أنها تحمل أوراق جداول في إحدى يديها. بدا وجهها ودياً لكنه لم يحمل أية تعابير تدلّ عن حقيقة مشاعرها.

قدّمت **إيما** المرأة على أنها الدكتورة **ناديا لي رسل**. لاحظت بعض العصبية الكامنة في صوتها، مع أنها أظهرت شجاعةً تامةً منذ الصباح.

قالت **رسل**: "سمعت أنك وقعت بمشكلة".

علّقت **إيما**: "إنه إرهاق فقط".

"هل فقدت وعيك؟"

اعترفت **إيما**: "نعم".

"هل حدث معك هذا من قبل؟"

"لا".

"هل تشعرين بالحمى؟ أو الغثيان؟ أو تتعرقين في الليل؟"

"أشعر ببعض هذه العوارض".

"بماذا تشعرين بالتحديد؟"

"أعاني من كل العوارض التي ذكرتها".

كتبت **رسل** بعض الملاحظات، ثم قلّبت بعض الصفحات في جداولها. ترددت في الغرفة أصوات الأضواء الفلورية المعلقة في السقف.

تابعت **رسل** القراءة. بدا أن صمتها يُنذر بأمر مشؤوم. شعرت بحزامات باردة تضغط على صدري. فلقد كان الأمر يشبه انتظار إصدار حكم المحلفين. ستعيشين، لن تعيشي. أنت أفضل حالاً، لست بأفضل حال. أجبرت نفسي على الابتسام.

أخيراً، تكلمت **رسل**.

"أخشى أن أقول إنني لا أحمل أخباراً سارة إليك يا **إيما**. لم تتحسن معطيات تعداد كريات الدم عندك على النحو الذي كنت أتمناه".

"هل انخفضت؟"

"دعيني أقول فقط إنني لا أرى بوادر التقدم الذي كنت أنتظره".

شعرت أن الغرفة تنطبق من حولي. وتقدّمت لأمسك بيد **إيما**.

بدا وجه **إيما** متصلباً، ولاحظت أن صوتها خلا من كل أثر للعواطف: "والآن ماذا؟"

قالـــت **رســـل**: "سنستمر بالعلاج. يمثّل كل مريض حالة مختلفة، ويبدو أن العلاج يستغرق وقتاً أكبر بالنسبة لبعض الناس كي يثبت فعاليته".

أومأت **إيما**.

"إنك شابة وما تزالين قوية. استمري بالعمل إن كنتِ تميلين لذلك".

"سأفعل".

لحقـــتْ نظـــرات **إيمـــا رسل** أثناء مغادرتها الغرفة. رأيت الخوف والحزن في عينيها، لكنني لاحظت التحدي أكثر من أي شيء آخر.

"تستطيعين المراهنة بكل ما لديك أنني سأستمر بالعمل".

تـــصف كراسات السياحة **وادمالو** باعتبارها أكثر جزر تشارلستون التي بقـــيت علـــى طبيعتها، لكنني لاحظت في حالتنا هذه أنها أيضاً الأقل إغراءً من بينها.

تُعتـــبر **وادمالـــو** تقنياً جزيرة نحتها نهرا بوهيكت، وإديستو الشمالي، من البر المحـــيط بهـــا. تشكل جزيرتا كياوا وسيبروك، المجاورتان لجزيرة وادمالو، حاجزاً ضـــخماً بيـــنها وبين المحيط، وتنتشران إلى الجنوب وإلى الغرب منها. سأورد الآن الأخبار الطيبة: تُعتبر وادمالو جزيرة مستقرة، ونادراً ما تتعرض للأعاصير المدمرة. نأتي الآن إلى الأخبار السيئة: تفتقد الجزيرة للشواطئ الرملية. يُذكر أيضاً أن سطح وادمالـــو هـــو خليط من الغابات والأهوار، أي أنه يشتمل على المناطق البيئية التي نادراً ما تجتذب السياح ومشتَريْ منازل قضاء العطلات.

يتألف معظم سكان الجزيرة من المزارعين، والصيادين، وصيادي الكركند، وصائدي القريدس، وذلك بالرغم من وجود عدد قليلٍ من المنازل الفخمة التي شُيّدت حديثاً. إن منطقة الجذب الوحيدة في الجزيرة هي مزرعة تشارلستون. تحمل المزرعة التي بدأت العمل في عام 1799، لقب أقدم مزرعة شاي في أميركا، لكن لعلها تكون مزرعة الشاي الوحيدة في هذه القارة.

لا يعلم أحد ماذا يخبئ المستقبل لهذه الجزيرة، فإذا ما اهتم السياح المهتمون بالمحافظة على البيئة بهذه الجزيرة، فستشهد عصرها الذهبي.

تقع قرية روكفيل في طرف جزيرة **وادمالو** الجنوبي. انطلقتُ و**إيما** باتجاه هذه المدينة بعد مغادرتنا العيادة. حاولت أثناء توجهي إلى سيارتي أن أفتح موضوع أخذها لإجازة من العمل. أوضحت لي **إيما** أن تلك القضية تتعدى حدودي. انزعجت من موقفها في البداية. لماذا تطلب مني أن أرافقها، ثم تستبعدني عن الموضوع؟ لكن أليست هذه هي الطريقة التي سأتصرف بها بالضبط فيما لو كنتُ مكانها؟ وهل كنت سأقضي على مشكلتي عن طريق تجاهل الحديث عنها كلياً؟ لم أكن متأكدة، لكنني رضخت لرغبات **إيما**. إنه مرضها هي، وهي المسؤولة عنه.

قدت السيارة، والتزمت **إيما** الصمت. قادتنا تعليماتها إلى الطرف الجنوبي الغربي عبر جزيرتي جايمس وجونز، حتى وصلنا إلى طريق مايبانك السريع، ثم وصلنا إلى طريق بيرز بلوف (خداع الدببة). التزمنا الصمت التام فيما عدا تعليمات السير التي وجهّتها، وبعض الأحاديث القليلة التي تبادلناها، والمتعلقة باللوحات الموجودة على الطريق. اكتفينا بسماع صوت مكيّف هواء السيارة، وبمراقبة الحشرات التي تصطدم بزجاج السيارة الأمامي.

وجهّتني **إيما** أخيراً كي أنعطف إلى طريق ضيق، تصطف على جانبيها أشجار السنديان التي تتدلّى منها الآشنة الإسبانية. أمرتني بعد وقت قليل بالانعطاف إلى اليمين مجدداً. سرنا ربع ميلٍ آخر قبل أن ننعطف إلى اليسار لنسير على طريق ترابي مليء بالحفر.

انحنت الأشجار المعمرة على جانبَي الطريق، والتي جذبتها أشعة الشمس المتسربة إلى الطريق. انتشرت الخنادق وراء الأشجار الخضراء والداكنة بفعل الآشنة والمياه المالحة.

انتشرت هنا وهناك بعض الصناديق البريدية القديمة، والتي دلّت على بداية الطريق التي تلتف حول قطع الأراضي المنتشرة. غطت النباتات الكثيفة الطريق. شعرت وكأنني أسير بين ممر يربط ما بين المكان والزمان في الفضاء.

"هناك".

أشارت **إيما** إلى صندوق بريدي. فاقتربت منه.

شكّلت الأحرف المعدنية صفاً غير مستقيم عليه، وهي من نوع الأحرف التي تشتريها من مخزن هوم ديبو وتلصقه على الصندوق. وبرز الاسم، **بينكي**.

شاهدت لوحة منزلية الصنع موضوعة بشكل عمودي عليه. جاء في اللوحة *"أرانب للبيع. أفضل طعم"*.

سألتُ **إيما**: "ماذا يصطاد المرء بواسطة الأرانب؟"

أجابت **إيما**: "إنها حمى الأرانب. انعطفي من هنا".

سرنا مسافة ثلاثين ذراعاً، ولاحظنا أن الأشجار اختفت لتحل مكانها الشجيرات المتشابكة. سرنا عشر ياردات أخرى لنلاحظ أن الشجيرات اختفت، وظهرت باحة ترابية صغيرة مكانها.

لا يُعتبر هذا مكاناً يجذب أصحاب المشاريع السكنية. لم أشاهد أي منازل، ولا ملاعب لكرة المضرب، ولم أشاهد أي أثر يذكّرني **بديكي دوبري**.

شاهدت منزلاً صغيراً مبنياً من الألواح الخشبية في وسط هذه الباحة. وشاهدت الإطارات المطاطية المكدسة المعتادة مع هذا النوع من المنازل، بالإضافة إلى قطع السيارات، وبعض قطع الأثاث المتكسرة، وبعض الأدوات المنزلية الصدئة. يتألف هذا المنزل من طابق واحد رُفع عن الأرض بواسطة بعض الردميات الحجرية المتفتتة. شاهدنا الباب الأمامي مفتوحاً، لكنني لم أستطع مشاهدة أي شيء في الداخل بسبب المناخل الخارجية.

شاهدت إلى يمين الباحة سلكاً معدنياً ماراً بقائمتين عموديتين. ولاحظت وجود لجام يتدلّى من السلك، ورأيت في نهايته القريبة من الأرض طوقاً مع سلسلة.

رأيت إلى يسار الباحة كوخاً خشبياً صغيراً غير مطلي. افترضت أن هذا الكوخ هو مأوى تلك الأرانب البائسة.

شـاهدت **إيما** وهي تأخذ نَفَساً عميقاً وطويلاً. أعرف كم أنها تكره ما هي مقدمـة علـيه. نـزلت **إيما** من السيارة. وتبعتها. صفعنا الهواء الساخن المثقل بالرطوبة، ورائحة الخصار المتعفنة.

انتظـرت في أسـفل الـدرج، بينما صعدت **إيما** إلى الشرفة. حرصت على الـتحديق فيما حولي، وبقيت محترسة من أي ثور، أو من كلب ضخم الجثة. إنني أحـبّ الكلاب، لكنني واقعية أيضاً. إن القوارض الريفية تشكل خطراً كبيراً على الغرباء، وكثيراً ما تتسبب بجرحهم.

قرعت **إيما** الباب.

نعق طائر كبير فوقنا، واندفع ليصبح فوق الكوخ الصغير. شاهدته وهو يرتفع بحركة لولبية ليختفي بعدها فوق الأشجار الصنوبرية الكثيفة المنتشرة وراء الباحة.

نادت **إيما** وقرعت الباب ثانية.

سمعت صوت رجل، ثم سمعت صرير المفصلات الصدئة.

تطلّعت مجدداً نحو المنـزل.

ورأيت آخر إنسان توقعت أن أراه.

11

دقـــت **إيمـــا** على الباب ففتح لها رجل يرتدي بنطالاً فضفاضاً أصفر اللون، وقميـــصاً ذا لـــون مشمشي كُتب عليها **اذهب إلى بيتك. الأرض مليئة** وينتعل صـــندلاً سمـــيك النعل منـــزليّ الصنع. وضع الرجل نظارته ذات الإطار الأسود، ولاحظت أن شعره اللامع ممشط بطريقة غريبة هي أبشع ما رأيت.

"من يدق على بابي اللعين؟"

جمُدْت في مكاني، وفتحت فمي، ورحت أحدّق **بشمستر بينكني**.

لم تـــرَ **إيما** رخصة القيادة الممنوحة **لبينكني**، ولذلك لم تنتبه أبداً إلى أنها تكلّم الشخص الذي تظهر صورته في الرخصة. تقدّمت **إيما** من دون أن تنتبه لردّ فعلي.

"كيف حالك سيدي. هل لي أن أسأل إذا ما كنتَ أحد أفراد عائلة **بينكني؟**"

"أعتقد أن هذا المكان كان منـــزلي اللعين منذ أن نظرت إليه آخر مرة".

"نعم سيدي. وأنت من تكون؟"

"هل السيدتان بحاجة إلى شيء لمساعدتهما على الصعود؟"

"لا سيدي. أود التحدث إليك بشأن **شيستر تايروس بينكني**".

تحوّلت نظرة **بينكني** إليّ.

"هل هذه مزحة ما؟"

قالت **إيما**: "لا يا سيدي".

همستُ: "**إيما**".

أسكتتني **إيما** بإيماءة خفيفة من يدها.

ارتــــسمت ابتـــسامةٌ على شفتَي **بينكني**، فكشف بذلك عن أسنان اصفرّت نتيجة التدخين المستمر منذ سنوات، وأيضاً نتيجة الإهمال.

سأل **بينكني**: "هل أرسلكما **هارلان**؟"

"لا يا سيدي. أنا المحققة الجنائية لمقاطعة تشارلستون".

"وهل عيّنوا امرأةً في منصب المحققة الجنائية؟"

أبرزت **إيما** شارتها للرجل.

تجاهل **بينكني** الشارة.

حاولت مرةً ثانية أن ألفت انتباهها: "**إيما**".

"أنـــت تقــصدين بالحـــديث عن جثث مثل تلك التي نشاهدها على شاشة التلفاز؟"

"نعم سيدي. هل تعرف **شيستر بينكني**؟"

أعتقد أن سؤال **إيما** قد أصابه بالتشوش، أو لعل **بينكني** كان يفكّر في طريقة تقديمه لإجابة ذكية، لذلك اكتفى بالتحديق فيها بشرود.

تدخلتُ شخصياً: "سيد **بينكني**".

نظر **بينكني** و**إيما** نحوي في وقت واحد.

"أيحتمل أن تكون قد فقدتَ محفظتك؟"

خفــضت **إيمـــا** حاجبيها، ونهضت، ثم أغلقت عينيها وقد رفعت رأسها نحو الأعلى. هزّت رأسها قليلاً، ثم عادت لتركّز على **بينكني**.

سأل **بينكني**: "وهل هذا هو كل شيء؟"

جاءت نبرة **إيما** أكثر استرخاءً هذه المرة: "هل أنت **شيستر تايروس بينكني**؟"

"وهل أشبه هيلاري كلينتون السيئة الذكر؟"

"أنت لا تشبهها يا سيدي".

"هل قبضتم أخيراً على ذلك الحقير الذي سرق محفظتي؟ هل سأستعيد مالي؟"

"متى فقدتَ محفظتك يا سيدي؟"

"لم أفقد تلك المحفظة اللعينة، بل سُرقت مني".

"ومتى حدث ذلك؟"

"حدث ذلك منذ وقتٍ طويل لا أستطيع تذكره".

"حاول أن تتذكر من فضلك"

فكّر **بينكني** بالمسألة قليلاً.

"حدث ذلك قبل أن تستقر شاحنتي في قناة المياه، ومن يومها لم ألمح رخصة قيادتي".

انتظرنا **بينكني** كي يُكمل كلامه. ولكنه لم يفعل.

حثّته **إيما** ثانية: "ومتى كان ذلك؟"

"أعتقد أننا كنا في شهر شباط (فبراير)، أو آذار (مارس). أتذكّر أن الطقس كان بارداً، وكدت أتجمّد في طريق عودتي إلى البيت مشياً على الأقدام".

"هل أبلغتَ الشرطة؟"

"لم تكن تساوي شيئاً. بعتها لتجار الخردة".

"إنني أتحدث عن محفظتك".

"أنـــت محقة، رفعت تقريراً بشأنها. احتوت المحفظة على أربعة وستين دولاراً نقداً وعداً".

شدّد **بينكني** على مقاطع كلماته.

بـــدأت **إيما** بأخذ ملاحظات في هذا الوقت: "ما هو اسم المكان الذي فقدتَ فيه المحفظة؟"

"لم أفقد المحفظة، بل تعرضت للسرقة".

"هل أنت متأكد؟"

"وهل أبدو لكما شخصاً أحمق لا يستطيع المحافظة على ممتلكاته".

شدّد الرجل على مقاطع كلماته مرةً أخرى.

"لا سيدي. صف لنا الحادثة من فضلك".

"خرجنا لنلاقي بعض السيدات".

"ماذا تقصد بقولك خرجنا؟"

"أقصد أنا وصديقي **آلف**".

"أخبرني ماذا حدث".

"لـــيس هناك الكثير مما يُروى. أعددتُ و**آلف** بعض المشاوي، وتناولنا بعض المشروبات. وصحوت في صباح اليوم التالي من دون أن أجد محفظتيَ".

"هل بحثتما عنها في جميع المؤسسات التي زرتماها؟"

"بحثنا في تلك التي استطعنا تذكّرها".

"أين كنتما؟"

هـــزّ **بيـــنكني** كتفيه: "اعتقدت لفترة أننا كنا في دوبل آل. أفرطتُ و**آلف** بالشرب".

وضعت **إيما** دفتر مذكراتها في جيب قميصها.

"وجدنا محفظتك يا سيد **بينكني**".

صـــاح **بينكني** مستهجناً: "ظننت أنني لن أرى الأربعة وستين دولاراً أبداً. لا أحتاج لرخصة القيادة لأنني لم أعد أمتلك شاحنة".

"أنا آسفة يا سيدي".

تضيّقت عينا **بينكني**: "ولماذا تكلّف المحققة الجنائية نفسها عناء المجيء لتخبرني بهذا؟"

تفحّصت **إيما بينكني**، وراحت تفكّر، كما أظن، بذلك القدر من المعلومات الذي تستطيع التحدث عنه بشأن الظروف التي أحاطت باسترجاع المحفظة.

قالت **إيما**: "إنني أساعد الشريف قليلاً".

نـــــزلت **إيما** الدرج بعد أن شكرت **بينكني** على التحدث معنا. استدرنا معاً لنعبر الباحة بعدما اقتربت مني.

أعـــاق طـــريقنا كلب رمادي اللون وبحالة مزرية، ولاحظنا أن طوقاً زهري اللون أحاط عنقه. وشاهدت سنجاباً ميتاً بين مخالبه الأمامية.

نظر الكلب باتجاهنا بفضول، ونظرنا إليه بدورنا.

شقّ الهواء صفير حادٌ وقصير أطلقه **بينكني**: "**دوغلاس**، تعال إلى هنا".

نهض **دوغلاس**، وأمسك بالسنجاب بين أنيابه، ثم دار من حولنا.

سمعت صريراً، ثم طرقةً حادة، أثناء توجّهي مع **إيما** نحو السيارة.

قالت **إيما**: "يا للساذج اللطيف والمسّن".

"أتقصدين **دوغلاس**؟"

"لا. أقصد **بينكني**"

"إنه يتجول مع السكّيرين".

حدّقت **إيما** بي.

شغّلت محرك السيارة، واستدرت بها، ثم انطلقت نحو الطريق.

سألتني **إيما**: "هل لاحظتِ **دوغلاس**؟"

"يبدو الطوق قديماً بعض الشيء، لكن **دوغلاس** سعيد به. يتناسب الطوق مع لون عينيه".

سألت **إيما**: "ما هي احتمالات أن يكون ذلك المغفل قد تعرّض للسرقة فعلاً؟"

أجبتها: "ما هي احتمالات اختياري لأكون بطلة أميركا لهذا العام؟"

قالت **إيما** عندما وصلنا إلى الطريق المزفت: "لدينا ضحيتان".

"لدينا الرجل المشنوق على الشجر، ورجل دي ويز المدفون في قبر".

"يا للسجع الرائع".

"يـــرجع الفضل في ذلك للدم الإيرلندي الذي يسري في عروقي، وبالمناسبة كيف تشعرين اليوم؟"

"إنني متعبة قليلاً، لكنني بخير".

"حقاً؟"

أومأت **إيما**.

"جيّد".

لم تسألني **إيما** ما إذا كنت سأساعد في تحليل عظام الرجل المشنوق على غصن الشجرة. أعرف الجواب. أعرف أيضاً أن **غوليت** سيقوم ببعض الأعمال القانونية، ولا شك في أنه سيسخر من انغماسي في قضية أخرى.

تخـــيّلت الحـــديث الذي سيجري بينه وبين **إيما**، وقدت السيارة إلى المشرحة مباشرة.

اتصلت **إيما بغوليت** لتنقل إليه آخر الأخبار، ولاحظتُ أن فترة ما بعد ظهيرة يـــوم الثلاثاء هي تكرار، أو نسخة، لما حدث في صبيحة يوم السبت. رأيت نفس بـــراد المشرحة، ونفس الأرض المبلطة وغرفة التشريح بتجهيزاتها المؤلفة من الفولاذ الذي لا يصدأ. وتنشقت نفس رائحة الموت المعقمة.

أعطت **ميلو** جثة الرجل المشنوق رقم CCC-2006020285.

ارتـــدت **إيمـــا** الـــرداء الرسمي للعمل، وساعدتما على نقل الجثة رقم CCC-2006020285 مـــن الكـــيس إلى طاولة التشريح. وضعنا أولاً أجزاء المفاصل، ثم الجمجمـــة، وأخيراً وضعنا أجزاء الجسد التي سقطت، أو انتزعت انتزاعاً بواسطة الحيوانات المفترسة.

افـــتقدت الجثة للدماغ والأعضاء الداخلية. بقيت أجزاء الجذع، والذراعين، وعظـــام الساقين العليا، مغطاة بالعضلات والأربطة، والتي كانت فاسدة في بعض الأمـــاكن، أمـــا في بعـــض الأماكن الأخرى فبدت مسمَرّة جداً وقاسية، بسبب تعرضها الطويل لأشعة الشمس والرياح. لم تكن الجثة صالحة لإجراء تحليل للعظام عليها، لكنها كانت تعد بإمكانية التعرف على هوية صاحبها. إن وجود الأنسجة يعني وجود الجلد، والجلد يعني إمكانية أخذ البصمات.

لاحظت أن كمّ (ردن) السترة ساهم في حفظ اليد اليمنى من التلف، ووقاها بذلك من اليباس، لكن عملية التحلل جعلت الأنسجة هشةً جداً.

ســـألت **إيما** ألديكِ TES (محلول تحسين نوعية الأنسجة، وهو محلول ملحي مخفف يحتوي على حامض الستريك (أو الليمونيك))، وهو المحلول الذي يُستخدم في ترميم الأنسجة الجافة أو التالفة.

"بعد إذن المحنطة المفضلة عندي".

"سخّنيه إلى درجة تقارب الخمسين درجة مئوية".

جعلـــتني **إيمـــا** أبدو وكأنني الرئيسة في عملية تشريح هذه العظام، أي مثلما فعلـــت في قضية دي ويز. لا أعرف كم من الوقت سأسمح لها بالاستمرار في هذه اللعبة، لكنني صممت على إتمام المهمة حتى يعلن شخصٌ ما عن انتهائها.

"هل نستخدم فرن الموجات الصغرى؟"

"لا بأس في ذلك".

انتهـــزت فرصـــة مغـــادرة **إيما** الغرفة كي أنتزع جميع أصابع اليد اليمنى التي قطعـــتها علـــى مستوى مفاصل السلاميات. عادت **إيما**، فوضعتُ هذه الأصابع المنتزعة في إناء المحلول، ووضعتها جانباً كي تتشبع به.

"أتمـــانعين إذا خرجت بسبب مهمة إعادة رسم موقع وفاة تتطلب اهتمامي. أعطي البصمات عند جهوزها إلى تقنيّ المختبر، وهو سوف يرسلها إلى **غوليت**".

"سأفعل ذلك".

جـــرى فحص العظام بطريقة سهلة جداً. ذكّرني هذا الفحص بالتحليل الذي أجريته لرجل دي ويز المجهول، فيما عدا الضجر الناتج عن عملية تقطيع الأنسجة وانتزاعها.

وجـــدت أن عملية فصل العمود الفقري إلى أجزاء هي الأصعب. بدأت بالعمل على العظام الأقل تماسكاً، والتي مازالت مغطاة باللحم أثناء وجودها مبللة في المحلول.

استنتجت من شكل عظام الجمجمة، وعظام الحوض، أن الضحية ذكر.

واستنتجت من مؤشرات الأسنان، والأضلاع، والعظام العانية الارتفاقية، أن هذا الرجل قد عاش فترة تتراوح ما بين خمسة وثلاثين عاماً إلى خمسين عاماً.

دلّتني العظام القحفية والجمجمة على أن أجداده قدموا من أوروبا.

إنه رجل أبيض آخر في الأربعينيات من عمره.

تنتهي هنا نقاط التشابه الجسدية.

إن رجـــل دي ويز كان طويلاً، لكن مقاسات عظام الساق الطويلة للرجل المشنوق في الشجرة، دلّت على أن طوله تراوح ما بين 165 و170 سنتم.

إن شـــعر رجـــل دي ويز كان طويلاً وأشقر، بينما شعر الرجل المعلّق كان قصيراً، ومجعداً، وبنيّ اللون.

افـــتقد الرجل المعلّق في الأشجار للأسنان الصناعية، بالإضافة إلى ثلاثة أسنان طاحـــنة وسنّ ما قبل أسنان الطواحن في الفك الأعلى، وذلك بعكس ضحية دي ويـــز. بقيت الأسنان السفلى مجرد لغز لأنني لا أمتلك الفك الأسفل. ودلّت البقع المنتشرة في جانب اللسان على أن الضحية قد استمتع كثيراً بتدخين السجائر.

بدأت البحث عن شذوذٍ محتمل في الهيكل العظمي، وذلك بعد أن انتهيت من إعــداد ملخــصٍ بيولوجي. بحثت، كالعادة، عن عيوبٍ خلقية (منذ الولادة)، أو تغــيرات بنيوية في العظام نتيجة النشاطات المتكررة، أو عن أضرار أخرى وصلت إلى حالة شفاء، بالإضافة إلى أي شيء يدلّ على سجل العلاج الطبي للضحية.

لاحظــت أن الــرجل المشنوق قد تعرض لكسور، بما فيها كسر في عظمة الــساق الــيمنى الصغرى، وكسور في عظام الخدين، ونوعٍ من الإصابة في عظمة الكــتف، لكنها شفيت جميعها. وأظهرت صور الأشعة السينية وجود بقعة معتمة غــريبة على عظمة الكتف اليسرى، وهو الأمر الذي أوحى باحتمال وجود كسرٍ قديم.

لم يكن الرجل ضخم الجثة، لكنه كان مرمماً عظيماً.

انتصبت في وقفتي، وحرّكت كتفيّ، ثم رأسي بعد ذلك. شعرت وكأن نموراً قد مرّرت مخالبها على ظهري.

أشارت عقارب ساعة الحائط إلى الرابعة والأربعين دقيقة. حان وقت تفحّص الأصابع.

لانــت الأنسجة بشكلٍ مرضٍ. استخدمت محقنة صغيرة، وحقنت المحلول الملحــي الحامــضي TES في منطقةٍ باطن راحة اليد. غاصت أطراف الأصابع. غــسلت كل إصبع بالكحول (السبيرتو)، ووضعت كل واحد فوق مختمة حبر، ثم طبعــته على الورقة. ظهرت خطوط البصمات واضحة بشّكلٍ معقول على الورقة.

ناديتُ التقني، وسلّمته البصمات، وعدتُ إلى العظام.

لاحظــت أن التلف الذي وقع بعد الوفاة كان محدوداً بمنطقة أسفل الساقين. دلّــت العضّات والتمزقات التي شاهدتها، والتي ترافقت مع وجود جروح وثقوب دائرية صغيرة على احتمال أنها حصلت بسبب الكلاب.

لم أجد أيّ دليل يتعلّق بجروحٍ حدثت قبل الوفاة مباشرة، ولا أي شيء يدلّ على أن الوفاة حدثت من أي شيء عدا السبب الواضح: الخنق الناتج عن انضغاط بنية الرقبة. يعني ذلك بلغة الناس العاديين حدوث عملية شنق.

اتصلت بي **إيما** عند الساعة السابعة. فأعطيتها آخر المعلومات. وقالت لي إنها تنوي التعريج على مكتب الشريف بعد وقت قليل، وذلك من أجل وخز **غوليت** بحسب تعبيرها.

ذكّــرتني كلمــات **إيمــا** بالجوع الذي بدأت أشعر به فتوجّهت إلى مطعم المستشفى. تناولت وجبة شهية من اللازانيا مع القليل من الصلصة، وطبقاً غنياً من السَلَطة. وعدت بعد انتهائي من هذه الوجبة إلى غرفة التشريح.

لاحظت أن بعض الأجزاء لم تتشبع بالماء بشكلٍ كاف، لكنني تمكّنت بالرغم مـــن ذلك من تحرير أجزاء كبيرة من العمود الفقريّ من غطائها العضلي المتعفن. تـــركت قطعة متصلبة كي تتشبع بالماء، ووضعت الفقرات العنقية والصدرية على الصينية التي تضمّ فقرتين عنقيّتين سبق لي أن انتزعتهما من قاعدة الجمجمة.

عدت إلى المنظار. بدأت بفحص الفقرة C-1، ثم وجهت العدسة جنوباً كي أفحص باقي الفقرات. لم أجد أي شيء غير اعتيادي حتى وصلت إلى الفقرة C-6.

تكرّر بعدها المشهد الذي حدث يوم السبت.

وجدت أمامي جسم الفقرة، والقوس، والنتوءات المستعرضة التي تحتوي على الثقوب الصغيرة التي تمرّ الأوعية القحفية من خلالها.

وجدت إلى يسارها كسراً مفصلياً.

عدّلت قوة تركيز عدسة المنظار، وغيرّت موضع الضوء.

بـــدا كـــل شيء واضحاً أمامي. ظهر كسرٌ دقيق جداً يمتدّ عبر يسار النتوء المستعرض، ثم انتشر من الجهات المتقابلة للثقب.

وجدت أمامي النمط ذاته الذي شاهدته في الهيكل العظمي الذي وجدناه في دي ويـــز. أثبت لي الكسر المفصلي، وانعدام التفاعل العظمي، أن هذا حدث أيضاً نتيجة ضربة تعرضت لها عظام حية. تزامن هذا الكسر مع وقت حصول الوفاة.

لكن كيف؟

إن فقـــرة C-6، والمنطقة السفلية من الرقبة، هما في منطقة أبعد من أن يصلها تأثير عملية الشنق. ربما سقط الرأس بفعل حيوان مفترس، لكن الأنشوطة بقيت في مكانها الذي يقع بين الفقرتين C-3 وC-4.

هل نتج ذلك عن خلعٍ مفاجئ عندما قفز الضحية من الغصن؟ وإذا كان قد قفـز من فرع الشجرة، فكيف وصل إلى ذلك الفرع؟ هل تسلّق الرجل الشجرة صعوداً ليصل إلى ارتفاع 180 سنتم؟ يبقى ذلك احتمالاً وارداً.

أغمـضت عـينيّ، وحاولـت أن أتخيّل الجثة المتدلية من الشجرة. تواجدت الأنـشوطة خلـف الرقبة، وليس إلى جانبها. لم أجد أن ذلك يتناسب مع شيء يتسبّب بكسر واحد. دقّقت ذهنياً بصور **ميلر** التي التقطتها لمسرح الجريمة.

هل يفسّر الشنق الكسر الذي أصاب عنق الضحية في دي ويز؟ هل أقدم على الانتحار هو الآخر؟

إن هذا احتمال وارد، لكنني متأكدة من أن الرجل لم يحفر قبره بنفسه.

هل تسير **إيما** على الطريق الصحيح؟ أيُعقل أن يكون رجل دي ويز قد قتل نفـسه، ثم قـام أحد أصدقائه، أو أحد أقربائه، بدفنه؟ ولماذا؟ هل حصل ذلك نتـيجة الـشعور بالعـار؟ أم بسبب التردد في تحمل نفقات الدفن؟ وهل نتج ذلـك عن الخوف من أن شركة التأمين سوف ترفض دفع التكاليف؟ بدا ذلك احتمالاً بعيداً. يستغرق الأمر أحياناً عشر سنوات قبل الإعلان عن وفاة شخصٍ مفقود.

هـل تتحول قضية دي ويز إلى قضية لا تتعدى التخلص غير اللائق من جثة إنسان؟

استعرضت التفسيرات البديلة لكسر الرقبة الوحيد الذي لاحظته عند الرجل الـذي شُنق على فرع شجرة. بقيت التفسيرات ذاتها هي التي استعرضتها بالنسبة لضحية دي ويز.

هل نتج الكسر عن سقطة؟ أم عن عملية خنق؟ أم عن مقبض سوط؟ أم عن ضربة على الرأس؟

لم أجد أي منطقٍ في كل هذه الاحتمالات بسبب طبيعة الكسر وموقعه.

استغرقت في تفكيري إلى أن اقتحمت **إيما** باب الغرفة.

"عرفنا هويته!"

ابتعدت عن المنظار.

لوّحت **إيما** بورقة مطبوعة باتجاه الهيكل العظمي: "مرّر **غوليت** البصمات في نظام AFIS (أي النظام الآلي للتعرّف على البصمات) فظهر صاحبنا على الفور".

لفظت **إيما** الاسم، وسرعان ما شعرت أن كياني اهتزّ بكامله.

12

"**نوبل كروكشنك**".

"يا الله القدير".

لم ألاحظ ما إذا كان ردّ فعلي هذا قد أدهش **إيما**.

"إن **كروكشنك** هو رجل متقاعد من رجال شرطة شارلوت – ماكلينبيرغ، لكن تقاعده ليس هو السبب في ورود اسمه في النظام. يتمّ أخذ بصمات المتطوعين الجدد في شرطة شارلوت – ماكلينبيرغ في معهد الشرطة بالطبع، لكن هذه البصمات تبقى شأناً داخلياً لديهم. قُبض على **كروكشنك** في عام اثنين وتسعين لقيادته سيارته تحت تأثير الكحول، ولذلك تمّ إدخال معطياته في بصمات النظام".

أعرف جواب السؤال الذي ينمّ عن غبائي، والذي طرحته عليها: "هل أنت متأكدة من أنه **كروكشنك**؟"

"أنا متأكدة مئة بالمئة".

تناولت الورقة المطبوعة، وقرأت مواصفات **كروكشنك**: ذكر، أبيض، الطول 165 سنتم. ويشير تاريخ الميلاد إلى أن عمره سبعة وأربعون عاماً.

تناسبت هذه المعلومات مع التقديرات التي وضعتها. تدلّ حالة الجثة على مرور شهرين على وفاة صاحبها، وتعرّضها لشتى العوامل. تأكدت أنه **كروكشنك**.

إنه **نوبل كروكشنك**، وهو التحري المفقود الذي استخدمه **بوك فلين**.

تفحّصت الصورة. إنها صورة مبرغلة باللونين الأبيض والأسود، وتعطي انطباعاً بأن صاحبها هو رجل.

بيّنت الصورة أن بشرة **كروكشنك** مليئة ببثور الجدري، أما أنفه فكان مقوساً، ولاحظت أن شعره مسرح إلى الخلف ومجعدٌ في نهاياته. بدا لي أن اللحم بدأ بالترهل على امتداد فكه وخدّيه، ولعله يحمل من الوزن أقل مما كان يرغب فيه. ظلّت تعابير وجهه مع ذلك تنم عن ذكورية رجل صلب.

"إنه **نوبل كروكشنك** بالتأكيد".

"أتعرفينه؟"

"لا أعرفه شخصياً. طُرد **كروكشنك** من الشرطة في عام أربعة وتسعين، بسبب قضية تورّط بها مع **جيمي بي**. عمل الرجل كمحققٍ خاص إلى أن اختفى في أواخر شهر آذار (مارس)".

"أعتقد أننا نحصل على هذه المعلومات بسبب...؟"

"أتذكرين **بيتي**؟"

"إنه زوجك".

"إنه زوجي الذي انفصلت عنه. كُلّف **بيتي** للتحقيق ببعض التعاملات المالية التي قامت بها **كنيسة رحمة الله**، بالإضافة إلى الاستقصاء عن مكان وجود ابنة موكّله المختفية، والتي تورطت مع هذه الجمعية. استخدم **بوك فلين**، وهو اسم الموكّل، **كروكشنك** قبل أن يكلّف **بيتي** بهذه القضية. اختفى **كروكشنك** أثناء إجرائه لتحرياته".

"أعرف أن **بيتي** هو محامٍ".

"أعرف ذلك. يتحدر **بيتي** من لاتفيا، وكذلك والدة **فلين**. يثق **فلين** به لأنه من أبناء قومه".

"هل اختفت ابنة **فلين** هنا؟"

"يُفترض هذا. تخصّص **كروكشنك** في البحث عن الأشخاص المفقودين، واختار منطقة عملٍ تقع ما بين تشارلستون وشارلوت. انتمت **هيلين فلين**، أي الابنة، إلى **كنيسة رحمة الله** التي يُعتبر **بوك** أبرز المتبرعين لها".

"يرأس **أوبري هيرون** هذه الكنيسة، لكن يوجد شيء مثير للاهتمام هنا. ألم يُدهش **فلين** عندما توقّف محققه الخاص عن إرسال التقارير إليه؟"

"يبدو أن **كروكشنك** معروف بحفلات الثُمل".

"وهل أقدم **فلين** على استخدام رجل سكّير؟"

"لم يعرف هذا عنه إلا بعد مرور وقت على استخدامه له. وَجَدَ اسم **كروكشنك** في شبكة الإنترنت. فضّل الرجل لهذا السبب بالذات استخدام شخصٍ من العرق البلطيقي".

طرحت **إيما** السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه بنفسي.

"ما هي علاقة **كروكشنك** بمحفظة **بينكني**؟"

قلت مرتجلة: "هل وجدها؟"

"هل سرقها؟"

"هل حصل عليها من شخصٍ عثر عليها، أو سرقها؟"

"قال **بينكني** إن المحفظة اختفت في شهر شباط (فبراير)، أو آذار (مارس)، وهو الوقت الذي يتناسب مع انتحار **كروكشنك**".

"أنت تفترضين أنه انتحار".

"على سبيل الافتراض، ولعل شخصاً وجد الجثة معلقة في تلك الغابة، فدسّ المحفظة فيها".

سألتُ: "ولماذا يفعل ذلك؟"

"هل هذا نوع من المزاح الثقيل؟"

"إنه نوع سقيم من المزاح".

"أو هل قصدوا التشويش على عملية تحديد هوية الضحية عندما يحين الوقت؟"

"أعتقد أن المحفظة كانت في جيب السترة، أليس كذلك؟ لعل **كروكشنك** استعار، أو وجد، أو أخذ، السترة من دون أن يدري أنها تحتوي على المحفظة. هل ذكر **بينكني** شيئاً عن فقدانه لسترته؟"

هزّت **إيما** رأسها.

"ولماذا لم يكن **كروكشنك** يرتدي، أو يحمل، أي شيء يخصّه؟"

فكـــرت **إيما** للحظة: "إن الذين يفكّرون بالانتحار جدياً عادةً ما يتخلون عن ممتلكاتهم الشخصية، لكن لماذا اختار ذلك الرجل غابة **فرنسيس ماريون**؟ وكيف وصل **كروكشنك** إلى هناك؟"

قلتُ: "إنه سؤال وجيه، سيدتي المحققة الجنائية".

افتقدتْ **إيما**، وكذلك أنا، للأجوبة الوجيهة عن هذه الأسئلة.

رفعتُ الورقة المطبوعة الآتية من **المركز الوطني للتعرف على البصمات**: "هل أستطيع الاحتفاظ بالورقة؟"

قالت **إيما** بينما كنت أضع هذه الورقة على الطاولة: "إنها نسختك. إذاً أقدم السيد **كروكشنك** الذي يخصّك على شنق نفسه".

صحّحت لها: "إن السيد **كروكشنك** يخصّ **بيتي**".

"وهل **بيتي** موجود هنا في تشارلستون؟"

"آه، نعم".

قوّست **إيما** حاجباً مستغرِباً.

جاء ردّ فعلي قوياً.

عـــدت إلى منـــزل **البحر على امتداد أميال** عندما قاربت الساعة التاسعة. وجــدت أن ثمـــار الدراق والطماطم تغطي طاولتين من طاولات المطبخ. إنه يوم الثلاثاء، فافترضتُ أن **بيتي** قد مرّ على سوق المزارعين في جبل بلازانت.

جلـــس **بـــيتي** برفقة **بويد** في الغرفة يشاهدان مباراة للبيسبول على جهاز التلفاز.

بـــدا أن فريق التوينـــز كان متقدماً بنتيجة عشر إلى أربع إصابات على فريق وايـــت ساكس، وهو الفريق المفضّل لدى **بيتي**. انضمّ **بيتي** إلى فريق الساكس في فتـــرة صـــباه التي قضاها في شيكاغو، وعندما نُقل مركز فريق AAA إلى مدينة شارلوت، شعر **بيتي** بالإحباط.

قلتُ من دون مقدمات: "مات **كروكشنك**".

نهض **بيتي**، وحوّل كل انتباهه نحوي، لكن **بويد** أبقى عينيه على الوعاء نصف الممتلئ بالفوشار.

"ألا تمزحين؟"

"شنق الرجل نفسه".

"هل أنتِ متأكدة من أنه **كروكشنك**؟"

"أجرينا مقارنات الاثنتي عشرة نقطة في **النظام الوطني للتعرّف على البصمات**".

أزاح **بيتي** وسادة على الأريكة فتهالكتُ عليها. بدأت بسرد ما جرى مع **بينكني**، ثم مع الرجل الذي عُلّق على شجرة، بينما تقدم **بويد** ببطء نحو وجبتنا الخفيفة (الفوشار) على مهل.

"كيف حصل **كروكشنك** على محفظة الرجل الآخر؟"

"من يدري؟"

"وهل تنوي **إيما** إجراء مقابلة صريحة أخرى مع **بينكني**؟"

"أنا متأكدة من أنها ستفعل".

أبقى **بويد** نظرته على **بيتي**، واستدار برأسه جانباً، ثم مرّر لسانه فوق صحن الفوشار. أسرع **بيتي** بنقل مكان الوعاء إلى الطاولة التي تقع خلفنا مباشرة.

بقي **بويد** متفائلاً كالعادة، فقفز إلى الأريكة، وضغط بثقله إلى جانبي. مسّدت أذنه من دون انتباه.

سأل **بيتي**: "ألا يوجد شك في أن يكون **كروكشنك** قد أقدم على قتل نفسه؟"

ترددت قليلاً عندما تذكّرت أنني و**إيما** نفتقد إلى الأجوبة الوجيهة، بالإضافة إلى ما لاحظته في الفقرة العنقية السادسة.

"ماذا؟"

"لعله ليس بالأمر المهم".

ابتلع **بيتي** ما تبقى من زجاجة شراب الشعير هاينكين، من دون إخفاء صوت ابتلاعه، ووضع الزجاجة، واتخذ له وضع المستمع المهتم.

وصـــفت له الكسر المفصلي الذي ظهر إلى يسار النتوء المستعرض من تلك الفقرة.

"وما الغريب في هذا الكسر؟"

"لا تتناســـب هـــذه الإصـــابة مع فرضية الشنق، وخصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتـــبار وجود الأنشوطة خلف الجمجمة، وليس إلى جانبها. لكن الأمر يتعدى ذلك، يمتلك الهيكل العظمي الذي وُجد في دي ويز كسراً في المكان عينه".

"وهل هذا بالأمر المهم جداً؟"

"لم أرَ مـــثل هذا النمط من الإصابة من قبل، ثم فجأة يظهر أمامي مرتين في أسبوع واحد. ألا تظن أن هذا أمر يثير الريبة؟"

"وما هو تفسيرك؟"

"أمتلك عدة تفسيرات، لكنها غير مقنعة".

"إن التردد هو مفتاح المرونة".

وضـــع **بويد** ذقنه على كتفي فأصبح أنفه على بعد سنتيمترات قليلة من وعاء الفوشار. فأبعدتُه جانباً. واستلقى بعدها على حضني.

سألتُه: "كيف كان يومك؟"

ابتسم **بيتي** ابتسامة عريضة: "أليس هذا شيئاً رائعاً؟ كأننا متزوجان بالفعل".

"لطالما كنا متزوجين بالفعل، ولم يكن الأمر رائعاً".

"إننا ما زلنا متزوجين بالفعل".

وكـــزتُ **بويد**. تحرّك الكلب عبر حضني، وحضن **بيتي**، ثم حشر نفسه معه. بدأت بالنهوض.

رفع **بيتي** يديه الاثنتين: "حسناً، حسناً. تجوّلت اليوم حول **كنيسة رحمة الله**".

عدت إلى الجلوس: "هل تحدّثت مع **هيرون**؟"

هـــزّ **بـــيتي** رأسه: "نثرتُ بعض الكلمات المخيفة مثل، مقاضاة، إساءة إدارة أموال التبرعات وهدرها".

"إنها كلمات مخيفة".

رنّ هاتفي الخلوي في تلك اللحظة. تفحّصت الشاشة الصغيرة. وبرز رقم **إيما**.

"استطاع **غوليت** أن يتعقب أثر عنوان **كروكشنك**. يبعد المكان قليلاً عن كالهـــون، ويقع بالقرب من مجمع MUSC. ذهب الرجل إلى هناك، واستطاع إقناع المالك بالتوقف عن مشاهدة الدي في دي، لفترة كانت كافية ليعرف منه أن **كروكـــشنك** استأجر شقة عنده لمدة تقارب السنتين، لكن الرجل لم يظهر في شـــقته مـــنذ شهر آذار (مارس). يدعى مالك الشقة **هارولد باروت**، وهو رجـــل إنـــساني بطبعه. أقدم **باروت** على جمع أغراض **كروكشنك** في صناديق كـــرتونية، وغيّر الأقفال، ثم نظّف الشقة، وذلك بعد أن تأخر ثلاثين يوماً عن دفع الإيجار".

"وماذا حدث لهذه الصناديق الكرتونية هذه؟"

رفع **بيتي** حاجبين متسائلين. أومأتُ عندما تلفّظ بكلمة **كروكشنك**.

"كدّسها **باروت** في الطابق السفلي، وافترض أن **كروكشنك** قد غادر البلدة، لكـــنه لم يكن يريد الوقوع بمشاكل إذا ما عاد وظهر مجدداً مطالباً بأغراضه. فَهِم **غولـــيت** أن **بـــاروت** كان يخاف من **كروكشنك**. سيعود **غوليت** إلى هناك في الصباح، وسوف أرافقه. وأظن أنك ترغبين بالانضمام إلينا".

"أين يقع المكان؟"

قرأتْ **إيما** العنوان، فدوّنته.

"ومتى ستذهبان؟"

وجّه **بيتي** إصبعاً نحو صدره.

"سننطلق عند التاسعة".

"وهل ألاقيكما هنا؟"

"يبدو أننا اتفقنا".

شدّد **بيتي** من توجيه إصبعه إلى صدره.

"أتمانعين إذا انضمّ **بيتي** إلينا؟"

"يبدو أن اتفاقنا أصبح أكثر متعةً".

بدأ اليوم سيئاً واستمرّ على هذا النحو.

اتــصلّت **إيمــا** بي قــبل الثامنة بوقت قصير، وأبلغتني أنها مرّت بليلة صعبة وســألتني إن كــنت أمانــع بالانضمام إلى **غوليت** و**باروت** بمفردي؟ وشرحـ للشريف أنني أقدم استشارتي بشكل رسمي في هذه القضية، وطلبت من مكتبه تقد كل العون لي.

دلّني صوت **إيما** على مدى المرارة التي تشعر بها، وشعرت بالثمن الذي تدفـ صــديقتي بعدم اعترافها بحقيقة أن جسمها بدأ بالانهيار. أكّدتُ **لإيما** أنني سأكو على ما يرام، وأنني سوف أبلغها بما يستجّد فور مغادرتي شقة **باروت**.

رأيــت **بيتي** وهو يغلق هاتفه الخلوي بعدما أنهى مكالمته مع **فلين**، وذلك فـ دخــولي المطــبخ. بدا بوك متضايقاً مما حصل، لكنه أبدى ارتياحه لتحديد مكـ وجــود **كروكــشنك**. أبدى بوك سروراً أكبر عندما علم بإمكانية الاجتماع **هيرون**، واحتمال الحصول منه على بعض الأجوبة عن أسئلته العديدة.

اتــصل **بــيتي** أيــضاً بصديق له في مركز شرطة شارلوت - ماكلينبيرغ. يُدهش الرجل عند سماعه أخبار موت زميله السابق الذي عرفه أثناء عمله كمحـ خــاص ضمن قوة المركز. أضاف الرجل أن **كروكشنك** كان سبطانة مسدس الفم تنتظر من يطلقها.

شــاهدتُ و**بيتي**، سيارة الإكسبلورر التابعة **لغوليت** عند المنعطف، وذلك إن خــرجنا مــن شــارع كالهون إلى طريق فرعي غير نافذ. شهدت هذه المنـ الــسكنية أيامــاً كانت فيها كثيفة الأشجار، لكن التطوير الحديث الذي مرّت جــرف في طــريقه شجيرات الدفلى والبيلسان الساحرة. امتدت المكاتب والمـ التجارية إلى جانب المنازل الضخمة القديمة التي تعود لأيام الاتحاد القديم.

قادنا العنوان الذي أعطتني إياه **إيما** إلى مبنى قديم استطاع الصمود إلى أيام قــبل الحرب الأهلية الأميركية، ويتمتع بهندسة تشارلستونية أصيلة: واجهة ضيـ واتساع في الداخل، وشرفات جانبية في الطوابق العليا والسفلية.

تــرجلتُ و**بيتي** من السيارة، وبدأنا نصعد الممر الموصل إلى المدخل. لاحـ ازدياد نسبة الرطوبة، مع أن غطاء الغيوم أبقى درجات الحرارة معتدلة. شعرت مرور لحظات قليلة أن ملابسي تلتصق بجسمي.

اقتربنا من المبنى، ورحت أختزن تفاصيله. لاحظت الخشب المتعفن، والدهان الذي بهتت ألوانه مع مرور الزمن. رأيت أنه أصغر حجماً من ***المبنى الملكي في برايتون***. ولاحظت وجود لوحة مزخرفة فوق المدخل كُتب عليها **ماغنوليا مانور**.

لم أشاهد شجيرات الماغنوليا، ولا أية أزهار، لكنني لاحظت تشابك الشجيرات المعرشة على باحة جانبية.

لاحظت أن باب مدخل المبنى لم يكن مقفلاً. دخلتُ **وبيتي** من الباب، فانتقلنا بذلك من الجو الدافئ اللطيف، إلى جو دافئ لطيف أكثر برودة بقليل.

إن الردهة التي كانت فخمةً ذات يوم أصبحت الآن رواقاً يضمّ درجاً مسيجاً، وجدراناً تضمّ حاملات مصابيح، وسقفاً تتدلّى الثريات منه. وعكَسَ الأثاث القليل الموجود كل الروعة التي يشاهدها المرء في عيادة طبيب الأسنان. شاهدتُ خواناً خشبياً مصقولاً، وأريكة مصنوعة من الفينيل، ونبتة بلاستيكية، وغطاءً نايلونياً للطاولة، وسلة نفايات بلاستيكية مليئة بإعلانات مهملة.

دلّ صفّان من لوحات أسماء المستأجرين على أن المنزل مقسّم إلى ست وحدات سكنية. شاهدت بطاقة وُضعت إلى يمين وأسفل الأزرار، مكتوبة بخط اليد، وتحمل رقم مدير هذا البناء السكني.

نقرت الأرقام. وأجابني **باروت** بعد الدقّة الثالثة.

عرّفت عن نفسي. قال **باروت** إنه موجود مع **غوليت** في الطابق السفلي، ثم دلّني على طريق النزول من خلال الرواق الرئيسي الذي يؤدي إلى المنطقة الخلفية للمبنى. أضاف أن باب الدرج موجود إلى يساري.

أشرت **لبيتي** أن يتبعني.

وجدت باب القبو (أو الطابق السفلي) حيث توقعت، وكان مفتوحاً على مصراعيه.

قلتُ بصوت خفيض: "لم يُقدم **كروكشنك** على اختيار هذا المنزل القديم بسبب نظامه الأمني".

قال **بيتي**: "لا بد أن هندسته الداخلية الرائعة هي التي جذبته".

تناهى إليّ من الأسفل صوتا **غوليت وباروت** وهما يتحدثان.

أضاف **بيتي**: "بالإضافة إلى الاسم الذي يمتلك جاذبية خاصة".

انخفضت الحرارة نصف درجة على الأقل أثناء نزولي الدرج الخشبي مع **بيتي**. امتلأ الهواء في الأسفل برائحة عقود من العفونة ورائحة الثرى المشبع بالرطوبة. لم أعرف ما إذا كان يجدر بي التنفس من أنفي، أم من فمي.

وجدت القبو كما توقعته، فأرضه ترابية، وسقفه منخفض الارتفاع، وجدرانه حجرية تحمل آثار الطين المتداعي. تمثلت التنازلات القليلة التي تدلّ على القرن العشرين بغسالة ثياب ومجففة ثياب قديمتين، وبسخّان ماء، وبمصابيح كهربائية خفيفة الإنارة تتدلّى من أسلاك سيئة التوزيع.

تجمّعت السلع القديمة في كل مكان. رأيت أكوام الصحف، وبعض الصناديق الخشبية، وبعض المصابيح المكسورة، وأدوات العمل في الحدائق، ولوحة نحاسية.

وقف **غوليت** و**باروت** في الجهة البعيدة من الغرفة، ورأيت علبة كرتونية مفتوحة وُضعت على طاولة بينهما. أمسك **غوليت** ظرفاً أسمر اللون في يد، بينما راح يقلّب محتوياته باليد الأخرى.

التفت الرجلان فور سماعهما لوقع خطواتنا.

قال **غوليت** بطريقته الفريدة في بدء الأحاديث: "يبدو أنك أصبحت أمراً ثابتاً بالنسبة لمحققتنا الجنائية. لا أعترض على هذا، طالما أن كل واحد يعرف حدوده ومجالات عمله".

"بالطبع".

عرّفته على **بيتي**، وأعطيته أكثر الشروحات اختصاراً عن سبب اهتمامه بالمستأجر السابق عند **باروت**.

"إن السيد **كروكشنك** كان شخصاً مليئاً بالمشاغل يا حضرة المحامي".

"إنني منشغل **كروكشنك** بطريقة غير مباشرة فقط...".

قاطعه **غوليت**: "قتل الرجل نفسه في مدينتي. إن ذلك يجعله من اختصاصي أنا، لكنك حرّ بالتجول مع الدكتورة هنا. أنصحك أن تُبقي أية أفكار ارتجالية قد تخطر على بالك في مكانها".

لم يقل **بيتي** شيئاً.

قال الرجل بنبرته الباردة المعتادة: "تقول الآنسة **روسو** إنك تبحث عن شابة تدعى **هيلين فلين**".

أجاب **بيتي**: "هذا صحيح".

"أيمكنني أن أسأل عن السبب، يا سيدي؟"

"قلق والد **هيلين** عليها لأنها خرقت اتفاقاً".

"وماذا ستفعل عندما تجد تلك الشابة؟"

"سأخبر والدها".

تأمـــل **غوليت بيتي** لفترة كانت كافية لتجعلني أعتقد أنه سيطرده من المدينة: "لا بأس في ذلك، عندما تختفي ابنتي عن الأنظار، فلا بد من أن أعرف السبب".

أغلق الشريف الظرف الأسمر، وهزّه.

"إن قراءة محتوى هذا الظرف هي أمر شيق".

13

عكَسَ **غوليت** وضعية الظرف حتى نتمكن من قراءة الاسم المكتوب بخط السيد عليه. **فلين، هيلين.** توافق التاريخ مع أول اتصال أجراه **بوك فلين** مع **كروكشنك**.

ناول **غوليت** الظرف إلى **بيتي**، واستدار نحو الصندوق الكرتوني، ثم تابع البحث. سحب ظرفاً آخر، وقرأ عنوانه، ثم أعاده إلى جوار الملفات الأخرى.

تفحّص **بيتي** محتويات ملف **هيلين فلين**.

راقبتُ **باروت**. إنه رجل أسود ومسنّ وأجعد الشعر، ويفرق شعره إلى الجانب مع تمليسه بشدة. رأيت أمامي نات كينغ كول بقميص داخلي. بدا الآن عصبياً مثل رجل ينتظر لكمة على خاصرته.

التفت **غوليت** نحو **باروت** بعد أن سحب عدة ملفات.

"هل وضعت أنت كل هذه الملفات في هذه الصناديق، يا سيدي؟"

"لم أضع الملفات. إنها على الحالة التي تركها عليها **كروكشنك** بالضبط. عملت أنا على ترتيب تلك الصناديق التي هناك".

أشار **باروت** إلى كدسة من الصناديق الكرتونية.

"جمعتَ كل ممتلكات السيد **كروكشنك**، أليس كذلك يا سيد **باروت**؟ ألم تضع شيئاً في غير مكانه، أو تضيّع أي شيء من هذه الصناديق؟"

تحـــوّلت نظـــرة **باروت** من **غوليت** نحوي، ثم توجهتْ نحو الأرض: "بالطبع وضعت كل شيء في مكانه. لم أحضّر قائمة بها، إن كان ذلك ما تقصده. اكتفيت بوضع كل هذه الأشياء في الصناديق".

صوّب **غوليت** نظرة حادة باتجاه مالك المبنى.

مـــرّر **بـــاروت** يده فوق رأسه. لم تتزحزح أية شعرة من مكانها. بدا الشعر مصقولاً، ولامعاً أكثر من كعكة كريسبي كريم المحلاة.

مـــرت الـــثواني، ومرت دقيقة بأكملها. وسمعت في مكانٍ لم أستطِع تحديده صوت حنفية مياه تقطر ماءً.

كـــرّر **بـــاروت** تمسيد شعره. ووضع ذراعيه بشكل متصالب، وما لبث أن أسدلهما. وبقيت نظرة الشريف مسمّرة على وجه **باروت**.

أخـــيراً، كسر **غوليت** الصمت المخيّم: "هل تمانع يا سيدي إذا نقلتُ أغراض السيد **كروكشنك** لحفظها في مكان آمن؟"

"ألا تحتاج إلى تفويض قانوني، أو إلى نوع من الأوراق الرسمية؟"

لم تتحرك أية ألياف عضلية في وجه **غوليت**.

ارتفعـــت يدا **باروت** إلى الأعلى: "حسناً. حسناً. لا مشكلة أيها الشريف. كـــنت أحـــاول أن أكـــون قانونياً فقط. تعرف ذلك، هناك شيء يسمى *حقوق المستأجرين*، أو ما يشبه ذلك".

تـــواجدت ســـتة صناديق كرتونية. أخذت صندوق الملفات، بينما قام **بيتي** **وغولـــيت** بجولـــتين نقلا فيهما صندوقين في كل مرة. أجريت مكالمة مع **إيما** من ســـيارة الإكـــسبلورر، وذلك أثناء انهماك الرجلين بالنقلة الثانية. بدا أنها في حالة أفضل، لكنني لاحظت أنها ما تزال على ضعفها.

أبلغتها أننا سنتوجّه إلى مكتب الشريف. فشكرتني **إيما**، وطلبت مني أن أبقيها على اطلاع بما يجري.

تـــركنا ماغنوليا مانور وسرنا، أنا **وبيتي** لمدة عشرين دقيقة وراء **غوليت**، ثم انعطفـــنا بالـــسيارة إلى باحة تقع خلف **مكتب الشريف في مقاطعة تشارلستون**. شُيّد هذا المبنى المنخفض الارتفاع من أحجار القرميد والجص، ويقع في شارع باين

هـــافن الذي يشكل قسماً من تشارلستون الشمالية. احتاجت الصناديق الكرتونية نقلتين حتى أصبحت في غرفة اجتماعات صغيرة.

انـــشغل **غولـــيت** بالاتصال بشرطة مدينة تشارلستون، بينما انشغلتُ **وبيتي** بـــتفحّص ممـــتلكات **كروكشنك**. تفحّص **بيتي** ملف **فلين**، بينما بدأت بتفحص العلب.

وجدت في العلبة الأولى مناشف حمّام، وبعض العطور الرجالية، بالإضافة إلى معجون الأسنان، وشفرات الحلاقة، وكريم الحلاقة، والشامبو، ومسحوق الأرجل.

احـــتوت العلبة الثانية على أدوات مطبخية، مثل أكوابٍ وأطباقٍ بلاستيكية، وبعض الأكواب الزجاجية، وبعض الملاعق والشوك الرخيصة.

اشـــتملت العلـــبة الثالثة على إناء لحفظ اللحوم، وعلى إناء لحفظ الشرائح المجلدة، وفروت لوبس، وعلى سباغيتي مجففة وبعض المعكرونة. وجدت أيضاً عدة علب من حساء كامبل، وعدّة علبٍ من الفاصولياء المقلية، وبيبي ويبي.

انـــشغلت بترتيب أغطية العلبّ الكرتونية كما كانت: "لم يكن الرجل طاهياً متمرساً في المنـــزل".

ركّزت على الملف، بينما اكتفى **بيتي** بإصدار همهمة محايدة.

احتوت العلبة الرابعة على ساعة منبّه، وأغطية سرير، وحِرامات.

امتلأ الصندوق الخامس بالوسائد.

واحتوى الصندوق السادس على بعض الملابس.

ركّز **بيتي** على الأوراق التي كان يفتش فيها: "هل وجدتِ أي شيء؟"

"وجدت الكثير من القمصان الرديئة".

لم يصغِ **بيتي** لما قلته: "حقاً؟"

"أحبّ الرجل اللون البني".

كتب **بيتي** شيئاً ثم ألغاه: "همم".

"وجدت بذلة سباحة ماركة دايل إيفانـــز. يصعب إيجاد هذه الماركة في هذه الأيام".

"همم".

"وأربطة للجوارب".

ارتفع رأس بيتي: "ماذا؟"

عرضت عليه قميص عمل بني اللون.

"يا لك من امرأة مسلية، يا حبة السكر".

سألته: "هل وقعتَ على شيء له أهمية؟"

"استخدم الرجل نوعاً من نظام اختزال".

عبرت الغرفة، ونظرت إلى إحدى الصفحات التي كتبها **كروكشنك** بخط يده. تألفت هذه الأوراق من مجموعات من الأرقام، والحروف، والعبارات القصيرة.

2/20

LM

CI-9-6

Ho-6-2

AB CI-8-4

CD CI-9-4

Mp no

No F

23 i/o

2/21

LM

CI 2-4

Ok stops

Ho 7-2

AB CI-8-5

CD CI-8-1

???

No F

31 i/o

2/22

LM

No CI

???

AB CI-12-4

No F

CI 9-6

28 i/27 o

Si/so rec! photos

أشــرت إلى الــسطر الأول من كل مقطع: "لعله يدلّ على التاريخ. الواحد والعــشرين مــن شباط (فبراير)، والحادي والعشرين من شباط (فبراير)، وهكذا دواليك".

وجّه **بيتي** ابتسامة نحوي: "يبدو أن لا علاقة لك بريجيوسكي يا عزيزتي".

انتظرتُ قليلاً.

"أتعني نظام إنيغما؟"

هزّ رأسه.

"اســتخدم الألمــان خــلال الحــرب العالمية الثانية نظام تشفير كهربائي – ميكانيكي ذا قاعدة دوارة. عُرف النظام باسم إنيغما. استطاع ريجيوسكي أن يفكّ نظام الشيفرة باستخدام الرياضيات النظرية".

عــدت باهتمامــي إلى الصناديق: "إنك تعمل بمفردك أيها العالِم القادم من لاتفيا".

اكتــشفت شيئاً في الصندوق ما قبل الأخير. دلّت محتويات الصندوق رقم سبعة علــى أشــياء تتعلّق بطاولة، أو منصة عمل. رأيت كدسات ورق، وظروفاً، وأوراق ملاحظــات بيــضاء، وأقلامــاً، ومقصاً، وشريطاً لاصقاً، وجهازاً لتثبيت الأوراق،

ومشابك للأوراق، وأربطة مطاطية، ومجموعة من "الرزّات" (لتثبيت الأوراق).

عثرت على علبة أسطوانة مدمجة.

نـــزعت الغلاف الخارجي عن علبة الأسطوانات، وحرّرت الأسطوانات من عمودها المركزي. عددتُ ست أسطوانات، وتفحّصت كل ملصقاتها.

خالـــت خمس أسطوانات من أي تعريف، وحملت الأسطوانة السادسة كتابة عليها.

شعرت بتدفق الأدرينالين في شراييني.

كُتبت الكلمات السوداء بقلم عريض **فلين، هيلين**.

شـــعرت بانحـــسار طفـــيف للأدرينالين. لماذا؟ هل شعرتُ بخيبة أمل؟ وماذا افترضتُ أن يحتوي الملصق؟ "القبر الغامض في جزيرة دي ويز؟"

"**بيتي**".

"همم"

"**بيتي**!"

ارتفع رأس **بيتي** على نحو مفاجئ.

أمسكت الأسطوانة بيدي.

ارتفع حاجبا **بيتي**، وكان على وشك أن يتكلم عندما ظهر **غوليت**. فعرضت عليه الأسطوانة المدمجة.

"ألديك جهاز كمبيوتر نستطيع استخدامه لنرى محتويات هذه الأسطوانة؟"

"اتبعاني".

قادنا **غوليت** إلى مكتبه، وجلس على كرسي جلدي وراء مكتب صغير. نقر **غوليت** بعض الأوامر، ثم مدّ يده. أعطيته الأسطوانة ثم نقر المزيد من الأحرف على لوحة المفاتيح.

همهم جهاز الكمبيوتر عندما تلقّف أسطوانة **كروكشنك** المدمجة. نقر **غوليت** على مزيد من المفاتيح، ثم أشار لنا بالوقوف وراءه.

اســـتدرتُ و**بيتي**، ووقفنا وراء طاولة المكتب، ثم رحنا ننظر من وراء كتفَي **غوليت**. رأينا أن الشاشة مليئة بمربعات صغيرة من نوع ملفات JPEG.

نقـــر **غولـــيت** علـــى المربع الأول مرتين، وما لبثت أن امتلأت الشاشة بصورة.

أظهر المشهد بناية حجريةً من طابقين ذات باب في الوسط ونافذتين كبيرتين علـــى جانبيه. لم يحتوِ الباب أو النافذتان الزجاجيتان على أية كتابات، أو على أي رمز من أي نوع كان. لم نلاحظ علامات تدلّ على الشارع، أو لوحات عناوين المنازل والتي يمكن أن تساعد على تحديد موقع البناية. لم نستطعِ مشاهدة أي شيء داخل البناية بسبب الستائر المسدلة.

قلـــتُ: "ألاحظ وجود عمق أقل لمجال الصور، وأنها محببة جداً (مبرغلة)، ولا بد أنها أُخذت عن بُعْد بواسطة عدسة مقرّبة".

قال **بيتي**: "إنها عين خبيرة".

سألتُ **غوليت**: "هل عرفتَ المكان؟"

"أنا أكيد من أنه ليس **راينبو رو**، وعدا عن ذلك يُمكن للبناية أن تقع في أي مكان".

أظهـــرت الـــصور التالية نفس البناء، لكن من زوايا متنوعة. لم تتضمّن هذه الصور أية بنايات مجاورة، أو معلماً معروفاً.

أشرت إلى صورة تُظهر رجلاً يغادر البناية: "دعنا نرى هذه الصورة".

نقر **غوليت** مرتين على الملف.

لاحظـــت أن الرجل متوسط الطول، لكنه يمتلك جسماً قوياً. يمتلك الرجل أيـــضاً شـــعراً داكـــناً، ويرتدي معطفاً مع حزام وقناع. لم يكن الرجل يتطلّع إلى الكاميرا، ولم يكن مدركاً لوجودها.

أظهرت الصورة التالية رجلاً آخر يغادر البناية. يتميّز الرجل بشعر داكنٍ هو الآخـــر، لكنه بدا أطول من الرجل الآخر، ويتميّز عنه بعضلات أشد، ولعله كان أصـــغر سناً. ارتدى هذا الرجل بنطال جينـــز وسترةً قصيرةً من الجلد. ولم ينظر هذا الرجل أيضاً إلى الكاميرا، تماماً مثلما فعل الرجل الأول.

ظهرت امرأة في الصورة التالية. لاحظت أنها امرأة سوداء وذات شعر أشقر، وبدت بدينة جداً.

احتوت الأسطوانة المدمجة على مجموعة من اثنتين وأربعين صورة. أظهرت جميع الصور، ما عدا أول صورتين، شخصاً ما يدخل، أو يغادر، البناية الحجرية. ظهر فتى وقد علّق إحدى يديه برباط حول عنقه. ظهر رجل عجوز معتمراً قبعة تيلي. بدت أخيراً امرأة تحمل طفلاً مثبتاً إلى صدرها.

أشرت إلى أيقونة في مجموعة الخيارات: "غيّر المنظر".

نقر **غوليت** على السهم الموجود إلى يمين الشاشة الصغيرة الزرقاء اللون، وتردّد قليلاً.

لم أرغب أن أبدو وكأنني أوجّه الأوامر، لكنني اقترحت عليه: "جرّب المنظر المفصّل".

أسرع **غوليت** إلى النقر مرتين على الخيار الأخير. وتحولّت الشاشة على الفور إلى أعمدة من الكتابة. فصّل العمود الرابع تاريخ وزمن تصوير كل ملف JPEG.

أعلن **بيتي** عمّا هو واضح أمامنا: "أُخذت الصور جميعها يوم الرابع من شهر آذار (مارس)، ما بين الساعة الثامنة صباحاً، والرابعة من بعد الظهر".

سألت بصوت منخفض: "هل من خط مباشر (ساخن) مع ريجيوسكي؟"

تجاهل العالِم القادم من لاتفيا إشارتي هذه.

عاد **غوليت** إلى المشاهد المصغرة، وفتح الصورة الأولى: "إذاً، كان **كروكشنك** حياً يوم الرابع من آذار... وكان يراقب هذا المكان".

"أو أن شخصاً آخر قام بالمراقبة ثم أعطى **كروكشنك** هذه الأسطوانة".

قال **غوليت** بعد أن نظر بتساؤل من وراء كتفه: "لا تتمتع الأسطوانة بأهمية كبيرة، لأن الرجل أُقدم على قتل نفسه. إنها عملية انتحار. ألا تظنين هذا يا سيدتي؟"

بحثت عن الكلمات المناسبة: "يُحتمل أن تكون طريقة الوفاة معقدة".

استدار **غوليت** ليواجهني مباشرة. أسند **بيتي** أحد وركيه على خزانة كتب، بينما استندت أنا على الأرض.

تحدثت عن الصدمة التي تعرضت لها فقرة **كروكشنك** العنقية السادسة. وأصغى **غوليت** من دون أن يقاطعني. شرحت بعد ذلك أن صدمةً مماثلة موجودة في الهيكل الذي انتشلته مع **إيما** من القبر الضحل في **دي ويز**.

لم تظهـــر الدهـــشة بقدر ما ظهر الاهتمام في صوت **غوليت**: "كان الاثنان رجلين في الأربعينيات من عمرهما".

أومأتُ.

"يُحتمل أن يكون ذلك مجرد صدفة".

إنها صدفة بحجم متنــــزه **سيرينغيتي** (في أفريقيا): "يُحتمل ذلك".

استدار **غوليت** ثانيةً ليواجه شاشة الكمبيوتر: "إذا لم يقتل **كروكشنك** نفسه سيبرز السؤال الذي يتعلّق بمن ساعده؟ ولماذا؟ وما هي أهمية المكان الذي يظهر في هذه الصور؟"

قالـــت مقتـــرحةً: "لعله لا أهمية للمكان هنا، ولعل مركز الاهتمام كان أحد الأشخاص الظاهرين في الصور".

قـــال **بـــيتي**: "وجدنا أسطوانة واحدة عليها ملصق مكتوب عليه اسم **هيلين فلين**".

قلتُ: "دعونا نتفحص الأسطوانات الأخرى".

فعلنا ذلك. ووجدناها جميعها فارغة.

سأل **غوليت**: "هل بحثتما في كل الصناديق؟"

"بحثنا فيها كلها ما عدا واحداً".

عـــدنا إلى غـــرفة الاجـــتماعات. احتوى آخر صندوق على أوعية هيلمان الزجاجية فيما مضى. فتحت أغطية الصندوق بينما اكتفى **بيتي** و**غوليت** بالمراقبة.

رأيت كتباً، وصوراً مؤطرةً، وألبوم صور، وكأساً تقديرياً، وتذكاراً من دائرة الشرطة.

ولم نجد أية أسطوانات.

أعدت أغطية الصندوق، فقال **غوليت**: "دعونا نراجع بعض الوقائع. يُحتمل أن يكون **كروكشنك** هو الذي قام بمراقبة تلك البناية، ويُحتمل أن يكون شخص آخر قد أقدم على ذلك. وإذا كان الشخص الآخر هو الذي فعل ذلك، فمن تراه يكون؟ ولماذا فعل ذلك؟ وما هي مصلحة **كروكشنك** في هذه الصور؟"

سأل **بيتي**: "وكيف تمكّن من التقاطها؟"

فكّرت قليلاً.

بـدأت باستخدام أصـابعي: "هـناك عدة احتمالات: أولها، أن يكون **كروكـشنك** هو الذي التقط الصور بنفسه. أما الاحتمال الثاني، فهو أن شخصاً آخر هو الذي أعطاه الأسطوانة. يبقى الاحتمال الثالث وهو أن يكون شخص آخر قد أعطاه بطاقة كاميرا سمارت، أو رقاقة تصوير. أما الاحتمال الرابع فهو أن يكون قد استلم هذه الصور إلكترونياً".

قال **بيتي**: "يعني ذلك أننا لا نمتلك أي دليل".

"لكننا نعرف شيئاً مهماً".

تطلع الرجلان نحوي.

"مـا هو الشيء الذي تحتاجه لتحميل صور من كاميرا رقمية؟ أو من بطاقة سمارت؟ أو من موقع إلكتروني على الشبكة؟ أو لاستلام بريد إلكتروني؟ أو لحفظ ملفات على أسطوانة؟ أو لرؤية الصور المحفوظة على أسطوانة مدمجة؟"

تكلّم **بيتي** و**غوليت** الواحد بعد الآخر.

"امتلك **كروكشنك** جهاز كمبيوتر".

"أعـتقد أن هـناك احـتمالاً كبيراً في أن يكون قد امتلك كاميرا رقمية كذلك".

تـضيّقت عينا **غوليت** غضباً. يُحتمل ذلك، ويُحتمل أنني تخيّلت وجود هذا الغضب.

"حان الوقت لنـزور **باروت**، مالك البناية الطيب، مجدداً".

أشـرت إلى الملفـات والـصندوق الذي يحمل رقم ثمانية: "بالمناسبة أيمكننا اصطحاب الملفات والصندوق معنا؟"

شـدّ **غوليت** حزامه، وزمّ شفته السفلى. مرّت الثواني، ولم أستطع التأكد مما إذا كـان **غولـيت** سيتجاهل طلبي، أم أنه يفكّر فيه. شدّ الرجل حزام بنطاله مرة أخرى، وأخرج نَفَساً طويلاً من فمه.

"إنـني في الواقع أفتقد لمساعدين هذه الأيام. تثق الآنسة **روسو** بك إلى درجة كافـية كـي ترغب بالاستفادة من خبرتك. أعتقد أنه لا بأس إذا بحثتِ في بعض

الصناديق. تأكدي من أخذ جردة بكل الموجودات وتوثيقها، ثم ضعي توقيعك بعد ذلك على القائمة بكاملها. وانتبهي إلى موضوع الأمن".

لم يكتف **غوليت** بهذا القدر من التحذيرات، لكن ليس هناك من ضرورة لذكر هذه التحذيرات الإضافية.

كدنا ندخل جبل **بلازنت** عندما رنّ هاتفي الخلوي، وكان **بيتي** هو من يقود السيارة.

تناولت الهاتف من حقيبتي الصغيرة. وأظهرت الشاشة رقماً محلياً لم أستطع تمييزه. أوشكت على تجاهل المكالمة، ثم غيّرت رأيي. ماذا لو تعلقت المكالمة بأخبار **إيما**؟

وجدت بعد قليل أنه كان من الأفضل لي لو أنني اتبّعت إلهامي الأول.

14

"كيف تسير أمورك يا دكتورة؟"

استغرقني الأمر جزءاً من مليار من الثانية لأميّز الصوت. إنه صوت **بلانكتون**.

"كيف عرفتَ هذا الرقم؟"

"إنه رقم مميز، أليس كذلك؟"

"أنا لا أجري مقابلات يا سيد **وينبورن**".

"هل رأيتِ مقالتي في ***بوست وكوربيه***؟ أعني المقالة المتعلقة بالجثة في دي ويز".

لم أقل شيئاً.

"طار المحور فرحاً بها. وأعطاني الضوء الأخضر لمتابعة الموضوع".

لم أقل شيئاً مجدداً.

"إذاً لدي بعض الأسئلة لك".

استخدمت صوتي الفولاذي، وهو الصوت الذي تعلمته من رجال الشرطة، ورجال الجمارك: "أنا لا أجري مقابلات".

"لن يستغرق الأمر أكثر من دقيقة فقط".

قلت بصورة قاطعة: "لا".

"من الأفضل لك أن...".

"سأقطع المكالمة الآن. لا تتصل بي هاتفياً بعد الآن".

"أنصحك أن لا تفعلي ذلك".

"أما زلت تمتلك كاميرا النيكون، سيد **وينبورن**؟"

"ما زلت أمتلكها بالتأكيد".

"أنـــصحك أن تأخذ هذه الكاميرا وتتخلّص منها إلى حيث لا تشرق عليها الشمس...".

"أنا أعرف قصة الجثة التي أنـــزلتِها في متنـــزه **فرنسيس ماريون**".

نجح تلميحه هذا في حملي على عدم قطع الاتصال.

"يُدعى الرجل **نوبل كروكشنك**، وكان شرطياً سابقاً في شرطة شارلوت".

استنتجت من كلام **بلانكتون** هذا أن لديه مخبراً.

سألت بصوتٍ جليدي: "من أين حصلت على كل هذه المعلومات؟"

أجـــاب الـــرجل بسخرية ظاهرة: "تعرفين أنني لا أستطيع ذكر مصادري يا دكتورة، لكن الحقائق التي أوردها هي حقائق ثابتة، صحيح؟"

"أنا لا أؤكد لك شيئاً".

بدأ **بيتي** ينظر بتساؤل باتجاهي. أشّرت له أن يُبقي اهتمامه على الطريق.

أكمـــل **وينـــبورن** بصوت بطيء وثقيل. بدا لي أنه شاهد الكثير من حلقات مسلـــسل ***كولومبو***: "عمل **كروكشنك** بصفته محققاً خاصاً، وكان شرطياً سابقاً. ويُحتمل أنه كان يعمل على قضية عندما مات. إن ما يحيّر العقل هو السبب الذي يدفع برجل مثله إلى شنق نفسه".

ساد صمت مطبق عبر الهاتف.

"سأستعرض الآن بعض المعلومات الشخصية. إنه رجل ذكر، وأبيض، وتجاوز الأربعينيات من عمره. ألا تبدو هذه المعلومات مألوفة لديك؟"

"إنك تبدو مثل كينو ريفز".

تجاهل **وينبورن** ملاحظتي هذه، أو أنه لم يفهمها: "وهكذا فأنا أتحقق الآن من القضية التي كان يعمل عليها **كروكشنك** عندما شنق نفسه. ألديك أية معلومات حول هذه النقطة؟"

"لا تعليق".

"إنـــي أعمـــل أيضاً على إيجاد الروابط ما بين **كروكشنك** وبين العظام التي اكتشفتها في دي ويز".

"هناك أسباب عديدة تدفعني لأنصحك أن لا تطبع شيئاً".

"حقاً؟ هيا أعطني سبباً واحداً".

"أولاً، إذا كانـــت الجـــثة المكتـــشفة في فرنسيس ماريون تعود إلى **نوبل كروكـــشنك**، فـــلا أعتقد أن قصة رجل يقوم بشنق نفسه تشكل خبراً جديراً بالنـــشر. وثانياً، تعرف أن **كروكشنك** كان شرطياً سابقاً، وأعتقد أن زملاءه السابقين لا يرغبون بتمريغ اسمه في الوحل. وثالثاً، مهما كانت هوية الضحية، لا أعـــتقد أن كـــشف معلومات تتعلّق بالوفاة قبل إعلام الأقارب، يُعتبر عملاً أخلاقياً".

"سأفكر بالأمر".

"ســـأقطع الاتصال الآن يا سيد **وينبورن**. إذا التقطتَ صوراً لي مرة أخرى، فسأرفع دعوى قضائية ضدك".

قطعتُ الاتصال.

كدت أرمي هاتفي بعيداً ومن خلال زجاج السيارة الأمامي.

سأل **بيتي**: "أتحبين أن نتناول طعام الغداء؟"

منعني غضبي من التكلّم، لذلك اكتفيت بالإيماء علامة على الموافقة.

انعطـــف **بيتي** من جادة كولمان باتجاه **أوك درايف** (طريق السنديان)، وذلك عندما وصلنا إلى شيم كريك. يُعتبر أوك درايف شارعاً سكنياً فرعياً تحيط به بيوت من طابق واحد، وتستطيع أن تخمّن أنه مظلّل بأشجار السنديان الحقيقية، بالإضافة إلى الآشنة الإسبانية.

اتجه **بيتي** يساراً ودخل في هادرل، ثم انعطف يساراً ليدخل في باحة تُستخدم لإيقاف السيارات.

نظرت عبر الباحة فرأيت مبنى **شركة واندو للمأكولات البحرية**، ومبنى آخر لشركة **ماغوود وأولاده للمأكولات البحرية**. لاحظت وجود بناء متداعٍ، يظهر وكـــأن جماعـــة متنافرة قد شيدته. يطلق السكان اسم **الحطام** على مطعم **حطام**

ريتشارد وشارلان. لا يتمتع هذا المطعم بأية دعاية، أو أية علامات فارقة، ولذلك يُمكن اعتباره سرّ تشارلستون المخفي.

تمــضي القــصة هكذا. قذف الإعصار **هوغو** مركب صيد يُدعى ***ريتشارد وشارلان*** إلى قطعة أرضٍ يمتلكها أصحاب المطعم. اعتبرت زوجة مالك المطعم أن هذا المركب هو فألٌ حسن، ولذلك أطلقت اسمه على المطعم تكريماً لهذا الحطام.

استرخِ وستسمع قصة...

جــرت هــذه الحادثة في عام 1989، ومازال الحطام هناك، وما زال مطعم ***الحطــام*** هناك أيضاً. ويستنكف أصحاب المطعم عن كل أنواع التسويق والدعاية لمطعمهم، حتى أنهم امتنعوا عن إقامة لوحات باسم هذا المطعم.

لاحظــت أن الأرض ما تزال اسمنتية، بينما تتدلّى المراوح من السقف. رأيت الــشرفات المحمية بشبكات حماية. أقام أصحاب المطعم نظام تقديم شراب الشعير المجاني الموجود في براد وُضع على متن القارب، هذا في حالة اضطر الزبون للانتظار كي يجد طاولة ليجلس عليها. نجحت هذه المعادلة، لذلك ترى المكان مزدحماً على الدوام.

وجدنا المكان هادئاً جداً عند الساعة الرابعة والنصف. لا تبدأ الخدمة الفعلية في هــذا المطعم قبل الساعة الخامسة والنصف، لكننا جلسنا على مقعدينا. هل هذا أمر غريب؟ لكن مطعم **الحطام** هو هذا النوع من الأماكن.

يُعتــبر نظام الطلبيات في **الحطام** بسيطاً جداً مثل لائحة الوجبات. استخدم **بيتي** الطبشورة الموجودة لكي يرسم دائرة حول سلة الروبيان، وحساء ثمار البحر، وحلــوى البودينغ، وأشار إلى أنه يريد حصصاً بحجم ريتشارد. اخترت من جهتي ســلة بحجــم شارلان تتألف من المحار (الرخويات البحرية)، بالإضافة إلى زجاجة كوكاكولا للحمية، واخترت **لبيتي** زجاجة كارولاينا بلوند.

إنه غداء جنوبي (الولايات الجنوبية) بامتياز.

وصلت المشروبات، فقال **بيتي**: "دعيني أخمّن. أتت تلك المكالمة من صحفي".

"إنه الجرذ اللعين ذاته الذي تسلّل إلى الموقع الذي عملت فيه في **دي ويز**".

"وهل هو متخصص بالعزف على وتر الجريمة؟"



لم يخـتفِ غـضبي، ولذلك قلت بشيء يشبه الصراخ: "وهل أبدو مستشارة توظيف غبية؟ يمتلك الرجل معلومات أكثر مما ينبغي له".

"لا بد أنه يمتلك مخبراً خاصاً به".

"حقاً! أتعتقد ذلك؟"

شرب **بيتي** جرعة من شراب الشعير، واسترخى في جلسته بطريقة أوحت أن الحديث قد توقف حتى أستطيع السيطرة على نفسي: "حسناً. حسناً".

شـاهدت، من خلال شبكة الشرفة، نوارس البحر أثناء تحليقها الدائري فوق سـفن الصيد الراسية على محاذاة رصيف الميناء. أفلح تحليقها المبتهج والمليء بالأمل بتهدئة نفسي بطريقة ما.

حضرت وجبة غدائنا، فقلت: "آسفة، لست منـزعجة منك".

أشـار **بـيتي** إلى الـروبيان: "لا مشكلة في ذلك. هناك الكثير من المراسلين يتنصتون على موجات الطوارئ".

"فكّـرت في ذلـك. يُحـتمل أن يكون **وينبورن** قد التقط إرسال موجات الـشرطة المتعلقة باكتشاف الجثة، لكن لم يكن باستطاعته التعرف على هوية الجثة بتلك الطريقة".

"أيُعقـل أن يكون ذلك المخبر رجلاً من داخل مكتب المحققة الجنائية، أو من مكتب الشريف؟"

"يُحتمل".

"أيُعقل أن يكون أحد موظفي المشرحة؟"

"إن ذلك هو أمر وارد".

بدأ **بيتي** بالتكلم قبل أن يتردد قليلاً: "إلا إذا...".

توقفت عن تناول قطعة من خبز الذرة: "إلا إذا ماذا؟"

"ماذا بشأن صديقتك **إيما**؟ إنها تمتلك برنامجاً لا تعرفين عنه شيئاً؟"

فكّـرت في ذلك. تذكّرت كيف أن **إيما** توسطت **لوينبورن**، وجادلت بأن وجوده في دي ويز لا يضرنا على الإطلاق.

لم أقل شيئاً، لكن **بيتي** أثار نقطة هامة جداً.

ماذا بشأن **إيما**.

تناولـــنا الطعـــام، وتحدثنا بمواضيع أخرى. تحدثنا عن كاتي، ووالدة **بيتي** التي ســـتجري عملية استبدال الورك. تحدثنا عن عائلتي، وعن الرحلة التي قمنا بها إلى كياواه قبل عشرين عاماً. مرّ الوقت، وتطلّعت إلى ساعتي لأجد أن عقربيها يشيران إلى الخامسة وخمسٍ وأربعين دقيقة.

"حسناً".

أصـــرّ **بيتي** على دفع الفاتورة. دفع نقداً لأن بطاقات الاعتماد غير معتمدة في مطعم **الحطام** القديم.

ســـألني **بيتي** عندما انعطف نحو **البحر على مدى أميال**: "أتريدين مساعدتي لتفحّص ملفات **كروكشنك**؟"

"أتمـــنى ذلـــك، لكنني وصلت إلى أقصى المهلة بالنسبة للبت في الامتحانات الميدانية".

"ألا تستطيع هذه الامتحانات أن تنتظر يوماً آخر؟"

"إن يوم غد هو آخر موعد لتقديم العلامات. ويتعيّن عليّ كتابة تقرير أولي واحـــد، علـــى الأقل، يتعلّق بالحفريات التي أُجريت في دي ويز، وسأقدّم هذا التقريـــر إلى مكـــتب عالم آثار الولاية في كولومبيا، ومن يدري ماذا سيستجّد بعدها".

لاحظت آثار الحزن على وجه **بيتي**: "يبدو أنني سأعمل بمفردي".

ابتـــسمت، ووكـــزت **بـــيتي** في كتفـــيه: "اســـتخدِم حبل الإنقاذ. اتصِّل بريجيوسكي".

صـــعدت إلى غرفتي وطلبت رقم **إيما**. ردّ عليّ مجيبها الصوتي فتركت رسالةً لها.

أنهـــيت آخـــر أوراق الامتحانات عند الساعة الثامنة، وجمعت العلامات، ثم أرســـلت القائمـــة عبر البريد الإلكتروني إلى أمينة سرّ الكلية في جامعة UNCC. وافقت أمينة السرّ هذه على تمرير هذه اللائحة بالنيابة عني إلى مكتب التسجيل.

طلبت رقم **إيما** مجدداً. وسمعت نفس التسجيل، فقطعت الاتصال.

أنهيت عند الساعة العاشرة كتابة نص مختصر يتعلّق بمواقع دفن قبيلة **السيوي** في جزيـــرة دي ويز، وضمنّت هذا النص رأيي بقيمة الموقع الثقافية. أرسلت هذه الوثـــيقة عبر البريد الإلكتروني إلى مكتب عالم آثار الولاية، ثم أرسلت نسخاً إلى قسم جنوب كارولاينا للأرشيف والتاريخ، وكذلك أرسلت نسخة إلى **دان جافر** في جامعة جنوب كارولاينا - كولومبيا.

جلـــست باســـترخاء بعدها كي أفكّر. هل أرسل تقريراً إلى **ديكي دوبري؟** أعـــرف أن الرجل يشبه ابن عرس. لا، لعل ذلك أمر يظلم ابن عرس. أعرف أن الموقـــع هو في أرض **دوبري**، ويُحتمل أن يؤثر تقرير التقييم على القرارات التي قد يتخذها، والله أعلم بالمدى الذي يُحتمل أن تصل إليه.

التفّ **بيردي** على نفسه فوق طاولة إلى يساري.

"ما رأيك يا **بيرد؟**"

انقلب الهر على ظهره، ومدّ قوائمه الأربع إلى أقصى مداها.

"أنت على حق".

اســـتخدمت شبكة الإنترنت لأجد العنوان الإلكتروني، وأرسلت نسخة من التقرير إلى **دوبري**.

وجـــدت **بـــيتي وبويد** في عرينهما مجدداً. لاحظت أن جهاز التلفاز يعرض فـــيلماً، لكـــن لم يكن أي منهما يشاهده. لاحظت أن الفيلم المعروض كان فيلماً قديماً لبوب هوب.

جلـــس **بـــيتي** علـــى الأريكة، ومدّ رجليه العاريتين على الطاولة الصغيرة. لاحظـــت أن ملـــف **هـــيلين فلين** كان مفتوحاً فوق حضنه. انشغل **بيتي** بتدوين ملاحظات على رزمة أوراق رسمية صفراء اللون من الحجم الكبير.

استلقى **بويد** على جانبه واضعاً مخالبه الخلفية على ركبة سيده.

تـــواجدت علـــبة الملفات الكرتونية، والصندوق الثامن، جنباً إلى جنب على المقعد المجاور للنافذة.

انهمك الرجل على شاشة التلفاز في وصف الأموات الأحياء (الزومبي)، وقال إنهـــم يمتلكون عيوناً لا حياة فيها، وهم يتبعون الأوامر من دون أن يدركوا طبيعة

الأشياء التي يقومون بها، كما أنهم لا يكترثون بشيء.

سأل هوب: "أتعني أنهم مثل الديمقراطيين؟"

القى **بيتي** برأسه إلى الخلف، وضحك.

"ألم تنـــزعج من هذا التشبيه؟"

أجـــابني **بـــيتي**، وهـــو مـــن مؤيدي الحزب الديمقراطي: "إنه مجرد مرحٍ وفكاهة".

فـــتح الكلـــب عيناً يغلبها النعاس. ورآني واقفةً عند الباب، فارتمى على الأرض.

أشار **بيتي** بقلمه نحو التلفاز: "يعتبر هذا الفيلم أفضل أفلام هوب التي تنمّ عن الذكاء واللباقة".

أتذكّر أنه عندما التقيت **بيتي** لأول مرة، وخلال السنوات الأولى من زواجنا، كانت الأفلام القديمة أبرز هواياتنا. سألته: "وما هو عنوانه؟"

قاهر الأشباح".

"أليس هذا فيلم **رجال بُوَري** (اسم أحد شوارع نيويورك)؟"

أصدر **بيتي** صوتاً حاداً: "لا، لا! خطأ، كان ذلك فيلم ***مطاردو الأشباح***".

لم أستطع إلا المشاركة في الضحك. بدا الأمر طبيعياً تماماً.

شـــاهدت **بيتي** في تلك اللحظة، ولاحظت أن ضوء المصباح الكهربائي عملَ على تلطيف خطوط وجهه، وتأثرت على الفور. أعترف أنه لم يمضِ يوم من دون أن أفكـــر بزوجـــي، وعلى الأقل بشكلٍ عابر، رغم فراقنا الذي مضى عليه بعض الوقت، وبالرغم من أننا عشنا حياتين منفصلتين.

تلاشت الضحكة عن شفتيّ.

تظاهرت بعدم الاكتراث واللامبالاة، فسألته: "ما هي حبكة القصة؟"

"ورث **بولـــيت غودارد** قلعةً مسكونة بالأشباح. إنها خطوط تقليدية يتبعها هوب".

"هل أحرزت تقدماً بالنسبة للشيفرة؟"

هزّ **بيتي** رأسه بالنفي.

مشيتُ نحو الأريكة المجاورة للنافذة، وتناولت أغراض **كروكشنك** ثم جلست علـــى الأريكة. بدأت بالتقليب في الأغراض بعدما وضعت الصندوق على الأرض بين قدميّ، وفتحته.

تـــناولتُ أولاً كأساً تمثل شخصاً صغيراً يضع قبعة على رأسه، ويحمل مضرباً بـــيده. قـــرأت اللوحة المعدنية التي ألصقت على قاعدة الكأس. جاء في اللوحة: "**بطـــولة الاتحـــاد، 24 حزيـــران (يونيو)، 1983**". وضعت الكأس على الطاولة الصغيرة.

تناولت بعد ذلك كرة بيسبول، ورأيت أن سطحها الخارجي مليء بالتواقيع.

وضعت كرة البيسبول إلى جانب الكأس، ورحت أتساءل عمّا إذا كان هناك رابط بينهما. وبدأ عقلي بالتأمل.

اعـــتاد **كروكشنك** على اللعب ضمن فريق. أين؟ وما هو الموقع الذي احتله ضمن هذا الفريق؟ تساءلت إن كانت نتائج الفريق جيدة بشكل دائم، أم أن هذه الكرة، والكأس، تمثلان بطولة أحرزها الفريق لموسمٍ واحد؟ تساءلت كيف جرت الأمور في ذلك اليوم من حزيران (يونيو) الذي أحرز الفريق فيه هذه البطولة؟ هل كـــان ذلك اليوم حاراً؟ أم هل كان ممطراً؟ وهل شابَ النتيجة انحيازٌ ما؟ وهل فاز فريق **كروكشنك** عن طريق ضربة موفقة واحدة؟

هـــل احتفظ **كروكشنك** بكُرَة هذه المباراة لأنه قاد الفريق إلى فوزه؟ وهل وثـــب زملاؤه على ظهره حينها؟ هل ذهبوا جميعاً لتناول شراب الشعير ليتحدثوا ملياً عن المباراة؟

هـــل استمر **كروكشنك** في استعادة تلك اللحظة في السنوات التي تلت؟ هل فعـــل ذلـــك لوحده أثناء احتسائه الشراب، وهل رأى ذلك الملعب ثانية، وأحسّ بمقبض المضرب بين راحتي يديه، وهل سمع الفرقعة التي ترددت أصداؤها من تلك البقعة الجميلة؟

وهل استغرب الرجل كيف أن حياته قد اتخذت طريقاً خاطئاً؟

تابع **هوب** تهكمه على شاشة التلفاز: "تطلق عليّ الفتيات اسم **الحاج**، لأنني أحقّق تقدماً طفيفاً في كل مرة أرقص فيها مع إحداهن".

استغرق **بيتي** بالضحك بينما كنت أتناول صورتين مؤطرتين من بين أغراض **كروكـــشنك**. أظهرت الصورة الأولى خمسة جنود بلباسهم الرسمي. بدا أن الجنود يتسمون بينما وضعوا أذرعهم على أكتاف بعضهم بعضاً. وقف صاحب الصورة في آخر الصف إلى اليسار.

تفحّـــصت صـــورة ذلك الشخص الصغير. تميّز شعر **كروكشنك** بالقصر، وكانـــت عيـــناه نصف مغمضتين بسبب وقوفه مواجهاً للشمس. بدت تغضنات وجهه أقل عمقاً، لكنها أعطت فكرة عن مظهره عندما يتقدم بالسن.

غرقت بتساؤلات أكثر.

هل أدّى **كروكشنك** خدمته في الجيش؟ وهل كان من ضمن الحرس الوطني؟ أعرف أنه كان صغيراً جداً ليُرسَل إلى فييتنام. وأين أمضى خدمته الإجبارية؟

أظهـــرت الـــصورة المؤطرة الثانية رجالاً بلباسهم الرسمي الداكن مصطفين بخطوط رسمية ومستقيمة. أعتقد أن المنظر يُظهر صفّ التخرج في أكاديمية الشرطة التي التحق بها **كروكشنك**.

احتوت علبة معدنية مستديرة على تذكارات أخرى تعود إلى فترة خدمته في الـــشرطة. شاهدت أيضاً قلادةً نحاسية تمثّل كافة الوحدات التي خدم **كروكشنك** فيها. رأيت أيضاً بعض الأوسمة الملونة التي افترضت أنها جوائز ومكافآت رسمية له. كما شاهدت درعاً مزدوجاً.

احـــتوى ظرف متغضن أسمر اللون على شهادة من أكاديمية الشرطة، وعلى عـــدة شهادات أخرى أعطيت له بعد إنهائه لدورات تدريب متخصصة، بالإضافة لمزيدٍ من الصور. بدا **كروكشنك** في إحدى هذه الصور وهو يصافح مسؤولاً رفيع المـــستوى في الشرطة. وأظهرت صورة أخرى **كروكشنك** مع ثلاثة رجال بزيهم الرسمـــي. وبـــدا **كروكشنك** مع رجل شرطة آخر، وهما واقفان أمام كنيسةٍ مع الإنجيلي بيلي غراهام.

فتشتُ عن صورٍ أخرى.

وجـــدت ولاعـــة سجائر تحمل علامة زيبو، وشعار قسم شرطة شارلوت – ماكلينـــبيرغ، وسلسلة مفاتيح، وسكين جيبٍ، ومثبت ربطة عنق يحمل شعاراً ما.

وجــدت أيــضاً شارة قسم **شرطة شارلوت – ماكلينبيرغ**، وأصفاداً، ومفاتيح، ورباطاً قديماً، ومشبك حزام قديماً ماركة سام براون، وقراب مسدس بالياً.

وضعت كل شيء على الطاولة.

عثرت في أسفل الصندوق على كتاب وعدة ظروف. اخترت من بينها ظرفاً كبيراً أسمر اللون، ففككتُ الشريط، وأفرغتُ محتويات الظرف على حضني.

وجــدت مجمــوعة مــن الصور المحببة (المبرغلة) داكنة الألوان والباهتة عند أطرافها. تناولت هذه الصور ورحت أتفحّصها.

أظهــرت كــل صورة نفس المرأة الشقراء بأنفها المعقوف، ووجهها المليء بالنمش، وذكّرتني بالوجه الذي يرد في قصة ***بيت صغير في البرية***.

ظهــرت المــرأة لوحدها في بعض الصور، بينما ظهرت مع **كروكشنك** في بعــضها الآخر. ظهر الاثنان في صور قليلة ضمن مجموعة أكبر من الأشخاص في مناســبات متــنوعة مثل حفلة ميلاد، وجولة تزلج، ونــزهة في البرية. خمّنت أن الــصور قد التقطت في أواخر السبعينيات، أو أوائل الثمانينيات، وذلك استناداً إلى تسريحات الشعر، أو موضة الملابس.

قلّبت كل صورة، ولاحظت أنها خلت جميعها من الكتابات، ما عدا واحدة كُتبت عليها جملة: ***نوبل وشانون، شاطئ مارتيل، تموز 1976***.

تــناولت آخــر صورة. ظهر نوبل وشانون في هذه الصورة وهما يتبسمان، وكــأن العالم سيعني لهما الشباب على الدوام. لم أكن أبتسم لأن عقلي كان يحوم فوق مكان مظلم جداً.

الــتقطت صــورة الكوداك هذه لحظة جلس **نوبل وشانون** قبالة بعضهما بعــضاً باسطَين أيديهما، وقد شبكا أصابعهما. ارتدت المرأة ثوباً صيفياً أبيض اللــون، ووضــعت بعض الأزهار في شعرها. ارتدى الرجل سترة بلون أزرق شــاحب. ارتفعــت يافطةٌ كُتب عليها "**مقر فيفا لاس فيغاس لعقد القران**". وظهر أمامها، وعلى مستوى منخفض قليلاً، مجسماً لشبيه ألفيس برسلي يتطلّع نحــو الكاميرا. وضع الرجل نظارة شمسية، وارتدى بذلة بيضاء لماعة مؤلفة من قطعة واحدة.

حـــدّقت في الصورة التي جمّدت لحظة من الزمن في لحظة ولادة زواج بائس. تحـــوّلت الصورة الآن إلى لا شيء أكثر من ذكرى محفوظة في ذلك المغلف الأسمر القديم، بعد أن كانت لحظة ثمينة في وقت من الأوقات.

تحـــوّلت بـــصري نحـــو **بيتي**. أحسست بحرقةٍ في جفنيّ. عدت إلى تفحّص أغراض **كروكشنك**، وأعطاني هذا راحة مؤقتة.

مثّلت كل هذه الأغراض حياة كاملة. مثّلت رجلاً استمتع بصداقاته، وخدم بلده، وعمل شرطياً، ولعب البيسبول، وتزوج. مثّلت فوق كل ذلك رجلاً اختار أن يُنهي تلك الحياة.

لكن هل أقدمَ على ذلك بالفعل؟

وقـــع نظـــري علـــى صورة شاطئ ميرتل التي تجمع ما بين شانون ونوبل. أحسست بالزواج الذي ضاع، وبالحياة التي ضاعت.

شـــاهدت علـــى شاشة جهاز التلفاز أحد الممثلين يسأل بوب عمّا إذا كان يعتقد ما إذا كان يتعيّن على غودارد أن يبيع القلعة.

"أنصحه أن يحافظ على القلعة، وأن يبيع الأشباح".

اخترق صوت الضحكة التي أطلقها **بيتي**، جدار لامبالاتي المصطنعة. كم من المـــرات ضـــحك معي؟ وكم من المرات التي أضحكني فيها؟ وكم مرة اشترى لي الـــزهور في وقت لم نكن نمتلك المال فيه؟ وكم من مرةٍ رقصنا سوية عندما كنت غاضبة؟ لماذا توقفت الضحكات؟ ومتى؟

نظرت ثانية إلى المجموعة المحزنة الموجودة أمامي، وشعرت بالأسى على انهيار زواج نوبل وشانون. وأحسست بالأسى نتيجة قساوة موت **كروكشنك**، ونتيجة كارثة زواجي الضائع، وأخيراً نتيجة التشوّش الذي يعصف في داخلي.

خسرت هذا الزواج.

شعرت بأنفاسي تتصاعد بصعوبة من صدري، فنهضت عن الأريكة.

ظهر الارتباك على **بيتي**: "**تمب؟**"

كدت أتعثر بالصندوق الموجود أمام **بيتي** عندما انطلقت خارجةً من الغرفة، وكنتُ غافلةً عن المكان الذي سأقصده.

هـــل أريـــد استنشاق هواء المحيط؟ أم هل أريد الوصول إلى النجوم؟ أم إلى الحياة؟

فتحتُ الباب الأمامي على مصراعيه، وهرعت نـــزولاً على الدرج.

ســـار **بـــيتي** خلفي تماماً. وضع **بيتي** يده على كتفي عندما وصلت إلى الفناء الأمامـــي، ومـــا لبث أن أدارني، فأصبحت في مواجهته تماماً، ثم غمرني بذراعيه واحتضنني.

أخذ يربّت على شعري: "حسناً لا بأس. هيا يا **تمب**. لا بأس".

حاولت أن أقاومه في البداية، ثم استسلمت له. سمحتُ لدموعي بالانسياب، بينما أسندت خدي بقوة على صدر **بيتي**.

لا أعـــرف كم بقينا واقفين على هذا النحو، فبينما استغرقتُ بالنشيج، كان هو يصدر أصواتاً تبعث على الهدوء.

مـــرت لحظات، قبل أن تطلّ سيارة من طريق أوشن درايف (طريق المحيط). وقفتْ السيارة قليلاً، ثم دخلت إلى فناء **البحر على امتداد أميال**. رفعتُ بصري. وتسلّل ما يكفي من ضوء القمر الفضي لأعرف أن السائق كان وحيداً.

وقفت السيارة آخر الأمر. هل هي سيارة جيب؟ أم أنها عربة رياضية صغيرة؟

شـــعرت بالتوتر الذي أحسّ به **بيتي**، واستطعت التأكد من أن الرجل كان طويلاً ونحيفاً.

لكنني تأكدت من شيء آخر.

يا الله!

جمُد الرجل في مكانه، وبدا لي ظلاً، نتيجة أضواء مصابيح السيارة.

شعرت أن قلبي قد قفز من مكانه.

ومـــا لبث أن وضع جهاز ناقل الحركة في سيارته في وضع الرجوع، وانطلق مسرعاً كالسهم في الطريق.

شاهدت أنوار سيارته تدور.

وقفـــت أراقب الأضواء الخلفية للسيارة حتى أصبحت بقعاً صغيرةً من اللون الأحمر.

15

بـــدأت ضـــربات قلبي بالتصاعد بعدما انطلقت صعوداً، وصعدت بخطواتي درجتين درجتين. دخلت المنـــزل كالسهم، وتناولت هاتفي الخلوي، ونقرت على مفتاح المكالمات المستعجلة.

دقّ الهاتف أربع مرات قبل أن يقطعه صوت خدمة إجابة الزبائن.

أدخلت رسالة في الهاتف باللغتين الفرنسية والإنكليزية.

طلبت الرقم ثانية، وأخطأت بنقر المفاتيح الصحيحة، بدت أصابعي غير دقيقة بسبب الإثارة. نقرت الأرقام ثانيةً.

ولقيت نفس النتيجة.

"ارفع جهاز الهاتف. هيّا!"

تـــبعني **بـــيتي** أثناء تجوالي من غرفة إلى غرفة، وحرص **بويد** على اللحاق به: "فقط أخبريني من كان هذا الرجل".

ضغطت على زر **إعادة الاتصال** في لوحة الاتصال السريع للمرة الثالثة.

أعلمني صوت آليّ أن الاتصال بالشخص الذي أحاول الاتصال به غير ممكن حالياً.

"هيا، استمرّ بعزل نفسك!"

رميت جهاز الهاتف. ارتدّ الجهاز من الأريكة إلى الأرض. سرّ **بويد** لشم هذا الشيء الغريب الذي هاجمه.

تحـــدّث إليّ **بـــيتي** بنـــبرة يستخدمها الطبيب النفسي من أجل تهدئة المرضى المصابين بالهستيريا: "تحدثي إليّ. من كان ذلك الرجل؟"

أخذت عدة أنفاس عميقة كي أهدئ نفسي. ثم استدرتُ كي أواجهه.

"إنه آندرو **رايان**".

مرّت لحظة استوعب فيها **بيتي** إجابتي: "هل هو الشرطي من كيبيك؟"

أومأتُ.

"لماذا ظهر، ثم انصرف من دون أن يتكلم أية كلمة؟"

"لأنه رآنا معاً".

أجرى **بيتي** المزيد من العمليات الذهنية، وتوهّجت نقاط اشتباكه **العصبية**. رفـــع **بـــيتي** حاجبيه، وأشار نحوي، ثم نحو الطريق الذي سار عليه **رايان** قبل قليل.

أومأتُ.

سألني: "هل بدا الأمر سيئاً؟"

"وماذا تعتقد؟"

طلـــبت رقم **رايان** مرتين إضافيتين. بقي هاتفه مقفلاً. أزلت تبرجي بصورة آلـــية ومن دون تفكير. قمت بالتنظيف المعتاد، ووضعت مرطباً للبشرة، ونظفت أسناني بالفرشاة.

أكدت لذاتي أننا لسنا طلاباً جامعيين في سنتنا الجامعية الثانية، ونعيش بوتيرة ســـريعة. إنـــنا بالغـــون، ورايـــان هو رجل عاقل. سأوضح له الأمر فيما بعد، وسنضحك سوية.

لكن هل سيعطيني مسيو **ماكو** (المتباهي برجولته) الفرصة؟

اســـتلقيت على السرير، وشعرت بثقل الشك في داخلي. استغرقني الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أستسلم للنوم.

أحسست عند التاسعة من صباح اليوم التالي برغبة بإغلاق هاتفي الخلوي.

لا. أردت أن أسـحقه، ثم ألقي بمحتوياته كلها في نظام مجارير بلد بعيد من بلدان العالم الثالث. أعتقد أن بنغلادش ستكون بلداً مناسباً، أو إحدى الدول التي تشكل ستان آخر مقطع من اسمها.

جاءت المكالمة الأولى عند الساعة 7:55.

"صباح الخير سيدتي. أنا **ديكي دوبري**".

إنه مزاح معتاد من سكان الولايات الجنوبية.

"تفقدت بريدي الإلكتروني لتوي".

"تستيقظ باكراً جداً يا سيد **دوبري**".

"وجـدت ذلـك التقرير الذي أعددته. أجد نفسي مضطراً الآن للعمل مع مجموعة من البيروقراطيين البلهاء".

"مرحباً بك يا سيدي. ظننت أنك ستسرّ بنسختك من التقرير".

"إن مـا لا أرحب به يا سيدتي هو إبلاغك المسؤولين في عاصمة الولاية أنني أمتلك آثاراً قيّمة في أرضي".

"ليس هذا ما أبلغتهم إياه بالضبط".

"قلـت لهـم شيئاً قريباً من هذا الكلام. إن تقريراً من هذا النوع سيتسبّب بتأخير أشغالي، وتأخير الأشغال يتسبّب لي بضرر كبير".

قلـتُ: "أنا آسفة إذا كانت استنتاجاتي ستؤثر بشكل سلبي على مشروعك. تقتصر مهمتي على وصف ما أجده بدقة".

"إن تفاهـات مثل هذه ستدفع بالبلاد إلى حافة الجحيم. سيصبح اقتصادنا في الحـضيض، وسـيبدأ الناس بالشكوى نتيجة عدم وجود الوظائف، وسيفتقدون للأماكن التي يسكنون بها. إنني أوفّر الوظائف، وأشيّد بعض الأبنية المحترمة. وماذا أتلقى مقابل جهودي؟ لا أتلقى سوى تفاهات مثل تقريرك هذا".

أعـرف أن **دوبري** يعتزم بناء بيوت بمحاذاة الشاطئ للمتخمين من الأثرياء، لكنني لم أقل هذا بالطبع.

"سـيأتي الآن أحد الأغبياء الذي يمتلك شهادات أكثر مما يمتلك من تفكير، وسيعلن أن أرضي هي من ضمن المواقع المصنفة أثرية".

"أنا آسفة إذا ما كانت استنتاجاتي تزعجك".

"تزعجني؟ أهكذا تنظرين إلى الأمور؟"

بدا سؤاله نوعاً من البلاغة، لذلك لم أردّ عليه.

"إن تدخلك في شؤون أعمالي يتسبّب لي بشيء يتعدى الإزعاج".

اســـتخدمت نبرة صوتي الفولاذية مجدداً: "كان باستطاعتك أن تطلب إجراء تقييم لقيمة الأرض الأثرية قبل الموافقة على تطويرها".

"سنرى من منا سيعاني من الانـــزعاج، يا سيدة **بريتان**. أمتلك أصدقاء بدوري، لكنهم يختلفون عن أصدقائك المثقفين الذين يدفنون رؤوسهم في الأوراق".

أنهى الرجل الاتصال بكلامه هذا.

توقفت للحظة متأملةً تصريح **دوبري** الأخير. هل يوحي لي هذا التافه أنه قد يرسل أحد الأشخاص كي يؤذيني؟

نعم، هذا صحيح، ولعله سيرسل **كولونيل** كي ينهشني حتى الموت، مع أن أية محاولة لمضايقتي ستبدو غبية وغير فعالة. إن ذلك لن يحلّ مشكلته.

اتصلت **برايان**. ما زال هاتفه مقفلاً.

نـــزعت الأغطية من فوقي، وتوجّهت إلى الحمام.

جـــاءت المكالمـــة التالية عند الثامنة والربع. كنت في المطبخ عندها أرتشف القهوة، وأتناول ثمار التوت البري، وفطائر الصنوبر.

هل قلتُ التوت البري، وفطائر الصنوبر؟ نعم، كان هذا انطباعي أيضاً، لكنها كانت هناك. قرأت الملصق مرتين.

انكـــبّ **بيردي** على وعائه ملتهماً كريات طعامه الصغيرة البنية اللون. بينما ربض **بويد** في وضع من يستجدي، وأسند ذقنه على ركبتي.

"أنا **غوليت**".

"صباح الخير أيها الشريف".

تجاهـــل **غوليت** بدوره المقدمات التقليدية: "أتيت للتو من عند **باروت**. انتظرته ليـــشحذ ذاكـــرته، لكـــن ذلك السيد تذكّر وجود صندوق غير موجود في الكومة الرئيسية".

"أيحتمل أن يحتوي هذا الصندوق على جهاز كمبيوتر وكاميرا؟"

"يبدو أن **باروت** لا يستطيع تذكّر محتويات الصندوق بشكل دقيق، وبالكاد استطاع أن يتذكر وجود بعض الأجهزة الإلكترونية فيه."

"وماذا حدث لذلك الصندوق الضائع؟"

"يبدو أن ابنه قد أخذه عن طريق الخطأ".

"يا لأفعال الأولاد".

"أمهلت **باروت** ساعة واحدة لمناقشة الأمر مع ابنه. سأتصل بك عندما تصلني مكالمته".

اتصلت **بإيما**. وردّ عليّ مجيبها الصوتي.

ثم اتصلت **برايان**.

"***إن المشترك الذي تحاولون الاتصال به...***".

استبدت بي رغبة للوصول إلى تلك المرأة القابعة على الجهة الأخرى من الخط كي أخنقها، وباللغتين.

حاولت الاتصال **برايان** عند الثامنة والنصف، ومجدداً عند الثامنة وخمس وأربعين دقيقة. فلم أفلح بالتكلم معه.

وضعت الهاتف جانباً، وغرقت في لجة الهواجس التي اجتاحت أعماقي. تساءلت عن الوجهة التي قصدها **رايان**. لماذا أتى إلى هذا المكان، ولماذا أحاط زيارته بهذه السرية؟ هل كان يراقبني؟ هل كان يحاول أن يمسكني مع **بيتي**؟

اتصلت **بإيما** للمرة الثانية عند الساعة التاسعة. فردّ عليّ المجيب الصوتي. وطلب مني نفس الصوت المسجل ذكر اسمي ورقم هاتفي.

رحت أفكّر بغرابة هذا الأمر بينما كنت أغسل فنجاني بالماء، وأضعه في غسالة الصحون. سبق لي أن هاتفت **إيما** مرتين في الليلة السابقة، أي عند السادسة والثامنة، ومرتين في هذا الصباح. لا أعتقد أنها من الأشخاص الذين يتجاهلون رسائلي. ولا أظنها ستفعل ذلك في هذا الوقت بالذات الذي يشغلني فيه القلق على صحتها.

أعـــرف أن **إيما** اعتادت على مراقبة الاتصالات الهاتفية الواردة إليها، وذلك كـــي تتفادى الردّ على المكالمات التي لا ترغب بالرد عليها. لم تفعل **إيما** هذا الأمر معـــي في السابق، وعلى الأقل ليس على حدّ علمي. لم أكن أهاتف **إيما** كثيراً في تلك الأيام بسبب انشغالي في أمور حياتي العادية. هل تعتبر **إيما** أن قربي منها يجعلني تهديـــداً لهـــا؟ هل أصبحت مصدر إزعاج لها؟ أيعقل أن يكون قلقي عليها يسبب إزعاجـــاً لهـــا؟ وهل ندمت على وضع ثقتها بي؟ هل تتفادى الاتصال بي من أجل تجنّب مواجهة حقيقة مرضها؟

أيحتمل أن تكون مريضة حقاً؟

اتخذت قراراً.

مـــشيت عبر المنـــزل إلى حيث تقع غرفة نوم **بيتي**، قرّبت وجهي كثيراً من الباب: "**بيتي**؟"

"كنت أعرف أنك ستأتين لتطرقي على بابي أيتها الحلوة. أعطني دقيقة واحدة لأضيء بعض الشموع، ولأضع أسطوانة **باري وايت**".

إنه **بيتي**، ولا يملك المرء إلا أن يحبه.

"أنا مضطرة للخروج لزيارة **إيما**".

فُـــتح الـــباب. لفّ **بيتي** نفسه بمنشفة حمام كبيرة، ولاحظت أنه غطى جانباً واحداً من وجهه برغوة الحلاقة.

"هل ستهجرينني مجدداً؟"

فكّـــرت بإبلاغ **بيتي** بشأن مرض **إيما**، لكنني قررت أنني سأخون ثقتها بي إذا فعلت: "آسفة، لقد استجّد أمر طارئ".

عـــرف **بـــيتي** أنني أراوغ: "أعرف أنك ستضطرين لقتلي كي تخبريني القصة بكاملها، صحيح؟"

"شيء من هذا القبيل".

رفع **بيتي** أحد حاجبيه: "هل سمعت شيئاً جديداً من ***الرابطة الفرنسية الخارجية***؟"

غيّـــرت موضـــوع الحديث: "لا. اتصل **غوليت** بي، وقال إنه يعتقد أن ابن **باروت** يمتلك جهاز كمبيوتر **كروكشنك**".

"أتعــتقدين أنــه سيعطينا جهاز كمبيوتر **كروكشنك**، حتى نستطيع تفحّص القرص الصلب للجهاز؟"

"يُحــتمل ذلــك. إن الشريف ليس ذلك التقنيّ، وهو يقول إنه لا يمتلك ما يكفـــي من المساعدين في الوقت الحاضر. يعتبرني الشريف، بفضل **إيما**، جزءاً من الفريق، أو ما يشبه ذلك".

"دعيني أعلم بكل ما يستجّد".

"هل تستطيع تدبر أمر شحن هاتفك الخلوي وحمله معك؟"

أعتقد أن **بيتي** كان آخر شخص يعيش على نصف الكرة الغربي حصل على هاتــف خلــوي. إن مــا يدعو للأسف هو أن تحمّسه الشجاع لعالم الاتصالات اللاســلكية قد وصل إلى ذروته لحظة شرائه للجهاز. يبقى جهازه **البلاك بيري** في دُرجه عادة، لكن في حالة عدم تشغيل، أو أنه ينساه في جيبه أحياناً، أو أن الجهاز يكون في الحجيرة الوسطى لسيارته.

أدى **بيتي** تحية مفاجئة: "سأهتم بالجهاز وأحافظ عليه، أيتها القائدة".

قلت له: "لا تظهر رحمتك في **كنيسة رحمة الله**، أيها المحامي".

تبيّن لي لاحقاً أنني أسأت اختيار كلماتي.

تمتلك **إيما** منــزلاً مشيداً على الطريقة التشارلستونية المفرطة في قدَمها. يحيط ســياج حديدي مزخرف بمحيط هذا المنــزل المؤلف من طابقين، والمَطلي باللون القرنفلــي، وطُلي سقفه باللون الأبيض، كما يتميّز بشرفاته المزدوجة. لاحظتُ أن شجيرة مغنوليا ضخمة تظلّل الباحة الأمامية الصغيرة للمنــزل.

كانــت **إيمــا** ما تزال تفاوض لشراء المنــزل عندما التقيتها. أحبّت الأعمال الخــشبية، والحدائــق، الــتي يتميّــز بها المنــزل. أحبّت كذلك موقعه في شارع **دونكــان**، والذي لا يبعد سوى دقائق قليلة عن جامعة تشارلستون ومجمّع MUSC. ســرت **إيمــا** كثيراً عندما قُبل عرضها بشراء البيت، مع أنه كان بعيداً عن متناول يدها لشرائه في تلك الأيام.

تبــيّن لاحقاً أنها اشترت البيت في التوقيت المناسب، لأنه في السنوات التالية شهدت أسعار العقارات في تشارلستون ارتفاعاً صاروخياً. رفضت **إيما** بيع منــزلها

القديم بالرغم من أنه بات يساوي ثروة لا بأس بها. عانت **إيما** من ارتفاع قيمة قسط دفعاتها الشهرية، لكنها تدبرت الأمر بإنفاقها القليل على أشياء غير طعامها ومنزلها.

تساقط المطر طيلة الليل، فغسل عن أبنية المدينة رداء الحرارة الشديدة. أحسستُ ببرودة الهواء عندما فتحت بوابة منزل **إيما**. بدا كل شيء في المنزل مضخماً، بدءاً من صرير المفصلات الصدئة. رأيت الإسمنت المتفتت حيث تسلّل جذر مغنوليا تحته. فاحت عبر الحديقة رائحة أزهار الدفلى، والياسمين، والآس، وأزهار الكاميليا.

فتحت **إيما** الباب. رأيتها مرتدية رداء حمام، ومنتعلة خفاً. بدا جلدها شاحباً جداً، ولاحظت أن شفتيها جافتان ومشققتان. تدلّت الشراريب اللماعة من وشاح عليه زخرفات هندية ثبتته على رأسها.

حاولت إخفاء الصدمة من وجهي: "مرحباً أيتها الصديقة".

"أنتِ أكثر إلحاحاً من شاشة ياهو! (على شبكة الإنترنت)".

"لست هنا كي أبيعك منتجات خاصة بالرجل الذي تحبينه".

استطاعت **إيما** رسم ملامح ابتسامة باهتة على شفتيها: "لا تقلقي لدي كل ما أحتاجه. ادخلي".

تراجعت **إيما**، ومررت أمامها في طريقي إلى الرواق. لاحظت أن رائحة الصنوبر والخشب قد أخذت مكان رائحة الأزهار.

تناسبت حالة المنزل من الداخل مع العظمة الموجودة في الخارج. رأيت أمامي مباشرة بابين مزدوجين من خشب الماهوغاني يؤديان إلى رواق واسع. رأيت ردهة واسعة إلى يميني، أما إلى يساري فتلوى درج مسيّج إلى الأعلى. شاهدت السجاجيد التي تغطّي الأرضية الخشبية اللامعة تنتشر في أرجاء المنزل.

بدا الإرهاق يشعّ من كل جزء من أجزاء جسم **إيما**، لكنها سألتني: "أتشربين الشاي؟"

"إذا سمحتِ لي بتحضيره".

تفحّصت محتويات المنزل أثناء سيري خلف **إيما**.

عـــرفت من النظرة الأولى الوجهة التي تذهب إليها أموال صديقتي. امتلأ المكان بقطع الأثاث التي صُنعت قبل أن يخط الرواد المؤسسون دستور هذه البلاد. تستطيع **إيما** تدبـــر احتياجاتها المالية للمئة سنة القادمة، إن احتاجت للسيولة من خلال بيع قطعها الأثرية. أعرف أن مؤسسة كريستي ستستغرق شهوراً لكتابة بيان مفهرس بهذه القطع.

قادتني **إيما** إلى مطبخ بحجم متجر يعمل على امتداد ساعات اليوم، ثم جلستْ إلى طاولة مستديرة مصنوعة من خشب السنديان. أخبرتها عن صناديق **كروكشنك** أثناء انشغالي بتحضير وعاء وأكياس الشاي. أصغتْ إليّ من دون تعليق.

سكبت الماء المغلي في الوعاء، وسألتها: "أتريدين إضافة قشدة، أم سكر؟"

أشـــارت **إيما** إلى وعاء خزفي (بشكل طائر)، فنقلت هذا الوعاء إلى الطاولة الطويلة، وتناولت علبة الحليب من الثلاجة.

أبلغـــت **إيمـــا** بآخر المستجدات أثناء ارتشافها لكوبها. أبلغتها عن الكمبيوتر المفقود، وعن الصور الموجودة على الأسطوانة المدمجة. وأخبرتها كذلك عن الكسور في الفقرتين العنقيّتين.

طـــرحت **إيما** عليّ بعض الأسئلة، وكانت كلها أسئلةً ودية جداً. أجبتها عن أسئلتها ثم غيّرت لهجتي.

"لماذا تتجاهلين مكالماتي؟"

نظـــرت **إيما** نحوي، فبدت بالنسبة لي مثل طفلة تحمل ممسحة مطاطية، تطلب أن تقوم بتنظيف الزجاج الأمامي لسيارتي، وتنتظر لتعرف ما إذا كنت سأقول لها "شكراً"، أو "اغربي عن وجهي". وضعت كوبها الكبير على الطاولة بعناية شديدة، وبدا لي أنها اتخذت قراراً.

"أنا مريضة يا **تمب**".

"أعرف ذلك".

"أنا لا أتجاوب مع العلاج".

"أعرف ذلك أيضاً".

أشـــاحت **إيمـــا** بوجهها عني، لكن ليس قبل أن ألاحظ الألم الذي ظهر في عينـــيها: "نالت مني جولة العلاج الأخيرة. عجزت عن أداء وظيفتي. كانت المرة

الأولى نهـــار الاثنين، والآن هذا اليوم. أمتلك هيكلاً عظمياً **أفشل في تحديد هويته،** والآن تخـــبرينني أنـــه لديّ جثة شرطي سابق، والذي يُحتمل أن **لا يكون قد قتل** نفسه. وماذا ترينني أفعل؟ أنا في البيت أنام **معظم** الوقت".

"تقول الدكتورة **رسل أنك** ستعانين من بعض الإرهاق".

ضحكت **إيما**، مع أن كلامي لم يحمل مزاحاً: "لا تتواجد الدكتورة **رسل** هنا لترى ما أعانيه من تقيؤ".

بدأت بالاعتراض. رفعت يدها لتقاطعني.

خفـــضت **إيما** نظرها، وركّزته على كوبها الكبير: "لن تتحسن حالتي. يتعيّن عليّ أن أواجه هذا الواقع. يتعيّن عليّ أيضاً أن **أفكّر** بالموظفين الذين **يعملون تحت** إمرتي، وبالمجتمع الذي انتخبني كي أخدمه".

شـــعرت أن فمــــي أصبح جافاً: "ليس عليك اتّخاذ أية قرارات مهمة في هذا الوقت".

تراقـــصت نـــسيمات الهواء بأصواتها الفرِحة خارج النافذة، غير آبهةٍ بالقلق الموجود عند الناحية الأخرى من الزجاج.

قالت **إيما** بنعومة: "يتوجب عليّ أخذ هذه القرارات في وقت قريب".

وضعت كوبي على الطاولة. بَرَدَ الشاي في داخله، والذي بقي كما هو.

هل أسألها؟

تردّدت أصداء النسيمات الناعمة مرة أخرى.

"هل تعرف شقيقتك بالأمر؟"

نظـــرت **إيمـــا** إلى عيني مباشرةً. انفرجت شفتاها. ظننتُ أنها على وشك أن تطلـــب مـــني الاختفاء في الجحيم، وأن أتوقف عن التدخل في شؤونها، وأن أهتم بشؤوني الخاصة. ولكنها اكتفت، بدلاً من ذلك، بهزّ كتفها بحركة نافية.

"ما اسمها؟"

قالت بصوت بالكاد سمعته: "**سارة بيرفيس**".

"أتعرفين أين تقيم؟"

"تزوجت أحد الأطباء في ناشفيل".

"هل ترغبين أن أتصل بها؟"

"لا أعتقد أنها ستهتم".

نهضت **إيما** مبتعدةً عن الطاولة، واقتربت من النافذة. تبعتها، ووقفت خلفها، ثم وضعت يديّ على كتفيها. مرّت فترة صمت فيما بيننا و لم نتحدث.

حدّقت **إيما** باتجاه صف من الرفوف التي تحمل أزهاراً صغيرة بيضاء اللون في الحديقـــة الخارجـــية: "أحـــبّ رائحة الطفل الصغير. تبيع بائعات الأزهار عطور الأطفـــال في السوق. أترين تلك المجموعة من السويقات الخضراء والبيضاء، والتي تتوّجها أوراق طويلة ورفيعة؟ أتعرفين ما هي؟"

هززتُ رأسي بالنفي.

"إنهـــا تـــبغ الأرانب. اعتُبر الشاي الذي يحضّر من مغليّ تبغ الأرانب أفضل علاج بارد في منطقة سهول كارولاينا. يستمرّ الريفيون بتدخين هذه النبتة كعلاجٍ للربو حتى هذه الأيام. تلقّب هذه النبتة بالحياة الخالدة. بدأت بزراعتها...".

أخذت **إيما** نَفَساً عميقاً ومتعباً.

شـــعرت بتوتر شديد في حنجرتي، لكنني حرصت على إبقاء صوتي منخفضاً وهادئاً.

"دعيني أساعدك يا **إيما**، أرجوكِ".

مرّت نسمة هواء، ثم مرّت واحدة أخرى.

أومأت **إيما** من دون أن تلتفت.

أخذت نَفَساً عميقاً، ثم أخرجته ببطء: "لكن لا تتصلي بشقيقتي، ليس بعد".

تزاحمت العواطف في رأسي أثناء قيادتي للسيارة في طريق العودة من منـــزل **إيمـــا**. ملأني القلق بشأن علاقتي مع **رايان**، وكذلك الإحباط الناتج عن قضيّتي **دي ويز وكروكشنك**. سيطر عليّ أيضاً القلق على صحة **إيما**، والغضب نتيجة عجزي بوجه مرضها.

تحـــرّكتُ وسط أنوار الشمس الساطعة لذلك الصباح الرائع. جرّبت تناسي المخـــاوف والغضب، والشكوك، والتي تحوّلت كلها إلى شيء جديد. وتحوّلت إلى شيء إيجابي.

لم أستطِع الوصول إلى نقي عظم صديقتي من أجل استخلاص الحياة التي تحاول خلاياها انتزاعها منها. أستطيع، مع هذا، التركيز على مهنتي وأن أريحها من مشاغلها المهنية، وذلك كي أعطي **إيما** الأجوبة التي تريدها في **ما يتعلّق** بالهياكل.

توصلت في أعماق قلبي إلى قرارٍ حاسم.

استعدَّت السهول للكشفِ عن سرّ آخر في هذه الأثناء. ستُكتشف جثة أخرى في غضون الساعات الأربع والعشرين التالية. وستعطيني هذه الجثة الجديدة أشياء تتعدى العظام الجافة.

16

أعـــادني قراري الجديد إلى MUSC. لماذا؟ لعل ذلك حصل بسبب افتقادي لفكرة أفضل.

وجدت المشرف على المشرحة، وشرحت له من أكون، وقلت له إنني أعمل بالنـــيابة عن المحققة الجنائية. طلبت منه إخراج الهيكلين CCC-2006020277، و CCC-2006020285. وصلت العربتان المدولبتان، وتناولت الفقرة العنقية السادسة **لكروكـــشانك**، ولهـــيكل **دي ويز**، ونقلتهما إلى مكان المنظار. أكّدت لي نظرة سريعة عليهما أنه يظهر نفس النمط على كل عظمة عنقية منهما. حسناً، أصبحت متأكدة تماماً الآن.

ما هو سبب تأكدي؟

وما هو الرابط بين القضيتين؟

تأملـــت هـــذين السؤالين ملياً كما فعلت من قبل. انتقلتُ بعدها لأفحص التراب الذي جمعه توفر من قبر **دي ويز**. لماذا؟ لم أمتلك فكرة أفضل.

وضـــعت حوضـــاً من الفولاذ الذي لا يصدأ، مستطيل الشكل في المغطس، ووضـــعت مـــنخلاً في أعلى الحوض. تناولت أحد أكياس النايلون الثلاثة السوداء اللـــون، والـــتي تحتوي على أشياء وُضعت في أسفل العربة التي تحتوي على الهيكل المـــستخرج مـــن **دي ويز**. فككتُ السلك الذي يربط الكيس، وسكبت بعض التراب بهدوء، ثم هززتُ المنخل.

بدأ التراب الرملي بالتسرب من خلال شبكة المنخل. بقي فوق المنخل شيء من الحصى، والأصداف الصغيرة، وأجزاء من قنافذ البحر، ونجوم البحر، وبعض الرخويات الأخرى، وسرطان صغير. تفحّصت هذه البقايا بعدسة مكبرة، وتخلّصت منها، ثم سكبت المزيد من التراب.

احتوت الدفعة الجديدة على نفس أنواع الحصى، وبعض أجزاء من المخلوقات البحرية.

استرعت انتباهي شظية صغيرة جداً أثناء تفحّصي الكيس الثاني. تواجدت هذه الشظية في صدفة حلزون مكسورة، وكانت من الصغر بحيث إنني كدت لا أنتبه لها.

هل هي خيط صغير جداً من نوعٍ ما؟ هل هي خيط بالفعل؟

استخدمت الكلاّب كي أستخرج صدفة الحلزون، ثم وضعتها فوق يدي التي ألبس فيها قفازاً. لم يتجاوز طول صدفة هذا المخلوق الثلاثة سنتيمترات، وكانت بنيّة اللون وملتفّة، لكنني لاحظت أنها أكثر سماكةً من تلك التي اعتدت على رؤيتها على الشاطئ.

عدت إلى العربة المدولبة، وتفحّصت الملصق الذي وضعه **توفر**. احتوى الكيس الذي كنت أتفحّصه على تراب أُخذ من حول العظام مباشرة.

انتقلت إلى طاولة جانبية، انتزعت ذلك الخيط الدقيق من الصدفة بالكلاّب، ووضعته في وسط شريحة، ثم غطيته بشريحة زجاجية رقيقة جداً. ووضعت الشريحة بعد ذلك تحت المجهر، ثم اقتربت من عدسة المجهر.

بدت العيّنة وكأنها خط منحنٍ غير واضح. عدّلت مقبض التكبير حتى أصبح واضحاً.

تأكدت أن ذلك الشيء كان رمشاً. إنه رمش أسود اللون.

رنّ هاتفي الخلوي أثناء تأملي لهذا الرمش. أظهرت شاشة الجهاز رقماً مؤلفاً من مجموعة من ثمانية، ثم أربعة، ثم ثلاثة أرقام لرمز المنطقة.

إنه ليس رقم **رايان**.

شعرت بالإحباط. نزعت قفازي، وتحضّرت للرد على الاتصال.

"**تمب بريتان**".

"أنا **غوليت**. حصلنا على جهاز كمبيوتر **كروكشنك** المحمول، وهو من ماركة دل لاتيتيود، بالإضافة إلى كاميرا رقمية من ماركة بنتاكس أوبتيو 5.5 أوبتيو".

"إذاً كان الأمر مجرد سوء حظ غير سار".

"نعم، كان **باروت** الأب آسفاً ومعتذراً. ويبدو أن **باروت** الابن يستمتع بوقته".

"وماذا الآن؟"

"اكتشفت أن الكاميرا فارغة، إما أن **كروكشنك** لم يترك شيئاً فيها، أو أن ابن **باروت** قد محا كل شيء ليحمي نفسه. وجدت أن نظام جهاز الكمبيوتر مقفل بكلمة سر. حاولنا قليلاً فتح النظام، لكننا لم ننجح، و لم نصل إلى نتيجة".

"هل أستطيع تجربة حظي في فتحه؟"

مرّت فترة صمت قبل أن يتكلم **غوليت** ثانية.

"هل تمتلكين خبرة بهذه الأشياء؟"

"نعم".

قلتها بلهجة عكست ثقة أكبر مما شعرت بها في الواقع. استخدمت كلمات السرّ كثيراً في جهازي، لكنني لست **شارلوك هولمز** في فك الرموز الأمنية. و لم أحاول أن أقتحم نظام كمبيوتر من قبل.

أصغيت إلى الصمت في اللحظات التالية. ثم سمعت **غوليت** يقول على نحو مفاجئ: "لا بأس، فالآنسة **روسو** تثق بك، كما أن المساعدين الذين يعملون تحت إمرتي لديهم ما يشغلهم في هذه الأيام".

"أنا في المشرحة".

"سأكون هناك في غضون ساعة".

لم ينتج عن التراب المتبقي أي شيء مهم. وصل الشريف عندما كنت أعيد ربط آخر كيس.

وضع **غوليت** صرةً ملفوفة بالنايلون على الطاولة الجانبية. بعد ذلك، طوى نظارته، وعلّقها في جيب سترته الأعلى. ركّز **غوليت** نظره لبعض الوقت على العربتين المدولبتين الموجودتين خلفي.

سألني: "هل الآنسة **روسو** موجودة هنا؟"

قلتُ: "لديها ما يشغلها في مكان ما. انظر إلى هذه".

تقـدّم **غولـيت** باتجاه المنظار. وضعت إحدى الفقرتين العنقيتين التي تحمل كسوراً تحت العدسة. تفحّصها **غوليت** لبعض الوقت من دون أن يعلّق. ثمّ انتقلت إلى الفقرة الأخرى.

انتصب **غوليت**، ونظر نحوي.

أوضـحت له أن العيّنة الأولى تعود **لكروكشنك**، أما الثانية فتعود إلى الجثة المجهولة التي وُجدت في **دي ويز**.

تكلـم **غوليت** بتشدقه البارد، والممل، الذي عُرف به: "يوجد كسر في كل عظمة عنقية".

"هذا صحيح".

"لكن كيف؟"

"لا أعرف".

أدخلت الشريحة التي تحتوي على الرمش، وطلبت منه إلقاء نظرة أخرى.

"وما هو الشيء الذي أتطلع إليه؟"

"إنه رمش".

حدّق **غوليت** من خلال عدسة المجهر للحظاتٍ أخرى، ثم تطلّع إليّ من دون أن تشي تعابيره بما يفكّر فيه.

قلتُ: "وجدنا هذا الرمش في مقبرة **دي ويز**".

"يعـيش ملـيارات من البشر على هذا الكوكب. كم من مليارات الرموش يمتلكون؟"

"وُجـد هذا الرمش على عمق 45 سنتم تحت الأرض، وكان ممتزجاً بالتراب الملتصق بالجثة".

لم تتغير ملامح وجه **غوليت**.

قلتُ: "إن هذا الرمش أسود اللون، لكن الرجل الذي دُفن في **دي ويز** كان شعره أشقر وفاتحاً".

"هـــل يُحـــتمل أن يكون هذا الرمش قد أتى من أحد رجالك الذين قاموا بالحفر؟"

هززتُ رأسي بالنفي: "إن لون شعرهم أفتح بكثير من هذا".

أعتقد أن حاجباً كثاً قد تحرَّك ميكرو ميلليميتر واحد.

"هل تصلح الرموش لفحص الحمض النووي؟"

"إنها تحتوي على الميتوكوندريا".

لم يُبد **غوليت** أي ردّ فعل.

بـــسّطت الموضوع كثيراً، لكن توضيحي كان كافياً: "إنها نوع من الحمض النووي الذي يحتوي على مورثات من أقارب الأم".

أومـــأ **غوليت**، ومشى نحو الطاولة الطويلة، ثم سحب ***مذكرة نقل دليل*** من صرّته.

انضممت إليه، ووقّعتُ اسمي، ثم دوّنت التاريخ.

نـــزع **غوليت** نسختي، وناولني إياها. طوى النموذج، ودسّه في جيب سترته الداخلي. عادت عيناه لتتطلعا مجدداً نحو العربتين المدولبتين.

"هل وجدتِ شيئاً يربط ما بين هذين الرجلين؟"

"لا".

"فيما عدا نجاح كل واحد بكسر رقبته".

"صحيح، فيما عدا ذلك".

"إذا كـــان هناك رابط ما بين الرجلين سنكون أمام جريمة مزدوجة. إن هذا على سبيل الافتراض بالطبع".

قلت موافقةً: "إنه على سبيل الافتراض".

"أتعنين وجود قتل تسلسلي؟"

هززت كتفي بما معناه ***يحتمل***: "أو أنه يعني أن الرجلين كانا يعرفان بعضهما بعضاً".

"تابِعي".

"لعلهما شهدا شيئاً أدّى إلى قتلهما معاً".

لم يرّف جفن **غوليت**.

"لعلهما كانا متورطين في شيء ما".

"مثل ماذا؟"

"أتحدّث عن شيء مثل المخدرات، أو التزوير، أو خطف **ليندبرغ**".

"على سبيل الافتراض".

"على سبيل الافتراض".

"اســتطاع رئيس فريق مساعدي الشرطة الخاصة التابعين لي أن يداهم تلك البناية".

ظهرت بعض الملامح على وجهي. وظهرت ملامح التشوش.

"وجدنا أسطوانات **كروكشنك** المدمجة، وصوره. يقول المخبر الخاص إن تلك البناية الحجرية هي عيادة مجانية إلى جانب تلك الموجودة في ناسو".

طرحت سؤالي أخيراً: "ومن يدير هذه العيادة".

"إن **كنيسة رحمة الله** هي التي تديرها".

"أتعـــني **هيرون** وجماعته. يا الله! هل يُعقل أن تكون ذات العيادة التي عملت **هيلين فلين** فيها؟"

"فهمـــت الآن لـــماذا يهتم صديقك بهذين الرجلين، لكن شهادة الحقوق التي يحملها لا تجعل منه تحرّياً في النطاق الجغرافي لصلاحيتي. وإذا كنا أمام جريمة قتل، وأنـــا لا أقول إننا كذلك، فأنا لا أريد أن يقدم راعي بقر متهور على تنبيه المشتبه بهم المحتملين".

بدا لي أنه من غير المجدي إبلاغه أن **بيتي** ليس صديقي، أو أنه ليس متهوراً.

وجّه **غوليت** نحوي إصبعاً في وضع تحذيري: "اطلبي من ذلك الرجل البقاء ضمن حدوده، لأنه إذا خرجت الأمور عن السيطرة، فسأكون أنا من يتحمّل الملامة".

قلتُ: "هل ستستكشف تلك العيادة؟"

"لا شيء يستدعي ذلك في الوقت الراهن".

نَقـــر **غولـــيت** على جهاز الكمبيوتر: "هاتفيني عندما تعرفين مفتاح دخول النظام، وإلا سنرسل هذا الشيء إلى مركز شرطة كارولاينا الجنوبية".

سألته: "ألا يعني ذلك فترة طويلة من الانتظار؟"

عدّل **غوليت** وضعية نظارته ماركة راي بانــز: "جربي أنت أولاً يا سيدتي".

هاتفتُ **إيما** عندما انصرف **غوليت**. طلبت مني تسليم الرمش، وصدفة الحلزون الصغيرة إلى **لي آن ميلو** حيث سترسلهما إلى المختبر الجنائي التابع للولاية.

انتهــيت مــن تصوير الفقرات العنقية المكسورة، ووضعت الرمش وصدفة الحلــزون في كيس صغير مصنوع من النايلون، وسلمتهما إلى **ميلو**، وأخبرتها أنني انتهــيت من العمل لهذا اليوم. رأيت أن عقارب الساعة تشير إلى الثانية، فتوجّهت إلى المنــزل.

اتصلت في طريقي بجهاز **بلاك بيري** الذي يحمله **بيتي**. هل من مفاجأة كبيرة إذا لم يردّ؟

بلــغ حماسي لاختراق نظام **كروكشنك** الكمبيوتري حدّاً منعني من التوقف لتناول الغداء. وصلت إلى منــزل **البحر على امتداد أميال**، واصطحبت **بويد** في نــــزهة سريعة على الطريق، ثم أعددت شطيرة من اللحم والجبن، وجلست إلى طاولة في المطبخ.

اشــتغل الكمبيوتــر المحمول، وظهرت الشاشة التي تحمل شعار ويندوز، ثم أصــبحت الــشاشة زرقاء. ومض مؤشرٌ بشكل متقطع في الشاشة منتظراً إدخال مفتاح الدخول إلى النظام من أجل تحميل البرامج.

بــدأت بالمفاتــيح (كلمــات الــسر) الأكثر شيوعاً: 123123، 123456، 1A2B3C. ادخُل يا مفتاح التشغيل.

لا فائدة.

هل أجرّب الأحرف الأولى لاسم **كروكشنك**؟ أم تاريخ ميلاده؟

نهــضت من مكاني، وتناولت الورقة المطبوعة التي أخذتها من **نظام التعرف على البصمات** التي أعطتني إياها **إيما**.

نوبل كارتر كروكشنك.

حاولــت إدخال NCC، CCN، ومجموعة أخرى من الاحتمالات التوافقية للأحرف الأولى لاسم الرجل. أدخلت تاريخ مولده في بعض الأحيان، ولم أدخله

في أحيان أخرى، وأدخلت هذه الأحرف بالاتجاهين. عكستُ كل اسم، ثم غيّرتُ ترتيب مجموعات الأحرف. حاولت بعد ذلك استبدال الأرقام بالأحرف، والأحرف بالأرقام.

لم يتزحزح المؤشر من مكانه.

انتقلت لتجربة اسم ***قسم شرطة شارلوت مكاليبيرغ.***

جرّبت كل الاحتمالات التوافقية مستخدمة أحرف هذا الاسم بترتيبات متنوعة. أدخلته مع الاسم ومكان الولادة أحياناً، وبدونهما أحياناً أخرى. لا فائدة.

تذكّرت **شانون.** لم أستطع تذكّر الاسم الأوسط لهذه المرأة، ولا اسم عائلتها. متى تزوجا؟ لا أمتلك أية فكرة. حملت الصورة على الشاطئ تاريخ تموز 1976. جرّبت احتمالات توافقية إضافية.

لم يقبل المؤشر أيّاً من هذه الاحتمالات.

تذكرت البيسبول. أحضرت الصندوق، وتناولت الكأس التذكارية. شاهدت التاريخ المكتوب على اللوحة الملصقة: 24 تموز 1983.

ماذا بشأن تاريخ الميلاد؟ أو تاريخ إحراز بطولة الاتحاد. أدخلتهما سوية بالترتيب، ومن دون ترتيب أيضاً، وبطريقة عكسية.

لم أحصل على نتيجة.

تلاعبت بعنوان **كروكشنك**، وأدخلتُ كل تاريخ ظهر في مطبوعة ***نظام التعرف على البصمات.***

فرغت الأفكار من جعبتي عند الساعة الرابعة والنصف.

أبلغت المطبخ الفارغ: "لا أمتلك ما يكفي من المعلومات الشخصية".

هبّ **بويد** واقفاً على قائمتيه الخلفيتين.

"أما زلتَ غاضباً من تلك النزهة القصيرة جداً؟"

فتح **بويد** فمه، وتدلّى لسانه من فوق لثة أرجوانية اللون.

"أعرف يا معشر الكلاب أنك متسامحة ".

رفع الكلب رأسه، ووجّه أذنيه إلى الأمام.

"دعنا ننتقل إلى الملفات".

أقفلت الكمبيوتر المحمول، ثم انتقلت إلى الحجرة. ورافقني **بويد** أثناء انتقالي.

شـــاهدت أن الصندوق الذي يحتوي ملفات **كروكشنك** ما زال على المقعد المجاور للنافذة. نقلته إلى الطاولة الصغيرة، وجلست على الأريكة.

أخـــذ **بويد** يثب إلى جانبي. التقت عيوننا وما لبث **بويد** أن عاد إلى الجلوس على الأرض.

احتوى الصندوق على ما يقارب الأربعين ظرفاً أسمر اللون، وحمل كل ظرف التاريخ والاسم، مكتوبين بخط اليد. بدت بعض الملفات سميكة، بينما كان بعضها الآخر قليل السماكة. قمت بتقليب الملفات.

بـــدت الملفات منظمة حسب ترتيبها الزمني. لاحظت من خلال التواريخ أن **كروكشنك** كان يعمل على قضايا متعددة. بدت هناك فراغات في تواريخ القضايا لعلها كانت الفترات التي يفرط فيها الرجل بالشرب.

سحبتُ أقدم ملّف.

كُتب على الملف ***مردوك، ديبورا آن. آب (أغسطس) 2000 م.***

حمل ملف **ديبورا مردوك** المعلومات التالية:

كُـــتبت بعـــض الملاحظات بطريقة الاختزال، مثل تلك التي كُتبت في ملف **هيلين فلين.**

وجدتُ بعض الشيكات المسحوبة على الحساب المشترك **لديبورا وجايسون مردوك.** حمل آخر شيك تاريخ الرابع من شهر كانون الأول (ديسمبر) 2000.

وجدتُ أيضاً صورة لشخصين يدخلان ويخرجان من مطعم، أو من ملهى، أو من فندق.

تـــواجدت رســـائل موجهة إلى **جايسون مردوك** في "زاوية مونكس"، في كارولايـــنا الجنوبية. حملت هذه الرسائل توقيع **نوبل كروكشنك.** امتدّ تاريخ الرســـائل ما بين شهرَي أيلول (سبتمبر) وحتى تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 2000.

بدأت أفهم ما جرى، واكتفيت بقراءة رسالة واحدة فقط.



تأكـــدت الآن أن **ديبورا** هي المرأة التي تظهر في الصور، لكنّ الرجل لم يكن **جايسون**.

تابعت بحثي.

لانغ، هنري. كانون الأول (ديسمبر)، 2000 م.

تكرّر الأمر ذاته. وجدت ملاحظات، شيكات، وصور، بالإضافة إلى تقارير. أمـــضى **كروكـــشنك** ستة أشهر وهو يعمل على هذه القضية. وجدت هنا زوجاً غادر منـــزله.

نظرت إلى الملف التالي.

تودمان، كايل. شباط (فبراير) 2001م.

تـــتعلّق هـــذه القضية بتاجر أثريات شكّ في أن شريكه يخونه. استغرق الأمر شهراً كاملاً حتى استطاع **كروكشنك** إيقاف ذلك الغشاش.

تابعت العمل بسحب ملف إثر ملف. حملت القصص حزناً متشابهاً. وجدت شركاء زواج مخادعين، وآباء وأمهات مفقودين، ومراهقين هاربين. حملت قلّة من القـــصص نهايـــة ســـعيدة. ما هي العبرة من كل تلك القصص؟ استنتجت أنه إذا اعترفت بشكوكك، فأغلب الظن أنك ستجدها في محلها.

تطلّعت إلى الساعة. أشارت عقاربها إلى السادسة وخمس عشرة دقيقة.

تساءلت عمّا يفعله **بيتي** في هذا الوقت.

تساءلت عمّا يفعله **رايان**.

تفحّـــصت هاتفـــي الخلـــوي. لم ترد أي رسائل، وأنا متأكدة من أن حالة البطارية جيدة.

إنها بالتأكيد في حالة جيدة.

عدت إلى الملفات.

إثريدج، باركر. آذار (مارس) 2002م.

إنه أحد أكثر الظروف الموجودة في الصندوق سماكة.

عاش **باركر إثريدج** وحده، وكان بعمر الثامنة والخمسين. ذهب ابن **باركر** في شهر آذار (مارس) من عام 2002، لكي يصطحبه في رحلة صيد طويلة ومخطّط

لهـا مـسبقاً. لم يكـن **إثريدج** في منـزله، ولم يشاهده أحد بعد ذلك. أمضى **كروكشنك** أكثر من سنة واحدة في التحقيق. استغنى **إثريدج** الابن عن خدماته في شهر أيار (مايو) في عام 2003.

فرنكلين، جيورجيا، آذار (مارس) 2004م.

اختفت طالبة تبلغ التاسعة عشرة من عمرها في شهر كانون الأول (ديسمبر) مـن عـام 2003. غـادرت الفـتاة غرفتها المخصصة للطلبة الداخليين في كلية تشارلـستون. غضب والدا **جيورجيا** من تلكؤ الشرطة في إيجاد ابنتهما بعد مرور أربعة أشهر على اختفائها، فأقدما على تكليف **كروكشنك** بإيجادها، وهذا ما فعله بالضبط. وجدها تعيش مع صائغ مجوهرات بوذي في آشفيل، كارولاينا الشمالية.

بو، هارمون. نيسان (أبريل) 2004م.

إنـه رجل عاطل عن العمل. شوهد لآخر مرة في مركز أتش. جونسون في فرجينيا الطبي. أبلغ أحد أصدقائه عن اختفائه.

فريغوغليتي، سيلفيا. أيار (مايو) 2004م.

إنهـا امرأة مسنّة. تاهت المرأة من مركز لمساعدة المسنين. وُجدت عائمة في الميناء بالقرب من باتريوت بوينت.

تفحّصت ساعتي، وهاتفي الخلوي مجدداً.

أشارت الساعة إلى السابعة واثنتين وخمسين دقيقة، ولا مكالمات.

شعرت بالإحباط، فرفعت كتفيّ، وبسطتُ ذراعيّ من فوق رأسي. فتح **بويد** جفنين أنهكهما النعاس.

قلتُ: "لم تضع جهودي سدى بالكامل".

نظر **بويد** نحوي.

"أعرف على الأقل أن حرف (أم) في السطر الأول يعني أن القضية أُقفلت".

بـدا لي أن **بويد** لم يقتنع بالكامل. لم آبه له. علمت أنني على وشك معرفة شيء ما.

أسدلت ذراعيّ فعدتُ لأتابع من حيث توقفت.

سنايب، دانيال. آب (أغسطس) 2004م.

اختفـــى أثـــناء قدومـــه من سافانا، في جيورجيا، لزيارة تشارلستون. بقيت تذكرته للعودة بالباص غير مستخدمة. أبلغت حفيدته **تيفاني سنايب** عن اختفائه.

والتون، جوليا. أيلول (سبتمبر) 2004م.

إنهـــا سيدة منـــزل هاربة، وُجدت لاحقاً تعيش مع عشيقها في مدينة تامبا، فلوريدا.

احـــتوت بعـــض أحـــدث الملفـــات على قصاصات من الصحف، وبعض الملاحظـــات المكـــتوبة بطـــريقة الاختـــزال، فقط. لم أجد شيكات، ولا صوراً فوتوغرافية، ولا تقارير.

قرأت عدة قصاصات. تحدّثت كل قصاصة عن شخص مفقود.

"أين هي القضايا التي كلّف **كروكشنك** التحقيق فيها؟"

لم يمتلك **بويد** إجابة عن هذا السؤال.

"أم هل كان يبحث عن الأشخاص المفقودين لسبب آخر؟"

أم لأي سبب يا ترى؟

فتحت آخر ملف، وقرأت قصاصة ورق أخرى.

لفت انتباهي اسم أعرفه جيداً.

17

بـــرز اسم **هومر وينبورن** على رأس أحدث مقالة. روت المقالة التي شغلت عمودين، قصة اختفاء رجل يدعى **لوني آيكمان** في العام 2004.

طلـــبت امرأة تعيش في جبل بلازنت من السكان أن يراقبوا ابنها. اختفى الابـــن، واسمه لوني آيكمان منذ سنتين، أي عندما كان في الرابعة والثلاثين من عمره. هذا ما أبلغته سوزي روث لصحيفة أنباء مولتري.

قالـــت الـــسيدة آيكمان: "اختفى هكذا، ببساطة. قال لي: أراك لاحقاً يا أمي. ثم انطلق ولم يعد أبداً".

استشارت آيكمان وسيطاً روحياً بعد فشل الشرطة في تحديد مكان وجود لوني. أخبرها الوسيط الروحي أنه موجود في منطقة تشارلستون. وتقول السيدة آيكمان أن استشارة الوسيط كانت آخر ورقة في يدها.

شرحت آيكمان: "عندما تفقد شخصاً فستصبح مستعداً للإيمان بأي شيء يعطيك أملاً".

بحـــث آيكمان عن ابنها، ووضعت لافتات تطلب من أي شخص يمتلك معلـــومات عنه الاتصال بها، أو بشرطة تشارلستون، أو بمكتب الشريف. تقول آيكمان إن ابنها يعاني من انفصام في شخصيته، وأنه كان يتعالج وقت اختفائه. تخشى المرأة أن يكون ابنها قد اختُطف.



قالت آيكمان: "أخشى أنه موجود في مكان ما رغماً عنه".

يبلغ طول لوني آيكمان خمسة أقدام وثماني بوصات، ويبلغ وزنه مئة وستين باونداً. عيناه خضراوان وشعره بنيّ اللون.

نُشرت المقالة في صحيفة *أخبار مولتري* في عددها الصادر في الرابع عشر من شـــهر آذار (مارس). وضع **كروكشنك** دائرة حول عمر **آيكمان**، وحول تاريخ اختفائه، وحول كلمة "انفصام في الشخصية".

ألقـــيت نظـــرةً على عدة قصاصات أخرى. وضع **كروكشنك** دائرة حول المعلومات المشابهة في كل مقالة.

تأكدت عندها أن **كروكشنك**، انهمك بجمع تقارير عن أشخاص مفقودين. بـــدا لي أن هذه الحالات ليست قضايا لزبائن. لم تحتوِ الملفات على شيكات، ولا تقارير. لماذا إذاً كل هذا الاهتمام؟

احتوى ملفّان من ملفات **كروكشنك** على ملاحظات كُتبت بخط اليد، ولا شـــيء غير ذلك. حمل أحدهما عنوان ***هيلمز، ويلي***، بينما حمل الملف الآخر عنوان ***مونتاغـــيو، أونيغ***. استنتجت من وجودهما في أعلى الصندوق أن **كروكشنك** قد حضّرهما قبل وفاته بقليل. لماذا؟ من كان **ويلي هيلمز وأونيغ مونتاغيو**.

شعرت بالإحباط، لكنني بدأت بفتح ملف جديد في جهاز كمبيوتري، ثم عـــدت لـــتفحص الملفات، وسحبت قضايا الأشخاص الذين لم تجد قضاياهم حلولاً.

إثريدج، باركر، ذكر أبيض، 58، 5 أقدام و7 بوصات، 135 باونداً، شعر أشيب، عينان زرقاوان. شوهد لآخر مرة في شهر آذار (مارس) من عام 2002.

مون، روزماري، أنثى سوداء، 28، 5 أقدام و 3 بوصات، 105 باوندات، شعر أحمر، عينان بنّيتان. شوهدت لآخر مرة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 2002. مدمنة معروفة على المخدرات، وتعمل بائعة هوى.

واتلـــي، روبي آن، أنثـــى سوداء، 39، 5 أقدام و 5 بوصات، 140 باونداً، شعرها أسود ينسدل حتى كتفيها، عينان بنّيتان. شوهدت لآخر مرة في شهر تموز (يوليو) من عام 2003. مدمنة معروفة على المخدرات وتعمل في تجارة الجنس.

بو، هارمون، 39، ذكر أبيض، 5 أقدام و11 بوصة، 155 باونداً، شعر بني، عينان بنّيتان. شوهد لآخر مرة في شهر نيسان (أبريل) من عام 2004. معروف بإدمانه على المخدرات.

سنايب، دانيال، 27، ذكر أسود، 5 أقدام و5 بوصات، 120 باونداً، شعر أشـــقر ينـــسدل حتى الكتفين، عينان بنّيتان. شوهد لآخر مرة في شهر حزيران (يونيو) من عام 2004. معروف بإدمانه على المخدرات، وقوّاد.

آيكمان، لوني، ذكر أبيض، 34، 5 أقدام و8 بوصات، 160 باونداً، عينان خضراوان، شعر بني. شوهد لآخر مرة في ربيع عام 2004. يعاني من انفصام في الشخصية.

لم تتناســـب معطيات الهيكل العظمي الذي وُجد في دي ويز مع أيّ من هذه المعلومات. أضفت القضية إلى الملف.

CCC-2006020277، ذكر أبيض، 35 – 50، 5 أقدام و10 بوصات أو 6 أقدام وبوصة واحدة، شعر أشقر. يوجد كسر في الفقرة العنقية رقم C-6. توجد حزوز على الضلع الثاني عشر، وعلى الفقرة الصدرية الثانية عشرة، وفي الفقرة العليا لأسفل الظهر. دُفن في دي ويز.

كتب **وينبورن** مقالته في شهر آذار (مارس). هل يفسّر اختفاء **آيكمان** سلوك **وينبورن** في دي ويز؟ وهل اعتقد ذلك المراسل أننا عثرنا على جثة **لوني**؟



اقتطع كروكشنك تقرير وينبورن في يوم الرابع عشر من شهر آذار (مارس) أو بعد هذا التاريخ. هل ملّف آيكمان كان آخر الملفات التي فتحها؟

ولماذا خصّص ملفين لهيلمز ومونتاغيو؟ وما هي الأشياء التي احتوتها التعليقات التي كتبت بطريقة الاختزال؟

وصل بيتي عندما كنت منهمكة بفهم الملاحظات التي دوّنتها.

تردّد صوته في أنحاء الرواق: "هذا أنا، حامل البيتزا العظيم".

سمعت صوت ارتطام المفاتيح بسطح الطاولة، ثم ما لبث بيتي أن ظهر عند المدخل. ارتدى ملابس كاكية، وما بدا لي أنه قميص لاعبي البولينغ. اعتمر بيتي قبعة هورنيت تناسقت تماماً مع بقية ملابسه.

انطلق بويد، وراح يتحرك بشكل دائري حول كاحلي حامل البيتزا العظيم، وقرّب فمه من العلبة التي تحتوي على آثار الدهون، والتي أمسكها بيتي بيديه.

"اشتريت العلبة الكبيرة لأنني توقعت أنك هنا وجائعة. لماذا تعملين والأنوار مطفأة؟"

ركّزت كثيراً على ملفي الجديد الذي بدأته للتو، إلى درجة أنني لم ألاحظ أن العتمة قد خيمت على الغرفة. نظرت إلى عقارب الساعة التي أشارت إلى الثامنة والعشرين دقيقة.

"لماذا خيّم الظلام باكراً؟"

"هناك عاصفة عاتية تتحرك باتجاهنا. وبدأ السكان بإغلاق أبواب منازلهم بإحكام. هل لدينا مزلاجات متينة؟ وهل هي جاهزة؟"

لاحظتُ ألوان قبعة بيتي: "لدي أنباء سيئة يا بيتي. قرر فريق الهورنيت الانتقال إلى نيو أورليانز".

نزع بيتي القبعة، ثم نظر بإعجاب نحو الشعار: "أنا أحب هذه الألوان".

"أتعني اللونين الأرجواني والفيروزي؟"

"إنه ليس لوناً فيروزياً أيتها الريفية، بل الأزرق المخضّر. اختار ألكسندر جوليان هذه الألوان بنفسه، وكانت محط إعجاب فرق الاتحاد كلها".

"سواء أكانت الألوان من اختيار مصمم شهير أم لا، فالفريق قد غادر شارلوت".

وضـــع **بـــيتي** القبعة جانباً على طاولة، وقرّب رأسه نحو الملفات المكدسة إلى جانبي: "ماذا تفعلين؟"

دغدغني إحساس من أعماقي. إنه إحساس يدعوني للانتباه.

ماذا؟ أنتبه من أي شيء يا ترى؟

"من الإدارة المركزية إلى تمب" .

عدت إلى عالم الواقع.

كرّر **بيتي** سؤاله: "ماذا تفعلين؟"

"أتفحص قضايا **كروكشنك**".

"أفترض أنك تحاولين تشغيل كمبيوتر **كروكشنك**. هل حالفك الحظ معه؟"

هـــززتُ رأســـي بالنفـــي: "لم أستطع إيجاد مفتاح التشغيل. أين كنتَ طيلة اليوم؟"

"علقت بمشكلة ائتمانية. ما هي الأشياء التي تحمل اللونين الأسود والبنيّ والتي تنطبق على المحاسبين؟"

رفعت راحتَي يديّ، لكنني عرفت أنها غلطة.

"إنها كلاب من نوع دوبرمان".

"إنه وصف غير مناسب".

"لكـــنه صحيح، ولا بد أن هؤلاء اختاروا مهنة المحاسبة لأنهم عجزوا عن أن يكونوا رجال أعمال".

"هل استجوبت **هيرون** بشأن **هيلين فلين؟**"

"فضّل ذلك القس المحترم أن نبدأ بدفاتر المحاسبة".

رفعت حاجبيّ نحو الأعلى.

"لا تنظري إليّ هكذا. استأجرني **بوك** كي أتتبع أمواله، وفي هذه الأثناء عليّ أن أعرف كل ما بوسعي معرفته عن ابنته".

"هل أخبرت **هيرون** أن **كروكشنك** قد مات؟"

"نعم".

"وماذا كان ردّ فعله؟"

"أظهـــر الـــرجل الصدمة، والحزن، ودعاء من القلب كي يرقد بسلام. هل وجدتِ شيئاً في الملفات؟"

"يُحتمل ذلك".

انتقلنا إلى الشرفة. استطاع النسيم تحريك مروحة السقف بدون مساعدة من الكهرباء.

نشرت الأطباق والمناديل الورقية. ووزّع **بيتي** البيتزا. شرحت له الأشياء التي عرفتها أثناء تناولنا الطعام.

"إن وجود حرف **أم** في السطر الأعلى يعني أن القضية قد أُقفلت".

"استطعنا **الآن** فقط البدء بإحراز تقدم".

"سبقَ لي أن أبلغت **بويد** هذا".

وجّه **بويد** أذنيه إلى الأمام، لكن أنفه لم يبارح حافة الطاولة.

"وجدت أن الكثير من ملفات **كروكشنك** الحديثة لم تتضمّن سوى قصاصات عن أشخاص مفقودين. فتحت ملفاً جديداً، وبدأت بملاحظة الأنماط. ما هذه؟"

أشّرت نحو كرات صغيرة سوداء اللون فوق قطعة البيتزا في صحني.

"إنها زبيب مجفف. وماذا وجدتِ أيضاً؟"

"فتح **كروكشنك** ملفات لامرأتين وأربعة رجال، أُبلغ عن اختفائهم في منطقة تشارلـــستون مـــنذ عام 2002. لم تحتوِ الملفات على شيكات أو تقارير. وجدت قضيتين لم تحتويا على شيء غير المذكرات".

"يعني ذلك أنه لم يستخدم في الحقيقة ليبحث عن هؤلاء الأشخاص".

"هذا ما أظنه".

فكّـــر **بـــيتي** قليلاً في هذا الاحتمال: "أيُحتمل أن يكون رجل دي ويز أحد الأشخاص المفقودين الذين كان **كروكشنك** يتابع قضاياهم؟"

"إن مواصفاته لا تتناسب مع معطيات أيٍّ من هؤلاء الأشخاص".

"ومن هم هؤلاء؟"

"أحـــدهم رجـــل أسود، وثلاثة من البيض. تتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعـــشرين والثامنة والخمسين. يعمل أحدهم قوّاداً. واثنان منهم مدمنا مخدرات.

وتبـــيّن أن أحد المفقودين مصاب بانفصام في الشخصية. وجدتُ من بينهم امرأتين سوداوين يتراوح عمراهما ما بين الثامنة والعشرين والتاسعة والثلاثين، وتعملان في تجارة الجنس، كما أنهما مدمنتا مخدرات".

"أتعـــتقدين أنـــنا أمام نوع من قاتل تسلسلي، أو أنه رجلٌ يفترس المومسات ومدمني المخدرات؟ هل ينتقي أشخاصاً هامشيين لا يفتقدهم أحد؟"

"لا أعرف التاريخ المحدد لاختفاء **آيكمان**، أو حتى اسم الرجل الذي وجدناه في دي ويـــز. مرّت ثمانية أشهر ما بين اختفاء **إثريدج ومون**، ومرّت ثمانية أشهر أخـــرى ما بين اختفاء **مون وواتلي**. مرّت تسعة أشهر غيرها قبل أن يختفي بو، ثم مـــرّ شهران آخران قبل اختفاء **سنايب**. يبدو أن النمط غير تام إذا كنا نريد اعتبار القتل تسلسلياً".

تناول **بيتي** المزيد من البيتزا: "ألا تعتقدين أن القَتَلة التسلسليين غير نمطيين في العادة؟"

"جـــاء المفقـــودون مـــن مناطق مختلفة. إنهم رجال، ونساء، من السود ومن البيض. وتتراوح أعمارهم ما بين السابعة والعشرين والثامنة والخمسين".

"ألا تقتصر المجموعة على المراهقين من أولاد الشوارع؟ أو على الطلاب الذين يفرقون شعرهم من الوسط؟"

أدركـــت إشارات **بيتي** لأنماط الضحايا التي كان يفضّلها **جون غاسي وتيد بوندي**: "هل أصبحتَ كاتب سِيَر؟"

"إنني مجرد مثقف مطّلع، بالإضافة إلى كوني حامل البيتزا".

سألته: "من الذي أشار بإضافة الزبيب المجفف؟"

"إنه آرتورو".

مـــرّت لحظـــات قلـــيلة أصغينا فيها إلى أصوات الأمواج وهي تتلاطم على الشاطئ. كسرتُ جدار الصمت.

"كتب **هومر وينبورن** المقالة عن اختفاء **لوني آيكمان**. ظهرت هذه المقالة في صـــحيفة ***أنباء مولتري*** في عددها الصادر في الرابع عشر من آذار (مارس). نعرف من هذا أن **كروكشنك** كان حياً في هذا التاريخ".

"هـــل **وينبورن** هو الرجل الذي ظهر في موقع الحفريات الذي كنت تشرفين عليه؟"

أومأت بالموافقة.

"هل اتصلت به هاتفياً؟"

"سأفعل".

"هل تلقيت شيئاً من مسيو...".

"لا".

تـــناولت قطعة بيتزا أخرى بعد أن انتزعتُ الزبيب المجفف عنها ووضعته على طبقي.

قال **بيتي**: "هل هي صعبة الهضم قليلاً؟"

"الـــزبيب المجفف والسمك الصغير لا يتمازجان فعلاً. أخبرني ماذا حصل مع **هيرون**".

"لم ألتقِ **هيرون** شخصياً".

وصـــف لي **بـــيتي** الأشـــياء التي حدثت مع محاسبي **كنيسة رحمة الله**. لم يبالغ في كلامه، وبدا لي أنه وصل إلى حائط مسدود. تذكّرت الأشياء التي أخبرني إياها **غوليت**.

"تعـــرّف أحدهم في مكتب الشريف على تلك البناية الحجرية التي تظهر في الصور التي احتفظ بها **كروكشنك** على أسطوانته المدمجة".

انشغل **بيتي** بتناول البيتزا: "أوه، حقاً؟"

"إنها عيادة مجانية تديرها **كنيسة رحمة الله**".

"وأين تقع؟"

"إنها تقع في شارع ناسو".

توقّف فكّ **بيتي** عن الحركة، ثم بلع: "عملت **هيلين فلين** هناك. عملت هناك في وقت ما على الأقل".

"هذا ما أظنّه. إن هذا يجعل اهتمام **كروكشنك** بذلك المكان منطقياً".

مـــسح **بـــيتي** فمه، وكوّر منديله الورقي، ثم وضعه على طبقه: "هل ينوي **غوليت** متابعة الموضوع؟"

"لا يضع الشريف قضية دي ويز، ولا قضية **كروكشنك** على رأس أولوياته. جعلـــته يشاهد الفقرتين العنقيتين المكسورتين، لكنه ما زال غير مقتنع أن أياً منهما قد قُتل".

"لعله يجدر بي...".

"لا يريد **غوليت** بالتأكيد الاتصال بأي شخص يعمل في تلك العيادة، وكان جازماً بذلك".

"وما يضيره لو...".

"لا".

"و لِمَ لا؟"

تميّـــز صـــوت **بيتي** بالحدة. أعرف تلك الحدة. إن زوجي السابق ليس بذلك الرجل الذي يقبل أن يعترض طريقه أحد.

"أرجوك يا **بيتي**. لا تفسد الأمر بيني وبين **غوليت**. إن الرجل يسمح لي ولك بالتدخل في شؤون ليست من اختصاصنا، ونحن لدينا جهاز كمبيوتر **كروكشنك** وملفاتـــه. لديـــنا الكثير من الأشياء التي يُمكن أن نخسرها. لا أريد المجازفة بهذه الأشياء. يتعيّن عليّ مساعدة **إيما** على حلّ هذه القضايا".

"لقد فعلت ما بوسعك. إن **إيما** هي المحققة الجنائية هنا، ولا تنسي أن **غوليت** يمثّل مشكلتها هي".

تحوّلت بنظري إلى الظلمة الموجودة خارج الشاشة. بدت الأمواج بلون أبيض مائل إلى الفضي وراء تلك الأشكال السوداء التي أعرف أنها كثبان رملية.

اتخذت قراراً بشكل مفاجئ.

"إن **إيما** مريضة".

"ما هو مدى خطورة مرضها؟"

أخبرته عن الورم الليمفاوي، وعن انتكاساتها الصحية الأخيرة.

"أنا آسف يا **تمب**".

وضـــع **بـــيتي** يده فوق يدي. جلسنا من دون أن نتبادل الحديث. بدا لنا أن صوت المحيط في الخارج هو هتاف صاخب.

ركّزت أفكاري حول **إيما**. بماذا يفكّر **بيتي** يا ترى؟ إنه سؤال مهم. لا أمتلك أية فكرة عن الأشياء التي يفكّر بها. هل يفكّر **هيلين فلين**؟ أو بقيود أموال **كنيسة رحمة الله**؟ أم هل يفكر بشيفرة **كروكشنك**؟ هل يفكر بالحلوى؟

أربـــك الهدوء المخيم **بويد**، فاقترب مني، وأسند رأسه على ركبتي. مسّدت رأسه وهمستُ لأرفع بقايا البيترا. بدا لي أن تغيير الموضوع هو أمر ضروري.

"وجــــدت رمشاً عندما غلتُ التراب الذي استخرجناه من قبر **دي ويز**. إن الرمش أسود اللون، بينما الشعر الموجود في القبر أشقر".

"ألا يمتلك كل الناس رموشاً سوداء اللون؟"

"لا. إلا إذا استخدموا أصباغ الأهداب".

"ألا تعتقدين أن الرمش سقط من الشخص الذي دفن ذلك الرجل؟"

"يمتلك جميع الطلاب الذين استخرجوا الجثة شعراً فاتح اللون".

سلّط **بيتي** نحوي نظرةً *عارفة*: "لعلها نظرية ***لوكارد التبادلية***".

قلتُ: "أنا مبهورة من هذا التحليل".

أشار **بيتي** إلى مبدأ يشيع جداً بين المجرمين. قال **لوكارد** إنه عندما يتقارب شيئان مـــن بعضهما فسيتبادلان الجسيمات فيما بينهما. يحدث هذا عندما يدخل محتال إلى المــصرف، أو عـــندما يستند قنّاص على غصن شجرة، أو عندما يقوم قاتلٌ ما بالحفر بالرمال. يحمل كل مجرم أثراً من مسرح الجريمة، ويترك وراءه بعض الآثار.

سأل **بيتي**: "هل ستجرين اتصالاً مع هذا الرجل **وينبورن**؟"

نظرت إلى ساعتي. كادت عقاربها تشير إلى العاشرة.

"ســأفعل ذلـــك في الــنهاية. سأتفحص بعض ملفات **كروكشنك** لبعض الوقت".

"لماذا عبر ذلك المحاسب الطريق؟"

تطلّعت نحوه. أعرف أن **بيتي** مسجّل على لوائح المحاسبين.

"يقول الملف إن هذا هو ما فعلوه السنة الماضية".

وقعـــت عيـــناي على قبعة **بيتي** ما إن جلست على الأريكة. همس لي عقلي اللاواعي القلق مجدداً. ***يا الله!***

ماذا؟ هل هذا هو شعار الاتحاد الوطني لكرة السلة؟ أم أنه يعود للهورنيت؟ أم للتوركواز؟

تذكّرت **تيل**!

جيمي راي تيل.

متى قرأت هذه المقالة؟ تذكّرت أنني قرأتها في آخر صباح من فترة الدراسة الميدانية. جرى ذلك منذ أقل من أسبوع.

راح **بيتي** يجول في أرجاء المنزل، وافترضت أنه يتأكد من أن أقفال المنزل مُحكمة الإغلاق.

ناديته قائلة: "متى تأتي شاحنة جمع النفايات؟"

"لا أعرف إطلاقاً. لماذا؟"

سبق لي أن نقلت يوم الاثنين الماضي كميات كبيرة من الأوراق إلى مستوعب النفايات الموجود في الباحة الأمامية.

كرّر **بيتي** سؤاله: "لماذا؟"

تناولت مصباحاً يعمل على البطارية، وتوجّهت نحو الباب الأمامي، ثم نزلت الدرج. شاهدت الرياح التي تصفع شجيرات النخيل بقوة. استطعت أن أشمّ رائحة المطر، وبدا لي أن موعد هبوب العاصفة ليس بعيداً.

رفعت غطاء المستوعب، وتناولت منه وعاءً بلاستيكياً أزرق اللون يُستخدم لإعادة تدوير الصحف.

بدأت من القاع، ورحت أرفع الصحف، وأتأكد من تواريخها، بمساعدة الضوء الذي يبعثه مصباحي. وضعت الصحف التي لا أريدها جانباً. تنبهت إلى قدوم سيارة تسير صعوداً على **جادة المحيط** عندما أصبحت في منتصف مهمتي. وتابعت عملي على تفحّص رزمة الصحف.

اقتربت أضواء السيارة مني.

نجحت أخيراً! ها هي صحيفة يوم التاسع عشر من أيار. نظرت إلى مواضيع الصفحة الأولى. لفحت النسائم الصفحات التي بين يدي.

أبطأت السيارة في سيرها، لكنني تجاهلتها تماماً.

وجـــدت تغطية يوم الجمعة الفائت للأخبار الاقتصادية، والإعلانات المبوّبة، والأخبار المحلية وأخبار الولاية.

توقفت السيارة قبالة منـــزل **البحر على امتداد أميال**. شكّلت حزمتا ضوء مصابيح السيارة زاوية مع المستوعب.

رفعت رأسي، لكنني لم أستطع تمييز أي شيء عدا الأضواء.

هل هو **رايان؟** شعرت بصدري يختلج.

لم تتحرك السيارة و لم تنعطف باتجاه الجادة.

وقيتُ عينيّ.

شغّل السائق محرك السيارة. دارت عجلات السيارة فتسببت بتطاير الحصى، وما لبثت السيارة أن انطلقت للأمام.

تطاير شيء ما باتجاهي.

فأسقطت الصحيفة بعد أن رفعت يديّ إلى الأعلى.

18

ارتطـــم شيء صلب بمرفقي فشعرت على الفور بألمٍ كبير في ذراعي. شعرت بوجود سائل، وشممتُ رائحة شراب الشعير.

حـــرّكت المـــصباح بيدي السليمة بحركة دائرية. وقعت حزمة الضوء على زجاجة شراب الشعير التي استقرت إلى جانب مستوعب النفايات.

من رمى هذه الزجاجة؟

هل هم صبية يقومون بنـــزهة مرح؟

هل أرادوا الحصول على بعض المرح؟

هل رمى هؤلاء الزجاجة باتجاهي عن قصد؟ هل قصدوني شخصياً؟

تطايـــرت صحيفة يوم الجمعة الفائت، والتصقت أجزاء منها على المستوعب بفعـــل الـــرياح. جمعت هذه الأجزاء، وعدت إلى المنـــزل. لاحظت أن **بيتي** ليس موجـــوداً في المطـــبخ وأنـــه تـــوجّه إلى الغرفة. رأيته منهمكاً بالكتابة على دفتر المذكرات. رفع رأسه، فلاحظ عندها أنني أمسك بذراعي.

"هل أصابتك صاعقة؟"

لاحظت على الأقل أن هذه ليست إحدى نكات المحاسبين.

"رمى أحد المغفلين زجاجة باتجاهي من نافذة سيارة".

قوّس **بيتي** حاجبيه: "هل أنت بخير؟"

"سيتكفل القليل من الثلج بمعالجة الأمر".

استخففتُ بالحادث ظاهرياً، لكن الشك المزعج بدأ يتزايد في أعماقي. سبق **ليبتي** أن لاحظ سيارة غريبة أمام المنـــزل في وقت مبكرٍ من صباح الأحد. وحصل الآن هذا الحادث. هل أراد أحدهم توجيه رسالة ليٍ؟ هلٍ هم من العابثين المتجولين الذين لا يكترثون بتحديد أهدافهم؟ أم أنهم يقصدون إصابة الناس؟ أم أنهم يعبّرون بهذا عن انــزعاجهم من شيء أقدمتُ عليه؟ هل هو **ديكي دوبري**؟ صمّمت أن أنتبه منذ الآن لما حولي.

وضعت بعض الثلج حول مرفقي، وقرأت في هذه الأثناء تقريراً ورد في عدد يوم الجمعة الفائت من ***بوست وكوريبه***، ثم أدخلت معطيات **جيمي راي تيل** إلى الملف الجديد الذي بدأته.

تـــيل، جيمي راي، 47. ذكر. شوهد لآخر مرة يوم الثامن من أيار (مايو) وهو يغادر شقته الكائنة في شارع جاكسون. راهب. موعد مع الطبيب.

انـــشغلت بالتـــساؤل عن خلفية **تيل** العرقية عندما خطرت على ذهني فكرة أخرى. أعرف أن **ماثيو سمرفيلد**، وهو ابن عضو في المجلس البلدي، مفقود أيضاً. لاحظت أن معطيات هذا الفتى لا تتطابق، في الواقع، مع نمط الأشخاص المفقودين الآخرين في تشارلستون. أي نمط هو هذا؟

سمـــرفيلد، ماثـــيو الرابع، 18. ذكر أبيض. شوهد لآخر مرة في 28 شباط (فبراير) مغادراً سوق المدينة القديمة. مدمن على المخدرات.

غفوت وأنا أُصغي إلى العاصفة القاسية التي أخبرني **بيتي** عنها.

حلمت تلك الليلة أحلاماً مضطربة. شاهدت **رايان** وهو يحمل طفلاً رضيعاً بين يديه. وسمعت **غوليت** وهو يصرخ بكلمات لم أستطعِ فهمها. رأيت رجلاً من دون أســـنان يـــستجدي بواسطة قبعة تحمل شعار فريق الهورنيت. وشاهدت **إيما** تخرج من غرفة مظلمة. لم أستطع تحريك قدميّ عندما شاهدتها، فابتعدت عني.

أيقظـــني صوت هاتفي الخلوي. وشعرت بألم في مرفقي عندما مددت يدي كي أمسكه.

سمعـــت أصواتاً على الجهة الأخرى من الخط، وأصوات أجهزة هواتف: "أنا **غوليت**، لدينا قضية أخرى".

شعرت بتوتر في معدتي.

"حملـــت العاصفة برميلاً إلى الجنوب من شاطئ فولي. ألقى صيادان نظرة إلى داخـــل البرميل، فشاهدا جثة. التقط مكتبي المكالمة الهاتفية لأن المنطقة تقع ضمن صـــلاحياتي. وعلمت أن الآنسة **روسو** متوعكة مجدداً، وقالت بوجوب اهتمامك بالموضوع. يبدو أنك قد أصبحت المحققة الجنائية الفعلية أيتها الشابة".

لم تكـــن الـــشابة مستعدة لجواب لبق عند الساعة السابعة صباحاً. قلت وأنا منهمكة بالبحث عن قلم وورقة: "أعطني إرشادات الوصول إلى المكان".

"لا أمتلك وقتاً أضيّعه عليكِ في حال أخطأتِ في الوصول. لاقيني في المشرحة بعد ثلاثين دقيقة".

"لماذا العجلة؟"

يتعـــيّن عليّ تسريح شعري، لكن ربما كان **غوليت** على حق، لأنني قد أجد صعوبة بإيجاد المكان.

"سيأتي المدّ بعد قليل".

ارتـــديت بـــنطال جينـــز، وبلوزة تي شيرت، ووضعت بعض الصباغ على أهدابي، ثم أسرعت كي أنـــزل الدرج.

لاحظت أن **بيتي** قد غادر المكان، وافترضت أنه يريد متابعة شؤونه المحاسبية. رأيت **بويد** و**بيردي** في المطبخ واقفَين يراقبان بعضهما بعضاً فوق وعاء الحبوب.

ابتعد **بيردي** عندما حضرتُ إلى المطبخ، لكن **بويد** بقي جالساً، ورأيت بعض الحليب على أنفه.

"تبدو بحالة مزرية أيها الكلب".

وضعت الوعاء في حوض غسيل الصحون، وسكبت بعض القهوة، ثم تفحّصت ذراعي. ووجدت أن الكدمة بدأت تتورم وتكبر كثيراً، وأن ألوانها قد تعددت.



تحـــوّل **بويد** إلى حالة الهياج عندما فككتُ طوقه. سمحت له بالركض باتجاه المـــنعطف. وجدت أن أجزاءً من أغصان شجر النخيل، وأشياء أخرى، قد تناثرت في الباحة.

جال **بويد** على مستوعب النفايات، وصندوق البريد، وعلى غصنٍ وقع على الأرض، ثم سار على الطريق. أرجعته إلى المنـــزل، دوّر الكلب شعراتٍ حاجبيه، وكأنه يريد أن يقول: هل أنتِ مجنونة؟

قلت: "يتوجّب عليك أن تدفع ثمن النـــزهة".

بدأت شعرات حاجبَي الكلب بالتراقص.

تـــناولت لـــوح الغـــرانولا، وتوجّهت نحو مستشفى MUSC. وجدت أن الشريف ينتظرني عند باب المشرحة.

اخـــتار **غوليت** سلوك جسر جزيرة جايمس الذي يمرّ فوق نهر آشلي، وتوجّه جـــنوباً. رأيـــت، بعدما سرنا مسافة قصيرة، لوحات إرشادية للوصول إلى شاطئ فولي.

شـــاركني **غولـــيت** بالمعلومات التي يمتلكها أثناء قيادته للسيارة. لم تزد هذه المعلـــومات كـــثيراً عمّا أخبرني إياه عبر الهاتف. أخبرني عن الصياذين، والبرميل، والجثة.

سألته عن السبب الذي دفع المحققة الجنائية إلى طلب وجودي. قال إنه يعتقد أن الجثة ليست قديمة العهد.

حدّقت بالمناظر التي تمرّ بنا من خلال زجاج نافذة السيارة، وشاهدت البيوت المعروضـــة للإيجـــار، والأشجار، وأعمدة الكهرباء. لم يحادثني **غوليت** بعد ذلك. لاحظت أنه دأب على النظر باتجاه مرفقي المصاب.

تذكرت السيارة التي رآها **بيتي** صباح يوم الأحد، والزجاجة التي أُلقيَت عليّ في الليلة الماضية. ماذا يعني كل ذلك. أعتقد أنه إذا كان هناك شخص يريد إنـــزال الأذى بي، فربما يجدر بي أن أُخبر الشريف عنه. لذا أخبرته بما حدث لي.

سأل **غوليت** بنبرته الهادئة المعتادة: "هل تثيرين المشاكل هنا؟"

"سبق لي أن طردت مراسلاً صحفياً يدعى **هومر وينبورن**".

"لا أعتقد أن **وينبورن** يتسبّب بالأذى".

"وهل الأمر نفسه ينطبق على رجل المشاريع الإسكانية **ريتشارد دوبري**؟"

"تعجبت للسبب الذي منع وزارة الخارجية من أن تستفيد من خدمات ديكي العجوز. إن هذا الرجل هو دبلوماسي بالفطرة".

"وهل يمكن اعتباره غير موذ؟"

تردّد **غوليت** قليلاً: "غالباً".

غالباً؟ تغاضيت عن الأمر.

انحـــرف **غولـــيت** إلى طريق ضيق يمرّ عبر المستنقع، وذلك بعد مرور خمس عشرة دقيقة على عبورنا نهر آشلي. لاحظت أن الأعشاب الطويلة قد التفّت حول أشجار العنبر باتجاه سماء زرقاء وصافية. أنـــزلت زجاج النافذة، وسرَتْ إلى أنفي روائـــح أولـــية ناتجة عن النباتات النامية والتعفن، وعن الرخويات البحرية، وعن السرطانات، وعن ملايين اللافقاريات التي هي أقدم من الزمن نفسه.

شعرت بالتفاؤل فبدأت المحادثة.

"هـــل تعلـــم أن كارولاينا الجنوبية تحتوي على مساحة مستنقعات تفوق أية ولاية أخرى تقع على شاطئ الأطلسي؟"

نظر **غوليت** نحوي، ثم عاد ونظر باتجاه الطريق.

"انتهى العاملون في المختبرات من التدقيق بمحفظة **بينكني**".

"هل وجدوا شيئاً غير رخصة القيادة؟"

"لم يجدوا شيئاً ذا قيمة. وجدوا رزمة من القسائم التي تخوّل الزبون الحصول على وجـــبة مجانـــية إذا دفـــع ثمن واحدة، بالإضافة إلى بطاقة حسم لأحد محلات البقالة، وتذكرة يانصيب، وأربعة وستين دولاراً، وتروجان ماغنوم من القياس الكبير جداً".

"يبدو أن **بينكني** كان رجلاً متفائلاً".

"يبدو أنه كان كذلك بأكثر من طريقة".

انـــشغلت بمـــراقبة طيور البلشون البيضاء لبقية الرحلة، ولاحظت أجسامها البيضاء، وسط الأعشاب الخضراء المتماوجة، وأرجلها الطويلة والنحيلة التي تظهر من بين بقع الوحول.



أوقـف **غولـيت** سيارة الجيب الإكسبلورر، لكنني لم أمتلك إلا فكرة غير واضـحة عـن المكان الذي نتواجد فيه. رأيت كوخين أمامنا تظلّلهما شجيرات كثـيفة. لاحظـت وراء الكوخين وجود رصيف ميناء خشبي يمتدّ في ما ظننته نهر ستونو، أو في مصب نهر آخر من الأنهار التي تصبّ في الأطلسي.

رأيـت سيارتين، إحداهما سيارة كروزر، تُركت أضواؤها وامضة، وسمعت صوت جهاز اللاسلكي ينطلق منها، ثم رأيت شاحنة بلوحة سوداء اللون.

شـاهدت عـصافير سوداء بأجنحتها الحمراء تزقزق جماعياً أثناء ترجّلنا، أنا **وغوليت**، من الإكسبلورر. ترجّل رجل شرطة من الكروزر لتحيتنا. لاحظت أنفه المـدبب والتغضّنات الحادة التي ظهرت على وجهه. عرّفنا الرجل بنفسه على أنه المساعد **أتش. تايبـي**.

لمـس **تايبـي** حافـة قبعته ليحيي كل واحد منا: "حضرة الشريف. أيتها الـسيدة. اكتشف سيد يدعى **أوزوالد مولتري**، في صبيحة هذا اليوم رجلاً وُجد متوفياً، وذلك عندما كان يتفقّد أوعية صيد السرطانات. إنه يسكن هناك".

رفع **تايبـي** ذقنه باتجاه الكوخ الأول.

أخذ **غوليت** يحدّق إلى ما وراء **تايبـي** باتّجاه ذلك الرصيف الخشبي الممتد في البحر: "هل اعتقدوا أنهم عثروا على كنـز قرصان *اللحية السوداء* الضائع؟"

لم يكـن المرح من بين ميزات **تايبـي**: "لا أعلم الجواب عن هذا السؤال يا سيدي. أحطنا الموقع بناءً على تعليماتك، وتركنا كل شيء كما وجدناه".

"هل حصلت على الإفادات؟"

"نعم يا سيدي".

"من يسكن في الكوخ الآخر؟"

"تعـود ملكية الكوخ ذي المظلة الحمراء فوق النافذة إلى **ليلاند**، وهو شقيق مولتري".

تـبعت **غولـيت** عندما ترك **تايبـي**، ومشى نحو مجرى الماء. استطعت أن ألاحـظ ضـيق ذلك الممر المائي الصغير إلى حدّ أنه كان يضيق في بعض الأماكن بحـيث يمنع مرور قاربين معاً. ابتعد المدّ فظهر الرصيف الخشبي عالياً فوق الضفة.

ذكّـــرني ذلك الرصيف المتزعزع بالبلشون الأبيض الذي يرتفع عن الوحل بساقيه الطويلتين والنحيلتين.

جلـــس رجـــلان يدخنان تحت مظلة كوخ **ليلاند**. بدا الرجلان وكأنهما من مهرّجـــي السيرك. لاحظت أن الرجلين النحيلين هما من السود، ويضعان نظارتين ذواتيْ إطارين بلاستيكيين رماديتي اللون. إنهما الشقيقان **مولتري**.

رأيـــت **لي آن ميلر** وأحد مساعدي الشريف في طرف الرصيف الخشبي من جهـــة الـــشاطئ. فانـــضممتُ **وغوليت** إليهما. تبادلنا التحيات. علمت أن اسم المساعد هو **زام زاو**. بدا لي أنه مريض بعض الشيء.

دخلـــت رائحـــة حادّة إلى أنفي أثناء تقدمي باتجاه الرصيف. شممت رائحة كـــريهة تـــداخلت مع رائحة الملح والخضار التالفة. استمرّت المحادثة من خلفي، وكانـــت عـــبارة عن تخمينات حول كيفية وصول البرميل إلى هذا الممر (الجون) الصغير، وكذلك قُدّمت الاقتراحات عن أفضل الطرق لاستعادته.

حاولت التركيز وسط كل هذه الأصوات.

لاحظـــت أن الرصيف مجهز بمنصة خشبية تُستخدم لوزن الأسماك واستخراج أحشائها. وانهمكت أسراب الذباب بإقامة مهرجاناً على سطح تلك المنصة. رأيت وعـــائين يعلوهما الصدأ على أحد جوانبها. ورأيت على الجانب الآخر فأساً طويلة المقبض.

نظرت إلى الأسفل.

شاهدت الماء بلونه الأخضر الداكن، والوحول الزلقة السوداء اللون. تحرّكت الـــسرطانات في هذا الاتجاه أو ذاك، وباتجاه الجوانب، ولاحظتُ أنها تلوّح ببرائنها وكأنهـــا الـــدروع التي يستخدمها المصارعون. استطعت أن أرى هنا وهناك أنماط مسارات الطيور الثلاثية المخالب.

استقرّ البرميل في حالة نصف طفو بعد أن حملته العاصفة إلى الشاطئ. رأيت آثـــار الأحذية الثقيلة باتجاه البرميل ومنه. لاحظت أن الوحول التي انتشرت حول الـــبرميل كانـــت في حالة فوضى، بعد أن طحنتها جهود الشقيقين **مولتري** حين حاولا سحب البرميل صعوداً عبر المنحدر.

رأيت سلسلة حديدية ملتفة حول البرميل، ولاحظتُ أن بعض الحلقات صدئة، بينما بدت معظم الحلقات الأخرى متينة. لفت انتباهي أيضاً بعض الحزوز التي ظهرت على البرميل والسلسلة.

شاهدت غطاء البرميل ملقى على الوحول، وظهرت جهته الداخلية إلى الأعلى. ثبّت أحدهم حافة الغطاء بواسطة إزميل غارز بعمق في الوحل.

تطلّعت إلى داخل البرميل فاستطعت رؤية فروة رأس صلعاء، ووجه. بدت ملامح هذا الوجه شاحبة بشكل مرعب في المياه الموحلة البنيّة الداكنة.

حضّرت نفسي.

انضممت إلى الآخرين وقلتُ: "يبدو أنه برميل نفط".

قالت **ميلو**: "إنه صدئ مثل مسمار تابوت. أعتقد أن أي شعار، أو كتابات، لا بد أن تكون قد امّحت منذ وقت طويل".

"لعل البرميل قديم العهد، لكن السلسلة ليست كذلك. يتعيّن علينا أخذ صور عن قرب، ووضع الفأس في كيس من النايلون. لعل الشقيقان قد حاولا فتح الغطاء بمعالجة الحلقات بواسطة الفأس، ثم نزعا الغطاء بضربة من جهة الفأس غير الحادة".

قال المساعد **زام زاو**: "يدّعي **ليلاند** أن الغطاء قد انفتح من تلقاء نفسه".

قلت: "هذا صحيح".

سألتْ **ميلو**: "كيف تريديننا أن نتعامل مع الجثة؟ أظن أنه من الأفضل أن نتعامل مع هذا الشيء بجملته".

قالت موافقة: "بالتأكيد، فنحن لا نعرف ما هي الأشياء الموجودة داخل البرميل".

ظهرت على شفتَي **ميلو** إحدى ابتساماتها العريضة: "حضّرت الشاحنة المخصصة للمهمات غير النظيفة، وآكراً واحداً من الأغطية البلاستيكية، وذلك عندما سمعتهم يتحدثون عن برميل. سبق لي أن استخرجت هذا النوع من الجثث مرةً، أو مرتين، في حياتي".

تحدّث **غوليت** إلى **زام زاو**: "أحضِر عربتك إلى هنا".

أسرع الرجل مبتعداً.

التفت **غوليت** نحو **ميلر**: "هل أحضرتِ سلاسل معدنية؟"

"أحضرتُ حبلاً".

"هل جهّزتِ جزمات أيضاً؟"

أومأت **ميلر** إيماءةً تخلو من الحماسة.

"ســـوف نلّف ذلك الشيء بالحبال، ونسحبه إلى الضفة، ثم نضعه على عربة مدولبة".

تطلّعت **ميلر** نحو ذلك الممر المائي: "يُحتمل وجود الأفاعي داخل البرميل".

لم يحمـــل صوت **غوليت** أي أثر للتعاطف وهو يقول: "يُحتمل وجود أفعى مـــياه، أو أكثر لأن هذا النوع يحب المياه". مشت **ميلر** نحو الشاحنة وعادت منها حاملـــة الجـــزمات (الأحذية الطويلة المانعة لتسرّب الماء)، ولفّتين من حبال بولي بـــروبيلين الصفراء. وضعت كل هذه الأشياء أمامنا، وبدأت بالتقاط صور للبرميل الـــذي يُعتبر مسرح الجريمة. وضع **تايبـــي** الشاحنة في مكانها المناسب مستفيداً من إرشـــادات قدّمها **زام زاو** بيديه. أقدم **زام زاو** على ربط حبلين بمصدّ الشاحنة، ثم مدّ كل واحد باتجاه نهاية الرصيف الخشبي.

بقي **تايبـــي** وراء عجلة القيادة. انضمّت **ميلر** و**زام زاو** إلى **غوليت** وإليّ. لم يتحرك أحد باتجاه الجزمات.

قالت **ميلر**: "هذه الفتاة المسنة ليست أميرة في المياه".

بـــدا وجه **زام زاو** بلون أخضر شاحب، وهو اللون الذي استخدمه مونيه في لوحاته التي رسمها للطبيعة.

اكتفى الشقيقان مولتري بالمراقبة من على مقعدَيْ حديقتهما.

بـــدأ حـــرّ النهار بالتزايد، وبدأ المدّ بالانحسار. تجمعت من خلفنا جماعات الذباب وراحت تمارس رقصتها النهرية حول أحشاء الأسماك التي شوتها الشمس.

نـــــزعت حذائي الرياضي، وتناولت الجزمة، ورفعت بنطالي، ثم ثبتّ شريط الأكتاف جيداً. أخذتُ نَفَساً عميقاً، وانطلقتُ فوق الرصيف الخشبي، ثم نـــزلت إلى الضفة. رمت **ميلر** قفازين باتجاهي، فأسرعت بوضعهما تحت إبطي.

وجــدت أن الوحول لزجة، لكنها مستقرة. تقدمت بحذر شديد، وتحسّست طريقي باتجاه البرميل، ورأيت السرطانات تبتعد عن طريقي.

وضــعت القفــازين، ثم تقدمت نحو الغطاء، ورفعته واضعة إياه في مكانه. شعرت بمعدتي تدور. صدمتني الرائحة المنتنة بشكل يثير الغثيان. استخدمت حجراً لتثبيت الغطاء في مكانه بعدة ضربات، نــزعت القفازين، وأشرّت لتقريب الحبل.

رمى **زام زاو** أول جزء من الحبل. صنعت أنشوطة ولففتُها حول ذلك الجزء من البرميل غير الغاطس، وأنــزلتها حوالى ثماني عشرة بوصة، ثم شددتُ الأنشوطة جيداً.

أمــسكت البرميل جيداً، وناورت للوصول إلى الطرف الغاطس من البرميل. لاحظت أن شظايا من الصدأ بدأت بالتفسخ والهبوط باتجاه الوحل.

وقفت عند سطح المياه، وأجريت مسحاً سريعاً. لم أشاهد في الداخل أي جثة ملتفة.

أخــذت نَفَــساً عميقاً، وانطلقت. اكتشفتُ أن المنحدر هو أكثر انحداراً مما تــوقعت. خطــوت خطوة واحد، فغمرت المياه ساقيّ، وعندما خطوت الخطوة الثانية، غمرت المياه ركبتيّ.

شققتُ طريقي قدماً، لكن بصعوبة، واستدرت حول البرميل. وصلت المياه في هذه الأثناء إلى خصري، أما ساقاي فقد غابتا في الظلمة الحالكة.

أشرت باتجاه **زام زاو** الذي قذف حبلاً آخر باتجاهي. صنعت أنشوطة أخرى ووضعتها في أعلى البرميل. أخذتُ نَفَساً عميقاً، ثم جلست القرفصاء.

شعرت ببرودة المياه على وجهي. أغمضت عينيّ، وحاولت تحريك الأنشوطة صعوداً من حول الجزء الغاطس من البرميل. انــزلقت الأنشوطة مرة بعد أخرى. رفعــت رأســي لأتنفس مرة بعد أخرى، وقرفصت مجدداً، وبذلت مجهوداً أكبر. حاولت تثبيت وضعيتي في الوحول، وأدخلت الحبل ما بين البرميل والضفة. تسبّب هذا المجهود الذي بذلته بألم شديد في ذراعي.

سمعت **غوليت** وهو يصرخ بصوت عالٍ عندما رفعت رأسي لرابع مرة فوق سطح المياه: "اجمدي مكانكِ!"

أبعـــدت خصلات شعري المبللة عن وجهي، وتطلّعت عالياً. تسمّرت نظرة **غوليت** على الضفة الأخرى. قلتُ لاهثةً: "ماذا حصل؟"

قال بصوت خافت وهادئ: "توقفي... عن الحركة".

التفتّ وتبعتُ خط نظر **غوليت** من دون أن أصغي لكلماته.

وشعرت أن قلبي ترك مكانه وقفز نحو فمي.

19

رأيـــت تمساحاً من نوع موندو يبلغ طوله ما بين ستة وسبعة أقدام. استطعت رؤيــة الحراشف المكسوّة بحلقات من الوحول، ولاحظت رقبته الصفراء والبيضاء، وأسنانه البارزة من فكّه القوي.

كان فكّه موجّهاً نحوي مباشرة.

انــزلق تمساح الموندو من الضفة أثناء مراقبتي له، ثم اختفى تحت سطح المياه.

ازدادت ســرعة دقــات قلــبي، واندفعتْ الدماء في أطرافي، فأسرعت نحو الشاطئ.

قفز **غوليت** من الرصيف الخشبي، وبدأ ينــزلق عبر الوحول. مدّ إحدى يديه لــيحافظ علــى تــوازن البرميل، بينما مدّ يده الأخرى باتجاهي. تمسّكت بيده، واندفعت إلى الأمام بكل قوتي. هزّني الألم بسبب مرفقي الذي جرحته الزجاجة.

تــسبب الــوحل الممزوج بالنفط بانــزلاقي فوق الوحول، فأفلتّ من قبضة **غولــيت**. ســقطت إلى الخلــف، وأطــبقت عليّ المياه. امتلأت "الجزمة" بالمياه فأصبحت أثقل بكثير.

انطلــق هورمون الأدرينالين في أنحاء جسمي. رفعت كتفي، واستدرت، ثم تحسّست طريقي، لكن العتمة غمرتني.

أين البرميل؟

يا الله القدير، أين اختفى التمساح؟

بـــدأت أركل على طريقة الضفادع من فرط يأسي، وتحسست الضفة بيديّ. ثـــبتّ قدمـــيّ ورفعت رأسي، ثم طفوت على سطح المياه. أخذ **غوليت** بالصفير، وأشار بيده إلى حبلٍ قذفه نحوي إلى المياه.

أخذت **ميلو** بالصياح: "أسرعي يا عزيزتي! أسرعي!"

وقف أحد الشقيقين مولتري إلى جانب **ميلو**. حمل الرجل شيئاً ما في يديه، ثم وقف إلى جانب **زام زاو**، ونظرا إلى يساري.

جعلت الجزمة المثقلة بالماء من حركتي عملاً شاقاً، وجعلت من كابوس الليلة الماضية حقيقةً واقعة. توترت عضلاتي، لكنني مشيت بتثاقل باتجاه الحبل، ومن دون أن أنسى ذلك الحيوان الزاحف الذي يقبع ورائي.

هل كان ورائي فعلاً؟

اندفع شيء ما إلى سطح المياه إلى يساري. أعددت نفسي لحالة تنغرز الأسنان فيها في جسدي.

صاحت **ميلو** بي: "اسحبي!"

وصـــلت إلى الحبل، فضغطت بركبتي على الضفة، وأخذت أسحب الحبل، وحاولـــت الانـــدفاع نحـــو الأعلى. وشعرت بيدَيْ **غوليت** تمسكان بي، وفجأة أحسست بالأرض الصلبة تحت قدميّ.

وقفت مشدوهة للحظة، وأخذت ساقاي بالارتعاش، بينما تدفق الماء الموحل من جزمتي. تطلّعت من حولي لأجد أن **ميلو** تضحك بابتهاج رافعةً إبهاميها الاثنين نحو الأعلى، وراحت تبتسم بابتهاج.

قلت لاهثةً: "لم أكن أظن أن التماسيح تحبّ المياه المالحة".

تناول مولتري رقبة دجاجة من دلوه المليء بالأشياء التي يستخدمها كطعم في صيده، ورماها بعيداً في مجرى النهر، وراح يبتسم: "لا يعرف هذا التمساح كيف ينتقي طعامه".

تماوجـــت المياه راسمة أحرف V معكوسة عندما سبح التمساح باتجاه قطعة الدجاج.

انتظـــرنا عشرين دقيقة على الرصيف الخشبي. شربنا **القهوة**، وراقبنا التمساح في رقدتـــه المستقرة على بُعد عشر ياردات أُعلى النهر الصغير. غمرت المياه كامل التمـــساح مـــا عدا فقراته وطرف خطمه. لم نتأكد ما إذا كان التمساح ينظر إلى الخلف نحونا، و لم نعرف ما إذا كان يحمي غداءه، أم أنه يغط في نوم عميق.

أســـقط **غوليت** الأشياء التي في يده في الوحل، وقال: "لن تنحسر المياه أكثر من هذا المستوى. من يرغب بمنازلة رامون؟"

زوّدنـــا **أوزوالـــد مولتري** باسم التمساح، وقال إنه زائر دائم في هذا النهر الصغير.

"لعلني على استعداد لمنازلته، فأنا مبتلة سلفاً".

لا أعتقد أن كلمة مبتلة تفي بالغرض، لأن الوحول غطّت كامل جسدي.

قالت **ميلر**: "لا حاجة بك كي تبرهني أنك لا تخافين من التماسيح".

تـــثير الأفاعــــي فيّ الـــرعب، لكنني أبقيت هذه الحقيقة لنفسي، لذلك قلت بصدق: "أنا لا أخاف من التماسيح".

لـــوّح **زام زاو** ببندقية ريمينغتون التي أحضرها من صندوق سيارة الكروزر: "علـــيك أن تدفئـــي نفـــسك الآن. سيبدأ هذا المخلوق بالتحرك في هذا الاتجاه. وسأودع رصاصة في دماغه".

قال **غوليت** ملاحظاً: "لا حاجة لك كي تقتله. تستطيع الرمي على مساره، وسيتراجع".

ناولـــت **ميلر** كوبي البلاستيكي: "اطلبي من مولتري أن يُبقي على جهوزية البوجانغلز".

نـــــزلت عـــن الرصيف الخشبي، كما فعلت في المرة السابقة، وعبرت فوق الوحول، ثم استدرت حول البرميل الموجود في النهر الصغير.

لاحظتُ أن الشريف محقٌ لأن مدّ المياه بدأ بالارتفاع. زحفت المياه إلى نقطة لا تبعد عن حافة البرميل إلا قليلاً.

وضـــعنا خطـــةً في هذه المرة. سأقوم بالنـــزول إلى تحت سطح المياه، وأناور لكــــي أضع الحبل تحت الحافة السفلى للبرميل. وسأنتقل بعد إنجاز هذه الخطوة إلى

الإمساك بالجهة العليا للبرميل، بينما يقوم **غوليت وزام زاو** بالإمساك بحبلين آخرين مربوطين بالجهة السفلى للبرميل.

نجحت الخطة، بالرغم من ترافقها مع بعض الصعوبات. تمكّنا من إحكام لفّ الحبل حول البرميل بعد ثلاث محاولات فاشلة. بدأت، لاهثة والماء يقطر مني، بشدّ الأنشوطتين، وأجريت تجربة سحب اختبارية. بدا الحبلان متينين.

أشرت **لغوليت**. وأشار **غوليت** بدوره إلى **ميلر** التي نادت تايبي. سمعت صوت محرك الكروزر يهدر وراء الرصيف الخشبي.

أخذ الحبلان بالانشداد ببطء. تحرّك البرميل وترنّح قليلاً في مكانه.

لوّح **غوليت** بيديه. صاحت **ميلر**. وهدر محرك الكروزر ثانية. حبستُ أنفاسي وانحنيت إلى الأسفل، مثلما يفعل لاعب البيسبول الذي يتلقى الكرة، ثم دفعت الجهة السفلى من البرميل مستخدمةً كتفيّ. لم يتزحزح البرميل قيد أنملة.

شعرت بحرقة في رئتيّ، لكنني استمريت بالدفع مجدداً، وشعرت أن البرميل يتحرك.

رفعت رأسي وسط أصوات السحب والاحتكاك. بدأ البرميل يتحرك من المياه إلى الوحول.

انشغلتْ و**غوليت** بدفع البرميل، بينما أخذ **زام زاو** على عاتقه توجيه إرشاداته، فبدأ البرميل بالزحف باتجاه أعلى الضفة، ورأينا الماء المتسخ ينساب من الشقوق الموجودة على جوانبه.

مرّت فترة حسبتها دهراً قبل أن يرتفع البرميل فوق خط المدّ. مرّت فترة مماثلة أخرى قبل أن ننتقل من الوحول إلى الأرض الصلبة. وجدنا **ميلر** بانتظارنا عندما وصلنا إلى الضفة بعد أن جهّزت آلة التصوير وعربة يدوية مدولبة.

أشار **ليلاند مولتري** بصمت إلى وجود صنبور مياه قرب شرفته. شكرته، وتحركت نحو المنزل. نزعت جرمتي، وانحنيت، ثم وضعت رأسي تحت المياه الهادرة التي تخللت شعرت وغمرت وجهي. ظهر **أوزوالد مولتري** من داخل المنزل وقدّم لي منشفةً. كدت أحتضنه من فرط امتناني له.

عـــدت مـــن جلـــسة التنظيف ولاحظت أن **ميلر** ما زالت منهمكة بالتقاط الصور. وقفت لأراقب المياه تنساب من البرميل، وأخذت بالتساؤل عن الشخص القابـــع في داخله. هل مضت عقود من الزمن على وفاة هذا الرجل، أو المرأة؟ هل مـــضت ســـنوات؟ أم شهر واحد فقط؟ هل أصيبت الجثة بالانتفاخ، وتغيّر لونها، نتـــيجة مـــرور وقـــت طويل عليها في البحر. وهل تسلّلت الأسماك الناهشة، أو زحفت، أو سبحت، من خلال شقوق البرميل، وتكفّلت بذلك بنـــزع اللحم عن العظام؟

هـــل ستُقدم **إيما** على الطلب مني معاينة العظام إذا كان القيام بعملية تشريح كاملة أمراً مستحيلاً؟

هل تعودت الملكة أن تحبّ أصحاب المؤهلات من ذوي الخبرة؟

خطـــرت فكرة مفاجئة على ذهني. هل يُحتمل أن تكون الجثة الموجودة في البرميل عائدة لأحد الأشخاص المفقودين الذين تابعهم **كروكشنك؟**

إنها فكرة رهيبة. أيُعقل أن تكون **هيلين فلين؟**

أعادني ضجيج ناتج عن احتكاك معدني إلى الحاضر.

رأيـــت **ميلر** وهي تحاول وضع العربة المدولبة تحت البرميل. انهمك **غوليت** بالدفـــع، ورفـــع إحدى جوانبه، وما لبثت العربة أن أصبحت تحته. دفعت **ميلر** شحنتها باتجاه العربة المخصصة للمحققة الجنائية بمساعدة **تايـــي وزام زاو**.

انتهى الأمر بعد أن قمت بمهمتي. تستطيع **ميلر** ومساعدوها وضع هذا الشيء اللعين في العربة.

بقي المساعدان نظيفين وغير مبتلّين.

اســـتندت إلى ســـيارة الكروزر العائدة **لتايـــي** كي أنتعل حذائي الرياضي. وتوجّهت بعدها نحو سيارة الإكسبلورر العائدة **لغوليت**. تناولت مشطاً من حقيبتي الصغيرة، ومشطتُ شعري.

نظرت إلى صورتي في مرآة السيارة. بدت فكرة وضع صباغ الأهداب فكرةَ سيئة.

بقـــي **تايبـــي وزام زاو** وراءنا لالتقاط صور الفيديو، ولإكمال استجواب الـــشقيقين مولتـــري وتجـــوّلا في المكان. تبعت **ميلو** إلى مستشفى MUSC برفقة **غوليت**، وفصَلنا حاجز بلاستيكي عن مقاعد الإكسبلورر.

أنهيت استحمامي، وارتديت الرداء الرسمي للعمل، بينما قامت **ميلو** بإنـــزال الـــبرميل. انـــضممتُ إليها في المنطقة المخصصة للوصول والمحاطة بأبواب معدنية متحركة، وذلك بعد وصولنا إلى المستشفى بخمس عشرة دقيقة.

سألتها: "أين **غوليت**؟"

"تلقى مكالمة".

"هل كانت المكالمة من مصمم الأزياء؟"

ضـــحكت **ميلـــو**: "ربما. يحرص الشريف على هندامه إلى درجة أنه لا يحب تلـــويث بذلته بالوحول. أعتقد أنه منهمك الآن بتنظيف سيارته (SUV). قال إنه يريدك أن تعلميه بما يستجد معنا".

"هل اتصلتِ **بإيما**؟"

أومـــأت **ميلـــو**: "تريد المحقّقة فتح البرميل. سأتولى أنا مهمة التشريح، بينما تحصلين أنتِ، أو أحد أطبائنا على المديح".

"وهل ستبقين هنا؟"

"لن أحرم نفسي من هذه المهمة".

سجّلت **ميلو** هذه القضية (الحالة)، وحضّرت قلماً بخط عريض للكتابة على بطاقـــة التعـــريف، ثم أعطت الجثة الرقم CCC-2006020299. وضعت أنا بطاقة التعريف، بينما انهمكت هي بالتقاط صور للبرميل، والسلسلة التي تحيط به.

حدّقت **ميلو** من خلال عدستها: "يبدو أن السلسلة بحالة جيدة، لكنّ البرميل صدئ جداً".

"يُحتمل أن يكون البرميل والسلسلة مصنوعين من معدنين مختلفين".

"ويُحتمل أن تكون السلسلة الجديدة تحيط بالبرميل القديم".

تحـــوّلت المنصة الإسمنتية حيث نعمل إلى بركة ماء مشبعة برائحة العفونة. انتهت **ميلو** من التصوير، فانتقلنا لنتفحص المنطقة الخارجية من البرميل. تأكدنا

أنــه لا وجــود لأيــة شعارات أو كلمات، نتيجة لمرور الزمن وكما توقعتْ مسبقاً.

قلــتُ: "لا بــد من وجود عدد كبير من الشركات التي تصنّع براميل بسعة خمسة وخمسين غالوناً".

قالت **ميلو** موافقةً: "هناك العشرات منها".

الــتقطت **ميلــو** بعض الصور الفورية الاحتياطية، ثم اختفت، وما لبثت أن عادت حاملةً مخلاً، ومنشاراً آلياً.

"حسناً يا عزيزتي، كيف تريدين معالجة الأمر؟"

قلتُ: "ما من سبب يمنعنا من فتحه ببساطة".

وضــعت **ميلو** قفازين جلديين كبيرين، وأدخلت المخل عند حافة البرميل، ثم حاولــت أن ترفع الغطاء، لكن الغطاء بقي في مكانه: "هل عملتِ مع لاري ومو سابقاً؟"

قالت **ميلو**: "من ثبّت هذا الشيء اللعين بهذا الشكل المحكم".

"استفدتُ من بعض الأدرينالين".

جــرّبت **ميلو** إدخال المخل في مكان آخر، ثم شدّت المقبض نــزولاً بقوة. تحرّر نصف الغطاء، وانطلقت بسبب ذلك جسيمات الصدأ نــزولاً. دسّت **ميلو** أصابعها، وحاولت سحب الغطاء من نقاط أخرى في محيطه، ثم شدّت نحو الأعلى. تحرّر الغطاء المعدني كلياً، واستقرّ بين يديها.

تــصاعدت رائحة رطوبة قديمة من البرميل، وامتزجت مع رائحة الأعشاب البحــرية المتعفنة، والمياه المالحة الراكدة منذ زمن، بالإضافة إلى رائحة أخرى، أي رائحة الموت.

وضــعت **ميلــو** الغطاء على الأرضية الإسمنتية، وتناولتْ مصباحاً يعمل على البطارية، ثم انحنينا سوياً.

لاحظنا أن الشكل بشريٌ، لكنه ليس إنسانياً، فهو يبدو كنسخة قبيحة مصنوعة من الشمع الأبيض. تقوّس ذلك الشيء على نفسه واضعاً رأسه بين ركبتيه.

تضيّق أنف **ميلو**: "أتوقع أن لا يُعجزك هذا عن تحديد هويته، يا دكتورة".

لم أثــق بكلامها هذا، لأن عملية الهدرجة والتحلل المائي لمواد الجثة الدهنية تــؤدي إلى تكــوين مادة تحتوي على الحوامض الدهنية والغليسيرول. تُعرف هذه المادة الدهنية، وأحياناً الشمعية، باسم "شمع القبور".

تبقــى مادة "شمع القبور" مدة طويلة بعد تكوّنها، وتشكّل مع الزمن قالباً من الأنــسجة الدهنــية. سبق لي أن شاهدت جثثاً تمكّن فيها "شمع القبور" من حفظ ملامح الجثة والوجه، بينما أحال التعفن الأحشاء إلى مادة سائلة.

قالت **ميلو**: "أُدخلت أقدام الضحية أولاً، ثم حُشرت في البرميل فيما بعد".

قلــتُ: "أو أن الضحية قد أُجبرت على الدخول في البرميل أولاً لتأخذ بعدها وضع القرفصة".

"وهي عارية".

اجتاحــتني دوامة معتادة من الحزن والغضب، فقلت من دون تفكير: "تبدو الضحية صغيرة في السن".

اجتاحت **ميلو** دوامة مثل تلك التي اجتاحتني، فقالت بصوت متوتر: "هل هي أنثى؟"

"أفضّل أن لا أخمّن".

عــرفت مــسبقاً. ســبق لي أن شــاهدت الكثير من الزوجات المقتولات، والطالــبات، وبــنات الزوجات، والنادلات، والمومسات. إن جنسي هو الجنس الضعيف، وهو الذي يتلقى التعديات.

عــدت للتركيــز علــى غــضبي، وقلت: "هناك الكثير من الرمال، ولربما استُخدمت لجعل البرميل ثقيلاً".

قالت **ميلو**:"لا شك في أن الصخور كانت خياراً أفضل، لأن أقل صدمة من مــروحة دفع لقارب، أو حتى نقطة صدأ، ستتسبب بخروج الرمال من البرميل. إن هذه الفرضية تفسر سبب طفو هذا الشيء وتحرّكه على سطح المياه".

قلتُ: "دعينا نضعها على الطاولة".

أنــــزلنا العــربة المدولبة معاً حتى أصبحت موازية للمنصة الإسمنتية. حرّكنا الجــثة بحــرصٍ شديد، وكأننا خشينا من إزعاج تلك الضحية الراقدة في البرميل.

بدت جهودنا غير مجدية، لأن الوقت قد فات لعدم إزعاجها.

أحـــضرت **ميلر** نظارتين للوقاية، وأسرعت إلى تشغيل المنشار الآلي، وبدأت بتقطيع البرميل بشكل طولي من الحافة إلى الحافة ومن جانبيه، وفي قعره، ثم أزالت ذلك الجزء الذي يقع فوق الجثة.

استلقى ظهر الضحية على النصف الأسفل من البرميل، وحُشر رأسها ما بين الساقين المطويتين. لاحظت وجود تآكلات في مسطح "شمع القبور" في المنطقة التي احتكت فيها الركبتان والساقان مع السطح الداخلي للبرميل.

اســـتحممت وبـــدّلت ملابسي، بينما لفّت **ميلر** حمالةً بلفائف بلاستيكية. نـــــزعت نظارتها وقفازيْها الجلديين، ثم دفعت الحمالة إلى موقعٍ مناسب. تعاونت مـــع **ميلر** لنقل الصينية المتحركة للحمالة المدولبة إلى الأرض ووضعناها إلى جانب الـــبرميل. وضعنا قفازات جراحية في أيدينا. أمسكت بالرأس، بينما اهتمت **ميلر** بالردفين.

قالت بصوت متوتر: "هل أنت جاهزة؟"

أومأتُ.

رفعنا الجثة بوصة واحدة كي نحركها. صمدت هذه الجثة الملساء.

قلتُ: "حسناً".

رفعـــنا الجـــثة معاً بوصة أخرى، ثم بوصة أخرى، وحرصنا على أن نسحب بـــرفق عند وجود عائق أمامها. تخلّى البرميل ببطء عن سجينه. توقفنا للحظة لكي نسمح للسائل النتن بالتقاطر. أومأت، واستدرنا وأنـــزلنا الجثة، ثم رفعنا الصينية. درتُ بعد ذلك حول الحمالة المدولبة.

تأكـــدت من شكل الأعضاء التناسلية أن الضحية كانت أنثى بالفعل، بالرغم من أن الجثة كانت مشوهة ومنـــزوعة الشعر، وبالرغم من انسلاخ الجلد عنها. إن مرور وقتٍ طويلٍ على وجود الجثة في البرميل جعلها قالباً في وضعٍ جنيني.

خطـــرت علـــى بالي فكرة مجنونة أوحت لي أن المرأة تحمي نفسها من العار الذي سيجلبه موتها غير الطبيعي عليها. بدا لي وكأنها تحمي نفسها مني، ومن **ميلر**، ومـــن ذلـــك الحشد من الناس الذي سيتجمّع في محاولة لرسم صورة ما حدث في

لحظاتها الأخيرة، ولوضع تفاصيل الضرر الذي حدث لها بسبب وجودها طويلاً في ذلك السجن المائي.

أراد جزءٌ مني أن يغطي هذه المرأة، وأن يحميها من الأشخاص الذين يرتدون أزياء عملهم، ومن الأضواء الساطعة، ومن مصابيح الفلاشات، ومن الأدوات اللامعة. عرف الجزء العقلاني من ذاتي أن كل ذلك لن يجديها نفعاً. أظن أن كل ما تحتاجه هذه المرأة، التي رقدت طويلاً في البرميل، هو تحديد هويتها ومعرفة اسمها، تماماً مثل ذلك الرجل الذي وجدناه في دي ويز، وذلك الرجل الذي وجدناه متدلياً من شجرة.

أقسمت على معرفة اسمها، وعلى تحديد هويتها التي سترتبطها مع عالم الأحياء. أقسمت على إنهاء هذه السرية التي منعت ذويها من الحداد عليها، ومنعت الناس من معرفة ما عانته من عذاب. عملتُ مع **ميلر** على وضع المرأة على ظهرها بعد أن كانت على جنبها. انتظرت حتى تنتهي **ميلر** من التقاط الصور. حاولنا بقليل من الضغط تحريك الأطراف المتصلبة بشدة.

قالت **ميلر**: "تتلوى هذه الفتاة المسكينة مثل البهلوان المصنوع من الإسمنت. يتطلب هذا العمل عضلات قوية".

زدنا شدة الضغط. استجابت ذراع ثم الأخرى لجهودنا، ونجحنا بإسدال الذراعين بشكل مستقيم على جانبَي المرأة.

انتقلنا إلى الساقين. وتولّت **ميلر** الركبة اليمنى، بينما أخذتُ أضغطُ على الكاحل. نجحت جهودنا بإزالة تصلّبها.

لاحظنا أن كتلة كروية قد انزلقت من بطنها واستقرت إلى جانب وركها، وذلك ما إن انبسطت ساق المرأة.

ما هذا!!

رددت **ميلر** ما أفكر فيه.

"يا الله، ما هذا؟"

20

قلتُ: "دعينا نُنــزل الساق الأخرى".

أمــسكت **ميلــر** الــركبة، بينما تولّيت أنا الكاحل. عملنا سوية على إزالة التصلب، وجعلنا الساق في وضعٍ مستقيم.

بــدت منطقة البطن بؤرةً لهلام متعفن، ومصدراً للرائحة الكريهة، والتي كان من الممكن أن تتسبب بإفراغ قرى بأكملها من ساكنيها.

تنفست من خلال فمي، واستدرتُ حول الطاولة.

بدت الكتلة الكروية من نفس المادة الدهنية البيضاء التي تشكل جسد المرأة، لكنها مغطاة بخيوط حريرية بنية اللون.

تفحّصت فخذَي المرأة، فلاحظت أن الخيوط الحريرية تغطيهما بالكامل.

هل ما أراه خيوطاً؟ أم شعراً؟

وخزت الكرة قليلاً. وأحسست أنها صلبة بطريقة ما، لكنها غير مستقرة مثل ثمرة فواكه ناضجة جداً. أو لعلها كتلة لحم؟

خطرت لي فكرة مفاجئة.

استخدمت طرف إصبعي، وحككتُ بضعة خيوط منها، ثم تفحصتها.

وجدتها من نوع الفراء.

اكتفت **ميلر** بالمراقبة، أدخلت إصبعي داخل هذه الكتلة، واستخرجت إحدى القوائم الصغيرة. استخرجت بعدها قائمة أخرى.

اتسعت عينا **ميلو**. أسرعتُ، ومن دون أن تقول كلمة واحدة، إلى إيجاد القائمتين الخلفيتين، ثم تعاونا معاً على بسط ذلك المخلوق الصغير. بدا ذلك المخلوق خالياً من الشعر، ومنتفخاً، ومليئاً بالماء، وفي حالة متحللة، ولذلك كان من الصعب معرفة نوعه.

سألتْ **ميلو**: "هل هذا المخلوق فيدو، أو فيلكس، أو فلوبسي؟"

تفحّصت المناطق السفلية لهذا المخلوق، واستطعت تحرير ذيل طويل ورفيع: "أعرف أنه ليس أرنباً. ألاحظ أن الوجه مسطح، وأن الأطراف الأمامية والخلفية تتساوى طولاً. دعينا نتفحص الأسنان".

أمسكت بالرأس، في حين تفحّصت **ميلو** الفكّين.

قلت: "إنها قطة".

تخيّلت **بيردي**. تطلّعت إلى هذه المرأة التي تخلّص منها أحدهم في هذا البرميل مع قطتها، مثلما يتخلّص من نفاياته.

قاومت دافعاً ثار في أعماقي كي أطرق بقبضتي على السطح الفولاذي الذي لا يصدأ. أغمضت عينيّ بدلاً من ذلك.

ركّزي يا برينان. لن تحرزي أي تقدم بالتحقيق إذا لم تركّزي.

قلتُ: "دعينا نكتشف هويتها".

دفعت **ميلو** هذه الحمّالة المدولبة فوق المنحدر، ودخلت بها إلى المستشفى. تبعتها، وصعدنا معاً إلى غرفة التشريح. أسرعت بتفحص أصابع الجثة كي أتأكد مما إذا كنا نستطيع استخلاص أية بصمات، أو أجزاء من بصمات. وتأكدت أنه ما من فرصة لهذا الاحتمال.

اتصلت **ميلو** بتقنيّ لتطلب منه إجراء صور بالأشعة السينية. انشغلنا بتعبئة النماذج أثناء غياب الجثة، ولم نتبادل الحديث فيما بيننا.

أسرعت **ميلو** بوضع صور الأشعة فور وصولها في العُلب الضوئية المثبتة على الجدران. انهمكت **ميلو** والتقنيّ بنقل الجثة إلى طاولة التشريح، بينما تنقّلت أنا أمام صف هذه العُلب كي أتفحص الصور الرمادية والبيضاء، والتي تُظهر أجزاءها الداخلية.

ظهـــر الدماغ والأعضاء الداخلية بشكل هش. لم أستطع استخراج أي سائل صلب من العينين. استنتجت أن هذه ستكون حالة تشريح عظمية، إذاً ستكون من نصيبـــي.

ركّزت على العظام. لم أستطع رؤية كسور، أو أشياء شاذة فيها. لم ألاحظ أية أشياء جراحية مزروعة، ولا دبابيس، أو صفائح. لم أشاهد أية أشياء غريبة، ولا رصاصات، وما من أثر لأي شيء معدني.

لم أجد أسناناً، لا طبيعية ولا صناعية.

قلتُ: "لن نحتاج إلى خدمات **بيربي غرايمز**. إنها بدون أسنان بالمرة".

سألتْ **ميلر**: "هل هي مواطنة مسنة؟"

شـــعرت بالإحباط نتيجة مشاهداتي للفيلمين الأخيرين: "أعتقد أنها متوسطة السن، وليست هرمة".

اقتربت **ميلر** مني.

تطلّعت نحو التقنيّ الذي أجرى صور الأشعة السينية: "تستحق الجائزة الذهبية عن المهارة والدقة يا **كايل**. أخذتَ صوراً من زوايا مناسبة للقطة الصغيرة".

"لم أكن متأكداً...".

قاطعتُ **كايل**، وأشرت نحو بقعة بيضاء بحجم حبة أرزّ صغيرة تقع في أسفل منتصف رقبة القطة تماماً: "انظر إلى هذه".

سألت **ميلر**: "هل هي شيء مصنوع؟"

هززتُ رأسي: "إنها تظهر في صورتين".

تفحّـــصت صور الأشعة السينية العائدة للقطة، وتناولت مبضعاً، وعدتُ إلى الحمّالـــة المدولـــبة وأحـــدثتُ شـــقاً جراحياً. أمضيت ثلاثين ثانية من التفحص، واســـتخرجت قطعة أسطوانية صغيرة. حملت هذه القطعة في راحة يدي، ودعيت **ميلر** و**كايل** المجتهد لإلقاء نظرة.

قالت **ميلر**: "أعرف أنك ستخبرينني عن طبيعة هذا الشيء".

"إنهـــا رقاقـــة تعريف خاصة بالحيوانات المنـــزلية الأليفة تُعرف باسم ترانس بوندر (جهاز استقبال وإرسال)".

تطلّعت **ميلر** نحوي، وكأنني قلتُ إنها أفعى مصممة للمناورة في الفضاء.

"يشتمل الجهاز على لفّة مصغرة، ودائرة للذاكرة محفوظة في زجاج مقاوم للعوامل البيولوجية. يُزرع هذا الجهاز بواسطة حقنة تحت الجلد مباشرة، وتُحقن ما بين عظام الكتف".

"هل يقوم المسؤولون عن الماتريكس (المصفوفة) بعملية الحقن؟"

"يقوم الأطباء البيطريون بهذه العملية. وتستغرق العملية أقل من دقيقة. يمتلك هرّي هذا الجهاز من دون أن يشعر بذلك".

بدت **ميلر** مشككة: "وكيف يعمل الجهاز".

"تحتوي رقاقة الذاكرة الموجودة في الجهاز على رقم تعريف مبرمج سلفاً، بحيث يتمكن جهاز مسحي (ماسح ضوئي) من قراءته. يرسل هذا الجهاز المسحي إشارة لاسلكية منخفضة الطاقة إلى اللفة الموجودة في جهاز الترانس بوندر. تقوم اللفة بإرسال نسخة عن رقم هوية الحيوان الأليف إلى الجهاز المسحي. يقوم العاملون إثر ذلك بمقارنة الرقم مع قاعدة بيانات مركزية، والتي تُحفظ فيها سجلات مالكي الحيوانات الأليفة".

"وهكذا إذا هربت فلافي، سيتمكّن مالكها من استعادتها".

"يصحّ هذا إذا كانت فلافي محظوظة بما فيه الكفاية ليُزرع الجهاز فيها".

"ألا يدعو هذا الأمر للسخرية. أعني أن إيجاد قطة هو أسهل من إيجاد إنسان. ما هي مدة صلاحية الجهاز؟"

"يستمر الجهاز بالعمل، نظرياً، لمدة خمس وسبعين سنة".

أظهرت **ميلر** أنها تفهم ما أتحدث عنه: "ومن يمتلك هذه الأجهزة؟"

"تتواجد هذه الأجهزة عند الأطباء البيطريين، ومراكز العناية بالحيوانات، وجمعيات الرفق بالحيوانات. إنها منتشرة جداً".

"وهكذا يكون ذلك السافل المغفل قد ترك دليلاً نموذجياً بالنسبة إلينا".

أومأتُ: "وسيساعدنا هذا على تحديد هوية الضحية".

أحضرتْ **ميلر** كيساً من النايلون بزمّم ووضعت الكبسولة فيه، ثم التفتت نحو **كايل**.

"ابحثْ لي عن طبيب بيطري يستطيع إجراء مسح لهذا الشيء".

غادر **كايل** ليبحث عن جهاز هاتف، بينما تابعتُ و**ميلو** فحصنا للجثة.

نظرت **ميلو** لما تبقى من الوجه، وسألتْ: "أتعتقدين أنها بيضاء".

"تدلّ صور الأشعة السينية التي أُخذت للجمجمة، على أن الجمجمة وملامح (هندسة) الوجه هي قوقازية".

"وما هي الأشياء التي تجعلك تعتقدين أنها في منتصف العمر؟"

"وجـــدت الـــتهاباً خفيفاً في المفاصل، وأربطة عظمية حيث ترتبط الأضلاع بعظمـــة القص. أتعتقدين أنه بإمكانك انتزاع الملتحمة العانية (ارتفاق أو التصاق العظام)؟"

ذهبت **ميلو** لتبحث عن منشار (حديدي).

ركّزتُ سنادة رأس مطاطية وراء رقبة المرأة. لم تُفصح ملامح وجهها إلا عن دلائل قليلة على مظهر الوجه عندما كانت على قيد الحياة. اختفى الجفنان، وامتلأ محجرا العينين بذات المادة الشمعية التي علقت بالعظام. اختفت الأهداب، وكذلك الحاجبان، وشعر الرأس.

عـــادت **ميلـــو**. وتوليت أنا التقاط الصور، بينما قامت هي بإزالة الملتحمة العانـــية، ثم أخذتها لتبحث عن وعاء نقع. لفت انتباهي شيء غريب عندما كنت منهمكة بالتقاط صورة قريبة للوجه. وضعت الكاميرا جانباً، وانحنيت قليلاً.

أحـــاط أخـــدود برقبة المرأة، ويبدو أنه اخترق طبقة اللحم الهشة بمقدار ربـــع بوصـــة. بـــدا الأخدود ضيقاً، وقدّرت أن عرضه يقارب نصف عرض سبابتي.

هـــل نتج الأخدود عن حادث حصل بعد الوفاة؟ أم أنه أثرٌ نتج عن احتكاك مع شيء موجود داخل البرميل؟ أم أنّ هذا الأخدود هو من صنع القمّامات البحرية (الأسماك التي تقتات على المخلوقات الميتة)؟

تـــناولت عدسة مكبرة، ومرّرت إصبعي فوق الأخدود. تأكّدت أن الحواف نظـــيفة ومحددة جيداً. إن ذلك يُثبت عدم وجود أي احتمال بأن يكون الشق قد نتج عن الأسماك، أو الحيوانات القاضمة.

سمعت صوت باب يُفتح، ثم سمعت وقع خطوات. قالت **ميلر** شيئاً. لم أرفع بصري، لأنني كنت منشغلة بتتبع مسار الأخدود، وبالتحقق من وجهته. تفحّصت أيضاً طبقة اللحم الموجودة من جهة أعلى الأخدود وما دونه.

اتجه الأخدود أفقياً، ولاحظتُ وجود اتساعٍ شاذ في الجهة اليسرى من الرقبة، ثم شاهدت شقوقاً في الأنسجة المحيطة بها.

"ما هو الشيء الذي يثير انتباهكِ إلى هذه الدرجة؟"

ناولت **ميلر** العدسة المكبرة. تفحّصت الأخدود وقالت: "هل هذا هو ما كنت أفترضه؟"

"نجد هنا أخدوداً، وخدوشاً ناتجة عن الأظافر، ولربما نتجت أثناء عملية دفاع عن النفس".

"هل نستطيع اعتبارها حالة خنق عن طريق ربط شيءٍ ما على الرقبة؟"

أومأت.

"أي نوع من الأربطة؟"

"إنه ناعم، وذو مقطع مستدير وقطر صغير. أعتقد أنه سلكٌ من نوعٍ ما".

أطلقت طبقة اللحم المثلومة ذكرىً سابقةً عندي.

تذكرت **كروكشنك** المتدلي من شجرة سنديان في غابة فرنسيس ماريون الوطنية.

مرّت نفس الخاطرة بذهن **ميلر**: "ما رأيكِ بفرضية الشنق؟"

"يتصاعد الأخدود إلى نقطة تعليق، وذلك في حالة الشنق، لكنني ألاحظ أن هذا الأخدود يسير أفقياً حول كامل الرقبة".

تفحّصت هذه المرأة المستلقية على صينية فولاذية وسط الحوض. ولاحظت أن علامات الاختناق المعتادة قد أُزيلت بسبب التحلّل والتصبّن (التحوّل إلى ما يشبه الصابون). لم ألاحظ وجود نزيف تحت الجلد، وهو الذي ينتج عن ضغط وريدي متزايد. لم أجد أمامي أية علامات تدلّ على الازرقاق، ولا على نزيفٍ في الأنسجة، ولا على قصبة هوائية، ولا مريء، ولا أي عضلة أستطيع أخذ عيّنة منها. لم أجد أي شيء يسمح لطبيب التشريح بالاستنتاج أن الوفاة قد نتجت عن عملية خنق.

"سأقوم بعد تجريد العظام بتفحص منطقة الحنجرة، وخصوصاً غضاريف العظام اللامية والغدة الدرقية. أستطيع أن أقول إنني أصبحت متأكدة تقريباً الآن انطلاقاً من الأشياء التي أراها".

كوّن دماغي لنفسه صورة فورية أخرى. عدت إلى عظام دي ويز، والحزوز الدقيقة التي لاحظتها. صمّمت على إلقاء نظرة فاحصة على العمود الفقري والأضلاع، وذلك فور إزالة ما بقي من اللحم.

غيّرت **ميلر** الموضوع: "وجد **كايل** طبيباً بيطرياً يستطيع إجراء مسحٍ لكبسولتك".

"وأين هو؟"

وضعت **ميلر** ملصقَ إرسال بريدي أصفر اللون على أحد الصناديق الصغيرة ذات الواجهة الزجاجية الموجودة فوق الطاولة: "إنه على مسافة قصيرة من هنا، ويدعى الدكتور **دين**، ويقول إنه سيبقى في عيادته حتى الخامسة والنصف. وسينطلق بعدها ليقضي عطلة نهاية أسبوعٍ طويلة".

نسيت أن نهار الاثنين يصادف يوم ذكرى الجنود الأميركيين الذين سقطوا في ساحات القتال". أشارت عقارب الساعة إلى الرابعة والنصف، فكان لزاماً عليّ أن أسرع قليلاً في عملي.

تقدّمت نحو طاولة العمل، وانتزعت العظام العانية من الوعاء الذي استخدمته لتبليلها. انفصلت الغضاريف عن بعضها بسهولة، وهذا ما سمح لي أن أتأكد من أن سطحَي العظم الارتفاقي كانا أملسَين، لكنهما يتميزان ببعض الانخفاض بالنسبة لإطاريهما.

راقبت **ميلر** بترقب.

نزعت قفازيّ، وأنزلت كمامتي: "أجل. إنه يتواجد إلى الشمال أو إلى الجنوب من خط العرض 40. يتعيّن عليّ أن ألتقي الدكتور **دين** قبل أن يغادر عيادته. متى سيتم الانتهاء من تنظيف الهيكل العظمي بالكامل؟"

"سيتمّ ذلك صباح الاثنين".

قلتُ: "لا أحب أن أطلب منك العمل في يوم إجازة، أو في عطلة نهاية الأسبوع".

ضحكت **ميلو**: "لم أخطط لشيء يا عزيزتي، عدا زيارتي هوم ديبو".

"يا لك من قدّيسة".

"أنا شفيعة المتكلمين بالإسبانية. بالمناسبة، ماذا تريدين أن أقول **لغوليت**؟"

"أخبريه أنها امرأة بيضاء في أواسط عمرها، وأنها خُنقت وحُشرت في برميل مع قطتها".

تقع عيادة الدكتور **دين**، من ضمن مجمّع تجاري مكسو بالجص، ويضمّ متجراً لبيع الأدوات الكهربائية، ومحلاً لبيع الهواتف الخلوية، ومكتباً للتأمين، ومتجرَ الدولار الواحد، ومحلاً لتأجير أفلام الفيديو. رأيت كلمات كُتبت باللون الأصفر عرّفت المكان على أنه "العيادة البيطرية للعناية بالحيوانات بمحبة".

بدأ عقلي المتعب يخترع ألعاباً ليتسلى: العناية بالحيوانات بمحبة؟ الحب والعناية للحيوانات؟ الحب والعناية؟ هل لكل منهما تسعيرته الخاصة؟ وهل تتوفر عقود بالجملة حسب الطلب؟

احتجت بالفعل إلى مغطس فيه الكثير من الرغوة والفقاقيع، وكذلك إلى عشاء مميز.

وقف الحظ بجانبي هذه المرة، لأن سيارةً غادرت أحد مواقف السيارات بينما كنت في دورتي الثانية للبحث عن موقف، فأسرعت وركنت سيارتي مكان السيارة التي غادرت.

دخلت العيادة وما لبثت أن مرّت قربي امرأة تحتضن في إحدى ذراعيها فأراً من نوع شي *هوا هوا*. راح الفأر يركل، لكن ماذا؟ هل يثرثر هو الآخر؟ حتى الثرثرة لا تستطيع أن تجذب الانتباه مثل الصراخ.

بدت غرفة الانتظار في عيادة الدكتور **دين** كبيرة، وافترضت أن أبعادها تصل إلى ثمانية أقدام بعشرة. رأيت أمامي مباشرة طاولةً مكسوة بالخيزران، ووُضع فوقها جهاز كمبيوتر شخصي من طراز عام 1983 تقريباً. لم أجد أي شخص يعمل على هذا الجهاز.

شـــاهدت وراء الطاولـــة بابين مفتوحين، حمل كل واحد منهما لوحة معلقة ومناســـبةً لوضع الرسوم البيانية. انسابت أصوات مكتومة من وراء أحد الأبواب. شاهدت ملفاً مفتوحاً وراء الباب الآخر، ما دلّ على وجود أشخاص بالغرفة.

اصطّفت مجموعة من الكراسي على طول الجدار قرب أحد جوانب الطاولة. ورأيت رجلاً مسناً يجلس على آخر كرسي من جهة اليمين. رأيت **أمامه** كلباً هرماً يتراخـــى على إحدى قدَميْ الرجل. واحتلت امرأة آخر كرسيٍّ من جهة اليسار، ورأيت عند قدميها حاملة حيوانات فيروزية اللون، وُضعت على الأرضية المشمعة. اســـتطعت أن أرى من خلال باب الحاملة عينين سوداوين صغيرتين وشارباً. هل كان نمساً؟

دلّ عقربا الساعة على الخامسة وخمس عشرة دقيقة. يبدو أن **دين** لن يستطيع المغادرة عند الساعة الخامسة والنصف كما كان يخطط.

تبعـــتني أنظـــار المرأة والنمس إلى الكرسي الذي جلست عليه، والموجود في وســـط الـــصف. استمرّت المرأة في تمسيد علّيقتها (النمس). وتراجع النمس إلى الظلال.

تناولت مجلة تهتم بالقطط، وتراخيت في مقعدي.

قرأت صفحتين من مقالة تتحدّث عن منع القطط من محاولة مصّ البطانيات. خـــرجت امـــرأة من الغرفة رقم واحد، وتبعها توأمان صبيان، وكلب صيد ذهبي اللون. ظهر من نفس الباب، ولكن بعد لحظات قليلة، رجل صغير الحجم ذو وجه بـــني لامع. وضع الرجل على عينيه نظارة ذهبية الإطار، وارتدى معطف مختبرات أزرق اللون، وطُرّزت عليه كلمة ***دين***.

دعـــا **ديـــن** المرأة التي تصطحب النمس لدخول المكان الذي أخلته الوالدة والصبيّان.

وقفتُ.

اقترب **دين** مني، وسألني إذا ما كنت الشخص الذي يمتلك الكبسولة. بدأت أشـــرح لـــه الوضـــع. أسكتني بإشارة من يده، ومدّ إليّ راحة يده. أعطيته كيس النايلون، وما لبث أن اختفى في غرفة الفحص رقم اثنين.

جلست متسائلة إلى متى سيطول انتظاري.

جرى الأمر على هذا النحو.

الساعة الخامسة وست وخمسون دقيقة: خرجت المرأة التي تصطحب الكلب من الغرفة رقم اثنين.

الساعة السادسة وأربع دقائق: دخلت المرأة والنمس الغرفة رقم اثنين.

الساعة السادسة واثنتان وعشرون دقيقة: خرجت المرأة التي تصطحب النمس من الغرفة رقم واحد.

الساعة السادسة وخمس وأربعون دقيقة: خرجت المرأة من الغرفة رقم اثنين، لكن من دون الكلب.

عاود **دين** الظهور عند الساعة السابعة وخمس دقائق، وناولني قصاصة ورق. كُتب اسمان على القصاصة: **كليوبترا وإيزابيلا كاميرون هالسي**. افترضت أن الاسم الأول هو اسم القطة الميتة، أما الأخير فهو اسم مالكة القطة الراحلة. كُتب تحت الاسمين عنوانٌ في شارع كينغ.

شكرت **دين**، لكن ببرود ظاهر لأنني تخطيت عتبة الإفراط في اللطف. أعتقد أن طلبي لم يأخذ من وقت الرجل أكثر من خمس دقائق، ولا بد أنه كان بإمكانه الانتهاء منه أولاً، فأتمكن بذلك من الذهاب في سبيلي، لكنه فضّل أن يجعلني أنتظر ساعتين كاملتين.

وجدت نفسي بعد ذلك بدقائق قليلة عالقةً بزحمة سير قرب سوق المدينة القديمة. شعرت بالانزعاج من **دين** إلى درجة أنني سلكت الطريق المؤدي إلى شبه الجزيرة بدلاً من التوجّه صعوداً نحو الجسر.

انعطفت بالسيارة، ثم انعطفت مرة أخرى. بدأت الشوارع تضيق وتزدحم بالسواح. أردت أن أكون في المنزل بدل الزحف وراء عربة تجرها الخيول. شعرت بالانزعاج من غبائي. وجدت نفسي في غاية التعب، وبحاجة إلى الاغتسال، إلى درجة أنني كدت أنخرط بالبكاء.

مررت قرب كنيسة مشيدة بالحجر الرمادي اللون وذات برجٍ عالٍ. إنها كنيسة القديس فيليب. عرفت أنني موجودةٌ في شارع الكنيسة، واستعدت

إحساسي بالاتجاه الذي يتعيّن عليّ سلوكه. شعرت بالارتياح لأنني أتقدم بالرغم من وجودي في منطقة دوبن القديمة.

تباطأت عربة الخيل. استطعت أن أسمع الصوت المكتوم للسائق برغم همهمة جهاز التكييف في السيارة، وافترضت أن السائق منهمكٌ برواية أخبار معالم المنطقة التي يمرّ بها. بدأتْ معدتي بالزمجرة، فأضفت الجوع إلى قائمة الشكاوى التي أعاني منها.

بدأت أنقر على عجلة القيادة بأصابعي، وتطلّعت عبر زجاج نافذتي. رأيت حانة طومي كوندون الإيرلندية القديمة. شاهدت بعض الزبائن يتناولون عشاءهم على الشرفة. بدا لي أنهم سعداء، ونظيفون.

انحرفت أنظاري باتجاه موقف السيارات التابع لحانة طومي. رأيت سيارة جيب.

تجمّدت أصابعي على عجلة القيادة.

تطلّعت إلى لوحة الأرقام. اندفع قلبي بنبضات جنونية. لم أستطع مقاومة دافع الخروج من سيارتي. تنقلت أنظاري بين رصيف وآخر. لم أجد مكاناً مناسباً قرب الكنيسة كي أركن سيارتي فيه. أين هو مدخل موقف السيارات المخصص لحانة طومي يا تُرى؟

تردّدت أصداء وقع خطوات الخيول البطيئة، ولم أجد أمامي أيّ خيار غير السير وراء العربة.

اجتزت زاوية الشارع أخيراً. ووجدت مساحة خاليةً بعد أن وصلت إلى شارع آخر، فأسرعت إلى إيقاف السيارة فيها.

أغلقت باب سيارتي بقوة، وانطلقتُ راكضةً.

21

وجـــدت **رايـــان** جالساً إلى طاولة في شرفة الحانة. رأيت أمامه سلةً صغيرة تحـــتوي علـــى بقايـــا شطيرة الجبن التي تناولها، وكوباً فارغاً من شراب الشّعير. اســـتنتجت من كثرة أعقاب السجائر التي ملأت منفضةً معدنية، أنه أمضى وقتاً لا بأس به في الحانة.

إنها علامة ليست بالجيدة، لأن **رايان** كان لا يعود للتدخين إلا عندما يكون قلقاً، أو غاضباً.

حافظي على برودة أعصابك.

قلـــتُ بصوت منخفض، لكنه قوي ومتوتر إلى أقصى درجة: "هل أنت من هذه المنطقة أيها الرجل الوسيم".

أشرت باتجاه كرسي.

هزّ **رايان** كتفيه.

جلستُ على الكرسي.

أطفأ **رايان** سيجارته في المنفضة المعدنية.

عدت إلى إلحاحي: "هل هاجر طائر الثلج جنوباً طلباً للشمس والرمال؟"

لم يبتسم **رايان**.

"لماذا لم تدخل منـــزل **آن** ليلة الأربعاء؟"

"لأنني حجزت مكاني للقيام بجولة مشي لمطاردة الأشباح الموجودة في زنـــزانة".

تجاهلت وصفه هذا: "لماذا تتجاهل اتصالاتي الهاتفية؟"

"أعاني من مشكلة في استقبال الاتصالات".

"أين تقيم؟"

"أقيم في فندق تشارلستون".

"رائع".

"يقدمون هناك مناشف سميكة".

"أفضّل لو أنك نـــزلت في منـــزل **آن**".

"لاحظت أنه شديد الازدحام".

"ليس الأمر كما تظنّ يا **رايان**".

"وماذا أظنّ أنا يا ترى؟"

ظهرت نادلة أمام طاولتنا قبل أن أتمكّن من الإجابة.

"هل أنت جائعة؟"

قـــدّم **رايـــان** عرضـــه هذا مصحوباً باللطف الذي يلقاه المرء عادةً من أمناء صناديق المتاجر الكبرى.

طلـــبتُ زجاجة كولا للحمية، بينما طلب **رايان** زجاجة من شراب الشعير الفاتح اللون.

حسناً. لم يُسارع **رايان** لاحتضاني، لكنه لم يسارع للمغادرة أيضاً. يبدو هذا في غايـــة الإنصاف. أعرف ما كنت سأشعر به لو أنني قدت سيارتي لمسافة ألف وأربعمئة ميل، لأكتشف عند وصولي أن امرأة ما تعانق زوجي السابق.

لكـــنني لم أكـــن أعانق **بيتي**، وأعتقد أن **رايان** أظهر كل الثقة بالنفس التي يمتلكها طالب متوتر في صفه الدراسي الثامن.

جلـــسنا بصمت. امتلأ هواء الليل بالرطوبة، وهدأت النسائم. بدأت الرطوبة تغـــزو ملابـــسي فالتـــصقت بجسدي، بالرغم من أنني ارتديت ملابس نظيفة قبل مغادرتي المستشفى. وبدأ التوتر بالظهور على ملامحي.

سمحـــت للتعقل بالتحكّم بمشاعري. قرّرت البدء بالحديث من زاوية مختلفة، وذلك بعد أن أحضرت النادلة المشروبات التي طلبناها.

"لم أعلـــم شيئاً عن حضور **بيتي** إلى المنـــزل، أو أننا سنجتمع كلنا فيه بنفس الوقت. تلقّى **بيتي** دعوة من **آن**. إنه منـــزلها، وكان من المقرر أن أغادره في نفس الـــيوم الـــذي وصـــل فيه. أعتقد أن هذا هو سبب عدم قيامها بإبلاغي أنه قادم. يشتمل المنـــزل على خمس غرف نوم. ماذا يمكنني أن أقول؟"

"ألا يمكنك أن لا تخلعي ملابسك؟"

"ليس الأمر هكذا".

رفع **رايان** راحة يده في إشارة منه إلى عدم رغبته بسماع المزيد.

زادت إشارته هذه من إعادة انبعاث التوتر في داخلي.

"أمضيت أسبوعاً قاسياً يا **رايان**. تستطيع أن تمنحني فرصةً لأرتاح قليلاً".

"هـــل وضعتِ أنتِ وزوجك مقياساً للمصائب؟ النقطة الواحدة تعني ضربة شمـــس، ونقطتان تدلان على "بينو" سيئ. وتدل النقاط الثلاث على وجود الكثير من النمل أثناء نـــزهة على الشاطئ".

اعـــتدت على توجيه النصائح المناسبة لنفسي، مثل: لا تشعري بالتوتر، لكنني عادةً ما أتجاهل هذه النصيحة. وهذا ما فعلته هذه المرة أيضاً.

صحت به: "ألم تتمتع للتو بأسبوع مع حبيبتك السابقة في نوفا سكوتيا؟"

"تظاهري أنك رأيتني أصفع جبهتي نتيجة دهشتي باهتمامكِ بأموري".

تـــضايقت من الحرارة، وشعرت بالجوع وبالتعب، وأصبحت مثالاً سيئاً على الدبلوماسية. وأحسست أنني أضعت هذه الدبلوماسية بالفعل.

صحت به متعمدةً إضافة بعض المبالغات، ومستغلةً المناسبة: "علمت للتو أن صـــديقة لي مريـــضة، ولعلها تحتضر. ويلاحقني مراسل صحفي، كما أن صاحب مـــشاريع بناء يهدّدني. انشغلت أيضاً بالاهتمام بثلاث جرائم قتل، وأمضيت الأيام الـــسبعة الماضية إما في قسم الطوارئ، أو في المشرحة، أو بالخوض في الوحول بحثاً عـــن جثث متحللة... وتعرّضت يوم الأربعاء الماضي لنوبة عاطفية. قلق عليّ **بيتي** فقـــدّم لي بعض العزاء الذي كنت بحاجة شديدة إليه. أنا آسفة لأن ذلك جاء في توقيت غير مناسب، وآسفة جداً جداً لأنني جرحت مشاعرك الذكورية".

اســترخيت في مقعدي، ووضعت ذراعيّ بشكل متقاطع. استطعت أن أرى الــزوجين اللذين يجلسان إلى يميننا يحدقان بنا. حملقت فيهما، فحوّلا نظرهما على الفور.

أشــعل **رايــان** ســيجارة جديدة، وسحب نَفَساً عميقاً، ثم أخرج الدخان. حدّقت بالدخان المتصاعد لولبياً باتجاه المروحة المثبتة فوقنا.

"طلبت مني **ليلي** الابتعاد عنها".

فوجئت عندما تحدّث **رايان** عن ابنته، لكنني صحت بغباء: "ماذا؟ ماذا تعني؟ ومتى حدث ذلك؟"

"تورّطــنا بجدال في وقت ما بعد أن تحدّثت معك يوم الأحد. بدأتْ بمصادقة أحد البلهاء الذين تتدلّى الأقراطُ على وجوههم. سحقاً، فأنا لا أستطيع أن أتذكر. غــادرت **ليلي** المطعم غاضبةً، وقالت إنني أدمر حياتها، وأضافت إنها تتمنى لو أنني أغادر حياتها، ولا أعود أبداً".

"وماذا تقول **لوشيا** في ذلك؟"

بدا وجه **رايان** جامداً مثل الحجر: "قالت إنه من الأفضل أن أتراجع قليلاً عن عــالم **ليلــي**. قضيت نهار الاثنين ومعظم نهار الثلاثاء في محاولة مني للتحدث مع الفتاة. رفضتْ أن تراني، أو حتى أن ترد على مكالماتي الهاتفية".

انحنيت إلى الأمام ووضعت يدي فوق يده: "أنا متأكدة من أن الأمور ستكون على ما يرام".

برزت عضلات فك **رايان**، ثم استرخت: "نعم".

"تحتاج **ليلي** إلى الوقت كي تتعوّد على فكرة كونك والدها".

"أعرف ذلك".

"مضت أقل من سنة على لقائكما".

لم يردّ **رايان**.

"أترغب بالتحدث عن الأمر؟"

"لا".

"أنا مسرورة لأنك قررت المجيء إلى هنا".

ارتسمت معالم ابتسامة خجولة على وجه **رايان**: "أوه. نعم. إن التوجه إلى ***هناك*** كان فكرة عظيمة".

"مررّت ليلة الأربعاء بحالة يرثى لها. مررت بحالة رثاء الذات، والرثاء للآخرين، وسكبت القليل من الدموع. كان **بيتي** يحاول أن يهدئ من روعي عندما وصلت. هذا كل شيء، ولا شيء أكثر. أنا آسفة بشأن التوقيت السيئ".

لم يتجاوب **رايان** مع كلامي هذا، لكنه لم ينسحب.

"لن أكذب عليك، فأنت تعرفني".

بقي **رايان**، مع هذا، صامتاً.

" لم يكن الأمر مهماً يا **رايان**".

أخذ **رايان** يلهو برماد سيجارته، وراح يجمعه على حافة المنفضة المعدنية. مرّت لحظة كاملة، ثم مرّت لحظة أخرى. كسر **رايان** الصمت أخيراً.

"امتلأت أفكاري بمشاعر الذنب بعد رفض **ليلي** لوجودي. شعرت وكأنني رجل فاشل تماماً، وكنت أنت الشخص الوحيد الذي رغبت بالتواجد معه. بدا القرار سهلاً بالنسبة إليّ. قفزت إلى الجيب وانطلقت جنوباً. وصلت بعد أن قدت السيارة لمدة عشرين ساعة، ووجدتك هناك في الباحة...".

لم يكمل **رايان** فكرته. بدأت الكلام بدوري، لكنه قاطعني.

"أعتقد أنني أفرطتُ بردّ فعلي ليلة الأربعاء، وسمحت للغضب أن يتملكني وقتها. أدركت أمراً يا **تمب**. أدركت أنني لا أعرف ابنتي. حسناً، سأتحمل اللوم على ذلك، لكنني اكتشفت أنني لا أعرفك أنت أيضاً".

"أنت تعرفني بالطبع".

أخذ **رايان** نَفَساً جديداً من سيجارته، ثم أطلق الدخان: "لا أعرفك حقيقةً. أعرف أموراً تتعلّق بك. أستطيع تلاوة بيان مؤهلاتك العلمية والوظيفية، فأنت عالمة أنثروبولوجيا لامعة، وأنت من ضمن حفنة قليلة فقط من الذين يشتغلون بهذا الحقل. تلقيت دراستك الثانوية في إيلينوي، واستلمت درجة دكتوراه فلسفة من جامعة نورث ويسترن. تتمتعين أيضاً بخبرة في تتبّع الجرائم، وتعملين كمستشارة للجيش الأميركي في هذا المجال، وتقدمين خبراتك في علم الجريمة للأمم المتحدة

أيضاً. إنها سيرة ذاتية مدهشة جداً، لكنها لا تعطي أدنى فكرة عن طريقة تفكيرك، أو حقيقة مشاعرك. إن ابنتي هي صفحة بيضاء بالنسبة إليّ، ويصحّ هذا الشيء بالنسبة إليك أيضاً".

سحب **رايان** يده من تحت يدي، وأمسك كوبه.

قلتُ: "تشاركت معك بأشياء تتعدّى سيرتي الذاتية".

شرب **رايان** نصف كمية شراب الشعير الموجود في كوبه. هل فعل ذلك لتهدئة غضبه؟ أم أنه فعل ذلك للملمة شتات أفكاره؟

"أنتِ على حق. تزوجتِ المحامي **بيتي** عندما كنتِ في عمر التاسعة عشرة. تبيّن أنه مخادع، وبدأتِ أنت بالإفراط بالشرب. تحطّم زواجك، وأصبحت ابنتك مشجعة لفريق طلاب الجامعة. أعرف أن صديقك المفضل هو سمسار عقارات، وأنك تمتلكين هراً. إنك مثل النمور التي تكره تناول جبن الماعز، أعرف أنك لا ترتدين الفساتين الواسعة، ولا تضعين خناجر على وسطك. أعرف أنه باستطاعتك أن تكوني قاسية، وأن تكوني مرحة جداً، ونمرة في الفراش".

شعرت أن خديّ قد أصبحا بلون الجمر: "كفى".

"عندي المزيد والمزيد في القائمة".

شعرت أنني متعبة ذهنياً وجسدياً، بحيث عجزت عن الاعتراض بالحماسة المطلوبة: "لست منصفاً هنا، وأنت تتعمّد ذلك".

وضع **رايان** يديه على الطاولة، وانحنى مقترباً مني. استطعت أن أشم وسط الهواء الساكن رائحة عطره الذكوري الذي يستخدمه بعد الحلاقة، بالإضافة إلى آثار دخان السجائر التي دخّنها.

"مضى عقدٌ من الزمن على صداقتنا يا **تمب**. أعرف أنك متحمسة لعملك، وعدا عن ذلك فأنا لا أعرف شيئاً عن مشاعرك. لا أعرف ماذا الذي يجعلك سعيدة، أو حزينة، أو غاضبة، أو متفائلة".

"أنا أتبع مثال الشباب".

استرخى **رايان** في مقعده، وأطفأ سيجارته، ثم شرب ما تبقّى في كوبه: "أترين ما أعني؟"

شعرت بضيق في صدري. هل هو شعورالغضب؟ أم هو شعور الاستياء؟

هل هو خوف من التقارب؟

ارتشفت ما تبقى من زجاجة الكوكاكولا. وساد الصمت فيما بيننا.

نظرت النادلة باتجاهنا، لكنها استنتجت أنه من الأفضل لها أن لا تقاطعنا. دفع الزوجان الجالسان قربنا فاتورهما وغادرا. سمعت خطوات حصان بمحاذاة الكنيسة. هل هو نفس الحصان الذي تبعته بسيارتي قبل قليل. شرد ذهني قليلاً.

هـــل يتذمّر الحصان من الاستمرار بالمشي في نفس طريق دورته المعتادة؟ هل اعـــتاد علـــى الإطاعة يوماً بعد يوم بسبب خوفه من السوط؟ هل يُمضي الحصان يـــومه في أحلام جامحة، أم أنه لا يعرف من العالم سوى ذلك الموجود بين غمّامتيه (اللتين تحجبان عن عينيه العالم ما عدا الطريق الذي أمامه)؟

هل **رايان** محق؟ هل أقمت جداراً يفصلني عنه؟ وهل وضعت غمّامات عاطفية خاصـــة بي؟ أم أنـــني حـــصّنت نفسي ضد ذكريات مزعجة من الماضي، وقضايا مزعجة في الحاضر؟

اجتاحت صدري وخزة ألم. هل **بيتي** هو من ضمن إحدى هذه القضايا؟ هل كنت صريحة وصادقة بالكامل مع **رايان**؟ أو مع ذاتي؟

شعرت بجفاف في حلقي، وبانسداد في حنجرتي: "ماذا تريد بالضبط؟"

"أبـــدت **لوشـــيا** فضولاً كبيراً بشأنك. لم أمتلك أجوبة عن معظم أسئلتها. فوجئت بهذا الواقع. قلت لها إن الأشياء التي تسألني عنها ليست مهمة. أبلغتني أن هذا قد يكون صحيحاً، ومع ذلك يجدر بي أن أعرفها".

"إن قـــيادة سيارة من دون وجود أشخاص آخرين معك تعطيك وقتاً للقيام بالكـــثير من التأمل الذاتي. سمحت لي تلك القيادة الطويلة أن أدرك أن **لوشيا** هي على حق. توجد مجالات نفتقد للاتصال فيها **يا تمب**، وهناك حدود لعلاقتنا".

هـــل يـــتكلم عن علاقة؟ أو عن حدود؟ لم أستطع أن أصدق أنني أسمع هذه الـــتعابير من **آندرو رايان**. يا للفتى الشقي، وهو اللاعب الرئيسي في الميدان، وهو الدون جوان في فريق التحقيقات الجنائية في مونتريال.

تمتمت قائلة: "أنا لا أخفي أي شيء عنك قصداً".

"ليست ***طبيعة*** الأشياء التي يتقاسمها الشخص مع الآخرين هي المهمة، بل المهم هو ***التقاسم*** بحدّ ذاته. أنت تخفين أشياء كثيرة عني سواء عن قصد، أو غير قصد".

"أنا لا أخفي شيئاً عنك".

"لماذا تناديني **رايان**؟"

فوجئت بالسؤال: "ماذا؟ إنه اسمك".

"إنه اسمي الأخير، أي اسم عائلتي. يناديني زملائي في الشرطة **رايان**، وكذلك زملائي في فريق لعبة الهوكي. تذكري أننا توصلنا إلى أقصى ما يصل إليه شخصان من الحميمية".

"وأنت تناديني **برينان**".

"أفعل ذلك أثناء مكان العمل فقط".

ركّزت نظري على يديه. أعتقد أن **رايان** على حق. لا أدري لماذا فعلت ذلك. هل فعلتُ ذلك من أجل المحافظة على حاجز فصلٍ بيننا؟

سألته: "ماذا تريد؟"

"تستطيعين أن تبدئي بالحديث يا **تمب**. أنا لا أسعى لحمل هموم كثيرة. أخبريني عن أمورك بكل بساطة. ابدئي بعائلتك، وأصدقائك، وحبك الأول، وآمالك، ومخاوفك... وآرائك حول العقل، والوحدانية الشاذة".

تجاهلت مسعاه للتخفيف من حدّة توتره.

"سبق لك أن التقيت **كاتي**، و**آن**، وابن أختي **كيت**".

سبق له أن التقى **هاري** أيضاً.

جاءت أختي **هارييت** إلى مونتريال بحثاً عن النيرفانا في وقت ما من تلك السنوات الماضية، عندما كان **رايان** يدعوني للخروج معه. رفضت عندها دعوته لإقامة علاقة شخصية معه. ألهت أختي وقتها بالانضمام إلى طائفة معينة، فأسرعتُ و**رايان** لتخليصها منها. اختفى الاثنان ذات ليلة، وأشك في أنهما أتمّا واجباتهما (الإنجيلية). لم أتحقق من هذا على الإطلاق، ولم يتبرع **رايان**، ولا **هاري**، بشرح ما حصل.

"والتقيت **هاري** أيضاً".

بدا صوت **رايان** أقلّ توتراً: "كيف حال **هاري**؟"

"إنها تعيش في هيوستن مع صانع قيثارات".

"هل هي سعيدة؟"

"إنها **هاري**".

بدا لي أنه الدكتور فيل وهو يحثّ ضيف برنامجه على الحديث: "عرّفيني على والديك".

"مايكل تيرنس برينان، درّس القانون، وهو ذوّاقة للخمور، وشارب كحول منذ مدة طويلة. كاثرين دايزي لي، يعرفها الجميع باسم "دايزي"".

"من هنا أتى اسمك الأوسط غير القابل للتهجئة".

"إنه يُلفظ مخففاً كما حرف "ز" في دايزي".

"آه، دايزي، وكأنني...".

"ابتعد عن مجرد التفكير بمضايقتي بذلك الاسم".

رفع **رايان** إصبعين متباهياً على طريقة القسم بشرف الكشاف.

بلعت ريقي، وتابعت الحديث.

"وجد مايكل فتاته الإيرلندية في شيكاغو، وكانت دايزي فتاة شارلوت المتمسكة بتقاليدها. وتعرف أن أولئك الجامعيين يتزوجون في الخمسينيات من أعمارهم. التحق مايكل بمكتب محاماة كبير، وسكن الزوجان السعيدان في بيفرلي، وهي ضاحية يسكنها الإيـــرلنديون، وتقع إلى الجنوب من شيكاغو. التحقت دايزي بفريق الفتيات، وجمعية الـــسيدات المـــساعدات، وجمعية روزاري، وأصدقاء حديقة الحيوانات. وضع مجيء مولـــودهما الأولى، **تمبرنس دايزي**، حدّاً لطموحاتهما الاجتماعية. جاءت هارييت لي بعد ثلاث سنوات. مرّت ثلاث سنوات أخرى قبل أن يأتي كيفن مايكل".

يستمرّ الألم بتمزيقي بعد مرور ما يقارب الأربعة عقود. أعرف أنني تحدّثت وقـــتها عـــن صيغة الغائب في الفعل الحاضر، لكنني لم أستطع إلا أن أفعل ذلك. نجحت هذه المناورة بطريقة ما. اسأل فرويد عن السبب.

"مات الطفل كيفن بعد ولادته بتسعة أشهر نتيجة إصابته باللوكيميا (سرطان الـــدم). شـــعر والدي بالانهيار، وسجّل رقماً قياسياً بالانتقال إلى البطالة، وتليّف

الكبد، لينتهي بتابوت باهظ الثمن. أصيبت والدتي بالاضطرابات العصبية التي تسببت لها بالوهن، ثم أسرعتْ عائدة إلى شارلوت، مصطحبة معها **تمبرنس** **وهارييت**. سكن الثلاثة مع الجدة لي".

مدّ **رايان** يده ليمسح دمعة عن خدّي، وقال بنعومة بحيث إنني بالكاد سمعت الكلمة: "شكراً".

مددت يدي بشكل يشبه طريقة الإعلان عن فيلم سينمائي: "تبقى الدفعة التالية من القصة، وهي السنوات التي عشناها في شارلوت".

أحاطتنا أصوات الضجيج المتصاعدة من الحانة. مرّت ثوانٍ. مرّت دقيقة. تلاشى قسم من التوتر الذي بان على وجه **رايان** عندما التقت عيوننا.

استرخى **رايان** في جلسته، ورفع حاجبيه وكأنه يراني للمرة الأولى. يحبّ هذا الرجل رفع حاجبيه، وهو الأمر الذي ينجح بالنسبة إليه. يعطيه هذا الأمر مظهراً من مظاهر الفضول الهادئ.

حاولت أن أتخيّل مظهري في هذه اللحظات، وعلى الأخص صباغ الأهداب الذي لا بد أنه زال بمعظمه. تخيّلت أيضاً وجهي الذي رسمت عليه الدموع خطوطها. وتخيّلت شعري المتجمع والمرفوع في كتلة واحدة.

عرفت ماذا سيحدث بعدها. وأدركت وجود سؤال صامت يستفسر عن أحداث اليوم. حسناً أعرف أن هذا السؤال يدور حول الأعمال التي هي مواضيع مشتركة ومعروفة، كما أنها محايدة.

قلتُ: "إنها قصة طويلة".

"وهل تتضمّن هذه القصة الصراع مع الوحول؟"

"تشتمل القصة على مواجهة حيوان زاحف يدعى رامون".

"أحببت هنري سيلفا لأنه صياد عظيم للطرائد الكبيرة".

حدّق بي **رايان** من دون إظهار أية تعابير على وجهه.

"يدعى الفيلم ***التمساح***، وظهر في عام 1980. قُذف هذا التمساح بقسوة في نظام الصرف الصحي لمدينة شيكاغو عندما كان صغيراً. كبر رامون (اسم التمساح) حتى أصبح طوله ثلاثين قدماً، ثم أراد التمساح الخروج من النظام. إنه

فيلم عظيم أعطيه تصنيف فيلم المخلوقات (الحيوانات) B الكلاسيكي".

"هل تريد أن تسمع ما سأقوله؟"

"نعم".

"هل بإمكاني الحصول على شطيرة جبن؟"

أشـــار رايـــان للنادلة، وطلب ما أردته، ثم وضع ذراعيه على صدره بشكل متقاطع، ومدّ رجليه بشكل متقاطع أيضاً.

بدأت بالقول: "أفترض أنك تعرف بأمر الهيكل العظمي الذي وجدناه في دي ويز".

"تقصدين ذلك الهيكل الذي استخرجه طلابك".

أومأت: "كان رجلاً أبيض اللون، ولعلّه في الأربعينيات من عمره. يُحتمل أن يكـــون قـــد مـــات منذ سنتين على الأقل. وجدت كسراً غريباً في إحدى فقرات العنقـــية، بالإضافة إلى حزوز في ضلعه الثاني عشر. وجدت حزوزاً أيضاً في بعض فقـــرات أسفل الظهر. أعرف أن الرجل كان يضع أسناناً صناعية، لكننا لم نحصل علـــى أيـــة نتائج عندما مرّرنا معطياته في النظام القومي للمعلومات عن الجرائم. ينطـــبق الشيء ذاته عندما قارنّا معطياته مع معطيات الأشخاص المفقودين المحليين. وجـــدت مـــع ذلك شيئاً يثير الاهتمام. وجدت رمشاً قرب العظام. إن لون شعر الرجل الذي وجدناه في دي ويز هو أشقر، لكن الرمش أسود اللون. أرسلت الرمش إلى مختبر الولاية لإجراء اختبار الحمض النووي عليه".

"إيما؟"

لم أتحمل التحدث عن **إيما روسو** في تلك اللحظة بالذات: "إن **إيما روسو** هي المحققة الجنائية في مقاطعة تشارلستون".

"هل الهيكل العظمي الذي وُجد في دي ويز هو قضيتك الأولى؟"

"نعـــم. حضر **بيتي** إلى تشارلستون للقيام بتحقيقات مالية، وللبحث عن ابنة زبـــون مفقـــودة. تدعى الفتاة **هيلين فلين**، واختفت منذ أكثر من ستة أشهر أثناء عملها في عيادة عامة تديرها **كنيسة رحمة الله**، والكنيسة هي من بنات أفكار مبشر تلفزيوني يدعى **أوبري هيرون**".

"استخدم والد **هيلين** بعد اختفائها محققاً خاصاً يدعى **نوبل كروكشنك**. اختفـــى **كروكشنك** بدوره بعد مرور شهرين على بدئه لتحقيقاته. نعرف أن **كروكـــشنك** تعـــوّد أن يخــصّص فترات لشرب الخمر في المكان الذي شهد اختفاءه، وهكذا لم يُفتح تحقيق بشأن هذه القضية. وجد بعض الفتية يوم الاثنين الماضي جثةً متدلية من شجرة في متنـــزه الغابة الوطنية، الذي يقع شمال المدينة مباشـــرة. حـــصلنا على بصمات، فمرّرناها في النظام الأميركي للتعرف على البـــصمات. حـــصلنا علـــى نتيجة. عرفنا أن الرجل المشنوق على الشجرة هو **كروكشنك**. وسبق لنا أن وجدنا معه محفظة لرجل يدعى **شستر بينكني**، وهو رجل حقير من ساكني المنطقة".

"ولماذا؟"

"لا أعـــرف. يقـــول **بيـــنكني** إن محفظـــته سُرقت منه، لكنني أرجّح أنه أضاعها".

وصـــلت شطيرة الجبن. أضفت بعض الخس، والبندورة (الطماطم)، وبعض التوابل.

"كان **كروكشنك** رجلاً (ذكراً)، أبيض اللون، ويبلغ السابعة والأربعين من العمر. عاني الرجل من كسر في رقبته، وهو الشيء الذي ينطبق على الرجل الذي وجـــدناه في دي ويـــز. ويتواجد الكسر في نفس الفقرة العنقية، وفي نفس الجهة، بالرغم من أن الأنشوطة قد عُقدت خلف الرأس".

"هل هناك حزوز (تشققات) في الأضلاع، والجزء السفلي من الظهر؟"

"لا".

خصّصت لحظة لتناول قطعة كبيرة من شطيرتي.

"اســـتطاع **غولـــيت**، وهو الشريف في مقاطعة تشارلستون، أن يحصل على ممتلكات **كروكشنك** الشخصية من صاحب الشقة التي استأجرها. وجدنا بين هذه الممتلكات أسطوانة مدمجة تُظهر أشخاصاً يدخلون ويخرجون من العيادة التي عملت فيها **هيلين فلين**. احتوى صندوق آخر على ملفات عديدة، وهذه الملفات احتوت على الأشياء التي يمكن أن يتوقع المرء أن يجدها مدونة في القضايا التي يتابعها محقق

خـــاص. تـــضمّنت هذه الملفات ملاحظات، وشيكات ملغاة، ونسخاً عن رسائل وتقاريــــر. وجـــدت ملفاً مخصصاً **لهيلين فلين**. لاحظت أن هناك ملفات أخرى لا تحتوي إلا على قصاصات تتعلّق بأشخاص مفقودين. ووجدت أيضاً ملفات أخرى لا تحتوي إلا على مذكرات مكتوبة بخط اليد".

"هل بحوزتك الكثير من هذه المذكرات؟"

"لا أمـــتلك شـــيئاً، لأنها كُتبت بطريقة الشيفرة. لدينا أيضاً جهاز الحاسوب الخاص **بكروكشنك**، لكنني لا أمتلك كلمة السرّ لحد الآن".

"حـــسناً، أعرف أن **كروكشنك** هو الضحية الثانية التي تتابعين قضيته. متى سنصل إلى قصة رامون؟"

أخبرته عن المرأة والقطة اللتين وجدناهما في البرميل.

"إنهـــا امرأة بيضاء، وفي حوالى الأربعينيات من عمرها، ولعلها ماتت نتيجة خـــنق بواسطة سلك رفيع. وجدنا أن القطة كانت مسجلة باسم إيزابيلا كاميرون هالسي. أعتزم متابعة هذا الأمر غداً".

"هل هناك شيء يربط هذه القضايا الثلاث؟"

"جمـــيع هـــؤلاء من البيض، وفي أواسط أعمارهم. يمتلك الرجلان كسوراً متطابقة في الرقبة، بينما تعرضت المرأة للخنق. لم ألاحظ فيما عدا ذلك رابطاً يجمع بالفعل بين هذه القضايا. لم أنته بعد من قضية المرأة التي وجدناها في البرميل، لأنه لن يتمّ الانتهاء من تنظيف العظام حتى يوم الاثنين".

نظر **رايان** نـــزولاً نحو منفضة السجائر المعدنية الصغيرة التي امتلأت بالرماد، لكـــني أعـــتقد أنه لم يكن يراها بالفعل. بدا لي أنه يركّز على فكرة ما، وأنه بدأ يتوصّل إلى استنتاج ما.

سألني: "هل انتهيت فعلاً من **بيتي**؟"

قلت، بعد أن اخترت كلماتي بعناية: "منذ متى تركتُ الرجل؟"

رفـــع **رايـــان** بصره حتى ركّزه على عينيّ. رأيت العينين الزرقاوين، وشعره الرملـــي اللون، والخطوط والتغضنات الموجودة في أماكنها المناسبة. فكّرت في أنه يخـــرق بمظهـــره هذا قوانين ست ولايات، ودزينة من الإرشادات الاتحادية. ماذا

أفعـــل؟ لماذا لم أجب بكلمة نعم عن سؤال **رايان** الذي وجّهه إليّ بشأن **بيتي**؟ هل سأحـــصل الآن علـــى قبلة أخوية على خدّي، وعلى وداعٍ حنون؟ بقيت أصابعي مشدودة على مسكة كوبي.

ابتسم **رايان** في هذه اللحظة.

سأل **رايان** بصوت هادئ وناعم: "هل سنفتح صفحة جديدة؟"

شعرت بالارتياح الغامر فأجبت: "نعم، سنبدأ من جديد".

مدّ **رايان** يده. تصافحنا، وبقيت أصابعنا متشابكة لبعض الوقت، ثم تباعدت ببطء.

قال **رايان**: "فكّرت أمي الغالية كثيراً قبل اختيار اسمي الأول".

قلت له: "لا تستعجل الأمور أيها المتباهي".

"سأظل أحاول أن لا أستعجل".

"هذا اتفاق عادل".

قال **رايان**: "أنا رجل تحريات".

"أعرف ذلك".

"أستطيع أن أتحرّى عن الأمور".

"يا لها من مهارة خاصة".

"أستطيع وضع سنوات خبرتي تحت تصرفك، إذا اقتنعت بالطريقة المناسبة".

"هل تتحدّث عن قضية **إيزابيلا هالسي**؟"

"والقطة كذلك. أنا أحبّ القطط".

"أي نوع من الإقناع تقصد؟"

مرّر **رايان** إصبعاً فوق يدي، ثم فوق رسغي: "إني أتحدث عن الإقناع المقنع".

أشرت باتجاه النادلة.

أســـرع كلانـــا للحصول على الفاتورة فور وصولها. فاز **رايان**. فنهضتُ، واستدرت حول الطاولة، بينما بحث **رايان** عن بطاقة اعتماده في محفظته.

غمرت كتفَيْ **رايان** بذراعي، ثم وضعت خدّي فوق رأسه.

وافق **رايان** على الانتقال إلى المنـــزل.

22

سمعنا صوت باب غرفة نوم **بيتي** وهو يُفتح أثناء انشغالنا، أنا و**رايان**، بتناول كابتن كرنش.

مـــشى ديـــزي آرنيز عبر المنـــزل، وما لبث **بيتي** أن اقتحم المطبخ: "ها قد وصلت إلى المنـــزل يا لوسي! لمن سيارة الجيب هذه... آه، ما هذه...".

اندفـــع **بويد** قافزاً، لكن **رايان** لم يحذُ حذوه. تلامس الشرطي والكلب، أما المحامي فرفع حاجبه باتجاه جبهته. بدا مثل **ديزي** تماماً.

لاح شبح ابتسامة على زاويتي فم **بيتي**: "ومن يكون هذا الشاب اللطيف؟"

أجريت عملية التعارف المعتادة. وقف **رايان** شبه منتصب، فتصافح الرجلان.

ارتـــدى **بيتي** سروالاً قصيراً مخصصاً للركض، وكنـــزة رياضية فضفاضة من دون كمين، ومفتوحة عند العنق، وانتعل حذاء رياضياً من ماركة نايك. أدار بيتي ظهره للطاولة، وقفز على مقعد، ثم جلس مواجهاً لنا، وجعل رجليه تتدليان.

سألته: "هل أمضيت البارحة وقتاً ممتعاً في **كنيسة رحمة الله**؟"

تـــنقلت نظـــرة **بيتي** ما بيني وبين **رايان**، لكنني لاحظت الارتعاش في زاويتي فمه: "لم يصل ذلك إلى مستوى متعتك أنت".

ضيّقت عينيّ في إشارة تحذيرية تعني إياك أن تجرؤ.

غمرت البراءة وجه **رايان**، الذي بدا بمثل براءة **لوسيل بال**.

بقي اهتمام **رايان** مركّزاً على الكابتن كرنش.

قـــال **بـــيتي**: "أرى أموالاً داخلة، وأموالاً خارجة، وأصبحت أميل الآن إلى الرأي الذي يقول إن الأب بوك يحتاج إلى محاسب، وليس إلى محامٍ".

"هل تحدّثت مع **هيرون**؟"

"هذا هو الجانب الأسوأ من الأمر. اضطرّ ذلك الموقّر إلى القيام بجولة مفاجئة إلى أتلانتا. قال إنه مضطر للقيام بها، ثم أظهر لي أسفه الشديد. أضاف أن موظفيه سيقدمون لي كل المساعدة التي أحتاجها".

"سيتحدثون إليك عن كل المواضيع ما عدا موضوع **هيلين**".

بـــدأت قدما **بيتي** بالتأرجح، فأحدث عقباهما أصواتاً تحت الخزائن الموجودة أســـفل المنـــضدة (طاولة المطبخ الطويلة): "تحدثوا إليّ. قالوا إنها كانت هنا، وأنها غـــادرت، وأنهـــم لا يعرفون إلى أين ذهبت، كما أنها لم تتصل بهم. ويُحتمل أن تكون قد غادرت إلى كاليفورنيا... آه، صلّي إلى الله كي تكون بخير".

"هل فسّروا لك كيفية اختفاء إحدى أخواتهم من دون أن تترك أي أثر؟"

"إنهم يتابعون رسالتهم التبشيرية في كاليفورنيا. توجد العشرات من العيادات المجانـــية في بـــلاد الفواكه والجوز، ولا عجب أن تعمل عيادات عديدة منها على أســـاس الفواكه والجوز. يعتقد هؤلاء أن **هيلين** قد تركت التبشير لتلتحق بتعاليم بعض المجانين وتترك نظامها".

اســـتمر الحـــذاء الرياضـــي ماركة نايك بإصدار الأصوات نتيجة احتكاكه بالخزائن.

"يـــصبح الاخـــتفاء فعـــالاً في بعض أنظمة الحياة الجماعية حيث لا وجود لـــبطاقات الاعـــتماد، ولا وجـــود لفواتير تُدفع، ولا دفعات تأمين للسيارة، ولا ضرائب، ولا وجود كذلك للضمان الاجتماعي".

"يفـــسر هذا الأمر انقطاع سير التقارير، لأن **كروكشنك** أبلغ الوالد بوك أنه لم يجد شيئاً بعد نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، وعلى الأقل حتى تاريخ اختفائه هو. هل وجدت شيئاً جديداً بالنسبة **لكروكشنك**؟"

عاد صوت الحذاء مرة أخرى.

هززت رأسي: "توقّف عن قرع خزائن **آن**".

توقّفت رجلا **بيتي** عن التأرجح، وما لبث أن التفتَ نحو **رايان**.

"هل قدت ذلك الجيب من كندا؟"

"اسمه وودي (اسم الجيب)".

"إنها رحلة طويلة".

"إنها رحلة صعبة بالنسبة إلى الجيب، لأن قلبه بقيَ في أديرونداكس".

خيّمت على الجميع نظرة خالية من كل تعبير.

"لا بد أن هذا الاسم يعود لشجرة".

عاد **بيتي** ليتطلع نحوي: "إنه مسلٍ. إنه رجل مسلٍ".

حذرّت **رايان** بنظرة معبرة.

سأل **بيتي**: "هل عرفتم سبب احتفاظ **كروكشنك** بمحفظة ذلك الرجل؟"

عاد صوت الحذاء مرة أخرى.

"يدعى الرجل **تشستر بينكني**. لا، لم نعرف".

"هل كان يومك بالأمس طيباً؟"

وصفت له عملية استعادة المرأة التي وجدناها داخل البرميل.

"لا يستطيع التمساح الوقوف بوجهك يا حلوة".

"لا تنعتني هكذا".

"آسف".

عاد صوت الحذاء مرة أخرى.

أخبرت **بيتي** عن الخنق، والقطة، وعن الرقاقة، وعن الدكتور **دين**. أصغى **رايان** واكتفى بالمراقبة. أعرف فلسفته. يتكلم بعض الأشخاص لغتين، لكن أفعالهم واحدة.

سأل **بيتي**: "كيف هي حال **إيما**؟"

"تعرضت لنوبة".

"أما تزال حالها سيئة؟"

انحنى **بيتي** إلى الأرض، ثم وضع أحد عقبي قدميه فوق المنضدة (الطاولة الطويلة)، ثم مدّد يديه. رفرفت رموش **رايان** باتجاهي، ويا لسحرها. كرّرت نظرتي التحذيرية باتجاهه.

سألت **بيتي**: "ما هي خطوتك التالية؟"

"سأركض على الشاطئ برفقة **بويد**، وسألعب الغولف بعد ذلك".

"غولف؟"

بــدّل **بــيتي** من وضعية قدميه: "سيعود **هيرون** من عرضه الضخم غداً، أي الأحد. سأنتقل عندها إلى الحلبة لأفرض تدخلي المقدس".

"إن استعارتك اللفظية غامضة قليلاً".

"لكن النتائج التي سأحصل عليها لن تكون كذلك".

"تبدو مزهواً جداً".

أنــزل **بيتي** رجله، وغمزني: "لا تخافي، فأنا أرتدي رباطاً رياضياً".

صوّب نحوي نظرة معتادةً من الرياضيين الفخورين.

انطلــق **بــويد** بجنون بعدما أحسّ أن **بيتي** فكّ لجامه. جلس **بيتي** القرفصاء، وربط ياقته، ثم نهض وأشار نحوي.

"تمتعي بيوم مميز".

اختفى **بيتي** مع كلبه.

سمعت صوته من وراء الباب: "أيتها الحلوة".

قــدنا جيب **رايان** إلى داخل تشارلستون. قاد هو السيارة وقمت أنا بتزويده بإرشــادات الطــريق. أخبرته في الطريق عن صداقتي الطويلة مع **إيما**، وعن المودة الخاصــة الــتي تجمعنا معاً بالرغم من الفترات الطويلة التي تنقطع فيها اتصالاتنا. أخــبرته بسرّ الورم الليمفاوي الذي تعاني منه. اقترح أن نــزورها معاً بعد انتهائنا من زيارة منــزل **إيزابيلا هالسي**.

أخــبرت **رايان** أيضاً عن **ديكي دوبري وهومر وينبورن**. سألني عن مستوى القلق الذي أشعر به، وطلب مني أن أحدّد درجته في مقياس من واحد إلى عشرة. أعطــيت صــاحب مشاريع البناء خمس درجات، وأعطيت الصحفيّ درجة اثنتين سلباً (تحت الصفر).

تذكّرت تعليقاً ورد في محادثتنا الليلة الماضية.

"ماذا تعني بالوحدانية الشاذة؟"

رمـــاني **رايان** بنظرة تنمّ عن التظاهر بخيبة أمله الناتجة عن الثغرة الموجودة في ثقافتي: "إنها نوع من الثنائية في فلسفة العقل والفعل. تتمتّع العمليات الذهنية بقوى ســببية حقيقية، لكن قوانين الطبيعة لا تستطيع تفسير العلاقات عندما تدخل هذه القوى في الكيانات المادية".

"أي مثل علاقتنا تماماً".

"ها قد بدأت مجدداً".

"ابقَ على يسارك هنا. ولماذا أسميته **وودي**؟"

رماني **رايان** مجدداً بنظرة تساؤلية.

"متى أطلقت اسم **وودي** على الجيب؟"

"هذا الصباح".

"أنت اختلقت هذا الاسم".

"أوحى إليّ به العريف جو".

"عمـــل **بيتي** في البحرية، وأطلب منك الآن أن لا تقول له أشياء سخيفة. لا أريده أن يعتقد أنك مهرّج".

تعـــيش **إيـــزابيلا هالسي** في شارع كينغ، أي في قلب تشارلستون القديمة. ازدحمت تلك الناحية، كما هي في العادة، بأشخاص بدا وكأنهم وصلوا لتوهم على مـــتن حدمـــة نقل مواقف "دونالد داك". تسير هناك نساء يرتدين ثياب بحر من ماركـــات شهيرة، أو يرتدين سراويل قصيرة من تلك التي لا تغطي إلا القليل جداً مـــن أجسادهن. تجد أيضاً رجالاً ذوي بطون بارزة، وهم يعتمرون قبعات شبكية يضعها لاعبو البيسبول، وهم يتطلعون بشرود، أو يتحدثون على هواتفهم الخلوية. ارتـــدى آخـــرون قمـــصاناً خاصة بلعبة الغولف، وبان الاسمرار على أجسادهم. وتـــستطيع كذلك رؤية الأولاد الذين سمّرت الشمس أجسادهم، وكذلك الأزواج المتزوجين حديثاً وهم يسيرون يداً بيد، أو الذين سيتزوجون قريباً.

بدا سوق المدينة العتيق أشبه بخلية نحل تعجّ بالحركة. يستطيع الإنسان رؤية بائعي الـــبوظة المـــتجولين وهـــم يطلقون أجراس درّاجاتهم. وتبيع السيدات هناك الأزهار

والسلال الصغيرة، أو يعرضن على السيدات تصفيف شعرهن بطريقة هندسية. وترى هـــناك الأزواج وهم يلتقطون صوراً للأمهات والأولاد، وكذلك الرجال المتقاعدين وهـــم يتفحّصون الخرائط التي تساعدهم على القيام برحلات المشي. وينتشر كذلك الفتـــيان وهـــم يلتقطون صوراً لبعضهم بعضاً بآلات كوداك التي تصوّر فيلماً واحداً، ويسير هناك أيضاً البائعون المتجولون وهم يبيعون الفول، والحلوى، ومربى الدراق.

يقع منـــزل **هالسي** بالقرب من الباتري، وهو عبارة عن قاعات تواجه الميناء، وتمتلـــئ بالتماثيل، والمدافع، وتوجد قربها منصة تعود للعهد الفيكتوري. يبعث هذا المتنـــزه الصغير ذكرى مسيرة سوسة في ذهني.

يـــوقظ هذا المتنـــزه أيضاً ذكريات أحداث تاريخية قرأتها مع الأخت ماثياس عـــندما كـــنت في الصف الرابع. شاهد سكان تشارلستون، انطلاقاً من الباتري، الجنود الكونفدراليين وهم يحاربون الجنود الاتحاديين، الذين كانوا يختبئون في أماكن في قلعـــة ســـومطر. ***بونجور،*** أيتها الحرب الأهلية. تتأخّر بعض الآثار التاريخية عن الاخـــتفاء، وهي تكافح للمحافظة على العلم الكونفدرالي فيها، وتمضي في الهتاف بحياة الولايات الجنوبية.

توجّهت مع **رايان،** بعد أن أوقف سيارة الجيب، جنوباً باتجاه الخليج الشرقي. مررنا بمحاذاة راينبو رو (صف قوس القزح) عبر مسافة ثلاثة بلوكات (البلوك هو المـــسافة الفاصلة بين شارعين) باتجاه الداخل لنصل إلى القسم الضيق لمبنى تشرش (الكنيسة) والمرصوف بالأحجار.

بـــدا أن منـــــزل **هالـــسي** يستأهل لقب قصر المغنوليا، وذلك بعكس شقة **كروكشنك** المتواضعة. ازدانت نوافذ المنـــزل بالصناديق المليئة بالأزهار، وازدحمت الباحة الجانبية بأغصان الأشجار الضخمة القديمة العهد.

قفـــزت إلى ذهـــني أوصاف مثل بهجة الرجل العملي لوصف هذا المنـــزل، بالرغم من أن الوسطاء سيميلون لإطلاق عبارات أصيل، ومبتكر، وبقي كما هو، علـــيه. لاحظـــت أن الجص، ومصاريع النوافذ السوداء، والحديد المشغول، تحتاج كلـــها للطـــلاء، وأن ممر المدخل الرئيسي، والممرات المبلطة الأخرى في الباحة قد تخلّلتها الأعشاب الخضراء.

اقتربت و**رايان** من البوابة فغمرتنا رائحة الأزهار الزكية.

سأل **رايان** بصوت خافت: "هل أضاف واشنطون بعض الإصلاحات إلى هذا المنـــزل؟"

"نام الجنرال بالقرب من هذا المكان".

استطعت أن أرى امرأة من خلال شجيرات المغنوليا، وهي تجلس أمام طاولة في الـــباحة الجانبـــية للمنـــزل، ولاحظت أن ضوء الشمس قد اختلط مع شعرها الأبيض. انهمكت المرأة بالحياكة. تميّزت حركة يديها بالثقة والقوة، بالرغم من أن فكّها، ورقبتها، وذراعيها، حملت التغضنات المعتادة لأنسجة المرأة المسنة.

قلـــت: "إن المرأة التي اكتشفناها في البرميل هي في الأربعينيات من عمرها. وإذا كانت **هالسي** هي الضحية فلا بد أن تكون هذه المرأة والدتها".

وضـــع **رايان** يده على كتفي. تطلّعت نحوه. حملت عينا الفايكنغ الزرقاوان تعابير لم أستطع تفسيرها. هل هي دليل الاعتراف بقلقي الذي أشعر به؟ وهل هي إقرار بأنني أشعر، فعلاً، بعمق الأمور؟

أومأ **رايان** مشجعاً.

ناديت باتجاه الباحة: "عفواً".

ارتفع رأس المرأة، لكنها لم تنظر ناحيتنا.

تـــردّدت بسبب عدم تأكدي من الكلمات التي أستطيع استخدامها: "آسفة لإزعاجك يا سيدتي. جئنا بشأن كليوبترا؟"

التفـــتت المرأة نحونا. أخفت أشعة الشمس المنعكسة على نظارتها التعابير التي ارتسمت في عينيها.

"سيدتي؟ هل يمكننا التحدث لدقيقة؟"

انحـــنت المـــرأة إلى الأمام، وزمّت شفتيها بحيث شكّلتا حرف U بالمقلوب. وضعت الكنـــزة التي تحيكها على الطاولة، ولوّحت لنا بيديها داعيةً إيانا للدخول إلى الـــباحة. أخـــرجت المرأة سيجارة، وأشعلتها في اللحظة التي تقدّمتُ فيها أنا و**رايان** باتجاهها.

قدّمت المرأة لنا علبة من سجائر الدافيدوف الصغيرة: "أتريدان إشعال سيجارة؟"

رفضتُ **ورايان** عرضها هذا.

مـــدّت المـــرأة يداً ظهرت فيها الأوردة الزرقاء: "فليباركَكما **الله في** عليائه، وجمـــيع ملائكـــته. أنـــتم الشباب تتجنّبون التبغ، وتزيلون **الكافيين من قهوتكم**، وتزيلون القشدة من الحليب. إنكم جبناء. هذا ما سأنعتكم به جميعاً. إنكم جبناء. أتريدان بعض الشاي المحلى؟"

"لا، شكراً لك".

"أتريدان بعضَ الكعك المحلى؟"

"لا، شكراً لك".

"ســتقولان لا بالطــبع، لأنــه يُحتمل أن يحتوي **الكعك على بعض** الزبدة المستخرجة من بقرة حقيقية. وأنت أيتها العارضة الحلوة؟"

لا أعرف لماذا يطلق الناس عليّ ألقابهم المحببة: "لا يا سيدتي".

وضـــعت المرأة يدها تحت ذقنها، وابتسمت من خلال جفنين منغلقين، مثلما كانت تفعل **لانا تيرنر** عندما كانت تجلس أمام آلات التصوير: "يجب أن **ترفضي**. أنـــت نحـــيلة بما يكفي. كنتُ ملكة جمال المغنوليا المزهرة لعام 1948. إن جاذبيتي ضعفتَ كثيراً الآن، لكن هذه الفتاة المسّنة جعلت كل ذقن في تشارلستون يهتزّ في ذلك الوقت".

أشارت المرأة إلى مقعد مصنوع من الحديد المزخرف: "اجلسا".

جلستُ **ورايان** على المقعد.

"دعاني أخمّن. هل أنتِ وهذا الشاب تقومان ببحثٍ عن طرق حياة المشاهير والأغنياء في الولايات الجنوبية؟"

"لا، أنا يا سيدتي...".

"إنـــني أمـــزح معك يا حلوتي. لندخل في صلب الموضوع. لماذا تسألين أنت وهذا الرجل الوسيم عن مصريين متوفين؟"

"أنا أتحدث عن قطة".

تضيّقت العينان المتغضنتان، ثم اتسعتا.

"هل تتحدثين عن **كليو** التي امتلكتها؟"

"نعم يا سيدتي".

"هل وجدتم قطتي الشاردة؟"

انحنـــيت إلى الأمام، ووضعت يدي على ركبة تلك المرأة العجوز، وأخذت نفـــساً عمـــيقاً: "أنا آسفة لأنني مضطرة إلى إخبارك عن الأمر، لأن **كليو** ماتت. اســـتطعنا تحديد عنوانك من خلال رقاقة تعريف زُرعت تحت جلد القطة مباشرة. وُجـــدت جثة **كليو** مع جثة امرأة. إننا نشك بأن تكون المرأة المتوفاة هي صاحبة القطة".

ومـــض بـــريق في العينين المسنتين المتغضنتين. حضّرت نفسي لمشهد تساقط الدموع.

سألت المرأة: "**إيزابيلا هالسي؟**"

"نعم".

تـــوقعت حدوث نوبةٍ من الأسى، أو الغضب، أو عدم التصديق. و لم أشاهد أية واحدة منها.

عادت المرأة للاستغراق بالضحك.

تبادلت و**رايان** النظرات.

"أتعتقدان أن هذه الفتاة المسنة قد قضت نحبها".

استرخيت في مقعدي وشعرت بالارتباك: "أنت محقة، ومخطئة في نفس الوقت يـــا حلوتي. يُحتمل أن تكون **كليو** المسكينة قد ماتت مع سيدتها، لكنني متأكدة، بحق الله، أن تلك المسكينة ليست أنا".

يحدث هذا مرة أخرى. حدث أولاً في جزيرة وادمالو مع **تشستر بينكني**.

هل حدث هذا مرتين في أسبوع واحد؟ شعرت بالاحمرار في ركبتي.

قلت مخمنةً: "هل أنت **إيزابيلا كاميرون هالسي؟**"

ســـحبت **هالسي** قطعة قماش من ياقة فستانها، وبللت وجنتيها: "أنا هنا حية ومليـــئة بالحياة، أو على الأقل أقوم بالحياكة، وأنا صامدة في يوم شديد القيظ مثل هذا".

"هل كانت كليوبترا قطتك؟"

"بالطبع كانت كذلك".

"هل أنت التي طلبت زرع الرقاقة؟"

نـــدّت آهـــةٌ مسرحية من شفتَي المرأة: "بالطبع أنا طلبت ذلك، لكن **كليو** أحبت امرأة أخرى مع الأسف".

"ماذا تقصدين؟"

نظـــرت **هالسي** بخجل نحو **رايان**: "بذلت مجهوداً كبيراً لاستمالة تلك القطة، لكـــن يظهر أنها لم تكن راضية عن رفقتي أبداً. ويبدو أن كتلة الفراء البائسة هذه اعتادت على التجوال. أعتذر عن لغتي الفرنسية المتواضعة يا سيدي".

تفـــوّقت لهجـــة **رايان** على الباريسيين أنفسهم عندما قال: ***"لا مشكلة، يا سيدتي"***.

رفرفت رموش **هالسي**، لكن **رايان** واجهها بابتسامة.

سألتها: "ماذا حدث لكليوبترا؟"

"سئمت الحب غير المتبادل، فأقدمت في أحد الأيام على فتح الباب، وتركتها ترحل".

"هل تعلمين ماذا حدث لها؟"

"التحقت بامرأة أخرى".

"هل تعرفين من هي؟"

"أعرف بالطبع. اعتدت على رؤيتهما معاً في المتنـــزه".

قدّم لنا الاسم أول انطلاقة كبيرة لنا.

23

"لا يـصادف المرء في حياته أعداداً كبيرة من اللواتي يحملن اسم **أونيغ**. يبقى هذا الاسم في الذاكرة لفترة طويلة".

اجتاحتني موجة من الإثارة. احتوى ملفان من ملفات **كروكشنك** على كتابات مشفّرة فقط. حمل أحد هذين الملفين اسم **أونيغ**، لكن الكلمة اللاحقة كانت غير مفهومة.

سألتُ بنبرةٍ محايدة: "ما هو اسم عائلة **أونيغ**؟"

تـصلّب العمود الفقري لهالسي قليلاً: "لم تكن تلك السيدة من ضمن قائمة المدعوين لحفلات عيد الميلاد عندي. كانت **كليو** صديقة **أونيغ**. أفترض أن رابطة قوية قامت بينهما، والاثنتان كانتا تحبّان الشوارع، وأشياء أخرى".

"ماذا تستطيعين أن تخبريني عنها؟"

"سأقول، بصراحتي التي اعتدت عليها، إن دماغ تلك القطة الصغيرة كان مركّزاً على نواحيها الجنوبية، إذا ما فهمت ما أقصده".

"كنت أقصد **أونيغ**".

"قصدت **أونيغ** بالطبع. لنقل إن وجهتَي نظرنا قد اختلفتا، أو أن تجاربنا في الحياة هي التي اختلفت".

"حقاً؟"

خفضت **هالسي** صوتها، ولاحظت أن السيدة المحترمة، والغنية تحرّج بامرأة

ليست من طبقتها: "اعتادت المسكينة على وضع كل ممتلكاتها في عربة تسوّق والتجول بها، فليباركها الله".

وجدت نفسي أسمع تعبيراً جنوبياً آخر. وإذا قمت بربط عبارة *فليباركها الله* مع جذورها، فستتحول الإساءة إلى كلمة مهذبة.

سألتُ: "أتقصدين أن **أونيغ** كانت مشردة؟"

ابتسمت **هالسي** بوجه **رايان**: "يُحتمل ذلك، وأنا لم أتطفل أبداً. هل أنتما مصرّان على رفض شرب الشاي المحلى؟ أو ربّما تفضلان تناول بعض السنابّل؟"

بادلها **رايان** نفس الابتسامة.

قلتُ: "لا، شكراً لك. متى كانت آخر مرة رأيت فيها **أونيغ**؟"

نقرت **هالسي** ذقنها مستخدمة إصبعاً واحداً. لاحظت أن مفاصل أصابعها مليئة بالعقد، وأن لون جلدها أصفرٌ بلون النيكوتين: "مضى وقت طويل قبل أن أنتبه. يغيّر هؤلاء الناس مناطق سكنهم مثلما يغيّر الآخرون جواربهم".

لم أردّ على كلامها هذا.

"أربعة أشهر، ولربما ستة؟ لم يعد باستطاعتي تقدير مرور الزمن كما كنت في الماضي".

"هل تبادلت الأحاديث مع **أونيغ**؟"

"تحدثنا ذات مرة تحت ضوء القمر. حدث ذلك عندما أعطيت تلك المسكينة بعض الطعام".

"كيف عرفتِ اسم **أونيغ**؟"

"سألت أحد الجيران الذي لاحظ أنها تمسك بقطتي. قال لي إنه التقاها مراراً أمام الكاتدرائية الكاثوليكية".

"كم كانت **أونيغ** تبلغ من العمر؟"

"كانت كبيرة بما يكفي كي تقصّ شعرها. لا يتناسب الشعر الطويل مع النساء في أعمار معينة. ها أنا مرة أخرى أصدر أحكامي على الآخرين".

تحوّلت **هالسي** نحو **رايان**: "لكن، أتعرف ماذا؟ أبلغ الثمانين من العمر، وأنا ماهرة في هذا العمل".

أومأ **رايان** مبدياً تفهمه.

سألت:" ماذا تقصدين بأعمار معينة؟"

"يــصعب عليّ تحديد ذلك بشكلٍ أكيد. افتقدت تلك الفتاة للترتيب والنظافة، لكنها لم تكن مستفيدة من جمعيات مساعدة الشباب. أعرف هذا على وجه التأكيد".

سألت: "هل تتذكرين أشياء أخرى؟"

"افتقدت للأسنان، ليباركها الله".

تحوّل قلبي إلى أكبر درجة ممكنة من الحذر أثناء متابعة **هالسي** لحديثها.

انخفض كتفا **هالسي** قليلاً: "سأكون صريحةً معك، لربما كرهتُ **أونيغ** قليلاً بــسبب تعلّــق **كليو** بها، وأشياء أخرى. لا يستطيع المرء التحكم بقلوب الهررة. امــتلكت **كلـــيو** الفرصة لتشاركني معيشتي هنا براحة تامة. لم يكن أي شيء غير لائق في هذا، لكنها ابتعدت على الفور".

"أمتلك حيوانات أليفة، وأعرف سبب حزنك".

"أغـــدقت **أونيغ** الكثير من الحب على **كليو**، وألبستها قطعةً تماثل تلك التي تُلبسها الأمهات الشابات لأطفالهن".

حوّلت بصري نحو البوابة عندما تطلع **رايان** نحوي. أومأ **رايان**.

"أشكرك كثيراً على تخصيص وقتك لنا، سيدة **هالسي**".

"قولي آنسة. لم أتزوج أبداً".

قلتُ: "آسفة".

أســـاءت **هالــــسي** فهم قصدي: "لا تأسفي. لا تستطيعين تصوّر مدى عدم اكتراثي بفكرة الزواج".

نهضتُ و**رايان**. وتحركت **هالسي** ورافقتنا عبر الباحة.

انفرجت أسارير وجهها المتغضن عن ابتسامة: "أنا آسفة فعلاً إذا كانت هذه المــرأة المتوفاة هي **أونيغ**، صاحبة قطتي **كليو**. لا تحمل **إيزابيلا هالسي** حقداً على أحد من الناس، فيما عدا تلك الهرة الناكرة للجميل".

كـــرّرت شكري للمرأة، وخرجت من البوابة. تبعني **رايان**. تابعت **هالسي** الحديث بعد أن أقفلت البوابة بإحكام.

"العفـــو هـــو العطـــر الذي تنثره البنفسجة على عقب القدم الذي سحقها. أليست هذه أروع فكرة؟"

قلت: "إنها كذلك".

"أتعرفين من كتب تلك الكلمات؟"

هززت رأسي بالنفي.

تدخّل **رايان**: "إنه مارك تواين".

ابتسمت **هالسي** بوجه **رايان**: "لا بد أنك من الجنوب".

قلت: "إنه كندي".

تحـــوّلت ابتسامة **هالسي** إلى حيرة. تركنا المرأة وحيدة لتتساءل عن عجائب الثقافة الآتية من وراء الحدود.

سألني **رايان** ما إن عدنا إلى سيارة الجيب: "ماذا تظنين؟"

"تتحول الامتيازات أحياناً إلى أنانية جامحة".

"لكنها تبقى نبيلة ولطيفة، وعلى الأخص في هذا المكان".

"نفتخر، نحن الجنوبيون، بآدابنا".

"أتعتقدين أن المرأة التي وجدتِها في البرميل هي نفسها **أونيغ**، المرأة التائهة في الشوارع؟"

"وجـــدنا **كلـــيو** معها. وعرفنا أن المرأة المجهولة تفتقد للأسنان، ونعرف أن **أونيغ** تفتقد للأسنان أيضاً، وهناك المزيد".

أخبرت **رايان** عن الملفين اللذين أعدهما **كروكشنك**، واللذين لم يحتويا على شيء ما عدا مذكرات.

"ما هو الاسم الأخير **لأونيغ**؟"

"لا أذكر".

"ما هو الاسم المدوّن في الملف الآخر؟"

هززت رأسي، وأسرعت بطلب رقم في هاتفي الخلوي.

"هل تتصلين "بماشو كازباتشو"؟"

أغمضت عيني وفتحتهما. ردّ **بيتي** بعد الرّنة الثالثة.

"نعم يا حلو...".

"هل ما زلتَ في منــزل **آن**؟"

"أنا بخير، وشكراً لاهتمامك بي. إن تماريني رائعة. يرسل **بويد** سلامه لكِ".

"أريدك أن تجد لي شيئاً في ملفات **كروكشنك**".

"هل تسمحين بأن تقولي لي السبب؟"

لخّــصت له المعلومات التي أعطتنا إياها **إيزابيلا هالسي**، وفصّلت له ملفات **كروكــشنك** الــتي عليه أن يبحث فيها. أبلغني **بيتي** أنه سيبحث في الملفات، وأنه سيتصل بي لاحقاً. مرّت دقائق قليلة قبل أن يرنّ هاتفي الخلوي.

"أونيغ مونتاغيو، وويلي هيلمز".

"شكراً لك يا **بيتي**".

قطعت الاتصال، وأعطيت الاسمين إلى **رايان**.

سأل: "أتعتقدين أنه من المهم لنا أن نــزور الكاتدرائية؟"

"إنها هناك في شارع برود (العريض)".

تــركنا الجيب مركوناً في لاغاير، ومشيت برفقة **رايان** إلى الكنيسة. تسلّقنا الدرج، وأشار **رايان** إلى نافذتين من الزجاج الملون ترتفعان فوق المدخل الأمامي.

"انظري إلى المعطف البابوي".

أشــرت إلى الــنافذة الأخــرى: "انظــر إلى شعار ولاية كارولاينا الجنوبية العظيمة".

شدّد **رايان** على أحرف العلة: "إنه من القطن عالي الجودة".

"أخذتَ هذه العبارة لتوك من **هالسي**".

"إنها عبارة جيدة".

"إذاً لا تسرف في استخدامها".

بدا أن كاتدرائية يوحنا المعمدان تلتزم بالأصالة. انتشرت فيها المقاعد المنحوتة الطويلة المصنوعة من السنديان، ومذبح مصنوع من الرخام الأبيض. انتشرت فيها أيضاً النوافذ التي تصوّر مراحل حياة السيد المسيح. رأيت فيها الأرغن الذي يماثل باتساعه مساحة محطة فضائية.

امتلأ الهواء برائحة الأزهار والبخور.

عـــدت إلى الماضـــي. تذكّـــرت قداديس أيام الآحاد. شاهدت جدتي وأمي تعتمران حجابين من الكنيسة. تذكرتُ كيف كنت، أنا **وهاري** نلمس أغلفة كتب قداديس العشاء الرباني.

"فلنجرب هذا الأب الصالح الواقف هناك".

أيقظني صوت **رايان** وأعادني إلى عالم الواقع. فتبعته إلى المذبح.

بـــدا الكـــاهن صـــغير البنية، ورأيت عظام خده العالية، وعينيه اللوزيتين، ولاحظـــت حديـــثه الهادئ النبرة والذي خلا من الاختصارات. عرف الرجل عن نفـــسه على أنه الأب رايكر، لكنني شككت بوجود رابط آسيوي بينه وبين أحد أفراد شجرة عائلته.

سألته عن **أونيغ مونتاغيو**، وذلك بعد فراغنا من عملية التعارف.

سأل **رايكر** عن سبب اهتمامي بها.

أخبرته أننا اكتشفنا جثة امرأة، وأننا نشك بأنها **أونيغ مونتاغيو**.

رســـم رايكر إشارة الصليب على صدره: "آخ، يا الله. أنا آسف. إنني مجرد كـــاهن بسيط هنا في كنيسة القديس يوحنا المعمدان. إن معرفتي الشخصية بأبناء الـــرعية تبقى، مع الأسف، محدودة، لكنني كنت أتحدث مع الآنسة **مونتاغيو** بين حين وآخر".

"ولماذا كنتما تتبادلان الأحاديث؟"

رسم الكاهن ابتسامة خجولة على شفتيه: "امتلكت الآنسة **مونتاغيو** قطة. أنا بدوري أحب القطط، لكن لعل لقاءاتنا القصيرة كانت جزءاً من خطة إلهية أكبر".

يبدو أن الارتباك ظهر على وجهي ووجه **رايان**.

"لعـــل الإلـــه الـــرحيم وجّهني للقاء الآنسة **مونتاغيو** حتى أستطيع أن أقدم مساعدتي بالنسبة لرفاتها الفانية".

"هل تستطيع أن تصف لنا الآنسة **مونتاغيو**؟"

توافقت الأوصاف التي أعطاها **رايكر** مع الأوصاف التي بحوزتي.

سألته: "متى رأيتها لآخر مرة؟"

"مضى بعض الوقت على لقائي الأخير بها. أعتقد أنه جرى في الشتاء الماضي".

"هل تعرف بوجود أقارب للآنسة **مونتاغيو** في تشارلستون؟"

تنقلت عينا **رايكر ما** بيني وبين **رايان**، ثم عادتا إليّ: "أعتقد أن لديها شقيقاً. أنا آسف. تحدثنا في مرات متباعدة فقط، وحدث ذلك عندما كنت أسير على الطريق، وصدف أنها تحتاج للماء من أجل قطتها".

بدا رايكر ودياً بما يكفي، لكنه بقي حذراً، وحرص على أن ينتظر عدة لحظات قبل أن يجيب.

سألته: "هل تحتفظ الكنيسة بسجلات؟ أو عنوان؟ أو على علم بوجود قريب لها؟"

هزّ رايكر رأسه: "لم تكن الآنسة **مونتاغيو** منتمية رسمياً لهذه الرعية. أنا آسف".

تناولت بطاقةً من محفظتي، وكتبت عليها رقم هاتفي الخلوي، وناولته إياها: "شكراً أبتِ. لا تتردد بالاتصال إذا تذكّرت شيئاً".

"نعم سأفعل بالطبع. يا للحادث المحزن. أنا آسف جداً. أنا آسف جداً. سأصلي لراحة نفسها".

سأل **رايان** أثناء توجهنا إلى شارع برود: "أتعتقدين أن **رايكر** آسف فعلاً؟"

"كرّر أسفه خمس مرات، ولربما تأسف عدة مرات قبل أن أبدأ بالعد".

"ماذا قصد بعبارة كاهن بسيط؟"

"يقصد أنه خوري محلّي".

"تعنين أنه الكاهن **رايكر**".

فتح **رايان** باب سيارة الجيب. صعدت إلى مقعدي وشبكت حزام الأمان. بلغت درجة الحرارة في الداخل رقماً قياسياً لعله وصل إلى سبعة آلاف درجة مئوية.

انزلق **رايان** ليأخذ مكانه وراء عجلة القيادة: "ما هي الخطوة التالية".

"إنها تشغيل مكيّف الهواء".

أدار **رايـــان** مقبض تكييف الهواء: "نعم يا سيدتي. إنها لسعادة كبيرة أن أقود السيارة للسيدة **تمب**".

"ما رأيك بهذه الفكرة؟ نشتري طعاماً ونأخذه معنا لتناول غداء مبكر مع **إيما**. ســـأقوم بنقل اسمَي **أونيغ مونتاغيو ويلي هيلمز** إلى **غوليت**. وسأقوم أنا وأنت بإلقـــاء نظـــرة علـــى ملفات **كروكشنك** بينما يقوم الشريف بالعمل على تلك الناحية".

"يبدو أنها خطة".

لكن الأمور لم تسر هكذا.

لم نجد **غوليت** في مكتبه. تركت له رسالة في مركز الاتصالات في مكتبه.

ولم تـــردّ **إيما** على خط هاتفها المنـــزلي. استطعت تحديد مكان وجودها في مكتب المحقق الجنائي. بدأت على الفور محاضرتي المعتادة حول الإجهاد والراحة.

"اهدئـــي. حدّدت لنفسي أعمالاً مكتبية لا تهدّد حياتي والتزمت بها. أخبرتني **لي آن** معلومات عن مواجهتك مع رامون، ذلك الحيوان الزاحف".

"هل ذكرت لك شيئاً عن كليوبترا القطة؟"

"فعلت ذلك. هل حققتم تقدماً بالنتيجة؟"

أخبرت **إيما** عن المسار الذي قادنا من الدكتور **دين** إلى **إيزابيلا هالسي**، إلى أن وصلنا إلى تلك المرأة المشردة التي اسمها **أونيغ**، ثم وصفت لها ملفات الأشخاص المفقودين الذين تابع **كروكشنك** قضاياهم من دون تكليف من أحد.

"وهكـــذا لم تتـــضمّن ملفات **هيلمز ومونتاغيو** قصاصات الصحف على الأقل".

"إنها لم تتضمّن شيئاً سوى ملاحظات مكتوبة بخط اليد".

"ما هو السبب الذي دفع **كروكشنك** للتحقيق في قضيتَي **هيلمز ومونتاغيو**، ومـــن غير وجود تقارير صحفية حول اختفائهما، ومن دون أن يكلفه أحد بالقيام بهذا العمل؟"

"إنه سؤال مثير للاهتمام".

"دعـــيني أستوضـــح شيئاً. هل تظنين أن السيدة التي وجدت في البرميل هي **أونيغ** التي تحدّثت عنها **هالسي**، وأن تلك **الأونيغ** هي نفسها **أونيغ مونتاغيو** التي تحدّث عنها **كروكشنك**".

"إنــــه سؤال من جزأين أيتها السيدة المحققة الجنائية. إن جوابي بالنسبة للجزء الأول، ما هي الاحتمالات بالنسبة للقطة؟ أما بالنسبة للجزء الثاني فأعتقد أن اسم **أونيغ** ليس بالاسم الشائع".

قالت **إيما**: "تستحق هذه القضية أن نتابعها".

"سبق لي وبدأت بمتابعتها. وجدت كاهناً في كنيسة القديس يوحنا المعمدان، والذي يعتقد أن **أونيغ** التي تحدّثت عنها **هالسي** لديها شقيق يعيش في مكان ما في مـــنطقة تشارلـــستون. سأعطي هذه المعلومات إلى **غوليت**. هل يستطيع، في هذا الـــوقت، أحـــد رجالـــك أن يحدّد مكان وجود سجلات الأسنان العائدة **لويلي هيلمز**؟"

"ولماذا؟"

"عمد **كروكشنك** إلى التحقيق في اختفاء شخصين من دون توكيل من أحد، حـــتى أنـــه لم يحـــتفظ بقصاصات الصحف التي تتحدّث عن اختفائهما. كانت **مونتاغـــيو** إحدى هذين الشخصين، بينما الشخص الثاني كان **هيلمز**. أعتقد أن **هيلمز** هو شخص دي ويز المجهول".

"إن ذلك هو لغز حقاً، لكن سأحمل **لي آن** على العمل لحلّه. إنها رائعة في ما يتعلّق بإقناع أطباء الأسنان".

"كان بإمكانك الحصول على سرطان رانغون والروبيان لوماين".

"اخترت "فطيرة مون (القمر)، وزجاجة بيبسي".

"لربما يفسر هذا شعورك بالمرض".

"لنستمتع بوجبة لذيذة".

تمتعـــنا بهـــذه الوجبة في باحة بوغان بورش. اخترت أنا الروبيان وطبقاً من الـــشوفان، أما **رايان** فاختار طبقاً من لحم دجاج تشارلستون. رنّ هاتفي الخلوي أثناء مغادرتنا للمطعم.

"دكتورة برينان؟"

"نعم".

"أنا الأب **رايكر**. أكلمك من كنيسة القديس يوحنا المعمدان".

"نعم أبتِ".

"جزيرة سوليفان".

"أنا آسفة؟"

يا الله، يبدو أن الأمر نجح.

"يعـيش شـقيق الآنسة **مونتاغيو** في جزيرة سوليفان. جربت طيلة النهار أن أتذكّـر الكلمات التي قالتها في ذلك اليوم. تذكّرت أن شيئاً ما في حديثنا جعلني أفكّر في فترة طفولتي. صليت بحرارة، فاستجاب لي الله. كان سوليفان الاسم الذي أعطيته لأول قطة امتلكتها. وهكذا تذكّرت جزيرة سوليفان".

"شكراً لك يا أبتِ. ستساعدني معلوماتك كثيراً جداً".

"يعمل الرب بطرق غامضة".

"نعم".

حـاول **رايـان** الاتصال بابنته **ليلي**، بينما جرّبت أنا الاتصال **بغوليت**. لم يحالف **رايان** الحظ، بعكس ما جرى معي. تواجد الشريف في مكتبه هذه المرة.

أبلغته بالمعلومات التي أعطاني إياها **رايكر**. بدا **غوليت** غير متحمس لما سمعه، لكنه أبلغني أنه سيجعل أحد المحققين يدقّق مع أفراد عائلة **مونتاغيو** الذين يسكنون في جزيرة سوليفان.

سـألني **رايان** عندما انتهى الاتصال: "هل قلتِ لي إن **كروكشنك** قام بمراقبة أحد المراكز العلاجية؟"

"إنهـا عـيادة تديرها **كنيسة رحمة الله**. عملت **هيلين فلين** هناك حتى وقت اختفائها".

"هل كتب **كروكشنك** اسم **مونتاغيو** في ملفه".

"لقد فعل ذلك".

"إذاً كان **كروكشنك** يراقب عيادةً مجانية".

"لا أدري إذا كانـــت كلمـــة "يراقب" هي الكلمة المناسبة، لكن نعم، فعل ذلك".

أدركت مقصد **رايان**.

"تقدّم العيادة العناية الطبية للفقراء والمشردين، **وأونيغ مونتاغيو** كانت فقيرة ومشردة".

شعرت بالحماس، والتفتّ نحو **رايان**: "لعلّ **كروكشنك** قد اهتم بوجود هذا الرابط".

"ربّما".

لم أستطع التخلص من الشعور بأن لديه المزيد ليقوله بهذا الخصوص.

"يوحي لي شيء في أعماقي أن الشخصين المجهولين يرتبطان ببعضهما بعضاً، **وبكروكشنك**، وأكثر من ذلك لعل الثلاثة لديهم ما يجمعهم مع **هيلين فلين**".

"أفهم وجود رابط ما بين **كروكشنك وفلين**، والعيادة، وربّما يرتبط هؤلاء مع **مونتاغيو**، لكن كيف يمكنك إقحام رجل **مونتاغيو** في هذه الصورة؟"

"أنا لست متأكدة".

"ما هو الأساس الذي تبنين عليه نظرية الرابط المشترك؟"

"هل هو الحدس؟"

رمقني **رايان** بنظرة مفادها: "أعطيني فترة استراحة".

رفعتُ يديّ: "ألا يحدّد ذلك الشعور الآتي من الأعماق؟"

وضـــعت ذراعيّ بشكل متصالب على صدري، واسترخيت في مقعدي. شعرت أن **رايان** على حق، فما من شيء يربط القضايا الأربع ببعضها. يشترك **كروكـــشنك** ورجـــل دي ويز بوجود كسور غريبة في الرقبة. هذا هو الرابط بيـــنهما. يُحـــتمل أن يكون هذا رابطاً حقيقياً، ويُحتمل أن يكون الأمر مجرد مصادفة.

يتميّـــز الهيكل العظمي الذي وُجد في دي ويز بوجود تشققات (حزوز) فيه، لكننا لم نعثر على شيء مشابه في هيكل **كروكشنك**. سأحرص جيداً على تفحّص أضلاع وفقرات الهيكل العظمي للمرأة التي وجدناها في البرميل يوم الاثنين.

يُحتمل أن تكون المرأة التي وُجدت في البرميل هي "أونيغ مونتاغيو". وأعرف أن **كروكـــشنك** كـــتب اسم **مونتاغيو** في ملفاته، كما كتب اسم **هيلين فلين** في هذه الملفات. أعتقد أن هذا هو الرابط الذي يجمع ما بين **فلين ومونتاغيو وكروكشنك**.

كـــتب **كروكشنك** اسم **ويلي هيلمز** في ملفاته. هل يُحتمل أن يكون رجل دي ويـــز هو نفسه **ويلي هيلمز**؟ وإذا كان الأمر كذلك فسيعني ذلك أن **هيلمز** يرتبط مع **فلين ومونتاغيو** عن طريق **كروكشنك**.

رحـــت أتساءل عمّا إذا كان رجل دي ويز يرتبط مع **كروكشنك** بوجود هـــذه الكـــسور العنقـــية الغريبة. وإذا كان الأمر كذلك، هل يرتبط مع الآخرين منطقـــياً عـــن طريق **كروكشنك**؟ وهل كان التشابه ما بين الكسور مجرد صدفة؟ جالت برأسي أعداد لا حصر لها من العبارات التي تبدأ مع "إذا"، لكن من دون أن تقترن بأية كلمة "إذاً".

لا أؤمن بالمصادفات. ما هو الشيء الذي أؤمن به إذاً؟

أؤمن بالدليل القوي، وبالحقائق المبرهنة.

ما هي المشكلة إذاً؟ إننا لا نمتلك أي دليل، أو إننا لا نمتلك روابط مبرهنة. بل نمتلك مجرد شقوق في العظام، وكسور في الرقبة. نمتلك أيضاً رمشاً وجدناه داخل صدفة حلزون، بالإضافة إلى ملاحظات مكتوبة بخط اليد.

نمتلك أيضاً قرصاً رقمياً مدمجاً.

قلـــتُ: "توجد صور لأشخاص يدخلون إلى العيادة ويخرجون منها. احتفظ **كروكشنك** بهذه الصور على أسطوانة مدمجة".

"هل تظهر **هيلين فلين** في إحدى هذه الصور؟"

قلتُ: "لا، لكن يُحتمل ظهور **أونيغ** فيها".

"أين القرص المدمج؟"

"إنه في مكتب **غوليت**".

شـــعرت علـــى الفور بحماسة شديدة لرؤية الصور الموجودة في ذلك القرص المدمج.

24

أظهرت الصورة الرقمية التي تحمل رقم ثلاثة وثلاثين، صورة امرأة تغادر المبنى المشيّد بالآجر. تميّزت المرأة بشفتين متجعدتين بشكل غريب، وبشعرٍ متشابك بشكل فوضوي حول وجهها.

ظهرت حمّالة أطفال مثبتة على صدرها.

لم أصدّق أنني نسيت أمر هذه الصورة.

وصلنا إلى مكتب الشريف. قدّمت **رايان** للشريف، وشرحت أنه رجل شرطة، وأثنيت على حكمته وتعقّله. بدا **غوليت** ودوداً وبارداً في الوقت نفسه، أو لعله لم يكن يصغي إليّ. لا أعتقد أن قراءة أفكار هذا الرجل هي عمل سهل.

استخدمنا هذه المرة جهاز حاسوبي المحمول لمشاهدة القرص المدمج. وقف **غوليت** يتطلّع من فوق كتفي. وجلس **رايان** في مكان بعيد عني في الغرفة.

أشار **غوليت** إلى ظل يتقوّس من الطرف الأسفل لحمالة الأطفال، وقال: "ما هذا؟"

قمت بتكبير الصورة إلى أن احتلت كامل الشاشة، وحركتُ مؤشر فأرة الكمبيوتر. أظهر الجزء الذي قمت بتكبيره مجموعةً من أشكال المستطيلات والمربعات الصغيرة، واستطعت أن أستنتج أن شيئاً صلباً قد تلوّى من حمالة الأطفال.

قلتُ: "إنه ديل كليوبترا".

قال **غوليت** من ورائي برتابة: "هل أنتِ متأكدة؟"

"انظر إلى الحزَم المتواترة من الضوء والظلمة. أعرف كل شيء يتعلّق بالقطط. إنها حلقات دائرية لذيل قطة".

"سيزوغ نظري".

نظرت من فوق شاشة الحاسوب باتجاه **رايان**. ارتفع حاجباه قليلاً. خفضت حاجبيّ قليلاً. ***لا تقلها.***

سأل **غوليت** أثناء تفحّصه تلك الكتلة الظاهرة في شاشة الحاسوب: "ما هي قصة المرأة التي تدعى **مونتاغيو** هذه".

بـــدأت بالنقـــر لأســـتطيع مشاهدة بقية الصور: "أنت تعرف ما نعرفه. هل حالفك الحظ في تحديد مكان سكن شقيق المرأة؟"

"وجدنا سبعة عشر شخصاً من عائلة **مونتاغيو** في منطقة المترو، لكننا لم نجد أحـــداً في سوليفان. إننا نتحقق من القائمة. لنفترض أننا وجدنا ذلك الرجل، هل ستتمكن من أخذ عينة من الحمض النووي العائد للآنسة **روسو** من البرميل؟"

"نعم".

لم يقل **غوليت** شيئاً. هل أصبح عاجزاً عن الكلام؟

ســـأل **رايـــان**: "ما هي المؤســـسة التي تدير العيادة التي تظهر في الصور التي نشاهدها؟"

قلت: "**كنيسة رحمة الله**".

"قصدت أن أقول من يدير أعمالها اليومية؟ ومن يظهر على الأرض؟"

شعرت خلفي **بغوليت** وهو يلتفت نحو **رايان**: "أعتذر منك يا سيدي، لكن هلاّ كرّرت أمامي انتساباتك؟"

قال **رايان**: "أنا الملازم أول في التحري، من الجرائم الرئيسية، شرطة مقاطعة كيبك".

صـــمت **غوليت** للحظة، وكأنه يفكر في المعلومات التي سمعها. قال بعدها: "آه، كندا".

"إننا نحرسكم".

تدخّلت لشرح الوضع.

"أعمـــل مع التحري **رايان** في مونتريال. إنه يقوم بزيارة إلى تشارلستون هذا الأســبوع. فكّرت أنني بإمكاني استشارته في بعض الأمور أثناء وجوده هنا. أعني استشارته إن فاتتني ملاحظة شيء ما".

سأل **غوليت رايان**: "هل تعمل في دائرة كشف الجرائم؟"

"نعم. بدّلنا التسميات فقط".

"هل لي أن أسألك ما هي الأمور التي استدعتك إلى تشارلستون؟"

"أنـــا في عطلـــة. فكّــرت أن أعــرّج إلى هنا، وأن أساعدكم على تحسين دائرتكم".

تضيّقت عينا **غوليت** بمقدار شعرة ربما، لكن عينيّ تضيّقتا بمقدار أكبر.

"هل مضى وقت طويل على عملك مع فرقة مكافحة الجرائم؟"

"نعم".

"هل اخترت بنفسك العمل في هذا المجال؟"

"نعم".

"هل تدري لماذا؟"

"نعم".

قلـــت: "يُعتــبر الملازم أول أحد أفضل رجال التحري في كيبيك. أعتقد أن معلوماته تساعدنا على النظر إلى الأمور من زاوية مختلفة".

اســتنتجت مـــن لغة جسد **غوليت** أنه لم يقتنع بهذا الكلام. فقرّرت تقديم تفاصيل أكثر.

"شاهدت التحري **رايان** يفكّ ألغاز قضايا ظلت عالقة لأشهر. وتمتّع بقدرة لا تبارى على تفسير مشاهد الجرائم، بالإضافة إلى قراءة أفكار الآخرين".

"هل تعرف الآنسة **روسو** بمساهمته معنا؟"

"نعم إنها تعرف".

"يـــا الله، ســيتواجد ضيوف عندنا أكثر من العاملين النظاميين من دون أن نعرف".

خـيّم الصمت على الغرفة. أوشكت على خرق هذا الصمت، لكن **غوليت** سبقني، ووجّه الحديث إليّ.

"إذا خرّب أمراً، فسأضع الملامة عليك، وعلى المحققة الجنائية".

"أنا أثق به".

"أنا لا أدفع معاشك يا سيدي. سأعتبر أن معلوماتك هي **معلومات** غير رسمية بالمرة".

قـال **رايـان**: "وسـتكون موثوقة بالكامل. أنا أهتم بكل جرائم القتل أيهـا الـشريف، ولا مانـع عندي من المساعدة إذا كان ذلك **لا** يتعارض مع عملك".

لم يُفـصح **غوليت** عمّا يعتمل في داخله من مشاعر: "افعل ذلك طالما نفهم بعضنا بعضاً. تستطيع أن تقترب الآن، أيها التحري، لتلقي نظرة".

نهـض **رايـان** وانضمّ إلينا. وضعت حاسوبي في وضع عرض الصور. تكلّم **غوليت** أثناء انشغال **رايان** بمشاهدة الصور.

"تقع العيادة في ناسو. تمتلك **كنيسة رحمة الله** المبنى والأجهزة، وتقدّم موازنة تـشغيلية، كمـا أنهـا توظّف وتصرف الموظفين، لكنها غير مسؤولة عن الأشياء الأخـرى. تفـتح العـيادة من يوم الثلاثاء وحتى السبت. إنها تعالج غالباً الرشح، بالإضـافة إلى الجروح البسيطة، ويتمّ تحويل الحالات الأخطر إلى قسم الطوارئ في مستـشفى آخـر. نعـرف أن عدد الموظفين قليل جداً، هناك ممرضة تعمل بدوام كامـل، وطبـيب يعرّج مرة في الأسبوع على العيادة، بالإضافة إلى وجود بعض موظفي التنظيف والكتبة".

سألته: "ومن يكون هؤلاء؟"

مشى **غوليت** نحو مكتبه. تناول ظرفاً بنيّ اللون.

"يدعـى الطبيب **مارشال**، واسم الممرض (أو الممرضة) هو **دنيالز**، أما المرأة الـتي تُدعى **بيري**، فهي تهتم بالأعمال المكتبية والتجهيزات. أما الرجل الذي اسمه **تاوري** فيهتمّ بالتنظيف".

أوشكت على طرح سؤال على **غوليت** عندما ظهرت امرأة عند المدخل.

"قلتَ أيها الشريف إنك تريد معالجة كل الشكاوى الآتية من هايبرلز. تقول امرأة تدعى مارلين شغلت خط النجدة 911، إن جون آرثر عاد يضربها مجدداً".

سأل **غوليت**: "هل هي بخير؟"

"لدينا جون آرثر على خط آخر. يقول الرجل إن مارلين ضربته بملعقة خشبية على إحدى عينيه فأعطبتها".

"هل يشربان الكحول؟"

"وهل يقوم كلبي تايسون بحكّ براغيثه؟"

تطلع **غوليت** إلى ساعته: "وما هي أهمية ذلك؟ أخبري مارلين وجون آرثر أنني قادم بنفسي إلى هناك. أبلغيهما أنه من الأفضل أن لا أجد مشروب التاكويلا على الطاولة".

انسحبت المرأة.

قال **غوليت** غامزاً من قناة **رايان** وقناتي: "إننا نخدم ونحمي. إننا نفعل ذلك بالنسبة للجميع".

سألته مشيرة إلى جهاز حاسوبي المحمول: "هل أستطيع نقل هذه الصور إلى جهازي؟"

أومأ **غوليت**.

أنشأت ملفاً في جهاز الحاسوب ثم قمت بتحميل صور **كروكشنك** إلى القرص الصلب للحاسوب. غيّرت الحديث بعد أن أنهيت العمل على الحاسوب.

"هل وجدتَ شيئاً بالنسبة إلى **ويلي هيلمز**؟"

"طلبت من أحد الضباط أن يسأل عنه في الملاجئ. هل لك أن تذكريني قليلاً بسبب اهتمامنا بهذا الرجل؟"

"انشغل **كروكشانك** بتجميع المعلومات عن **ويلي هيلمز**، **وأونيغ مونتاغيو**، وعدد آخر من الأشخاص المفقودين الآخرين أثناء متابعته التحقيق بقضية **هيلين فلين**. أعتقد أنه كان يحقّق بقضايا تهمّه شخصياً".

جاء الرد الساخر: "آه، ها".

قلـــت: "تبحث **إيما** عن طبيب الأسنان الذي تعتقد أنه عالج **هيلمز**. وجدنا الكثير من حشوات الأسنان عند الرجل الذي وجدناه في **دي ويز**".

"إنه لغز كبير".

سمعت الكثير من الأشخاص الذين قالوا ذلك.

"هل قلتِ إنني ***واحد*** من أفضل رجال التحري في كيبيك؟"

"لا تصدق أي شيء قلته هناك في الداخل. إنها مجرد دعاية".

"وهل زاغ نظرك؟"

"تعرفين ماذا قصد الرجل".

دخل **رايان** في خط سير السيارات. لاحظت بعض الهدوء بالنسبة لما اعتدناه في فتـــرة مـــا بعد الظهر في أيام السبت: "وهل هذا شيء سيئ؟ أعني الإفراط في الشرب؟"

"هذا صحيح ضمن ظروف معينة".

قرصت ذراع **رايان**. "إنه اعتداء، اقبض عليّ".

سأل **رايان**: "والآن ماذا؟"

"يرتبط **كووكشنك**، و**فلين**، و**مونتاغيو**، جميعاً بتلك العيادة، لكن **غوليت** لا يريد من رعاة البقر المزهوين أن يضايقوا موظفيه".

"لكنني رجل عاطل عن العمل في الوقت الحاضر".

"قصد **بيتي** بكلامه".

"ذلك المتأنق هو رجل فظ بعض الشيء".

وصـــلنا بعد عشرين دقيقة إلى شبه الجزيرة (البيننسولا)، ووجدنا أنفسنا في جـــزء مهمل يقع ما بين المنطقة التاريخية وجسر نهر كوبر. سبق لصحيفة كوارتييه أن نشرت صورة لمنازل حجرية قليلة الارتفاع، وأروقة مسقوفة متداعية تكدست فـــيها أجهزة وأدوات صدئة، بينما ظهرت هنا وهناك نوافذ وأبواب مقفلة بألواح من الخشب الرقائقي.

لاحظ **رايان** في البداية مبنىً حجرياً. اقترب نحو الرصيف وأوقف محرك السيارة.

بـــدت العيادة مقصورة بسيطة مزودةً بأجهزة تكييف هواء صدئة بارزة من نوافذها ونوافذ الأبنية المجاورة على الجانبين. لم نلاحظ وجود مصاريع نوافذ، ولا لافتات، ولا حتى أية زخرفات معمارية من أي نوع كان.

فُتح الباب أثناء وقوفنا، وومضت أشعة شمس المساء بعد انعكاسها على ألواح الزجاج الملوّن. خرجت امرأةٌ مسنّة وبدأت تشقّ طريقها عبر الرصيف.

وضعت يدي أمام عينيّ لحمايتهما، وبدأت أتفحّص ناسو صعوداً ونـــزولاً، وتتـــبّعت خطـــوط النظـــر انطلاقاً من باب العيادة. لاحظت وجود مظلّة لموقف الباصـــات إلى الـــشمال وعلـــى مسافة قريبة. لاحظت على نفس البعد مقصورة (كـــشكاً) للهاتـــف. اســـتطعت أن أرى عبر الزجاج القذر سمّاعة الهاتف تتدلّى بسلكها.

"لعل الصور قد التُقطت من مقصورة الهاتف، وموقف الباصات".

وافقني **رايان**. خرجنا وعبرنا الشارع.

بـــدا المبنى مهملاً عند رؤيته عن قرب أكثر مما يبدو عند مشاهدة صوره على القـــرص المـــدمج. لاحظت وجود تشقّق في إحدى النوافذ، والذي أُخفي بشريط عـــريض لاصق رمادي اللون. لاحظت أيضاً أن الشريط متجعد عند أطرافه، وهو الأمر الذي يوحي بوجود هذا الشريط منذ بعض الوقت.

أمـــسك **رايان** الباب فدخلنا معاً. لاحظنا أن الهواء داخل العيادة كان حاراً ومشبعاً برائحة الكحول (السبيرتو) والعرق.

شـــاهدت صـــفّين مـــن كراسي الفينيل ماركة كاي مارت، ولاحظت أن كرســـيين مـــنهما مشغولان. رأيت امرأة مصابةً بكدمة حول عينها. وجلس على الكرســـي الآخـــر فـــتى نبتت لحية غير متناسقة حول ذقنه. راح الاثنان يسعلان ويتنشّقان. لم يكترث أيٌّ منهما للنظر باتجاهنا.

لكنّ موظفة الاستقبال اكترثت بنا. بدت المرأة طويلة ونامية العضلات، وفي مثل ســـنّي، أما جلدها فيماثل لون الخشب الماهوغاني (البني الضارب إلى الحمرة). رأيت شعرها المرفوع والمجعّد بلونه الأسود عند جذوره، والبرونـــزي عند أطرافه. افترضت أن هذه المرأة هي **بيري**، وهي المسؤولة التنفيذية عن التجهيزات والأعمال المكتبية.

تذكّـــرت الصور التي التقطها **كروكشنك**، واستطعت أن أحدّد صورتها في ذهــــني، وأن أتذكّر أن **بيري** تحمل الرقم JPEG 7. إنها المرأة الطويلة السوداء ذات الشعر الأشقر.

انتـــصبت **بيري** في جلستها، وحركت فكّيها عندما رأتنا. افترضت أنها أنهت مكالمتها الأخيرة، ولعل ظهورنا أوحى لها أننا لم نأتِ لرؤية بيبتو.

مـــشيتُ مع **رايان** إلى طاولة الاستقبال. ابتسمت بوجه **بيري**. بقي وجهها متصلب الملامح مثلما هو شعار ملائكة الجحيم. لم تضع تلك المفاصل النحاسية في يديها، لكنها كانت في وضعٍ قريبٍ من أن تفعل ذلك.

قـــدّمت نفسي: "أنا الدكتورة برينان، وهذا هو التحري **رايان**. إننا نعمل مع مكـــتب المحققة الجنائية في تشارلستون، ونحن نحقق في قضية وفاة امرأة قد تكون **أونيغ مونتاغيو**".

"من؟"

كرّرت الاسم.

لاحظتُ عينيها السوداوين اللتين بدا البياض فيهما بلون أصفر يشبه لون الجعّة الــــراكدة منذ زمن. راقبت هاتين العينين تتفحصان جسدي نـــزولاً قبل أن تعودا صعوداً. تسبَّبت هذه الحركة بإثارة أعصابي قليلاً.

قلـــتُ: "لدينا أسباب تدفعنا لنعتقد أن الآنسة **مونتاغيو** كانت مريضة تتردّد على هذه العيادة".

"هل تعتقدان ذلك فعلاً؟"

حاولت أن أُبعد الغضب عن صوتي، لكنني فشلت: "هل كانت كذلك؟"

"هل كانت ماذا؟"

الـــتفتُّ صــــوب **رايان**: "هل كانت **أونيغ مونتاغيو** مريضةً تتردّد على هذه العيادة؟"

"أنا لا أقول إنها كانت كذلك، ولا أقول إنها لم تكن".

الـــتفتُّ نحو **رايان** مجدداً: "لعل طريقتي كانت غير مناسبة، فلعل الآنسة **بيري** لا تحبّ طريقتي في طرح الأسئلة".

قال **رايان**: "جرّبي أن تكوني أكثر تهذيباً؟"

"أتعني أن أكون أكثر وديةً؟"

هزّ **رايان** كتفيه.

تحـــوّلت مجدداً إلى **بيري**، وابتسمت بطريقة ودية جداً: "أتمانعين بإخبارنا عن كل ما تعرفينه عن الآنسة **مونتاغيو** لو سمحت؟"

ركّـــزت عينا **بيري** على عينيّ. لم أحب، بالتأكيد، ما رأيته فيهما. كرهت أيـــضاً حقيقة أنها على حقّ. لا نمتلك **أنا ورايان** صلاحية رسمية، وليس لدى **بيري** أي سبب يدفعها للتعاون معنا. استطعت مع ذلك المحافظة على موقفي.

تطلّعـــت نحـــو **بيري** وأطلقت نحوها ابتسامة عريضة أخرى: "أتعرفين ما هو المسلي فعلاً؟ إنه التردد على مراكز الشرطة. يقدّم ضباط الشرطة مشروبات غازية مجانـــية، وبعض الكعك المحلى، هذا إذا كنت محظوظة. وسيقدّمون لك أيضاً غرفة صغيرة هادئة خاصة بك".

وضعت **بيري** قلمها على سجّل المواعيد. أطلقت تنهيدة مثيرة: "لماذا تريدان معلومات عن هذه الآنسة **مونتاغيو**؟"

"برز اسمها أثناء تحقيق الشرطة باكتشاف جثة".

"ولماذا اسمها بالذات؟"

"لا أعـــتقد أن هذا مهم الآن". تحوّلت نحو **رايان**: "هل تعتقد أن هذا الأمر مهم أيها التحري؟"

"لا أعتقد ذلك".

اســـترخت **بيري** في مقعدها، ووضعت ذراعيها الضخمتين بشكل متصالب على صدرها المنتفخ بشكل حرفي D: "هل تعملين مع المحققة الجنائية؟"

"نعم".

"من الأفضل أن تحضري كيساً لوضع الجثث".

"ولماذا أفعل ذلك".

نظرت **بيري** نحو **رايان**: "قد أموت فوق مقعدي هنا لأنكما مضحكان جداً".

قلتُ: "إنها نكتة قديمة".

"سأوظف كتّاباً جُدداً".

"دعينا نبدأ. ألا يُحتمل أن تكون أونيغ **مونتاغيو** قد حضرت إلى هنا وهي تحمل قطة تضمّها إلى صدرها".

"يعاني الكثير من مرضانا من مشاكل مع طفيلياتهم".

اتضح لي أنني لم أفلح بطريقتي هذه. هل أذكر اسم **هيلين فلين**؟ أو **نوبل كروكشنك**؟ ستكون تلك فكرةً سيئة، فإذا كان هناك من رابط بين هؤلاء الأشخاص، فيحتمل أن تثير مثل هذه الأسئلة الحذر الذي يريد **غوليت** أن يتجنّبه.

قلت: "أرغب بالتحدث مع الدكتور **مارشال**".

"إننا لا نتحدث عن المرضى".

أحسّت **بيري** بغلطتها فحاولت تصحيحها: "هذا إذا كانت الآنسة **مونتاغيو** هذه مريضة، لكنني لا أقول إنها كذلك".

"كانت مريضة".

التفتنا نحن الثلاثة نحو المرأة التي تعاني من الكدمة.

25

انشغلت المرأة بمراقبتنا بعينين نصف مغمضتين، وإحداهما متورمة مع تغيّر في لـــونها. لاحظت شحوباً في جلدها، أما شعرها الأسود فكان مرفوعاً على شكل خصلٍ متجمعة.

سألت المرأة: "هل تعرفين **أونيغ مونتاغيو**؟"

رفعـــت المـــرأة راحتَي يديها. لاحظت أن أظافرها قد تعرضت للقضم، وأن نـــدوباً وترية ظهرت على مرفقيها: "قلت إنها اعتادت على المجيء إلى هنا، ولم أقل شيئاً آخر".

"وكيف عرفتِ ذلك؟"

حملقـــت المرأة **ببيري**: "أمضيت نصف حياتي وأنا أنتظر في هذا المستوعب، لكن ذلك ليس مهماً إذا كان المرء يحتضر".

جاءت لهجة **بيري** باردة من دون أن تترافق مع المشاعر: "أنت لا تحتضرين يا روني".

"أنا مصابة بالأنفلونـــزا".

"لستِ سوى مدمنة".

تدخلت هنا: "هل تحدثتِ مع **أونيغ مونتاغيو** هنا في هذه العيادة؟"

"لن أضيّع وقتي بالحديث عن التافهين. سمعت هذه المرأة التافهة وهي تتحدّث إلى قطتها الكبيرة البنية اللون. أسمت نفسها **أونيغ**".

"هل أنت متأكدة؟"

"سمعتك تسألين، فأعطيت جوابي".

"متى كانت هنا؟"

تحرّكت كتف المرأة.

"هل تعرفين أين تعيش؟"

"أبلغت تلك التافهة قطتها أنهما ذاهبتان إلى مأوى معيّن".

"أي مأوى؟"

"وهل أبدو لك عاملة اجتماعية مغفلة؟"

قالت بيري موبخةً: "انتبهي لألفاظك".

زمّت روني فمها ليصبح خطاً رفيعاً ومشدوداً. ركلت بقدميها، وشبكت أصابعها فوق بطنها، وخفضت بصرها.

تكلّم ذو الذقن المدبّب من دون أن يرفع رأسه عن الجدار: "هل سيفحصني أحد، أم أنه يجب أن أذهب إلى المنزل، وأرسل لكم جميعاً عيّنة من إفرازاتي الأنفية في ظرف بريدي صغير؟"

أوشكت بيري على إعطاء جوابها عندما فُتح الباب. سمعنا صوت خطوات قبل أن يدخل رجل من الرواق الموجود إلى يمين طاولتها. حمل الرجل رسمين بيانيين في يديه.

"روزاريو. كايس".

سمع ذو الذقن المدبب اسمه فقال: "هل أنت الطبيب؟"

"لا".

ظهرت ابتسامة ساخرة على وجه الفتى: "هل أنت الممرضة نانسي؟"

"اسمي دنيالز، كوري دنيالز. هل لديك مشكلة مع الممرضين الذكور؟"

فتح ذو الذقن المدبب عينيه، فتلاشت الابتسامة الساخرة. امتلك سبباً قوياً ليفعل هذا.

إذا اعتبرنا أن بيري هي من الحجم الكبير، فإن دنيالز يبدو أكبر. أنا لا أتحدث عن اتحاد كرة السلة الأميركي، وعن نحول القامة. بدا الرجل مثل رجل ثلج

يـــرتدي زياً رسمياً. ربط الرجل شعره من الخلف بشكل عقدة السومو، كما امتدّ خط من الوشم من عضلات أعلى ذراعه وحتى رسغه.

لم يرغب ذو الذقن المدبب بأن تلتقي أعينهما: "آسف يا رجل. أشعر وكأنني فتى لا قيمة له".

تحوّل **دنيالز** باهتمامه نحو روبي: "آه، آه. هل نجوت من جرعة ثانية، يا دوارة الشمس؟"

"أصبت بحمى".

"آه، ها. اتبعاني أنتما".

نهضت روبي، وذو الذقن المدبب، فقلتُ عندها: "يا سيد **دنيالز**".

فوجئ الرجل، وكأنه رآني أنا **ورايان** لأول مرة: "آه".

بدا صوت **بيري** أعلى قليلاً مما ينبغي حين قالت: "إنهما يسألان عن امرأةٍ ما تدعى **أونيغ مونتاغيو**".

"ومن يكونان؟"

"المحققة الجنائية، ورجل شرطة".

وجّه **دنيالز** سؤالاً إلى **رايان**: "ألديك بطاقة تعريف؟"

حـــسناً. بدا الممرض دقيقاً في عمله أكثر من السكرتيرة، وربما لم يكن **الأمر** كـــذلك. أبرزت بطاقتي الجامعية الخاصة التي كنت أحملها عندما كنت أدرّس في جامعـــة شمال كارولاينا، بينما أبرز **رايان** شارته، لكن **دنيالز** بالكاد نظر إلى أيٍّ منهما.

"انتظرا هنا حتى أنتهي من هذين المريضين".

اســـتغرق الانـــتهاء من هذين المريضين، بغضّ النظر عمّا تعنيه كلمة انتهاء، عشرين دقيقة.

وجّه **دنيالز** كلامه إلى **رايان** وحده عندما عاد: "يريدك الدكتور **مارشال** أن تعود بعد ساعة حتى يستطيع التحدث معك شخصياً".

قال **رايان**: "سننتظر".

أبقى **دنيالز** نظرته مركّزة على **رايان**: "يُحتمل أن تطول المدة أكثر".

"إننا أناسٌ صبورون".

هـــزّ **رايان** كتفيه بما معناه كما تشاء. وأسرعت، عندما انصرف، إلى إقامة هدنة مع **بيري**.

"أيمكنني أن أسألكِ منذ متى وأنتِ تعملين في هذه العيادة يا آنسة **بيري**؟"

نلت نظرة توبيخٍ منها.

"كم عدد المرضى الذين تعالجونهم كل أسبوع؟"

"أنا لا أسعى إلى نيل وظيفة، إذا كانت هذه مقابلة للحصول عليها".

"أنا متأثرة جداً بالالتزام الذي تظهره **كنيسة رحمة الله** تجاه الفقراء".

رفعـــت **بيري** إصبعاً إلى شفتيها وأسكتتني. حركت إشارتها هذه مفتاحاً في دماغي يسيطر على العواطف.

"لا بد أنك مخلصة جداً لغايات هذه المنظمة لكي تقبلي القيام بهذا النوع من العمل".

"أعرف أنني قدّيسة".

رحت أتساءل عن حالة قداستها فيما لو استقر حذائي على مؤخرتها.

"هل عملت في عيادات أخرى **لكنيسة رحمة الله**؟"

نظرت **بيري** نحوي ببرودة، وأشارت نحو الكراسي من ماركة كاي مارت.

اســـتطعت السيطرة على أعصابي، ولكن بصعوبة: "ماذا؟ هل عدتِ للتكلم بطريقة فجة مجدداً؟"

صوّبت **بيري** نحوي النظرة التي تأمرني بالجلوس.

"كيف حدث هذا؟ هل حصلتِ على وظيفة العمل على طاولة الاستقبال فور اختفاء **هيلين** المسكينة؟"

التفتت **بيري** بعيداً.

وضع **رايان** يداً مطمئنة على كتفي، وذلك أثناء تفكيري بالقيام بخطوة أكثر غـــباءً. أدركـــت أنـــني أقدمت على ذلك النوع من التصرفات التي حذرتني منها **غوليت**، أي أنني قدّمت معلومات مجانية من دون الحصول على أي شيء بالمقابل. شعرت بنوعٍ من الكدر، فجلست على كرسي مجاور **لرايان**.

نهضت **بيري** وأقفلتْ الباب الرئيسي، ثم عادت إلى مكتبها، وشغلت نفسها بتقليب الأوراق.

مرّت عشر دقائق ببطء.

ظهـــر الفتى ذو الذقن المدبب متمسكاً بكيسٍ صغيرٍ أبيض اللون ففتحت له **بيري** الباب. وخرجت **رولي** بعد وقت قصير.

اختلست نظرةً بعد نظرة نحو **بيري** التي ظلّت تراقبنا، وكانت تستعجل بالنظر بعيداً حينما يلتقي بصرها ببصري، وتعمد إلى تحريك أوراقها. بدا لي أن هذه المرأة لديها الكثير من الأوراق.

أشـــارت عقارب الساعة إلى السابعة، فنهضت، ومشيت قليلاً، ثم عدت إلى مقعدي.

سألت **رايان** همساً: "أتعتقد أن **مارشال** تسلّل من بابٍ خلفي؟"

هزّ **رايان** رأسه: "هناك من يحرس المدخل الأمامي".

"وهل قمتُ أنا بهذا؟"

نظر **رايان** نحوي نظرة مستغربة.

"أي بالتـــسلل إلى الخارج، والمغادرة. يتصرّف **دنيالز** وكأنني لست موجودة هنا".

"يكفي أن الحارسة لاحظت وجودك".

حملقتُ **برايان** عاتبةً.

"حسناً، يفتقد الموظفون هنا لبعض المهارات".

"ينبغـــي على **كنيسة رحمة الله** أن توظف شخصين، وأن تعطي فريقها الذي يستقبل الناس تدريباً على مراعاة حساسية الناس".

قال **رايان** بشيء من التوبيخ: "ظننت أنك لن تسألي عن **فلين**".

"لم أســـأل، لكـــن **بيري** استفزتني، وخطر في ذهني أنه إذا عملت **بيري** مع **فلين**، فلعلهما كانتا تفضيان بدخائل نفسيهما الواحدة للأخرى".

أبدى **رايان** بعض الشك.

قلت بفظاظة لم أتعمد أن تكون لهذا الحدّ: "ربما كانتا صديقتين".

استرخيت ثانية في مقعدي، ورحت أقضم ظفري. أعرف أن **رايان** مُحق، وأنه من المستبعد أن تمتلك المرأتان أي شيء مشترك بينهما. لم أفكر، وفي الواقع، لم أذهب بأفكاري إلى هذا الحدّ. كان سؤالاً عفوياً ناتجاً عن الغضب، ولربما أعطيت فكرة، من دون مبرر، عن دورنا في هذه القضية.

سألت: "هل ترغب بتوقيف **مارشال**؟"

قلّد **رايان** تشدّق **غوليت** الرتيب: "إنني أعمل في هذه القضية بصفة غير رسمية".

"أنت تعتقد أن هذه القضية هدر للوقت، أليس كذلك؟"

"ربما كان الأمر كذلك، لكنني أستمتع عندما أراكِ عصبية".

"أنا متأكدة من أن المرأة التي وجدناها في البرميل هي **مونتاغيو** نفسها، لكنني أردت إلقاء نظرة على موظفي العيادة".

"أعتذر لأنني جعلتكما تنتظران طويلاً".

نظرتُ و**رايان** إلى الأعلى، ورأينا رجلاً ذا شعر داكن يقف في مدخل الرواق. بدا الرجل مفتول العضلات، بالرغم من أنه كان متوسط الطول. ارتدى الرجل معطف مختبرٍ أبيض اللون، وبنطالاً رمادياً، وانتعل حذاءً إيطالياً ربما كان أغلى من سيارتي.

"أنا الدكتور **لستر مارشال**. إنني آسفٌ حقاً، لكنّ ممرضي لم يأخذ اسميكما".

وقفتُ و**رايان**. تبرعت بإجراء التعريفات، لكن من دون ذكر المؤسسات التي ننتسب إليها. لم يطلب **مارشال** هذه المعلومات مني، لكنني أعتقد أن **دنيالز** قد أخفى هذه الناحية عن الطبيب.

"يقول مساعدي الممرض أنكما تستقصيان عن **أونيغ مونتاغيو**. هل لي أن أسأل لماذا؟"

توقّفت حركة تقليب الأوراق من خلفنا.

"نظّن أنها ماتت".

"لنناقش هذه القضية فيما بيننا فقط". تحوّل إلى **بيري** ليقول: "غادر **كوري**، وأنتِ يا **آديل**، بإمكانكِ الذهاب أيضاً. انتهينا من العمل لهذا اليوم".

يوحي تصميم الطابق الأول أن هذه العيادة كانت بيتاً خاصاً ذات يوم. لاحظت، عندما تبعت **مارشال** أثناء عبوره الرواق، وجود غرفتين للفحص، ومطبخاً، وخزانة كبيرة للأدوات المكتبية، وحماماً.

يتواجد مكتب **مارشال** في الجهة الخلفية من الطابق الثاني، ولربما كان هذا المكتب غرفة نوم ذات يوم. لاحظنا أن أربعة أبواب أخرى تطلّ على ممر يؤدّي إلى الطابق الأعلى. لاحظنا أيضاً أن جميع الأبواب مقفلة بإحكام.

بدت لنا المساحة المخصصة للطبيب صغيرة، ولاحظنا وجود مفروشات متواضعة. رأينا طاولة خشبية في حالة غير جيدة، وكذلك حال الكراسي الخشبية، وخزائن حفظ الملفات، وجهاز تكييف الهواء المركّب في النافذة، لكنه بالكاد يستطيع التخفيف من حرارة الجو.

جلس **مارشال** أمام طاولة مكتبه، ورأينا ملفاً وحيداً عليها. لم يضع الرجل صورة زوجته أو أولاده على الطاولة، ولا لوحةً تبيّن اسمه، أو إطاراً يضمّ رسمة محفوراً، أو مثقلةً للأوراق، ولا حتى كوباً تذكارياً من مؤتمر طبي.

تفحّصت الجدران. لم أجد صوراً مؤطرة، ولا حتى شهادة، أو دبلوماً. لم ألاحظ حتى إجازة لممارسة المهنة من الولاية. أعتقد أنه يُطلب من الأطباء تعليق مثل هذه الشهادات، لكن لعل **مارشال** يعلقها في غرفة الفحص.

أشار مارشال إلى **رايان** ولي براحة يده نحو المقاعد. نظرت إلى شعره المسرّح الذي يحتاج إلى قصّ، والذي ينحسر بسرعة عن جبهته. قدّرت أن عمره يتراوح ما بين الأربعين والستين.

قال **مارشال** مبرزاً أسناناً منتظمة وبيضاء: "تعرفون، بالطبع، أن السرية الطبية تمنع الأطباء من إعطاء المعلومات عن المرضى".

سألت: "هل كانت الآنسة **مونتاغيو** مريضة تتردّ على هذه العيادة؟"

رأيت المزيد من الأسنان المنتظمة. إنها شديدة الانتظام.

أشرت نحو الملف: "هل هذا هو ملف الآنسة **مونتاغيو**؟"

أصلح **مارشال** من وضعية الملف ليتوازى مع حافة الطاولة. لاحظت أن أصابعه ثخينة لكن أظافره مقلمة جيداً، وأن ساعديه يوحيان أنه أمضى وقتاً طويلاً يتمرّن في نادٍ رياضي.

قالـــتْ: "لا أطلب الحصول على الملف الطبي للمرأة، بل أسأل، ببساطة، إن كانت قد تلقّت العلاج هنا".

"ألا تشكل هذه الواقعة جزءاً من التاريخ الطبي؟"

"لدينا احتمال أن تكون الآنسة **مونتاغيو** قد توفيت".

"أخبريني تفاصيل أكثر".

أعطيته الحقائق الأساسية، وأهمها أنها وُجدت في مياه النهر، وأن جثتها كانت مـــتحللة ومتصبنة. قلت له إن هذه المعلومات ليست سرية، وإذا اعتقد أن الحادث هو غرق عرضي فذلك ليس من مسؤوليتي.

لم يفتح **مارشال** الملف. استطعت أن أشم رائحة عطره في هذه الغرفة الصغيرة والحارة. بدا لي أنه عطرٌ غالٍ، لكن الرجل كان مزعجاً جداً، مثل ممرضه وموظفة الاستقبال لديه.

"لعلك تفضّل أن نبرز لك مذكرة تفويض يا دكتور **مارشال**. ونستطيع تنبيه وسائل الإعلام، وأن نحصل على ساعات بث عن **كنيسة رحمة الله**، ولربما حصلت على تغطية تشمل البلاد بأكملها".

اتّخـــذ **مارشال** قراراً، أو لعله اتّخذ قراره في وقتٍ سابق، لكنه كان يراوغ لكسب الوقت من أجل تقييم الوضع.

"حضرت **أونيغ مونتاغيو** فعلاً إلى هنا لتلقّي العلاج".

"أيمكنك أن تصفها لنا من فضلك".

توافقت الأوصاف التي تحدّث عنها **مارشال** مع وثيقة وفاة المرأة التي أحضرت في برميل، والتي أعدّها المستشفى.

"متى كانت آخر زيارة للآنسة **مونتاغيو**؟"

" لم تكن زياراتها منتظمة".

"متى كانت آخر زيارة لها؟"

فتح **مارشال** الملف، وسوّى بعناية غلاف الملف براحة يده.

"جاءت زيارتها في شهر آب (أغسطس) من الصيف الماضي. أُعطيت المريضة أدوية، وطُلب منها مراجعتي في غضون أسبوعين. لم تتابع الآنسة **مونتاغيو** برنامج

العلاج كما طُلب منها. لا أستطيع بالطبع...".

"أتعرف أين كانت تعيش؟"

تفحّص **مارشال** ملفه بعناية، وأخذ يقلّب الصفحات، ويضعها بمساواة أطراف الصفحات الأخرى: "أعطتنا عنواناً في شارع ميتنغ. إنه عنوان لمؤسسة عامة، مع الأسف، وهي تعنى بالمساعدات الإنسانية".

"أتعني أنها كانت تعيش في مأوى؟"

أومأ **مارشال**.

"هل أعطت اسم قريب لها؟"

أغلق **مارشال** الملف، واستخدم راحة يده ذاتها لتسوية غلاف الملف: "تُرك ذلك السطر خالياً، وهو أمر ليس بالمستغرب مع زبائننا. لا أمتلك الوقت الكافي، مع الأسف، لأتعرف على مرضاي. إنه الشيء المؤسف الوحيد الذي يترافق مع المهنة التي اخترتها".

"منذ متى وأنت تعمل في هذه العيادة؟"

ابتسم **مارشال**، لكن من دون أن يُظهر أسنانه هذه المرة: "انتهينا من الحديث عن الآنسة **مونتاغيو**، وماذا بعد؟"

"هل لديك أشياء أخرى تخبرنا إياها؟"

"أحبّت تلك المرأة قطّتها كثيراً".

أصلح **مارشال** وضعية ربطة عنقه المصنوعة من الحرير، والتي ربما تحمل اسم مصمم لا أعرفه.

"أتواجد عادةً في هذه العيادة لبعض الوقت أيام الثلاثاء، والخميس، والسبت وفي الأيام الأخرى أفحص المرضى في مكان آخر".

وقف **مارشال**، وهذا يعني أنه صرفنا: "لا تتردّدا بالاتصال بي إذا احتجتما إلى مساعدتي".

شغّل **رايان** محرك الجيب: "لا أعتقد أنه أحبّنا".

سألته: "لماذا؟"

"يُكثر هذا الرجل من غسل يديه".

"إنه طبيب".

"أقـــصد حـــسب هوارد هوغز. أراهن أنه يعيد تفحّص الأقفال، ويقوم بعدّ مشابك الورق، ويرتّب جواربه حسب ألوانها".

"أنا أرتّب جواربي حسب ألوانها".

"أنت امرأة".

"أوافقك على أمر. يُفرط **مارشال** بالترتيب، لكن هل تعتقد أن ذلك الرجل اللغز يعرف أكثر مما يقول؟"

"إنه يعترف بأنه يعرف أكثر مما يقول. إنه طبيب".

"ماذا بشأن الشخصين الآخرين؟"

"إنهما مغروران".

"هل هذا كل ما في الأمر؟"

"إنهما مغروران ويتميزان بالفظاظة".

مددت يدي وشغلّت مكيف الهواء.

"أمضى **دنيالز** عقوبة في السجن".

"لماذا تقولين هذا؟"

"رأيت وشم السجون على ذراعه".

"هل أنت متأكدة؟"

"ثق بي. أنا متأكدة".

شـــعرت بالضيق، وربما بسبب الحرارة الشديدة، أو نتيجة خيبة أملي حيال عجزي عن الحصول على نتائج، حتى أن **رايان** نفسه يضايقني.

هل أنا متضايقة من نفسي لأنني فقدت هدوء أعصابي؟ لماذا سألت عن **هيلين فلـــين**؟ وهـــل كـــان الإتيان على ذكرها خطوةً جيدة، أم غلطة من جانبي؟ هل ستعرف **كنيسة رحمة الله** بالأمر؟ وهل سيعرف **غوليت** أيضاً؟

يُحـــتمل أن تحـــرك زيارتي هذه بعض الأمور، ولعلها تُجبر **هيرون** على القيام بتحرك ما، أو تدفع **كنيسة رحمة الله** للتعاون في التحقيقات الجارية عن اختفاء **فلين**.

ويُحــــتمل، بالمقابـــل، أن تثير زيارتي الخاطفة بعض المشاكل **لإيما**، وقد تُغيظ الشريف وتدفعه لإبعادي عن حلقة التحقيق.

أعرف على الأقل أنني لم أتحدث عن تفاصيل موت **أونيغ مونتاغيو**.

لا هدوء، ولا نتائج.

استرخيت في مقعد السيارة لأتأمل. كنت مستغرقة بالتفكير عندما رنّ هاتفي الخلوي.

لا نتائج؟ آه يا الله، هل سنحصل على النتائج عندما نريدها؟

26

بـــدت **إيما** أكثر حيوية مّما كانت عليه قبل أيام عدّة، لكن عندما سألتها عن حالتها عادت امرأة شرسة.

"أجـــرينا أربعة وثلاثين اتصالاً هاتفياً. وأحرزنا تقدماً. اتصلت **لي آن** بطبيب أســـنان يحتفظ بسجل طبي **لويلي هيلمز**، ويدعى الدكتور **تشارلز كوشارسكي**. قمت بزيارة ذلك الرجل المسّن الغريب الأطوار".

"هل هذه هي طريقتك في الاقتصار على الأعمال المكتبية؟"

تجاهلـــت **إيما** سؤالي هذا: "أظهر **كوشارسكي** سروره العظيم بزيارتي، حتى كدت أظن أنه سيوثقني إلى جدار مستوعبٍ محلي الصنع".

"وماذا يعني ذلك؟"

"أشك في أن تكون قائمة المرضى الذين يتردّدون عليه طويلة".

بدا وكأنني أتكلم بصوت مثل صوت **دنيالز**: "آه - ها".

"يتذكّـــر **كوشارسكي هيلمز** على أنه رجل طويل شاحب اللون، ويقول إن عمـــره يتراوح ما بين منتصف، أو أواخر الثلاثينيات، وأن عضلات وجهه تنقبض بـــشكل غير - إرادي. أضاف أن آخر زيارة قام بها **هيلمز** لعيادته كانت في شهر نيسان (أبريل) من عام 1996".

"ما هو نوع انقباضاته العضلية؟"

"إنهـــا حركات عصبية في الرقبة واليدين. اضطرّ **كوشارسكي** إلى تقييد رأس

هيلمز ورسغيه بالكرسي، كي يستطيع العمل في نخر أسنانه وملئها. اعتقد **كوشارسكي** أن الرجل ربما يعاني من "متلازمة توريت" (اضطرابات عصبية)".

"هل أعطى **هيلمز** معلومات عن طريقة الاتصال به؟ مثل عنوانه؟ أو صاحب عمله؟"

"يقوم والد **هيلمز**، ويدعى **رالف هيلمز** بدفع الفواتير. دوّن **ويلي** رقمه في سجّله. اكتشفت **لي آن** عندما اتصلت به أن هاتفه لم يعد في الخدمة. تبيّن أن والد **هيلمز** قد مات في خريف عام ستة وتسعين".

"إذاً هذا هو سبب انقطاع الفحوصات الدورية".

"قال **هيلمز** إنه يعمل في شركة **جوني** لقطع السيارات، الواقعة على الطريق السريع رقم 52. يدعى الرجل صاحب الشركة **جون هاردستون**، ويعمل في بيع وشراء الخردة، وعلى الأخص في شراء القطع المعدنية. يقول إنه وظّف **هيلمز** بسبب صداقته مع رالف، وسمح له أن يعيش في مقطورة قديمة مركونة في باحة منزله الخلفية. اعتنى **هيلمز** بالكلاب، وعمل على أساس أنه حارس أمني. عمل الرجل لصالح **هاردستون** لمدة عشر سنوات، لكنه غادر ذات يوم بصورة مفاجئة".

"ومتى حدث ذلك؟"

"حدث ذلك في خريف العام 2001. ويقول **هاردستون** أن **هيلمز** دأب على القول إنه سيتوجّه إلى أتلانتا، وهكذا لم يُعِر الأمر اهتماماً كبيراً، واعتقد أنه حزم أمتعته وغادر بكل بساطة. ويضيف **هاردستون** أنه تبيّن له أن **هيلمز** هو مثال الموظف المناسب، وأنه أسف لفقدانه".

"لكنه لم يحاول إيجاده".

"لا".

"إن كان **هيلمز** قد مات في العام 2001، فإن ذلك يتناسب مع تقديراتي للجثة المجهولة".

"يعطي صاحبنا، عالم الحشرات، تقديراً أقصى هو خمس سنوات. هذه هي أخباري الأخرى. هل تريدين أن أقرأ لك تقريره الأولي؟"

"أريد ملخصاً فقط".

مـــرّت فتـــرات صـــمت، استوعبت فيها **إيما** عبارات من النص: "قشور يـــرقانات فارغة. كائنات متنوعة من قاطنات التراب. جلود خنافس، وخنافس كبيرة ميتة".

سمعت حفيف أوراق عند الجهة المقابلة من الخط.

"تُظهـــر صـــور أسنان **هيلمز** قبل وفاته وجود الكثير من الأسنان الصناعية المعدنـــية في فمه، وهكذا عمدت إلى أخذ هذه الصور، بالإضافة إلى صور الأشعة الـــسينية الـــتي أُخذت بعد الوفاة، وأودعتها في مكتب **بيرني غرايمز**. سيتصل بي الرجل حالما يجد الوقت لإجراء المقارنات بين المجموعتين".

توقّفت **إيما** لتستكشف تأثير هذه المعلومات عليّ.

"أمـــتلك المـــزيد من المعلومات. وجدت بين كُوَم الأوراق في مكتبي ورقة فاكس مرسلة من مختبر الطب الشرعي في الولاية".

"هل استطاعوا انتزاع الحمض النووي من الرمش؟"

"مهلاً هنا، لقد استلموا الرمش يوم الخميس. لكن عالِم الرخويات تمكّن من فحّص الصدفة".

وجدت العبارة جديدة على مسامعي: "أتقولين عالِم الرخويات؟"

اســـتنتجت مـــن تردّدها أنها تقرأ من ورقة الفاكس: "إنه الأخصائي بالمحار، وبلح البحر (نوع من الرخويات)، والحلزونات. يسمى ذلك الشيء... ***فيفاباروس أنترتيكستوس***... يتواجد ***الفيفاباروس أنترتيكستوس*** بأعداد قليلة في المستنقعات الموجـــودة في المـــناطق المنخفـــضة الموجودة في ولاية كارولاينا الجنوبية، لكنه لا يـــتواجد أبـــداً علـــى الشاطئ، أو في مصبّات الأنهر، أو في أي مكان قرب المياه المالحة".

قلتُ: "إذاً، من المستغرب أن يتواجد ذلك الحلزون في ذلك القبر".

"يعيش هذا النوع من الرخويات في المياه العذبة فقط".

راح عقلـــي يـــستعرض كل الاحتمالات الممكنة: "حسناً. قُتلت الضحية في مكان آخر، ثم نُقلت الجثة إلى دي ويز".

"أو يُحتمل أن تكون الجثة قد دُفنت في مكان آخر، ثم نُقلت إلى دي ويز".

"أو يُحتمل أن يكون ذلك الحلزون قد سقط من ثياب الرجل الذي حفر القبر، أو من رفشه".

"كلها تفسيرات معقولة".

استغرقنا في استعراض قائمة الاحتمالات، لكّن أياً منا لم تستطِع تقديم احتمال مرجّح.

انتقلت **إيما** إلى موضوع آخر: "ماذا يحدث بالنسبة للسيدة التي وُجدت في برميل؟"

قدّمت لها وصفاً لزيارتنا إلى عيادة **كنيسة رحمة الله**.

"لن يسرّ **غوليت** بما سيسمعه عن هذه الزيارة".

قلت موافقةً: "لا".

قالت **إيما**: "سأهتم بهذا الموضوع، وسأحثّه على الاهتمام بموضوع **هيلمز**، مع أنني أشك أن يحدث شيء مهم في عطلة نهاية الأسبوع الطويلة هذه".

"هل فعلاً تشعرين بتحسّن؟"

"نعم".

قلت لها: "جربي أن تنامي قليلاً".

قطعت الاتصال، ثم لخّصت المحادثة **لرايان**.

"يبدو أنكما ستنجحان بالتعرف على هويات ثلاث قضايا من أصل ثلاث. أعني **كروكشنك**، و**هيلمز**، و**مونتاغيو**. أتعرفين ماذا يستدعي هذا النجاح؟"

هززت رأسي.

"سرطانات رانغون البحرية".

"هل يتضمّن هذا وجبة روبيان سا - شا؟"

"طبعاً. هل سنعرض إطعام كلود كلودرسوكس؟"

حركت عيني: "إن اسم **بيتي** الحقيقي هو **جانيس**".

تطلّع **رايان** نحوي.

"إنه من لاتفيا. هل أنت متأكد من عدم وجود مانع لديك؟"

"لن أسمح للرياضي **جانيس** بتناول أطعمة مقلية غير صحية".

اتصلت **ببيتي**. وجدته في المنـــزل، وقال إنه جائع.

بـــدت فكـــرة التوجّه إلى مطعم حديقة شينغ الآسيوية الواقعة في جبل بلازانت مغـــرية بالنـــسبة لي. أصرّ **رايان** على الدفع بالرغم من اعتراضي، وتأكّدت لي مجدداً صـــحة المـــثل الـــذي يقول إنه كُتب على النساء الانجذاب الأبدي لنفس النوع من الـــرجال. إن عشيقي الحالي، وزوجي السابق، هما نسختان متشابهتان، وعلى الأخصّ بالنسبة لدفع الفواتير، فهما لا يسمحان لي بالدفع، والاثنان سخيّان في كل شيء.

وصلنا إلى منـــزل **البحر على امتداد أميال**، فتولّى **بيتي** تحضير المائدة، بما في ذلـــك عـــيدان الطعام وكل الأشياء الأخرى. تمركز **بويد** تحت الطاولة تماماً، أما **بيردي** فاكتفى بالمراقبة من مكانه العالي فوق سطح الثلاجة.

بدا **بيتي** مرتاحاً، ولاحظت أن وجهه قد احمّر نتيجة تمضية ساعات في ملعب الغولف، بينما ظهرتُ **ورايان** بمظهر من أمضى يوماً طويلاً وحاراً بكامله في سيارة جيب.

أومأ **بيتي** متظاهراً أنه يستحسن ارتداء **رايان** لبنطال من الغبردين: "لا يعرف المرء متى يتحوّل الطقس إلى بارد جداً".

نظرت نحوه شزراً محذرةً كعادتي، لكنني أدركت أن ارتداء ثياب صوفية ليس في مكانه.

نظـــر **رايـــان** نحو بنطال **بيتي** القصير: "كانت جولتنا جنوباً وليدة اللحظة. أسرعنا لهذا السبب. يبدو بنطالك القصير أنيقاً".

"شكراً لك".

قال **رايان**: "كان عندي ذات يوم بنطال مثله".

بدأ **بيتي** بالابتسام.

"لكنني توقفت عن ارتدائه منذ أيام مراهقتي".

تلاشت الابتسامة.

تابعنا تناول وجبتنا بهذه الطريقة.

اغتـــنمت فرصـــة تناولنا الروبيان، والرانغون، ودزينة من المأكولات المنوّعة الأخـــرى، وأخـــبرت **بـــيتي** بآخر المستجدات المتعلقة بقضية **مونتاغيو، وهيلمز**،

والعيادة. أخبرنا بدوره أنه أجرى ترتيبات كي يوظف محاسباً ليساعده في تفحّص دفاتر حسابات **كنيسة رحمة الله**.

أمضينا ما تبقى من العشاء من دون أن تغيب الملاحظات الساخرة. شعرت عند انتهائنا من تناول العشاء وكأنني كنت مع **علي وفرايزر** في الحلبة. شرحت **لبيتي** أنني أعتزم تفحّص أمتعة **كروكشنك** مجدداً، فأسرع لعرض مساعدته.

رنّ هاتفي الخلوي بينما كنت منهمكة برفع الأطباق عن الطاولة. جاء الاتصال من **إيما**.

"جاءت النتيجة إيجابية. إن رجل دي ويز المجهول هو ويلي **هيلمز**".

"حمداً لله!"

التفت **بيتي ورايان** نحوي، وبدت في أيديهما علب صغيرة من الكرتون.

"إذاً، أصبحت المسألة الآن هي ما الذي حدث **لويلي هيلمز**، ومتى، ولماذا دُفن في تلك الجزيرة؟"

قالت **إيما**: "تقع هذه المسائل من ضمن اختصاص **غوليت**".

أقفلت هاتفي الخلوي، ثم أخبرت **بيتي ورايان** عن **هيلمز**. أعرب الاثنان عن ارتياحهما.

اتصل الشريف بذاته بعد مضي عشر دقائق.

تجاوز الشريف المقدمات التقليدية كعادته: "أعتقد أنني أبلغتكما بعدم إثارة أي شيء في تلك العيادة".

"حصرتَ تنبيهاتك برعاة البقر المتسرعين فقط".

"وعلى الأخص في ما يتعلّق بتلك الفتاة التي هربت".

"اختفت **هيلين فلين**. ولا يعني هذا أنها هربت".

مرّت فترة سكون قبل أن يتابع: "إن **هيلين فلين** متقلبة المزاج".

"ماذا؟"

"سأناقش هذه المسألة معك ذات يوم، وسننساها بعد ذلك، لأن اختفاء تلك الفتاة لم يحدث في منطقة صلاحياتي... عندما اختفت تلك الشابة حصر والدها همه الوحيد بالاتصال بمكتبي، وطلب إجراء تحقيق على الفور. تحدّثت مع **أوبري**

هيرون شخصياً في ذلك الوقت. عمدت **هيلين فلين** إلى مضايقة **مارشال وهيرون** قبل احتفائها. اضطرت **كنيسة رحمة الله** في النهاية إلى أن تطلب منها ترك عملها".

"هذه أول مرة أسمع فيها هذه المعلومات".

"لا يحب **هيرون** انتقاد أتباعه السابقين".

"وكيف كانت **هيلين** تضايقه؟"

"اقتنعت أن **مارشال** يتلاعب بالأمور المالية. يقول **هيرون** إنه بحث في المسألة، لكنه لم يجد أي نقص. ويبدو أن تلك الشابة كانت تتوقع الكثير من عمل تلك المؤسسة. أطلب منكِ أن تنسي أمر تلك العيادة، لأنه لا وقت لدي لاسترضاء الأطباء الحانقين".

"هل اتصل **مارشال** بك؟"

"بالطبع اتصل بي. بدا الرجل مهتاجاً، وقال إنك أرعبتِ موظفيه".

"لم تشتمل زيارتنا على تخويف...".

"وأنا ليس لدي وقت أضيعه لمراقبتك أنت وعشّاقك".

مهلاً يا برينان. تجاهلي الأمر، فليس ذلك الشريف بالرجل المناسب للجدال.

"يبقى أن أتعرّف على هويتَي الرجلَين المفقودَين. ويُحتمل أن تكون المرأة التي وُجدت ميتة في البرميل هي ذاتها المرأة التي تجوب الشوارع، **أونيغ مونتاغيو**. تتطابق المواصفات التي حصلت عليها من المالكة السابقة للقطة الميتة، وتلك التي حصلت عليها من الكاهن المقيم في كنيسة يوحنا المعمدان، مع الملف الذي استنتجت معلوماته من العظام".

"اتصلت بي الآنسة **روسو** للتو لتزودني بهذه المعلومات".

سمعت بعض الخشخشة. انتظرت حتى انتهت: "كانت **أونيغ مونتاغيو** مريضةً تتردّد على عيادة **كنيسة رحمة الله**".

"هذا ما يفعله الكثيرون من الناس".

"امتلكت **فلين ومونتاغيو** ارتباطات مع تلك العيادة، وهذا هو السبب الذي دفع **كروكشنك** لمراقبة العيادة".

"راقب العيادة بالطبع، لأنه كان يبحث عن **فلين**. لا يشكل دخول امرأة مع حقيبة إلى العيادة سبباً كافياً لإصدار تفويض من المحكمة، فحضور الناس إلى العيادة هو الغاية منها. كلميني عن المجهول الآخر الذي تحدّثت عنه الآنسة **روسو**".

"إن الـــرجل الــــذي دُفـــن في دي ويز، **ويلي ويليامز**، هو رهاننا الصعب. وجدت **لي آن ميلر** طبيب الأسنان، وقام **بيري غرايمز** بإجراء المقارنات".

أبلغـــت الشريف عن والد **هيلمز**، وعن صاحب عمله: "آخر مرة رأى فيها **هاردستون هيلمز** كانت في خريف عام 2001".

جهّزت نفسي لسماع تشدّق رتيبٍ آخر. فاجأني **غوليت**.

"التقـــى أحد المساعدين الذين يعملون عندي أحد المتشردين الذي يعتقد أنه تبادل الشراب مع **ويلي هيلمز**".

"هل قدّم ذلك المتشرد وصفاً للرجل؟"

"يعـــاني الرجل من وجود بعض الثغرات في ذاكرته، لكنّ مساعدي تمكن من حملـــه علـــى القـــول إن **هيلمز** كان رجلاً طويلاً ومضطرباً وأشقر الشعر، ومحباً للمشروب الرديء النوع".

"تتناسب هذه المواصفات مع ما يتذكّره طبيب الأسنان عنه. متى جرى اللقاء الأخير بين ذلك الرجل، و**هيلمز**؟"

"تـــبدو روايـــة الرجل متماسكة في هذه النقطة. يقول إن اللقاء جرى عندما انهار المبنيان".

فكّرت للحظة: "أتعني البرجين التوأمين؟"

تنحـــنح **غوليت**: "حدث ذلك يوم الحادي عشر من أيلول (سبتمبر). ويقول إنـــه راقب مع **هيلمز** التغطية التلفزيونية للحدث في إحدى الحانات الموجودة قرب الميـــناء. يدّعي الرجل أنه لم يرَ **هيلمز** بعد ذلك... أصغي إليّ جيداً. قمتِ بعمل رائـــع فـــيما خـــصّ **مونتاغيو** و**هيلمز**، لكنني سأطلب منك الآن أن لا تتدخلي بموضوع العيادة. لا أريد إثارة الكلاب إلا إذا كانت لدينا قضية".

"عن أية قضية تتحدّث؟"

مرّت فترة صمت طويلة.

"قضية المريضين".

"لا تقل لي...".

"إنني لا أضع أية أدلة بين يديك. انسحبي الآن يا دكتورة، لأن العيادة لا تقع ضمن منطقة صلاحياتي. يتعيّن عليّ تقديم دليل لشرطة المدينة إذا كنت أعتزم التدخل".

"تبيّن أن **كروكشنك**، و**هيلمز**، و**مونتاغيو**، ماتوا جميعاً في منطقة صلاحياتك".

لم يقل **غوليت** شيئاً. إنه بالطبع يعرف هذا، لكنني أردت مع ذلك أن أبرز وجهة نظري: "هل تقول لي إن دائرتك ستتمكن من التحقيق مع **مارشال**، وموظفيه، إذا وجدتُ علاقة ما بين شخصٍ مفقودٍ آخر، وبين العيادة؟ أم هل ستجعل شرطة المدينة تقوم بهذا؟"

"تمتلكين، لحدّ الآن، موظفةً غاضبةً قد تكون هربت، ورجل التحري الذي استأجره والدها ليجدها. إن ذلك لا يكفي، لكن إذا اكتشفت فقدان مريضٍ آخر، فستحصلين على انتباهي الكامل. سأقول لكِ شيئاً آخر، امتلكتِ جهاز الحاسوب المحمول لذلك التحري مدة كافية. أريد استرجاع ذلك الجهاز في صباح يوم الثلاثاء".

سمعت نغمة الخط الهاتفي.

استمع **بيتي** و**رايان** إلى الجزء الذي تكلمته أنا من المحادثة، وأبلغتهم بما قاله **غوليت**.

سأل **بيتي**: "لماذا يهتمّ الشريف بموضوع هذه العيادة؟"

قال **رايان**: "يدهشني **غوليت** لأنه ينتمي إلى أولئك الذين يطبقون القانون بشكل حرفي. إنه لا يسمح بدخول منزلٍ ما من دون تفويض حكومي. وإذا لم يجد دليل إدانة، فلا يعطي تفويضاً على الإطلاق".

قلتُ: "أو إنه على علاقة حميمة مع **هيرون**".

قال **بيتي**: "لربما كانت **كنيسة رحمة الله** هي المساهمة الرئيسية في حملة **غوليت** الانتخابية".

فكّرت أنه ربما يكون هذا صحيحاً، وقد يكون أحد المواطنين النافذين يمارس ضغطاً على الشريف.

أحـــضرت الـــصندوق الذي يحتوي على ملفات **كروكشنك** ووضعته على الطاولـــة بعـــد إزالة الأطباق عنها. أسرع **بيتي** بأخذ ملف **هيلين**، واسترخى على الأريكـــة. أطلعت **رايان** على الملف الذي حضّرته في حاسوبي المحمول، بينما راح **بويد** يتنقّل ما بين المطبخ، والمكان المخصص له. وفضّل **بيردي** أن يبقى مطلاً من مكانه من فوق الثلاجة حيث الحرارة تقلّ عن الصفر.

أضـــفت **أونـــيغ مونتاغـــيو وويلـــي هيلمـــز** إلى الملف، ثم تناولت قضايا **كروكشنك** التي عمل بها من دون تكليف من أحد.

قلتُ: "لا يحتوي ملفّا **هيلمز ومونتاغيو** إلاّ على ملاحظات فقط".

ألقى **رايان** نظرة على الملفين.

"وتحتوي ملفات أخرى على قصاصات صحف وملاحظات".

فتحت ملف **لويي آيكمان**، ثم تفحّصت مع **رايان** مقالة **وينبورن**.

تأمّـــل **رايـــان** لبرهة: "يعتقد **كوشارسكي** باحتمال أن يكون **هيلمز** مصاباً بمتلازمة توريت".

"تتوافق العوارض مع أوصافه".

"ويرجّح هذا إمكانية خضوعه لعلاج طبي".

"قد يكون الأمر كذلك".

لاحـــظ **رايـــان:** "كـــان **آيكمان** مصاباً بانفصام في الشخصية، ويخضع للعلاج".

"هكذا تقول المقالة".

"تناول أدويةً بناءً على وصفة طبيب".

فهمـــت مـــا قصده **رايان:** "أتعتقد باحتمال أن يكون **هيلمز** أو **آيكمان** قد تلقيا العلاج في العيادة التي تشرف عليها **كنيسة رحمة الله؟**"

"إنه أمر يستدعي المزيد من التفكير، لأننا اعتقدنا أن **ويلي هيلمز** كان يتردّد على العيادة، لكننا استبعدنا الأمر لاحقاً".

لم أكن أصغي في الواقع، بل رحت أتذكّر. إنه شخص مفقود آخر، ومقالة أخرى. إنها جثة أخرى انتشلها **غطاس** وسط عاصفة. ما هو اسمه يا ترى؟

تناولت الأوراق التي أخذت منها معلومات الملف الذي أعددته، ورحت أقلّب الصفحات. رفرف مستطيل صغير على سطح الطاولة، حمل هذا المستطيل قصاصة من عدد ***بوست وكوريية،*** الصادر نهار الجمعة، في التاسع عشر من شهر أيار (مايو).

قرأت بصوت عال، مكتفيةً بإسماع **رايان** النقاط البارزة.

قلتُ: "يبلغ **جيمي راي تيل** السابعة والأربعين من عمره، وهو رجل اختفى في الثامن من أيار (مايو). شوهد آخر مرة مغادراً شقة شقيقه الكائنة في شارع جاكسون، وقيل إنه توجه حينها لموعد طبي".

ابتعدت عن الطاولة، وتناولت دليل هاتف، ورحت أقلّب الصفحات التي تحتوي على أسماء الذين تبدأ أسماء عائلاتهم بحرف "التاء". وجدت اسم **نيلسون تيل** في جاكسون. طلبت الرقم الذي وجدته. سمعت عشر رنات على الطرف الآخر. طلبت الرقم مرة أخرى، وحصلت على النتيجة نفسها.

تبادلتُ و**رايان** النظرات.

قال **رايان**: "تعيش والدة **آيكمان** في جبل بلازانت".

عدت إلى دليل الهاتف مجدداً.

"لا يوجد اسم **آيكمان** في جبل بلازانت، لكنني وجدت اسم شخص يعيش في جزيرة النخيل. وهناك شخص آخر يعيش في مونكس كورنر، وشخصان آخران في تشارلستون".

تولّى **رايان** الاتصال بالأشخاص الذين يسكنون في الضواحي، بينما تولّيتُ الاتصال بالساكنين في مدينة تشارلستون نفسها. دُهشت عندما تلقيت ردوداً من الجميع، لكنني أسفت لأن أحداً منهم لم يعرف، أو يسمع **بلوني** أو والدته.

قلت: "سبق لي أن التقيت بالصحافي".

"هل لديك رقمه؟"

تنقلت بين أرقام هواتف المكالمات التي تلقيتها. ووجدت أن رقم **وينبورن** ما زال محفوظاً عندي. بدا لي أن الاتصال به هو فكرة ضرورية لا بد منها، لكن ذلك المغفل لم يدوّن أي شيء عن **كروكشنك**.

نظرت إلى ساعتي التي أشارت عقاربها إلى العاشرة وسبع دقائق. أخذت نفساً عميقاً وطلبت الرقم.

"**وينبورن**".

جاء الصوت متقطعاً، وكأن الكلمة خرجت من بين قطع كاراميل نصف ممضوغة.

"أنا الدكتورة **برينان**".

"انتظري قليلاً".

سمعت خشخشةً، ثم سمعت صوت البلع.

"حسناً. هاتي ما عندك".

كرّرت اسمي.

سمعت صوت قرقعة، ثم المزيد من صوت المضغ: "هل أنت السيدة التي أشرفت على موقع التنقيب في دي ويز؟"

"نعم".

بدا **بلانكتون** مزعجاً على الهاتف مثلما هو مزعج بشخصه: "هل حصلت على أكثر ما راهنت عليه، يا دكتورة؟"

"كتبتَ، يا سيد **وينبورن**، مقالة في عدد آذار (مارس) الماضي في صحيفة ***أخبار مولتري***. وتتحدث هذه المقالة عن اختفاء رجل يُدعى **لويي آيكمان** في عام 2004".

"أستغرب هذا الأمر. هل من المعقول أن تقرأ الحسناء مقالاتي؟"

عندها قاومت الحسناء دافعاً لقطع الاتصال.

"هل لي أن أسأل لماذا كتبتَ مقالة عن اختفاء **آيكمان** بعد مرور وقت طويل على اختفائه؟"

"هل تتصلين بي لتخبريني أن ذلك الهيكل العظمي يخصّ **لويي** المسكين؟"

"لا. لا أتصل لهذا السبب".

"لكن الهيكل هو هيكله، أليس كذلك؟"

"لا".

"يا لهذه التفاهة".

انتظرت قليلاً.

"هل ما تزالين على الخط؟"

"نعم، ما زلتُ على الخط".

"أليست الجثة في دي ويز هي جثة **آيكمان**؟"

"لا تخصّ تلك البقايا **لوني آيكمان**".

"لكنك تعرفين هوية صاحبها".

"لست مخولة للإفصاح عن هذه المعلومة يا سيد **وينبورن**، لكنني أريد أن أعرف سبب اهتمامك **بلوني آيكمان**".

خرجت الكلمات من فمه وكأنها ممضوغة: "أعتقد أنك تعرفين التقليد المتبع. تعطينني معلومة من عندك، وأعطيك معلومة من عندي. أشعر، فجأة، برغبة شديدة للحصول على معلومات".

تردّدت قليلاً وأنا أفكّر بالمعلومات التي يجدر بي أن أعطيها لذلك المخلوق الذي ينتمي للزواحف.

"تمكنّا من تحديد هوية الرجل الذي اكتشفناه في دي ويز بصورة قاطعة، وذلك عن طريق سجلات الأسنان. لا أمتلك صلاحية الإفصاح عن اسمه، لكنني أعدك أن أقنع المحققة الجنائية بإعطائك هذا الاسم بعد أن يجري إعلام أقربائه".

"هل هذا كل شيء؟"

"أعدك أيضاً أنه إذا تبيّن أن ذلك الهيكل في دي ويز يصلح أن يكون من ضمن الأخبار العاجلة...".

"هل قلت، فعلاً، الأخبار العاجلة على شاشات التلفزة؟ مثل شبكة سي. أن. أن؟ وهل أستطيع أن أظهر قليلا في برنامج آندرسون كوبر؟ أتعتقدين أن وولف سيدعوني إلى برنامج سيتيوايشن روم؟"

"سيد **وينبورن**، أنا...".

"الأخبار العاجلة! أعتقد أنني سأطير فرحاً".

جعلتني ثرثرة **وينبورن** أشعر بالعصبية.

"أرغب، بكل بساطة، أن أعرف ما جمعتَه عن **لوني آيكمان** من معلومات".

"لماذا؟"

قلت بصوت حانق: "قد تفيدنا هذه المعلومات في التحقيق بقضية وفاة".

"وفاة مَن؟"

"لا أستطيع أن أخبرك".

"وما هو دور **كروكشنك** هنا؟"

"ماذا؟"

"وُجد ذلك المحقق الخاص معلقاً في متنــزه فرانسيس ماريون. ما هو دوره؟"

"جاء في تقريرك أن والدة **آيكمان** تعيش في جبل بلازانت، ومع ذلك لم أجد اسمها في الدليل".

"وماذا بشأن **كروكشنك**؟"

لم أســتطع الوصــول إلى شيء مع هذا الجدال، لذلك شعرت أن الوقت قد حان لأعطيه شيئاً.

"يُنظر إلى وفاة **كروكشنك** باعتبارها انتحاراً محتملاً".

"محتمل؟"

"ما يزال التحقيق الذي تجريه المحققة الجنائية مستمراً".

"وما هي الأشياء التي كان **كروكشنك** يبحث عنها؟"

"تخصَّص **كروكشنك** بالبحث عن الأشخاص المفقودين".

"أتعنين أشخاصاً مثل **لوني آيكمان**؟"

"لا أمــتلك ســبباً يجعلــني أشك بأن وفاة **كروكشنك** ترتبط باختفاء **لوني آيكمان**. جاء دوري، يا سيد **وينبورن**، للحصول على شيء منك".

"نعـــم، هـــذا حقك. تزوجت **سوزي آيكمان** مرة ثانية. تجدين رقم هاتفها تحت اسم عائلة زوجها الجديد".

"أيمكنك أن تعطيني رقمها؟"

"كيف تطلبين مني هذه المعلومة يا دكتورة؟ إذا أعطيتك إياها، فمعنى هذا أنني أخون الثقة، وسأعرّض المخبر لأشياء لا يعلمها إلا الله".

أطبقت فكيّ بتوتر: "هل تستطيع الاتصال بالسيدة **آيكمان** وتطلب منها الاتصال بي؟"

"بالتأكيد يا دكتورة. إننا نسير حسب الاتفاق، ألا تعتقدين ذلك؟"

اتصل بي مجدداً بعد مرور عشرين دقيقة.

"انتُشلت سيارة من قاع نهر صغير بمحاذاة الطريق السريع رقم 176، إلى الشمال الغربي من "غووز كريك". اكتشفت الشرطة أن سيدةً كانت تقود السيارة".

بدا **وينبورن** مرتجفاً.

"ماتت **سوزي روث آيكمان**".

27

"لم يجـد رجال الشرطة في مكان الحادث دلائل على أية تلاعبات مشبوهة، وافترضوا أن **سوزي روث** قد غفت، أو شردت، فانحرفت خارج الطريق".

"كم كان عمرها؟"

فقَـدَ صـوت **وينبورن** كل بهجته السابقة: "كانت في الثانية والسبعين من عمرها".

"هل كانت مريضة؟ هل عانت من أزمات قلبية؟ أو من خبلٍ ما؟"

بدأ عقلي بالتساؤل. إن حادث سير غامضاً، يذهب ضحيته شخص ما، لا بد أن يـستدعي اهـتمام المحققـة الجنائية. وُجدت جثة **سوزي روث آيكمان** نهار الخمـيس، وأنا تواجدتُ مع **إيما** طيلة ذلك النهار. لماذا لم تذكر لي شيئاً عن وفاة تلك المرأة العجوز؟ هل كانت مريضةً جداً؟ هل نسيت؟ أو هل اعتبرت الأمر غير ذي صلة؟

تـردّد **وينـبورن** قليلاً، وكأنه كان يفكر في مقدار المعلومات التي سيعطيني إياهـا، وتلك التي سيحجبها عني: "اسمعي، لم أتدخل هكذا لأفسد عملك في تلك الحفـرة، لأن تدخلـي كان الفكرة اللامعة لمحرر صحيفتي، إلى أن وجدت تلك العظام... كنت أبحث عن شيء ما خلال الشهرين الماضيين وحتى الآن".

انتظرت فترة طويلة أخرى.

"لا أريد التحدث عن هذه المسألة عبر الهاتف. التقيني غداً".

"أخبرني متى وأين".

"سـنلتقي أمام الكنيسة الموحدة (التي تقول بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح) عـند زاويـة كليفورد وآركدايل. اتبعي الممر المرصوف بالأحجار القرميدية حتى تصلي إلى ممر يوصل إلى كينغ. سأكون هناك عند الساعة التاسعة، وسأنتظرك عشر دقائق فقط".

"هل آتي لوحدي وأرتدي ثياباً سوداء؟"

"أجل. تعالي وحدك، ويمكنك ارتداء ما تشائين من ملابس".

سمعت نغمة خط الهاتف مجدداً. اعتدت مؤخراً على سماع تلك النغمة.

أخبرت **رايان** أثناء استعدادي للنوم بموعدي المرتقب مع **وينبورن**.

"هل تريدين أن أعلّق علماً على الشرفة؟"

قلت موافقةً: "أوه، نعم. افعل ذلك يا صاحب الدهاء".

تناول **رايان** قطعة من ثيابي، ورماها على الأرض.

مررت عند التاسعة من صباح اليوم التالي أمام بوابات الكنيسة الموحدة، بينما انتظرني **رايان** في كنيسة القديس يوحنا اللوثرية. تناهت إلى سماعي أصوات أجراس الكاتدرائية المعمدانية، وكنائس عمانوئيل آي. أم. إي، والميثودية المتحدة المقدسة، والأسـقفية، وكنيسة الأسكتلنديين الأوائل المشيخية. أعتقد في الواقع أنه ليس من العبث أن يُطلق لقب المدينة المقدسة على تشارلستون.

بـدت باحة الكنيسة الموحدة مثل دفيئة قاتلة. امتدّت صفوف من الأشجار المـورقة والخضراء اللون على جانبي الممر، وتمايلت نباتات الآس العطرية، والجنبة الاستوائية، وزنابق النهار في الأرض المخصصة للمدافن.

تـواجد **وينـبورن** في المكـان الذي وصفه تماماً. لاحظت أن الظلال التي تشكلت عند الساعة الخامسة جعلت وجهه يشبه منفضة سجائر غير نظيفة. ما هو تخميني؟ يبدو بلانكتون غير حليق الذقن حتى بعد أن ينتهي من الحلاقة.

راقـبني **وينبورن** أثناء اقترابي منه، ولاحظت أن ابتسامة حذرة قد ارتسمت على شفتيه.

"صباح الخير".

فكّـــرت في أنه من الأفضل لي أن أطلع بنتيجة من هذا اللقاء، وأجبتُ بكل حذر: "صباح الخير".

"اسمعي، لقد افترضنا وجود الشخص الخطأ...".

"سأكون شاكرة لك إذا لم تتحدّث عن قصة **كروكشنك**".

"أخفى محرر الصحيفة هذه المقالة".

كان عليّ أن أعرف: "ماذا عندك لتخبرني به".

"إنني أتحقق من شيء ما".

"قلتَ لي هذا الليلة الفائتة".

نظر **وينبورن** من فوق كتفه: "هناك شيء قذر يجري في هذه المدينة".

هل فعلاً قال ذلك المغفل الصغير: شيء *قذر يجري في هذه المدينة*؟

"بماذا كنت تحقّق يا سيد **وينبورن**؟"

"إنـــني أحقّق بشأن **كروكشنك**. سبق لي وأبلغتك ذلك، لكن ما لم أقله لك هو أن المقالة التي ظهرت في شهر آذار (مارس) حول **لوني آيكمان**، لم تكن المقالة الأولى عـــنه. كتبت مقالة أخرى في بداية اختفاء ذلك الرجل، أي في العام 2004. اكتشف **كروكشنك** القصة، ولاحقني".

أردت أن أســـأله كـــيف عرف هوية **كروكشنك**، لكنني أجّلت طرح هذا السؤال حتى وقتٍ لاحق: "هل التقيت **كروكشنك**؟ ومتى؟"

"التقـــيت **كروكـــشنك** في آذار (مارس) الفائت عندما جاء يسأل عن لوني آيكمان. تعرفينني جيداً، أريد أن أعرف السبب أولاً، لكن **كروكشنك** لم يتراجع، وهكذا اضطررت إلى استخدام قوى الإقناع التي أتمتّع بها".

"إنه مبدأ *خذ مني وأعطني*".

طـــرق **وينبورن** إصبعاً على إحدى جهتَي أنفه: "إنه عنوان اللعبة. أمتلك أنفـــاً فـــاعلاً. أســـتطيع أن أميّز وجود المحقق الخاص عندما يلاحق قضية ما. اعـــتقدت أن هـــناك قـــصةً مـــا، فبدأت بالبحث في ذات الثغرة التي يبحث **كروكشنك** فيها".

مرّ رجل مسنّ بتثاقل بالقرب منا، وهمهم بتحية أثناء مروره. أومأنا كلانا. راقب **وينبورن** الرجل في طريق عودته، وبدا مثل رجلٍ نباتي (حسب الأطعمة التي يتناولها) في فناء واسع.

"أبلغني **كروكشنك** أنه يبحث عن امرأة لها علاقة بالكنيسة، أو ربما تكون موظفة في عيادة طبية، أو عن شخص فُقد منذ الخريف الماضي. أضاف أنه يعتقد أنها تعرف **آيكمان**. أخبرته، في المقابل، عن **لوني**، لكنني كنت متشككاً. أتعرفين لماذا؟ اختفى **لوني** في عام 2004، فكيف يمكن لهذه الحسناء أن تعرفه؟ لاحقته لهذا السبب، لكنني كنت متأكداً من أن **كروكشنك** لا يقصد الأماكن التي تقصدها راهبة".

"وماذا يعني ذلك؟"

"ظهر في إحدى الليالي في حانة تقع في شارع كينغ. إنها إحدى الحانات الرخيصة. رأيته في الليلة التالية يطوف ببعض الحانات الأخرى، ولاحظت أنه يداعب الفتيات العاملات فيها، هذا إذا فهمت ما أقصده".

لم يكن ما سمعته منطقياً. أعرف أن وظيفة **كروكشنك** كانت إيجاد **هيلين فلين**. فهل كان يعمل على إيجادها بالفعل؟ أم أنه كان يلهو فحسب؟

سألته: "كيف عرفت أن **كروكشنك** كان يقوم بمهمة؟"

هزّ **وينبورن** كتفيه.

"هل واجهته؟"

خفض **وينبورن** بصره نحو الأسفل، ثم رجع به إلى نقطةٍ ما فوق كتفيّ: "رآني في الليلة الثالثة".

استطعت أن أتخيّل المشهد. تخيّلت **وينبورن** حاملاً آلة تصويره النيكون، و**كروكشنك** يهدّد بسحقه.

"حافظت على برودة أعصابي حينها، وأبلغته أنني أعتقد أنه يخدعني، وقلت له إنني سأبقى في إثره حتى يُخبرني الحقيقة".

حاولت شرح الأمر: "طلب منك **كروكشنك** الانصراف قبل استخدام القوة معك".

"حسناً. تراجعت. وماذا في ذلك؟ هل التقيت بذلك المتفاخر؟"

اضـطررت للاعتراف أنه سبق لي أن رأيت صورة **كروكشنك**. بدا الرجل نحيلاً ودنيئاً، مع أنه لا يوحي بأنه قوي جداً. أعتقد أنه كان سيرعبني أنا الأخرى.

"ومتى حدث ذلك؟"

"جرى هذا في التاسع عشر من شهر آذار (مارس)".

سألته: "ماذا أخبرتَ **كروكشنك** عن **لوني آيكمان**؟"

"أبلغـته مـا أخبرتني إياه أمه. قلت له إن الرجل غريب بعض الشيء، وهو يعـتقد أن عملاءً حكوميين قد زرعوا جهازاً ما في دماغه. اعتاد الرجل أن يرسل بريداً إلكترونياً لمجموعة واسعة من الناس، بدءاً من الذين يلتقطون الكلاب الشاردة ووصولاً إلى جورج دبليو. يبلغ الرجل الرابعة والثلاثين من العمر، وهو عاطل عن العمل، ويعيش مع والدته، وهي بالمناسبة امرأة لطيفة".

"وصـفت **آيكمان** في مقالتك على أنه يعاني من انفصام في الشخصية. هل كان يتناول أدوية؟"

"كان يتناول الأدوية بين الحين والآخر. تعرفين كيف تجري هذه الأمور".

"هل تعرف أين كان يتعالج؟"

"لم نتحدث عن هذا الموضوع مطلقاً".

"ألم تسأل؟"

وضع **وينبورن** ذراعيه المكسوتين بالشعر بشكل متقاطع على صدره العريض: "لم أعتبر أن هذه المسألة مهمة. عملت **سوزي روث** طيلة حياتها في معمل خياطة، وأعتقد أن لديها بوليصة تأمين تستطيع معها الإنفاق عليه بسبب إعاقته".

"هل كانت ما تزال موظفة حينما اختفى **لوني**؟"

بحـث **وينبورن** في جيبه الخلفي، وتناول منه نسخة عن مقالته التي كتبها في عـام 2004 ونـاولني إياها: "تقاعدت منذ سنوات عديدة... هذا هو ابن الوالدة **آيكمان** الصغير".

لم تشتمل المقالة على أي شيء غير الذي ظهر في مقالته التالية، لكن الصورة هي التي استرعت انتباهي.

سألته: "كم مضى من الوقت على التقاط هذه الصورة؟"

"وقـــع الرجل في وهم أن عملاء وكالة المخابرات المركزية يراقبون دماغه. لم يـــسمح لأحد بالتقاط صورة له، وذهب إلى حدّ التخلص من كل صورة قديمة له يجدها في المنـــزل. نسخت هذه عن صورة مدرسية أخفتها **سوزي روث** جيداً".

شـــبك **وينـــبورن** أصـــابع يديـــه: "والآن أعطيني ما عندك. ما هي قصة **كروكشنك**؟"

انتقـــيت كلماتي بعناية: "يظهر من ملفات **كروكشنك** أنه كان يبحث عن أشـــخاص مفقـــودين في مـــنطقة تشارلستون. كان بعض هؤلاء من المدمنين، أو يعملون في البغاء، لكن آخرين لم يكونوا كذلك".

بـــدا **وينبورن** مثل مالكة كليوبترا السابقة: "يختفي البغاة ومدمنو المخدرات بشكل دائم. أعطيني اسماً معروفاً".

تـــناولت ورقـــة من حقيبتي، وقرأت الأسماء التي نقلتها عن ملفي في جهاز الحاســـوب، لكنني أغفلت ذكر **أونيغ مونتاغيو وويلي هيلمز**: "**روز ماري مون. روبي آن واتلي. هارمون بون. باركر إثريدج. دانيال سنايب. جيمي راي تيل. ماثيو سمرفيلد**".

"ومـــاذا بـــشأن السيدة التي كانت تتردّد على الكنيسة. هل تقولين لي اسمها مجدداً؟"

"**هيلين فلين**".

"أعـــتقد أنهـــا كانت إحدى الفدائيات التي تحاول إنقاذ كل شخص في هذا العالم من الذهاب إلى جهنم، صحيح؟"

"كانت تعمل في **كنيسة رحمة الله**".

"أعتقد أن المسيحيين يتعذبون كثيراً في زحفهم هذا، إن كان يهمك سماع رأيي. حصل **جيمي راي تيل**، وابن عضو المجلس البلدي، **ماثيو سمرفيلد**، على كـــثير مـــن التغطـــية الإعلامـــية مؤخـــراً، ولهذا السبب أعرف أسماءهم. أما الباقون...".

هزّ **وينبورن** كتفيه، وزمّ شفتيه.

قدّمت له الورقة التي كتبت عليها الأسماء: "هل تتذكّر تفاصيل أخرى عن **آيكمان؟**"

"لم أكن متأكداً عندها أنها ستصبح قصة العام".

اندفعتُ بالسؤال: "هل سبق لك وسمعت عن رجل يدعى **تشستر بينكني؟**"

هز **وينبورن** رأسه: "لماذا؟"

لم أخبره أن محفظة **بينكني** وُجدت في سترة **كروكشنك**: "هناك احتمال أن يكون **كروكشنك** قد عرفه".

رحت أتساءل لماذا استدعت هذه المحادثة هذا الاجتماع الغريب: "اتصّل بي إذا تذكّرت أشياء أخرى".

سرت خطوتين في الطريق قبل أن يوقفني صوت **وينبورن**.

"أغفل **كروكشنك** شيئاً".

استدرت.

"قال لي إنه عثر على أمرٍ يتعدّى عاملة مفقودة من الكنيسة".

"ماذا تعني؟"

"لا أعرف شيئاً بالتحديد، لكن أليس من الغريب أن يُعثر على **كروكشنك** متدلياً من شجرة؟"

تطلّع **وينبورن** من وراء كتفه مجدداً: "والآن وُجدت **سوزي روث** ميتةً في سيارتها".

أسرعت بتشغيل جهاز الحاسوب المحمول فور وصولي إلى المنزل برفقة **رايان**. فتحت الملف الذي احتفظت فيه بصور القرص المدمج الذي أعدّه **كروكشنك**. انضمّ إلينا **بيتي** أثناء استعراضنا للصور الرقمية. شعرت بوجودهما على جانبيّ، وكأنهما وعلان مشاكسان على طريق جبلي ضيق.

حملت صورٌ قليلةٌ فقط شبهاً غير واضح مع **لويي آيكمان**، وفشلت في العثور على شبيه واضح له من بين الداخلين، أو الخارجين من العيادة. التُقطت الصورة التي قدّمتها **سوزي روث** قبل خمس عشرة سنة، ولاحظتُ ضياع الكثير من

التفاصـــيل في نسخة **وينبورن** المصورة. لاحظت أيضاً أن الكثيرين من الأشخاص الذين يظهرون في صور **كروكشنك** ينظرون بعيداً عن الكاميرا، لكن هذه الصور تصبح غير واضحة عند تكبيرها.

تبادل **بيتي ورايان** عبارات التهكم أثناء استعراضي للصور، لكنهما لم يتخليا عـــن نبرة الاحترام في صوتيهما. شعرت بالتعب من مبارزتهما بعد مرور ساعة من الزمن، فغادرت إلى غرفتي كي أحاول الاتصال برقم **نيلسون تيل** مجدداً. وفشلت محاولتي هذه.

حـــضّر **بـــيتي** بعض الشطائر (السندويتشات) أثناء غيابي، بينما اتصل **رايان** بابنته **ليلي**. استمرّ هاتف ابنته بتجاهل مكالمته، لكن اتصاله مع **لوتشيتا** أكّد له أن **ليلي** بخير، لكنها ما تزال ترفض الاتصال بوالدها.

اجتمعـــنا عند الظهيرة في المطبخ، فبدأ الكر والفر الذهنيان عند الرجلين من جديد. سئمت أثناء تناولنا للغداء من هذا الوضع.

"تتصرفان وكأنكما رجلان هاربان من إصلاحية للأحداث".

تحوّل الوجهان إلى قمة البراءة.

تعبت أعصابي من جو التشاحن المستمر بينهما، ولم أصدق نفسي حينما قلت لهما: "ما رأيكما لو نأخذ إجازة. إنها عطلة نهاية الأسبوع، وأعتقد أن تمضية بعض الوقت في الهواء الطلق ستعطينا بعض الانتعاش".

"تستطيع أن تلعب الغولف يا **بيتي** لبعض الوقت، أما أنت يا **رايان** فتعال معي لنتوجّه إلى المدينة كي نحتجز **إيما** لتمضي معنا يوماً على الشاطئ".

لم يعترض أي من الرجلين.

اســـتغرقت عملـــية إقناع **إيما** عشرين دقيقة من الجدال، لكنها استسلمت أخيراً.

تألقـــت الشمس بحرارة لاهبة، وبدت السماء بلون الخزف الأزرق، لكن لم نلاحـــظ أية غيمة على صفحتها. وجدنا أن عشاق الشمس الذين يمضون عطلتهم علـــى الشاطئ قد بدأوا نشاطهم، واستسلموا لحروق الشمس وهم مستلقون فوق مناشفهم، أو على مقاعد البحر، ولم يهتموا للأذى الذي يصيب بشراتهم.

تبادلتُ و**إيما** الاستلقاء على مفارش هوائية، والمشي على الشاطئ، واستمتعنا بالموج الذي يداعب كواحلنا. وانصرفت أسراب البجع فوقنا بتشكيل مساراها. راقبنا أحد أفراد السرب وهو يضمّ جناحيه، ويقوم بعملية هبوط باتجاه البحر. استطاعت بعض الطيور المحظوظة العوم مع سمكة في مناقيرها، ورأينا المياه تنحدر عن جانبي مناقير غير المحظوظين منها.

أخبرت **إيما** أثناء المشي معها عن تفاصيل محادثتي مع **غوليت ووينبورن**، وسألتها إن كنت أستطيع العمل في المشرحة في الصباح. أكّدت لي **إيما** أنها سترتّب مسألة الإذن مجدداً. شعرت بدافع في داخلي كي أسألها عن **سوزي روث آيكمان**، لكنني لم أفعل ذلك. لم أستوضحها كذلك عن ضحية تلك الرحلة البحرية التي قرأت عنها في المقالة التي كتبها **وينبورن** عن **آيكمان**.

أمضى **رايان** الوقت وهو يقرأ رواية للكاتبة بات كونروي أثناء استلقائه في ظل مظلّة ضخمة استطعنا أخذها من منزل **آن**. قام **رايان** بين الحين والآخر بالسباحة على طريقة الزحف، وأحياناً أخرى على الطريقة الفرنسية - الكندية، والتي تتميّز بالتجذيف إلى الوراء، ليعود بعد ذلك إلى تجفيف نفسه ووضع بعض الزيت على جسمه قبل أن يعود للاسترخاء في مقعده.

عدنا إلى منزل **البحر على امتداد أميال**، ولاحظت أن لون **إيما** عاد إلى طبيعته، أما لون **رايان** فتغيّر من الأبيض إلى الزهري.

استحممت، وتوجّهنا نحن الثلاثة إلى مطعم **ملفين** للحصول على بعض الشواء. اصطحبت **إيما** إلى منزلها برفقة **رايان**. قضينا جميعاً مساءً مريحاً وهادئاً ومرحاً.

جاءت هذه النزهة في وقتها المناسب، لأنني اضطررت بعد ذلك لمواجهة تأنيب **غوليت** الذي لم يأبه بكون اليوم هو يوم عطلة نهاية الأسبوع.

28

اتجهتُ **ورايان** إلى مستشفى MUSC عند الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي. بدا **رايان** مرتاحاً للمرة الأولى منذ وصوله إلى تشارلستون، ولربما يعود ذلــك إلى محادثة هاتفية أخرى أجراها مع والدة **ليلي**. وافقت **ليلي** على التحدث مع أخصائي آخر بالرغم من أنها ما تزال غاضبة منه، وتتصرّف معه بعدائية. وعلم **رايان** أن **لوتشيتا** ترتّب سلسلة من المواعيد مع الأخصائي الجديد.

هــل تعود حالته هذه إلى سفعة الشمس، أم للوقت الحميم الذي قضيناه بعد تناول المشاوي. بدا **رايان** أقل توتراً بغضّ النظر عن الأسباب.

التقتنا **لي آن ميلر** عند باب المشرحة. سمعت منها نفس التعليقات، التي سبق لــ**رايان** أن وجّهها لي في الصباح، بخصوص الكدمة المتعددة الألوان الموجودة على ذراعــي. انصرفتْ بعدها لتحضر السيدة التي كانت في البرميل من البراد. حاولت الاتصال مجدداً في غيابها مع **نيلسون تيل**. وجدت الخط مشغولاً هذه المرة.

اعتــبرت ذلك تقدماً محتملاً. إن إشارة الخط المشغول تدلّ على أن أحداً ما يتواجد في المنــزل، إلا إذا كانت مكالمة آتية أخرى هي التي تشغل الخط.

انــصرفت **ميلــر** إلى أعمالهــا المكتبية بعد أن أحضرت بقايا المرأة إلى غرفة التشريح. استرخى **رايان** على مقعد، وانصرف لمتابعة قراءة كتاب كونروي.

وضعت قفازين في يديّ، ثم أخرجت الهيكل العظمي. شعرت بدافع كي أبدأ مباشــرةً بالفقرات العنقية، وذلك بفضل تجربتي السابقة مع **كروكشنك وهيلمز**.

فـــضّلت أخـــيراً أن أتّبع البروتوكول الذي يفرض البدء من الرأس باتجاه القدمين، وفحصَ كل عظمة تحت العدسة المكبّرة.

لم ألاحظ علاّمات تدلّ على العنف في الجمجمة، وكذلك بقي الفك سليماً. لم أجـــد شـــيئاً على اليدين، وأيضاً على عظام الذراعين والكتفين. وبقيت عظام القفص الصدري (الصدر)، والفقرات العنقية العليا سليمة.

بعدها تغيّر كل شيء.

شعرت برعب بارد في داخلي. قلت **لرايان**: "انظر إلى هذه".

نظر **رايان** في عدسة المجهر.

"إنـــك تتطلع على النتوء المستعرض الأيسر للفقرة C-6. لاحظ أن الكسور تـــشبه تلك التي وجدتها عند **هيلمز** و**كروكشنك**. تتواجد هذه الكَسور في نفس الفقرة، ونفس الجهة".

"هل توجد كسور في العظمة اللامية؟"

أشار **رايان** إلى إحدى عظام الرقبة التي تأخذ شكل الحرف U، والتي عادةً ما تنكسر أثناء الخنق اليدوي.

"لا".

انتصب **رايان** في وقفته: "هل الكسور ناتجة عن عملية شنق؟"

"تنحصر الكسور في جهة واحدة".

تابـــع **رايان** تفحّص نفس قائمة الاحتمالات التي اتبعتها: "هل هي ناتجة عن شدٌّ مفاجئ؟"

أشـــرت إلى كـــسر مفـــصلي عمـــودي ظهر على الصفيحة الأمامية للنتوء المستعرض: "ربما. تنطلق من هنا العضلة العنقية الأمامية".

حـــرّكت طرف قلمي نحو النتوء العظمي الموجود إلى جانب الكسر: "يدعى هـــذا النتوء" الدرينة السباتية"، لأنها نقطة الضغط للشريان السباتي. ويتسبّب الشد المفاجـــئ بانضغاط الغمد السباتي. وإذا كان الانضغاط قوياً بما يكفي فبإمكانه منع سريان الدم من وإلى الدماغ، ويُحتمل أن يتسبّب هذا الوضع بالموت".

"هل حدث ذلك بسبب وضعية نيلسون؟"

أشـــار **رايان** إلى وضعية حركة في المصارعة، حيث يقوم أحد المتصارعَين بإدخـــال ذراعـــه تحت إبط خصمه من الخلف، ويضغط بها على منطقة خلف الرقبة.

رفعـــت راحتَي يديّ نتيجة الإحباط. فكّرت بهذا منذ رؤيتي للكسور للمرة الأولى على فقرة **ويلي هيلمز** العنقية، لكنني لم أتوصّل إلى نتيجة.

"أتفهـــم فيـــزيولوجية الإصابة، لكن الآلية هي التي تحيّرني. يوحي الكسر المفـــصلي باســـتخدام الكثير من القوة. إن الشدّ القوي بما يكفي على الظهر، والـــشد بالاتجاه العرضي للرأس، على عضلات العنق المتقلصة، عادة ما يؤديان إلى تمـــزّق، أو تخلخـــل الدرنات الأمامية للفقرات الرابعة والخامسة والسادسة. كـــيف يمكـــن لهذه القوة الكبيرة أن تُستخدم، وتنكسر مع ذلك عظمة واحدة فقط؟"

أرسل **رايان** باتجاهي إشارة معناها *لست أدري*، ثم عاد لقراءة روايته.

عدت باهتمامي إلى العظام.

مضت دقائق قليلة قبل أن أكتشف الشق الأول في العظمة L-3 المجاورة لمنطقة الـــبطن. لاحظت أن هذه الحالة تشبه تلك الموجودة عند **هيلمز**. امتدّ الرعب الآن إلى صدري، لكنني تابعت فحصي.

استغرق الأمر أقل من ساعة. لخّصت النتيجة **لرايان** عندما انتهيت، وأشرت بقلمي على كل منطقة من مناطق الإصابة.

"لدينا هنا كسر مفصلي في النتوء المستعرض الأيسر من الفقرة العنقية رقم C-6. ويـــوجد ما مجموعه ثمانية شقوق (أو حزوز) على أسطح فقرات الخاصرة الثانية، والثالثة، والرابعة. هذا هو كل شيء. لم ألاحظ أذىً غير هذا في الهيكل".

سأل **رايان**: "أتعتقدين أنها طُعنت في البطن؟"

"لو كان في الأمر طعنة، لكان العمود الفقري قد تحرّك، ولكان النصل اخترق بطنها كله كي يجرح جوانبها الأمامية".

"ألديك فكرة عن نوع الأداة المستخدمة؟"

"لاحظت أن الشقوق رفيعة جداً، وتأخذ شكل الحرف V في مقطعها العرضي، وتتميّز بحواف نظيفة من دون وجود علامات أخرى. أستطيع أن أقول إنها نتيجة استخدام نصل حادٍ جداً غير مسنّن".

"هل من جروح نتيجة الدفاع عن النفس؟"

هززت رأسي: "إن عظام اليدين وأسفل اليدين غير مصابة".

"وهكذا تميّز **كروكشنك** بوجود الفقرات العنقية المكسورة، من دون وجود حزوز أخرى، لكن **هيلمز** و**مونتاغيو** لديهما الكسور والحزوز معاً".

تمكّنت من أن أخمّن أن **رايان** كان يفكر بصوت عالٍ.

"نعم. قد يكونوا قُتلا بواسطة قاتلٍ واحد، لكن ظُروفَ القتل مختلفة".

لم نستطِع، أنا و**رايان**، الإتيان بتفسير مناسب، لكن تعليق **رايان** الذي ذكره قبل قليل أيقظ بعض الذكريات عندي. أبلغ زميل لي قبل سنوات بوجود كسور فريدة من نوعها في منطقة وسط الرقبة. مَن هو هذا الزميل؟ وأين؟ وهل كان يتحدّث في عرضٍ أثناء اجتماع لأصحاب الاختصاص؟ هل جاء ذلك في مقالةٍ منشورة؟ وفي أية صحيفة؟

شعرت أنه من الضروري أن أجري اتصالاً.

عدنا بالسيارة إلى جزيرة النخيل، وأجريت اتصالاً جديداً مع **نيلسون تيل**. أجابتني امرأة هذه المرة. عرّفتها بنفسي، وشرحت لها سبب اتصالي. قالت المرأة إن اسمها هو **مني تيل**.

"هل تكلمينني بشأن **جيمي راي**، أعني قريبة زوجي **نيللي**. هل وجدته؟"

"لا سيدتي، أنا آسفة".

خطر على ذهني ذلك الجزء المفقود من سجل **راي** الطبي. دلتني لهجة مني أن آل **تيل** ينتمون إلى أصول أميركية أفريقية.

"حسناً، إذاً أنت لا تتصلين لتقولي لي إنه مات، شكراً لله على ذلك".

"هل يعيش **جيمي راي** معك؟"

"يا الله، لا. يحب **جيمي راي** أن يجول في أرصفة الميناء. إن عقله ليس سليماً جداً".

شعرت بالاضطراب: "إذا كان **جيمي راي** يعيش في الشوارع، فكيف علمتِ أنه مفقود؟"

"إنـــني أحضّر لذلك المسكين لحم حمل مشوي كل يوم اثنين، وأنا أعتبر ذلك جزءاً من واجباتي تجاه الله. جاء **جيمي راي** باكراً يوم الاثنين قبل الفائت، وقال إنه يريد أن يأخذ حماماً لأن لديه موعداً مع الطبيب. إنه يفعل ذلك بين الحين والآخر، وهو ينظّف نفسه في منـــزلنا.

"بـــدأ **جيمي راي** يخبرني عن بعض الطفح الذي يعاني منه. يا الله، لم أرغب بسماعه يتحدّث عن ذلك الموضوع. لم يكد يصل إلى المنـــزل حتى غادره ولم يعد أبـــداً، لكـــن ذلـــك ليس من عادة **جيمي راي** مطلقاً. يمتلك ذلك الرجل عاداته الخاصـــة به، ولا يُقدم على شيء يخالف روتينه المعتاد. عرفت أن هناك شيئاً ما في الأفق عندما مرّ يومان من أيام الاثنين من دون أن يظهر **جيمي راي**. يحبّ الرجل بالتأكيد لحم الدجاج الذي أعدّه له".

"هل تعرفين المكان الذي قصده **جيمي راي** لرؤية الطبيب؟"

"لم يكن عنده موعد، لأن **جيمي راي** لا يستطيع دفع نقود لطبيب خاص".

مرّت فترة هدوء: "حقاً؟"

"إنه يقصد العيادة المجانية الموجودة في ناسو، مثلما تفعل **نيللي**، وأنا أيضاً".

مرّت فترة صمت أخرى: "أتقصدين العيادة التي تديرها **كنيسة رحمة الله**؟"

"إنها هي. لا مواعيد في تلك العيادة، بل يكتفي المرء بالجلوس، وينتظر أن يأتي دوره".

أشـــرت بإبهامـــي **لـــرايان** دلالة على توصلنا لنتيجة ما. رفع يده عن عجلة القـــيادة، وأشار لي بالمقابل، وليقول إنه علم أنني استطعت إيجاد رابطٍ ما بين **تيل** والعيادة.

"شكراً لكِ سيدة **تيل**".

"أبلغوا **جيمي راي** عندما تجدونه أن لحم الدجاج بانتظاره".

أنهـــيت الاتـــصال ورفعت راحة يدي، فأسرع **رايان** لشبك راحة يده بيدي المرفوعة.

طلبت رقم **غوليت**، وقلت: "وهكذا أصبحوا ثلاثة".

توقــف ابتهاجـــي فجأة عندما قالت عاملة الهاتف عند **غوليت** إن رئيسها ســيغيب عن المكتب حتى يوم الثلاثاء. أكّدت لها مدى أهمية اتصالي به. قالت إن الشريف ذهب في رحلة لصيد السمك، ولا يمكن الاتصال به.

هـــل أتـــصل بصديقتي **إيما**؟ قرّرت أن أنتظر حتى أستطيع فهم مغزى وجود الكسور على عظام الرقبة.

اكتشفت عندما وصلت إلى منـــزل **البحر على امتداد أميال** برفقة **رايان** أن **بـــيتي** ليس موجوداً فيه. اعتبرت أن غياب **بيتي** نعمة، لأن سلوكه مع **رايان** هذه الأيام بات لا يطاق.

تـــوجّهت مباشرة إلى حاسوبي المحمول، ودخلت إلى شبكة الإنترنت. افترض **رايان** أنني سأنشغل لبعض الوقت، فتوجّه لينتقي لنفسه بعض الملابس التي تتناسب مع الطقس.

بـــدأت بتقلـــيب صفحات ***صحيفة العلم الجنائي***. لم أجد شيئاً. انتقلت إلى تـــصفّح عـــدة منـــشورات تهتمّ بالعلم الجنائي. مرّت ساعتان قبل أن أستنفد كل الأفكار. لم أجد شيئاً يتماشى مع النموذج الذي أبحث عنه، مع أنني أصبحت على معـــرفة بالجرحـــى الذين سقطوا نتيجة حوادث السير، ولعبة الهوكي، والغطس، وأولئك الذين جُرحوا أثناء تصديهم ***لرماح*** كرة القدم. حاولت جاهدة أن أتذكر أين قرأت التقرير الذي أبحث عنه، لكنني لم أفلح.

حدّقت بشاشة الحاسوب، وشعرت بالإحباط، وتساءلت للمرة المليار إن كان أي شيء يربط هذه القضايا فعلاً. أظهر **كروكشنك، وهيلمز، ومونتاغيو** كسوراً فـــريدة في الرقبة، وفي الفقرة العنقية السادسة بالتحديد. وظهرت كسور في منطقة عظـــام الظهر السفلى عند **هيلمز ومونتاغيو**. تردّدت **مونتاغيو** على عيادة **كنيسة رحمـــة الله** للمعالجـــة. تردّد **جيمي راي تيل** أيضاً على تلك العيادة لتلقي العلاج. وعملت **هيلين فلين** هناك.

تأكدت وفاة كلٌ من **مونتاغيو**، و**هيلمز**، و**كروكشنك**، أما **تيل وفلين** فهما في عداد المفقودين.

اختفـــى **لوني آيكمان**، أما **سوزي روث آيكمان** فماتت. هل كانت الوالدة وابنها من ضمن المرضى الذين تردّدوا على عيادة **كنيسة رحمة الله**؟ وما هو دور آل **آيكمـــان** في كـــل ذلـــك؟ وأيـــن أصـــبح الرجال المفقودون الذين بحث عنهم **كروكشنك**؟

يبدو أن العيادة هي الرابط بين هؤلاء جميعاً.

اشـــتكت **هيلين فلين** من العيادة إلى والدها قبل قطع اتصالاتها معه، وكذلك اشتكت **لهيرون**. أعلم أيضاً أن **كروكشنك** كان يراقب المكان.

أم هل كان **كروكشنك** يراقب الأشخاص، وليس المكان؟

لا أدري مـــا الذي دفعني لأنقر اسم **ليستر مارشال** على لوحة المفاتيح. سبق أن وصلتني أخبار عن مربي خيول عربية، ورجل آخر يعلّم علاج طاقة الجي كونغ، أو مهما كان اسمها.

أضفت كلمة دكتور للاسم، فوجدت نفسي أتطلع في صفحة دراسات يعدّها طبـــيب. يَعدُ هذا الموقع بإيراد كل شيء ما عدا وصفة جدة الطبيب المفضلة، لكن مقابل دفع مبلغ 7.95$.

لِمَ لا؟

أعطتني الدولارات الثمانية التي دفعتها المعلومات التالية.

عنوان **ليستر مارشال** ورقم هاتفه في العيادة الكائنة في شارع ناسو. اعتبرت ذلك نجاحاً هائلاً.

حـــصل **مارشـــال** على إجازة في الطب من معهد سان جورج الطبي في غرينادا.

ينحصر مجال علاج **مارشال** في حقل طب العائلة، مع أنه لا يحمل أية رخصة رسمية في اختصاص طبي.

لم يـــنفذ **مارشال** فترات الطبيب المقيم في أي مستشفى، ولا ينتسب إلى أية جمعية طبية.

عمل **مارشال** من ضمن الفريق الطبي في مستشفى "تولسا"، أوكلاهوما، من عام 1982 وحتى عام 1989. وظّفته **كنيسة رحمة الله** في عام 1995.

لم يتعـــرض **مارشـــال** لأية عقوبات تأديبية من سلطات الولاية، أو الحكومة الاتحادية.

سمعـــت صوت الباب الرئيسي يُفتح بينما كنت منهمكة بطبع هذه النتائج. استنتجت من أصوات الحفيف والخشخشة، أن عملية التسوق كانت ناجحة.

قبّل **رايان** أعلى جبهتي: "هل نجحت بإيجاد المقالة التي تبحثين عنها؟"

ناولـــت **رايان** التقرير الذي طبعته لتوي: "لا، لكنني أجريت بحثاً عن **ليستر مارشال**".

"غرينادا؟ هل هذا معهد طبي حقيقي؟"

"أعتقد ذلك، مع أنه لا يصل إلى مستوى جونـــز هوبكنـــز".

قال **رايان**: "يمتلك الرجل سجل توظيف متنوعاً".

"بالضبط، لكن أين كان **مارشال** في الفترة ما بين تسعة وثمانين وخمسة وتسعين؟"

"إنني أتساءل لماذا ترك أوكلاهوما".

"لـــن يعرض الموقع الإلكتروني أية معلومات فيما لو كان **مارشال** قد تعرّض لمتاعب في العام تسعة وثمانين. إنهم لا يجمعون معطيات عن ممارسات غير قانونية، أو الدعاوى القضائية، وكذلك فهم لا يُبلغون عن عقوبات تأديبية اتخذت قبل أكثر من خمس سنين".

"ألم تحاولي البحث عن **بيت بول**، و**دنيالز**؟"

هززت رأسي بالنفي.

نقل **رايان** مشترياته إلى غرفة النوم، بينما حاولت الحصول على معلومات عن **كـــوري دنيالز**، و**أديل بيري**. لم أحصل منهما على شيء له قيمته، لكنني عندما جرّبت تصفح صفحات تشارلستون البيضاء في دليل الهاتف، وجدت اسم **كوري. آر. دنيالز** في جزيرة سي بروك.

هـــل يعيش الممرض في سي بروك؟ بدا لي أن هذا هو أمر غريب. أعرف أن جزيرتّي "سي بروك" و"كياوا" هما من بين الأغلى بالنسبة للعقارات والإيجارات في منطقة تشارلستون. لا يوجد في الجزيرتين شقق رخيصة.

فكّرت في هذه المسألة ثم ظهر **رايان** مجدداً. اعتمر **رايان** قبعة سوداء على رأسه ووجّه حافتها نحو الخلف، وانتعل صندلاً من "التيفا" الأسود، كما ارتدى بنطالاً قصيراً أسود اللون، بالإضافة إلى بلوزة سوداء. وظهرت تحت الصورة الكلمات التالية: ***تأتي الكهرباء من الإلكترونيات، وتأتي الأخلاقيات من المغفلين.***

فكّرت بيني وبين نفسي بهذا اللون الأسود، لكنني قلت: "رائع".

"وجدت مغزى كبيراً لهذه الرسالة".

أما أنا فوجدت الرسالة غير مفهومة، لكنني لم أقل له ذلك.

قال **رايان**: "لم أرد أن أكون متأنقاً جداً".

قلت: "إنها ثياب سوداء على جلدٍ زهري اللون. آمل أن تستطيع الفتيات مقاومة هذا الإغراء".

"يُحتمل أن أواجه مشكلة في هذه الحالة".

"هل تريد أن تلقي نظرة على جهاز حاسوب **كروكشنك**؟"

"لست خبيراً جداً في مجال الحاسوب، لكنني أستطيع أن أقدم دعمي المعنوي، أو الأخلاقي".

أشرت إلى كلمات الرسالة المدونة على قميص **رايان**: "اترك الأخلاقيات للمغفلين".

سمعت عبارة استهجان في ذهني.

ماذا؟ كهرباء؟ ومصباح يعمل على بطارية؟ وملاك؟

يا الله. تذكرني هذه الرموز مجدداً بقبعة فريق الهورنيت الذي يشجّعه **بيتي** عندما لعب مع فريق تيل. استرجع عقلي هذا الاسم من أعماق ذاكرتي.

"لاري آنجل!"

أخذ **رايان** يقلّد فريق الكاربنترز الغنائي مستخدماً يده لتكون المايكروفون الوهمي: "كم أحبه، وكم أرتعش عندما يمرّ بقربي".

"لم أقصد **جوني آنجل**، لكن **لاري آنجل**، وهو الذي عمل بصفته أنثروبولوجياً فيزيائياً لدى سميثونيان لسنوات طويلة. لم يرد اسمه في مقالة وردت في صحيفة، لكنه ورد ضمن فصلٍ في كتاب".

تـــبعني **رايان** إلى غرفة المطالعة، وراقبني أثناء تناولي لكتاب من رزمة الكتب التي أستخدمها كمكتبة إعارة صغيرة يستخدمها طلابي الذين يشاركون في الصف الميداني (خارج نطاق الجامعة).

وجدتها هناك، صورة باللونين الأبيض والأسود للفقرة العنقية السادسة، والتي يظهـــر فيها كسر مفصلي عبر الصفيحة الأمامية، بالإضافة إلى شق رفيعٍ جداً عبر الصفيحة الخلفية للنتوء المستعرض.

قال **رايان**: "واو".

أجبته بتعبير **مماثل**.

تصفّحت النص بالاشتراك مع **رايان**.

شعرت بقشعريرة تجتاح كامل جسدي.

عرفت، الآن، كيف مات كلٌّ من **مونتاغيو**، **وهيلمز**، **وكروكشنك**.

29

"أجهـــزت علـــى قاتلٍ مأجور اعتاد على خنق ضحاياه باستخدام آلة لشدّ الأسلاك". استخدم **رايان** هنا تعبيراً عامياً لسلاح ورد وصفه في "فصل الملائكة". تحدّث هذا الفصل عن المدرسة القديمة، والبنادق المكروهة.

"نتحدث هنا عن وضع أنشوطة مصنوعة من سلك حول رأس الضحية، وشدّ جهة واحدة حول شيء صلب، مثل جزء صغير من أنبوب، أو مفكّ. وإذا أديرت الأنشوطة الجانبية، فإنها تشتدّ. إنها وسيلة بسيطة لكنها فعالة للخنق".

تنطبق هذه الطريقة على الوصف الذي جاء في فصل الملائكة.

شعرت بصدمة كادت تمنعني من الكلام.

"يفسّر لنا هذا كيف أن فقرة واحدة فقط تتعرّض للكسر، ومن جانب واحد فقط. يبدو أن الأنشوطة كانت من جهة اليسار".

تصوّرت الأنشوطة وهي تحيط برقبة **أونيغ مونتاغيو**، وكذلك العلامات التي نتجت عن محاولاتها اليائسة للحصول على هواء تتنفسه.

قلت: "يقدّم لنا هذا التفسير سبب الوفاة. لاحظت انحناء في الفقرتين C-6 وC-7 بمقدار يتراوح ما بين خمس وعشر درجات، ويعني ذلك أن الضغط الذي تعرّضـــت له "الدرنة السباتية" كان من الجهة الأمامية، وتمّ توجيهه إلى الأسفل والخلف... تجري في هذه الحالة إعاقة الدورة الدموية إلى الدماغ، ومنع وصول الهواء إلى الرئتين".

"هل أنتِ متأكدة من أنها نفس نوع الإصابة في هذه الحالات الثلاث؟"

أومأت.

سـدّد **رايان** باتجاهي نظرة من عينيه الزرقاوين الباردتين: "إذاً عرفنا أخيراً أن محققك الخاص السكير لم يقتل نفسه".

"عرفنا أن **كروكشنك**، و**هيلمز**، و**مونتاغيو** ماتوا جميعاً بطريقة الخنق".

"لكن لماذا؟"

"لا أعرف".

"نعـرف أيضاً أن **هيلمز** و**مونتاغيو** قد طُعنا، أو وُخزا، أو ثُقبا بطريقةٍ ما، لكن **كروكشنك** لم يتعرض لهذه الأمور الثلاثة. لماذا؟"

"لا أعرف".

"دُفـن **هيلمز** في قبرٍ ضحلٍ، ووُضعت **مونتاغيو** في برميل ورُميَت في البحر، أما **كروكشنك** فعُلّق على شجرةٍ".

"لا تقل هذا".

لم يطرح **رايان** تساؤله الثالث.

نهـضت واقفةً، وتناولت هاتفي الخلوي. راقبني **رايان** وأنا أنقر الأرقام: "إنها تلك العيادة. يعيدنا كل شيء لتلك العيادة. أراد **غوليت** تواجد ثلاث ضحايا، وأنا وجدتهم، لكن أين هو؟ هل خرج ليستنشق هواء البحر مع أصحابه".

أعـادت مـوظفة الهاتف عند **غوليت** ذات الرسالة على مسامعي. لا يمكننا الـتحدث مع الشريف. كرّرت القول إن اتصالي معه مهم جداً. فقالت لي إنها لا تـستطيع الاتصال به أبداً، وعندما سألتها عن رقم هاتف منـزله، أو رقم هاتفه الخلوي قطعت الاتصال.

"أيتها اللعي...".

بدا **رايان** منطقياً جداً: "اهدئي. اتصلي **بإيما**".

أجريت الاتصال **بإيما**. أبدت تأثرها بالأشياء التي توصّلت إليها، لكنها قالت إن شيئاً لن يتغيرّ بين ليلة وضحاها.

"رائـع. إن اهـتمامك يماثـل اهـتمام ذلك الشريف الغبي. يختفي بعض

الأشخاص، ويتبيّن أنهم ماتوا، لكن ما الفائدة. إنه توقيت سيئ لسوء الحظ! إنه يوم تكريم شهداء الواجب!"

وضع **رايان** ذراعيه بوضع متقاطع على صدره، وخفض ذقنه.

حاولت **إيما** أن تعرف سبب سخطي: "**تمب**...".

"ضـــعي المزيد من اللحم للشواء، واجرعي المزيد من شراب الشعير! اتركي **جيمـــي راي تيل** يتعفّن في مكان ما مع الأنشوطة الملتفة حول رقبته، وربما **هيلين فلين** أيضاً. من يدري؟ هل تنتظرين أن تلقّى بعض المومسات، وبعض الذين يعانون من انفصام في الشخصية، نفس المصير؟ اللعنة، إنه يوم عطلة!"

"**تمب**...".

"جـــرى خنق **كروكشنك**، و**مونتاغيو**، و**هيلمز** يا **إيما**. أقدم أحد المهووسين الذين يقتلون بدم بارد على وضع سلكٍ حول رقابهم، وأنهى حياتهم. يعلم الله ماذا جرى **لهيلمز** و**مونتاغيو**".

"**تمب**".

رحـــت أصرخ، وظهرتُ غير منطقية حتى بالنسبة إليّ أنا: "هل أنا الشخص الوحيد الذي يكترث بمصير هؤلاء الأشخاص؟"

رحـــت أتساءل عمّا إذا كان **تيل** و**فلين** ميتين في مكانٍ ما، فهل يؤدي أي شيء عاجل إلى إعادة الحياة لهما؟

"أريدك أن تتصلي بشقيقتي".

ذُهلت كلياً لكلامها هذا: "ماذا تقولين؟"

"هل ستفعلين هذا لأجلي؟"

يا الله، ماذا حدث: "سأفعل هذا بالطبع، لكن لماذا؟"

"استمرّ خصامنا فترةً طويلة جداً".

بلعت ريقي بصعوبة: "هل تحدثتِ مع الدكتورة **رسل** اليوم؟"

"سأتحدث معها غداً؟"

"ولماذا تغيّر موقفك تجاه شقيقتك؟"

"تحدثي مع سارة. قولي لها إنني أود أن تزورني".

"هل أستطيع...".

"نعم. أخبريها أنني مريضة".

"أعطيني رقم هاتفها".

مرّت فترة تردّد وارتباك: "لا أعرفه".

استفدت من مهاراتي الجديدة في التفتيش عن أرقام الأطباء في شبكة الإنترنت، واستطعت إيجاد رقم **مارك بيرفيس**، وهو طبيب قلب يعمل في مستشفيين. اختلف **بيرفيس** عن **مارشال** في حصوله على كل الإجازات المطلوبة لممارسة المهنة.

تصفّحت مواقع قليلة أخرى أفادتني أن **مارك بيرفيس** كان متزوجاً من **سارة روسو**، التي تخرجت في عام 1981 من مدرسة فلورنس الجنوبية الثانية، في ولاية كارولاينا الجنوبية. لاحظت أن عدداً من رفاق صف **سارة** يريدون الاتصال بها. تخيّلوا هذا.

حصلت أيضاً على رقم هاتف عائلة **بيرفيس** المنزلي، وعنوانها، وخريطة منزل العائلة. ليبارك الله عصر الإلكترونيات.

أعلمتني مدبرة منزل آل بيرفيس أن الدكتور وزوجته ما زالا في إيطاليا، ولن يعودا قبل الأسبوع الأول من حزيران (يونيو).

كدت أرمي الهاتف أرضاً. هل أعجز عن الاتصال بأي شخص في العالم؟

لاحظ **رايان** اضطرابي فاقترح أن نقوم بنزهة على الشاطئ. أيّد **بويد** هذه الفكرة. اتفقنا سوياً، أثناء قيامنا بهذه النزهة، على أن أفضل شيء يمكننا تحقيق تقدم فيه ذلك اليوم، هو أن نشغل أنفسنا بصناديق **كروكشنك** وحاسوبه المحمول.

تناولنا مشروباً عند رجوعنا إلى منزل **البحر على امتداد أميال**، ثم توجّهنا مباشرة إلى غرفة المطالعة. تشاركت الأريكة مع **رايان**، بينما اكتفى **بويد** بالجلوس عند مستوى أقدامنا. انضمّ **بيردي** إلينا، لكنه فضّل أن يراقبنا من فوق المدفأة.

سألته: "أترغب أن تجرب فكّ شيفرة **كروكشنك**؟"

خاطب **رايان بويد** باللقب الذي أطلقه عليه عندما التقاه للمرة الأولى: "ما رأيك يا **هووتش**؟" رفع **بويد** رأسه، وحرّك حاجبيه، ثم وضع ذقنه بين مخالبه.

"يقول **هووتش** إن لا مشكلة في هذا".

"سأنتهي من تفحّص هذا الصندوق الأخير".

لم أذكر سبب بقاء بعض الملفات من دون تفحص. فما السبب الذي يدفعني لإثارة ذكريات ليلة الأربعاء الماضي حين جمعني التعاطف والعناق مع **بيتي**.

ظهرت أمامي ذكريات ما حدث في الطريق ليلة الأربعاء.

سمعت صوت **بيتي** وهو ينادي من الرواق: "ما وراءك يا حلوة؟"

برزت عضلات فك **رايان**.

انطلـــق **بويد** من الغرفة. سمعت صوت همهمة، تبعه صوت خشخشة مضربَي غولف. ظهر **بيتي** بعد ثوانٍ قليلة، بينما تبختر **بويد** من حوله.

أومأ **رايان** محيياً **بيتي**: "حضرة المستشار".

"**تمب**".

أومأ **بيتي** نحوي. تمنّيت أن يحافظ هذان الشخصان الناضجان على تهذيبهما. ارتسمت ملامح ابتسامة على شفتي **بيتي**.

"أيتها الحلوة".

عبست في وجهه، محذرة إياه من البدء مجدداً.

سأل **بيتي** بكل براءة: "ما هي آخر الأخبار؟"

أوجزت له آخر التطورات.

"إنـــني أتفحـــص هذه الملفات التي بقيت، بينما يعتزم **رايان** إلقاء نظرة على المذكرات".

تميّـــز صـــوت **بيتي** بالحدة، ونظر باتجاهي قبل أن يتحوّل باتجاه **رايان**: "لعل التحـــري سينجح حيث فشل ذلك المحامي المسكين... هل تأمل بالعثور على دليل يوصلك إلى القاتل يا **آندي**؟"

"لا. هل من معلومات عن تحركات قواتنا في العراق يا **بيتي**".

وجّه **بيتي** إصبعاً باتجاه **رايان**: "انسَ الأمر. يا لك من رجلٍ مرحٍ يا **آندي**".

"لربما تحصد بعض الضحكات بالربط بين هذه الأمور".

أطلق **بيتي** طلقة وهمية من مسدسه الإصبع: "أنصحكما أن تنجُوَا بحياتيكما يا عزيزيَّ. سأذهب لأستحم".

تبع **بويد بيتي** إلى الباب.

"**بيتي**؟"

التفت نحوي: "نعم يا حلوتي؟"

"هل استطعت جمع بعض الأدلة من **كنيسة رحمة الله**، والتي تتعلّق بأسباب موت **كروكشنك**؟"

أجابني قبل أن يتحوّل باتجاه **رايان**: "أبداً على الإطلاق، وبالمناسبة خيارك ممتاز في انتقاء الملابس. يتماشى اللون الأسود مع كل شيء، كما أنه لا يحتاج للغسيل أبداً".

راقبت **بيتي** وهو يغادر الغرفة. احترت بتفسير مشاعري نحوه، هل هي الانزعاج؟ أم التعاطف؟ لا. أعتقد أنني أشعر بالأسى نتيجة خسارته.

وضعت الكأس جانباً، وبعض الأشياء العائدة **لكروكشنك** عندما كان في الشرطة، والصور. تناولت الكتاب والظرفين. بقي هذان الظرفان من دون فتح.

حمل الكتاب عنوان ***سجل الجريمة***، وجاء على الغلاف أنه يحتوي على تفاصيل "أكثر المجرمين شهرة في العصور الحديثة، مع سردٍ لجرائمهم البشعة".

إنها لائحة طويلة. فتحت الكتاب على جدول المحتويات. أورد الكتاب أسماء المشبوهين المعتادين من أمثال: ليزي بوردن، تيد بوندي، الدكتور كريبين، جيفري دامر، آلبرت فيش، شارلي مانسون، جاك السفاح، وبيتر ساتكليف.

شعرت بوخزة في صدري. لماذا كان **كروكشنك** يحاول جمع المعلومات عن القتلة التسلسليين؟ هل كان ذلك مجرد اهتمام شخصي؟ أم أنه كان يبحث عن دليل يوصله للأشخاص المفقودين في تشارلستون؟

وضعت الكتاب على الطاولة الصغيرة، ثم فتحت ظرف **كروكشنك** الأول. اشتملت محتويات الظرف على صورة واحدة وعدة صفحات طُبعت من الإنترنت. بدت هذه الصفحات مألوفة بالنسبة لي، بل ومألوفة جداً.

قلتُ: "كان **كروكشنك** يبحث عن **ليستر مارشال،** لأنه تفحّص صفحات إثبات الأهلية على المواقع ذاها التي تصفّحتها أنا".

"يــبدو الأمــر منطقياً بالنسبة لي، لأنه كان يدقق في المكان الذي يمارس فيه **مارشـــال** مهنة الطب. هل حصل **كروكشنك** على معلومات أكثر من تلك التي حصلت عليها؟"

"في الحقــيقة، لا. لكــن بعــض الــبحث الذي قام به تعلّق بطبيب آخر. تخــرّج **دومينـــيك رودريغز** من معهد القديس يوسف في نفس السنة التي تخرّج فــيها **مارشال،** أي في العام 1981. وعمل كجرّاح مقيم في جامعة كاليفورنيا - ســان ديــيغو، ثم مــارس الطب هناك حتى عام 1990. لا يورد الموقع شيئاً غير هذا".

أمسكت بالأوراق المنسوخة.

"يبدو أن **كروكشنك** حصل على قائمة بأسماء الأطباء المتخرجين من معهد القديس يوسف، وهم الأطباء الذين عملوا كأطباء مقيمين، في الفترة الممتدة من عــام ثمــانين وحــتى خمــسة وثمانين. ولا يبدو لي أنه حصل عليها من شبكة الإنترنت".

استمريت بالكلام أثناء قراءتي لهذه الأوراق.

"أرى الكثير من الأسماء الأجنبية، وهناك عدد من المراكز المهمة: مركز طبيب في الجهاز العصبي - جامعة شيكاغو، والطب الداخلي - جورجتاون، واختصاص الطــوارئ - ديــوك. لا يرد اسم **ليستر مارشال** هنا، لكن أُحيط اسم **دومينيك رودريغز** بدائرة. هل تعتقد أن **كروكشنك** كان يبحث عن هذا الرجل، لأنه كان مع **مارشال** في صف التخرج؟ لكن لماذا **رودريغز؟** إنه طبيب جراح، بينما تخصّص **مارشال** في طب العائلة".

فكّر **رايان** قليلاً بما قلته له.

"اختفــى **مارشـــال** تمامــاً في تولسا في عام تسعة وثمانين، ثم ظهر مجدداً في تشارلستون في عام خمسة وتسعين. هل تقولين إن **رودريغز** قد اختفى عن الأنظار في سان دييغو عام تسعين. إن هذا أمر غريب".

أعـــدت الظـــرف الأول إلى مكانه عندما لاحظت وجود منشور في داخل الصندوق. أمسكته على الفور. اكتشفت أنه كتيب يعدِّد فوائد ينابيع المياه المعدنية الموجودة في بورتو فالارتا الموجودة في المكسيك.

رفعـــت ورقة الإعلان بيدي: "ربما كان **رودريغز** رجلاً مكسيكياً شعر بحنين للرجوع إلى موطنه".

قصدت أن أقول إن هذا أمر مستبعد، لكنني قلت: "صحيح".

"يحـــدث هذا دائماً. يشعر الجراحون بالإرهاق أحياناً، وربما ذهب **رودريغز** إلى بورتو فالارتا في عام تسعين، ليمارس مهنة الطب في بيئة أقل إرهاقاً له".

"أتعتقد أنه اختار نبعاً معدنياً؟"

"يعد نص الإعلان بوجود موظفين مدربين طبياً، يستطيعون تقديم خيارات لا توجد إلا في القليل من العيادات في كل أنحاء العالم".

"ما هي هذه العيادات؟"

"يتعيّن عليك الاتصال برقم معين لتعرفها".

"ألا يُحتمل أن يكون **كروكشنك** قد احتفظ بهذا الإعلان، لأنه كان يبحث عن برنامج إزالة السموم في مكان ما إلى خارج الحدود الجنوبية للبلاد؟"

"ولماذا يفعل ذلك؟"

"كان الرجل سكّيراً".

"ولماذا يختار المكسيك؟"

"ربما بسبب أطعمتها اللذيذة".

أغمضت عينيّ: "هل نجحت باختراق مفتاح الدخول إلى الحاسوب؟"

"نعم".

"حقاً؟"

"نعم".

ماذا؟"

"تحلّي بقليل من الصبر أيتها الفتاة الحسناء".

وضعت المنشور في الصندوق، ثم فتحت الظرف الآخر.

اشـــتملت المحتويات، مجدداً، على نسخ مصورة وأوراق مطبوعة. وجدت ما مجمـــوعه ســـت، أو سبع أوراق، ولاحظت أن بعضها كانت أوراقاً مفردةً، بينما تألفت أوراق أخرى من عدة صفحات.

بدأت بالقراءة. شعرت بالتشوش في البداية. ثم شعرت أن الغرفة تميل بي كلما استوعبت أكثر، وسيطر شعور كئيب على أعماقي.

أنهـــيت قراءة المقالات، ثم عدت كي أتصفح جدول محتويات كتاب الجريمة. وجـــدت مـــا أبحث عنه هناك. شعرت ببرودة غريبة في أصابعي نتيجة الرهبة، ثم تحـــوّلت لقـــراءة ذلك الفصل. دُهشت عندما لاحظت وجود لصيقة صفراء على الـــصفحة، وهـــو الأمر الذي يدلّ على أن تلك القضية بالذات، كانت في صميم اهتمامات **كروكشنك**.

صـــرخت كل خلية عصبية في ذهني بكلمة **لا!** بدا الشرح بشعاً جداً، لكن كل شيء كان متناسقاً جداً، وفي مكانه تماماً: العيادة، اختفاء الأشخاص، والحزوز التي وجدت عند **هيلمز ومونتاغيو**.

هـــل قُـــتلت **هيلين فلين** لأنها عرفت كل هذه الأمور؟ وهل اكتشفت هذه الحقـــيقة بطريقة غير مقصودة أثناء بحثها عن دليل يُثبت التلاعب بالأموال؟ وهل اكتشف **كروكشنك** هذا التلاعب أيضاً؟

فتحت شفتيّ كي أُعلم **رايان** بهذه الفكرة الرهيبة. و لم أستطع التكلم مطلقاً.

تفجّر كل شيء في الثواني القليلة التالية بسرعة هائلة، بحيث فقدتْ الأحداث تسلـــسلها في ذاكرتي. لم تفلح محاولاتي اللاحقة من أجل إعادة تشكيل الأحداث التي جرت إلا بتشكيل صور غير منتظمة.

اســـتطعت تذكّر **بيتي** وهو يتحرك نحو المطبخ، و**بويد** عندما انطلق من غرفة المطالعة كالسهم. بدأ **بويد** بالنباح. لمحت سهاماً من الضوء منطلقة من المطبخ نحو جدار الرواق. دوّت طلقة رصاص. انبطحت على الأرض، بينما دفع **رايان** رأسي نحـــو الـــسجادة. شعرت بثقل **رايان** على ظهري. انحنيت، وزحفت مرعوبةً نحو المطبخ. زادت وتيرة النباح كثيراً.

تجمّـــد الدم في عروقي. رأيت **بيتي** منبطحاً على بطنه مواجهاً الأرض، وقد غمرته الدماء النابعة من جرح غير مرئي.

30

وصلت سيارة إسعاف. أمسكني **رايان** بذراعيه بينما انشغل مساعدان طبيان بمعالجـــة **بيتي**. راح **بويد** يئن، ويخدش بمخالبه باب غرفة المؤونة الصغيرة. شاركته خوفه، بينما بدا المطبخ مغموراً بالدماء. هل يستطيع أي شخص النجاة مع فقدان هذه الكمية من الدماء؟

تجاهلني الجميع تكراراً، بالرغم من أنني طرحت السؤال بعد السؤال. استطاع المساعدان، بعد عملهما على تأمين الأنابيب وضمادات الجروح، تثبيت **بيتي** على لوحة خلفية، وربطه على حمالة، ثم انطلقا به بعيداً.

وصل موظفان رسميان يعملان في جزيرة النخيل، وطرحا أسئلة كثيرة. عرفت مـــن بطاقتيهما أن اسميهما **كابر**، **وجونسون**. سألني **كابر** بعد قليل عن الكدمة في ذراعي. وصفت له حادث إلقاء الزجاجة عليّ يوم الخميس الماضي. دوّن **كابر** ما قلته في دفتره.

أبلـــغ **رايان** رجلَي الشرطة أنه يعمل بمهمة رسمية، وأبرز شارته، ثم حاول أن يتهرّب من التحقيق. قال له **كابر وجونسون** إنهما يتفهمان الوضع، لكنهما بحاجة لوضع تقرير عن الحادث.

أوجزت للرجلين طبيعة عمل **بيتي** في تشارلستون. أراد **كابر** معرفة الرجل الذي أظـــن أنه أُطلق النار عليه. اقترحت عليه أن يحقّق مع **هيرون**، وموظفي **كنيسة رحمة الله**. فهمت من التعابير التي ارتسمت على وجهه أنه من المستبعد أن يحدث هذا الأمر.

قـــال **جونسون**: "ربما كان ذلك مجرد دعابة على الشاطئ. أفترض أن هؤلاء الأولاد الملاعـــين أقدموا على سرقة مسدس والدهم، وأفرطوا في الشرب، ثم بدأوا بـــإطلاق الرصـــاص في الهواء. تحدث مثل هذه الأمور في كل عطلة نهاية أسبوع طويلة".

ســـأل **رايـــان**: "هـــل يصاب شخص بالرصاص في كل عطلة نهاية أسبوع طويلة؟"

أدركـــت أنـــا أيضاً أن هذا التفسير هو تفسير أحمق، لكنني لم أكن في مزاج لأتناقش مع أحد، لأنني حرصت على اللحاق بسيارة الإسعاف.

وجـــدتُ نفـــسي أنا **ورايان** بعد ساعة من حادثة إطلاق الرصاص في قاعة الانـــتظار التابعة لغرفة الطوارئ، في مستشفى MUSC. دخلنا هذه المرة من جهة شارع آشلي، أي من الجهة التي يقصدها ويخرج منها أشخاص أحياء. صلّيت كي يستطيع **بيتي** أن يخرج من نفس الباب.

مرّت ساعة ببطء شديد، بينما بقي **بيتي** في غرفة العمليات. لم يقولوا لي شيئاً غير هذا. إن **بيتي** موجود في غرفة العمليات.

لاحظـــت أن غـــرفة العملـــيات هي في حالة فوضى. بذل الموظفون أقصى جهـــودهم نتـــيجة الحوادث الكثيرة التي حصلت في عطلة نهاية أسبوع أميركية: أصـــيبت عائلـــة بحـــروق نتيجة انفجار حدث في شوّاية، وانتُشل طفل من بركة موجودة في الفناء الخلفي لمنـــزل. علمت أيضاً أن حصاناً داس على رجل سكير، وأن امرأة تعرّضت للضرب على يد زوجها، وأن رجلاً أصيب بالرصاص صديقته. أخـــبروني أيضاً عن حالات إفراط بتناول المخدرات، وعن حالات تجفاف (فقدان المـــاء من الجسم)، وعن حالات أخرى من حروق الشمس، وحالات أخرى من التـــسمم بالأطعمة. شعرت بالارتياح لأنني انتقلت إلى المنطقة المخصصة للانتظار التابعة لغرفة العمليات الجراحية، والموجودة في الطابق العلوي.

اقترب منا طبيب بعد أن مضى على وجودنا هناك أكثر من ساعتين. بدا وجهه متعـــباً، ورأينا الدم الذي يلوّث رداء عمله الرسمي. شعرت أن قلبي توقّف عن النبض. حاولت، لكن من دون نتيجة، أن أفهم التعابير التي ارتسمت على وجه الطبيب.

أمسك **رايان** بيدي. ووقفنا معاً.

"دكتورة **بريnan؟**"

أومأت، لأنني خشيت أن يخونني صوتي إذا تكلمت.

"خرج السيد **بيترسونـــز** من غرفة العمليات".

"وكيف حاله؟"

"انتزعت الرصاصة والشظايا من جسده. تأذت رئته اليمنى قليلاً".

"لا تكذب عليّ".

"فقَدَ الكثير من الدم. ستكون الساعات الأربع والعشرون القادمة حرجة جداً بالنسبة له".

"هل أستطيع أن أراه؟"

"إنهم ينقلونه الآن إلى غرفة العناية الفائقة. سترافقك ممرضة إلى هناك".

بـــدت غـــرفة العـــناية الفائقة على النقيض من الفوضى السائدة في الطابق السفلي. لاحظت أن الأضواء خافتة، والأصوات الوحيدة المسموعة ناتجة من عقب حذاء بين وقت وآخر، وهمسات مكتومة آتية من مسافة بعيدة.

تبعنا مرافقتنا بعد أن خرجنا من المصعد، ووصلنا إلى قاعة مقسمة بالواجهات الـــزجاجية إلى أربـــع وحـــدات. رأيـــت ممرضة جالسة في وسط هذه الوحدات ومنهمكة بمراقبة كل شاغلي الأسِّرة.

احـــتوت هذه الغرفة الرباعية الأقسام على ثلاثة مرضى. أعرف أن **بيتي** هو واحد منهم.

أستطيع القول إن منظر **إيما** قد صعقني في السابق، لكنه بدا شاحباً بالمقارنة مع الصدمة التي أصابتني عند رؤيتي **لبيتي** بعد الانتهاء من العملية الجراحية. فبالرغم من طـــوله البالغ ستة أقدام، وكتفيه القويتين، وطاقته اللامحدودة، إلا أن ذلك المثقف الآتي مـــن لاتفيا بدا منكمشاً في سريره وبدا رمادي اللون، وبكلمات أخرى بدا الرجل ضعيفاً.

بـــرزت الأنابـــيب من أنف **بيتي** وفمه. وبرز أنبوب آخر من صدره، وظهر أنـــبوب رابـــع من ذراعه. لاحظت وجود حاملة معدنية تتدلّى منها عدة أكياس،

وأنابيب وريدية، فوق واجهة سريره. أحاطت أجهزة عديدة به، بعضها يضخ مصدراً طنيناً، وبعضها يقوم بالسحب. شاهدت شاشةً تعرض سلسلة متموجة من الذرى والمنخفضات مصدرةً إيقاعاً منتظماً.

أعتقد أن **رايان** سمع تنفساً مفاجئاً، لأنه أمسك بيدي مجدداً.

شعرت أن ركبتيّ بدأتا بالتهاوي، فأسرع **رايان** ليحيط خصري بذراعه.

ضغطت براحة يدي على الزجاج.

اتصلت بهاتف **كالي** الخلوي متجاهلة تعليمات المستشفى. سمعت صوتاً مسجلاً. سألني الصوت المسجل عن الرسالة التي أريد تركها. قلت: "**كالي**، أنا والدتك. اتصلي بي من فضلك في أسرع وقت ممكن. الأمر مهم جداً".

هل أذهب أم أبقى في المستشفى؟ أكّدت لي الممرضة أن **بيتي** لن يسمعني، ولن يراني، خلال الليل، وقالت: "اذهبي واستريحي. سأتصل بك إذا حدث شيء".

عملت بنصيحتها.

استلقيت في سريري تلك الليلة، وسمعت **رايان** يطرح ذات الأسئلة التي طرحتها على نفسي.

"هل تعتقدين أن **بيتي** كان هو الهدف؟"

"لا أعرف".

"كان يُمكن للرصاصة أن تستهدفك أنت".

لم أقل شيئاً، لكنني أدركت أن مطلق النار كان قريباً بما يكفي ليستطيع التمييز ما بين الرجل والمرأة، لكن ربما صوّب على الظل.

تابع **رايان** شرح وجهة نظره: "لم يعبّر أحد عن سروره لوجودنا في تلك العيادة. أعتقد أن موظفي العيادة سيضطربون إذا أوشكتِ على الإطباق على شيء ما يجري في عيادتهم".

"لم يتأثر رجال شرطة جزيرة النخيل. إنها أميركا، وهذا هو يوم شهداء الواجب، وليس من المستغرب أن يطلق الناس النار في الهواء".

"ما هو اسم صاحب مشاريع البناء؟"

أعتقد أن **رايان** كان يفكر بموازاة الخطوط التي بدأت بأخذها بعين الاعتبار: "يُدعى **ديكي دوبري**. هل من قبيل الصدفة أن تظهر سيارة غريبة في باحة منزلك، ويقوم أحدهم برمي زجاجة شراب شعير عليك، وأن يجري كل ذلك في وقت يتزامن مع الحفر في موقع يمتلكه **دوبري؟**"

"قد تكون الزجاجة غير متعلقة كلياً بإطلاق الرصاص".

"سبق **لدوبري** أن هدّدك".

"يستطيع **دوبري** أن يرمي بالزجاجات، لكنه لا يطلق الرصاص، ولا يستخدم أشخاصاً يطلقون الرصاص. إن ذلك هو عمل خطير جداً بالنسبة إليه، عدا عن أن التقرير الذي أعددته لسلطات الولاية قد سلّمته قبل مدة. ماذا يكسب إذا دفع بأحدهم ليطلق رصاصةً عليّ؟ حدثت كل هذه الأشياء بعد أن وجدنا عظام **ويلي هيلمز** في دي ويز. أعتقد أن **هيلمز** هو العنصر المفجّر هنا".

"ويُحتمل أن تكون **مونتاغيو** هي هذا العنصر".

جلست بصلابة على السرير وقلت: "ويُحتمل أن تكون تلك العيادة. يا الله، كنت قلقةً جداً على **بيتي**، لقد نسيت". نزعت أغطية السرير عني، وانطلقت إلى الطابق السفلي، وانطلق **بويد** في أعقابي.

بقيت محتويات ظرف ملفات **كروكشنك** الثاني مبعثرة في غرفة المطالعة. جمعت الأوراق وكتاب الجريمة، ثم ركضت عائدة إلى الطابق الأعلى، واقتفى **بويد** خطواتي.

سألتُ بعد أن أعدت وضع الأغطية فوقي مجدداً: "هل سبق لك أن سمعت عن **ويليام بيرك، وويليام هاير؟**"

هزّ **رايان** رأسه.

"ثبتت مسؤولية هذين الرجلين عن ست عشرة جريمة في فترة تقل عن سنة واحدة".

"متى، وأين؟"

"حدث ذلك في أدنبرا ما بين عامي 1827 و1928. لم يسمح القانون البريطاني بتشريح الجثث في ذلك الوقت، ما عدا تلك العائدة للمجرمين الذين

أُعدموا. فاق الطلب على الجثث التي توفي أصحابها حديثاً، الكمية المعروضة اللازمة لتعليم التشريح والجراحة، ولهذا انتشرت عمليات سرقات القبور".

"لا يسعني إلا أن أعجب بهؤلاء الاسكتلنديين. إنهم خلاقون، حتى في مجال الجريمة".

"تنتظرك هنا أخبار سئية يا **رايان،** لأن **بيرك وهاير** كان إيرلنديين هاجرا إلى اسكتلندا للعمل في قناة الاتحاد. انتهى الرجلان بالعيش في منازل مفروشة تمتلكها **ماجي لايرد.** سكنت **هيلين ماك دوجال** هناك أيضاً فأصبح الأربعة شركاء في احتساء الشراب".

"مرض أحد ساكني منازل **لايرد** ذات يوم، وما لبث أن فارق الحياة مديناً بقيمة الإيجار. أقدم **بيرك وهاير** على سرقة التابوت بعد الانتهاء من الجنازة، ثم باعا جثة الرجل إلى روبرت نوكس، وهو أستاذ مادة التشريح في **معهد أدنبرا الطبي**".

"وبكم باعاها؟"

"باع الرجلان الجثة مقابل عشرة جنيهات وسبعة شلنات. كان المبلغ كبيراً في ذلك الوقت. لاحظ هذا الثنائي الديناميكي أن بإمكانهما جني المال بطريقة سهلة، وهكذا امتهنا بيع الجثث. وقع مستأجر آخر فريسة المرض، فأقدم **بيرك وهاير** على خنقه عن طريق قرص أنفه، وسدّ فمه. تحوّل عملهما هذا إلى علامة طبية لهما، ومن هنا جاءت العبارة الحديثة الدالة على عملهما.

جاءت بعد ذلك قريبة **هيلين** إلى المبنى، ومغنية متجولة في الشوارع، ومجموعة من المومسات. تكاسل **بيرك وهاير** في نهاية الأمر، أو أنهما أصبحا قنوعين، فبدأ الرجلان بأخذ الضحايا إلى مكان قريب من المنزل. بدأ الجيران يلاحظون اختفاء ساكني المحلة، وأخذ طلاب الدكتور نوكس يتعرفون على وجوه أصحاب الجثث الملقاة على طاولاتهم. حدثت نقطة التحول مع جريمة قتل مومس تدعى **ماري كوكتري.**

ألقي القبض على عصابة الأربعة، وبدأ كل واحد بإلقاء اللوم على الآخر. وجّه الاتهام إلى **بيرك وهيلين ماك دوجال،** بينما اعتُبر **هاير وماجي لايرد** شاهدي ملك. نالت **هيلين** حكماً لعدم كفاية الدليل، بينما وُجد **بيرك** مذنباً وحُكم عليه بالإعدام. اعترف **بيرك** قبل شنقه بارتكاب ما مجموعه ست عشرة جريمة".

"لمــاذا خاطــر الرجل بارتكابه الجرائم؟ ألم يكن باستطاعته قراءة صفحات الوفيات، وشراء رفش متين الصنع؟"

"كان الرجلان من النوع الكسول، كما أن حفر القبور هو أمر متعب جداً".

"وهل عمل **كروكشنك** على جمع معلومات عن **بيرك وهاير**؟"

رفعت الأوراق بيدي: "جمع الكثير من هذه المعلومات عنهما".

تأمّل **رايان** هذه الأوراق عدة لحظات.

"أتعتقدين أن أحداً ما في عيادة **كنيسة رحمة الله** كان يقتل المرضى للحصول على جثثهم؟"

"أعتقد أن **كروكشنك** كان يفكّر في هذا الاحتمال".

"حــسناً، لنفتــرض أن هذا هو ما حصل فعلاً. لماذا حصل ذلك؟ وما هي الفائدة من ذلك؟"

"لــست مــتأكدة بعد. انتظر لحظة، لعلهم كانوا يجمعون أجزاءً من الهياكل العظمية للموتى ليبيعوها بعد ذلك لأغراض طبية. هل تذكر تلك الفضيحة المتعلقة بمؤسسة دفن الموتى، وعدد من شركات جمع الأنسجة البشرية؟"

هزّ **رايان** رأسه.

"عملــت مؤسسة دفن الموتى على إزالة العظام من الجثث من دون الحصول على ترخيص، وكانت تستبدل هذه العظام بأنابيب **البوليبروبايلين**. قيل يومها إن **أليستر كوك** كان من عداد هؤلاء الضحايا".

"إنك تمزحين".

"تــصدرت هذه الحوادث أخبار وسائل الإعلام. بيعت العظام المسروقة إلى الشركات التي تزوّد المستشفيات بالأنسجة. تُستخدم العظام المستخرجة من الجثث في زرع الأنسجة البشرية جراحياً بشكل روتيني في هذه الأيام".

"لكــن، لا دخل للعظام في هذه الحالة، لأن **هيلمز** كان مدفوناً، و**مونتاغيو** رميت في المحيط. بقيت جثتا الضحيتين سليمتين".

"لعله تبيّن أن عظامهما ليست مناسبة لسبب من الأسباب".

"مثل ماذا؟"

"لا أدري. حسناً، لعل المسألة ليست في العظام. يُحتمل أن يكون المجرمون قد خافوا من أمرٍ ما، أو اكتُشف أمر إلقاء البرميل في البحر، أو أن جهاز التنظيف قد تعطّل. هناك ألف احتمال لحصول مشكلة في هذا المجال".

"وماذا بشأن علامات الحزوز؟"

ومـــاذا بشأن علامات الحزوز؟ إنها في المنطقة السفلى من الظهر، وفي منطقة الحوض والظهر.

ركّزي تفكيرك على خارج الصندوق يا برينان، وخارج العظام.

بدأ عقلي يستعرض احتمالاً رهيباً.

قال **رايان**: "لكنك محقة في شيء واحد. عاش **هيلمز** في مقطورة موجودة في باحة خردة، وكانت **مونتاغيو** مشردة، أما **آيكمان** فكان مريضاً عقلياً. وعاش **تيل** المضطرب في الشوارع. إعطيني اسم شخص مفقود آخر. إنهم مومسات، ومدمنون علـــى المخـــدرات، وأولئك الذين يعيشون على الهامش، والذين لا يلاحظ أحد غيابهم. يشكل أولئك الناس نفس فئة الناس الذين سقطوا ضحايا **بيرك وهاير**".

إنه أمر لا يصدق، والفكرة أفظع من أن تصدّق.

تكلّـــم **رايان**، لكنني بالكاد استوعبت ما قاله: "لكنك لا تمتلكين دليلاً على مـــوتهم باســـتثناء **هيلمـــز ومونتاغـــيو**. وأيـــن وصلنا بعد كل هذا؟ تأكدنا أن **كروكشنك** كان يحاول التوصل إلى معلومات عن **بيرك وهاير**. راهن **كروكشنك** علـــى عيادة **كنيسة رحمة الله**. عملت **هيلين فلين** هناك، أما **مونتاغيو وتيل** فكانا مريضين في تلك العيادة. إننا لا نعرف ما إذا كان **تيل** ميتاً".

قلـــت: "لكننا متأكدان من موت **كروكشنك** لأنه كشف أمراً تسبّب بموته. **رايان**...".

"صه".

"لا. أصغي إليّ".

أطفأ **رايان** النور، وجذبني نحوه. تمسّك بي بشدة عندما حاولت أن أعترض. توقّفت عن الكلام، وقبعنا سوية في الظلمة. قفز **بيردي** إلى السرير بعد وقت قليل، وشعرت به يدور قبل أن يتكوّر على نفسه بجانبي.

لم أستطع الاستسلام لسلطان النوم بالرغم من الإنهاك الشديد الذي شعرت به. استمرّ عقلي بعرض ذلك الاحتمال المرعب، وظلّ يكرّر نفس الاستجابة المخيفة **لا يمكن**.

رفضت التفكير في نظريتي المروعة. بدأت أدعو بصمت. سأرتاح هذه الليلة، وسأتابع البحث في الغد.

لم أنجح لأن أفكاري تقافزت من موضوعٍ إلى آخر. تراءت لي باستمرار الأجهزة والأنابيب والمضخات، التي تحاول إبقاء **بيتي** على قيد الحياة. عشت ثانية الفترة التي زحفت فيها على أرضية مطبخ **آن**، وتذكرت دموعي التي امتزجت مع دمائه. شعرت بقشعريرة لاحتمال اضطراري إبلاغ **كاتي** أن والدها قد مات. بالمناسبة أين هي **كاتي**؟

تذكّرت آخر اتصال لي مع **إيما**، وخشيت من مغبة حديثي المرعب معها بعد عودة أختها من إيطاليا.

فكّرت **بغوليت**. هل يجابهني بالرفض، أم بعدم الاكتراث؟

فكّرت أيضاً **بدوبري** وتهديداته. وهل كانت تهديدات حقاً؟ وماذا يستطيع أن يقوم به بالفعل؟ أعتقد أن جميع أصحاب مشاريع البناء يشتكون لأصدقائهم في الحكومة من تدخل علماء الآثار بعملهم في تطوير الأحياء السكنية.

استمرّت الوجوه في مرورها السريع في ذهني: **بيتي**، **إيما**، **غوليت**، **دوبري**، **ليستر مارشال**، **كوري دنيالز**، **آديل بيري**، **ولوين آيكمان**. مرّت أيضاً جمجمة **ويلي هيلمز**، **وبيتي** مجدداً.

توهّجت أرقام ساعة السرير باللون البرتقالي. وتناهت إلى مسامعي الأصوات الهامسة لأمواج المحيط المتقلبة في الخارج. مرّت دقائق. مرّت ساعة. لم أشعر أن جسد **رايان** الراقد بقربي قد ارتاح، و لم يستقر تنفسه بعد على إيقاع النوم.

هل أشاطر **رايان** شكوكي؟

لا. انتظري بعد. فكّري أكثر. كوني متأكدة.

همست بنعومة: "هل استيقظت؟"

"همم".

"هل تفكر بابنتك **ليلي**؟"

جاء صوت **رايان** خافتاً: "من بين أشياء أخرى".

"مثل ماذا؟"

"أفكّر في شيفرة حاسوب **كروكشنك**".

"هل استطعت فكّها؟"

"نجحت في ذلك ما عدا ملف **هيلمز**. أعتقد أنه غالباً ما تُستخدم الأحرف الأولى، وتواريخ الميلاد، والأوقات".

"إن وجود حرف C يعني أن الملف قد أُغلق".

"أخذنا علماً بهذا الاختراق المدهش".

وكزت **رايان** بمرفقي.

"اكتشفنا أن CD تعني **كوري دنيالز**، وAB تعني **آديل بيري**، وLM تعني **ليستر مارشال**. لست متأكداً بشأن الرموز الأخرى. أعتقد أن التواريخ واضحة، وأن الأرقام الموجودة أمام كل مجموعة من الأحرف الأولى للأسماء، تدلّ على الأوقات التي دخل فيها ذلك الشخص إلى العيادة، أو خرج منها".

"أيعقل أن تكون بمثل هذه السهولة؟"

"هناك أشياء أخرى، لكنني أعتقد أساساً أن **كروكشنك** حرص على تتبع الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون من العيادة".

"أتعني الموظفين فقط؟"

"أعتقد أن بعض هؤلاء كان من المرضى. شكّل **هيلمز** قصة أخرى. تتعلّق هذه المذكرات بالبحث الذي يجريه، أكثر مما تتعلّق بالمراقبة منذ اختفاء **هيلمز**، لأن **هيلمز** اختفى قبل توظيف **كروكشنك** للبحث عن **هيلين**".

"إذا كان نظام **كروكشنك** سهلاً، فلماذا لم يستطع **بيتي** فكّ شيفرته؟"

لم يكن **رايان** ليفوِّت عليه فرصة السخرية من **بيتي** فيما مضى. لم يفعل ذلك هذه الليلة: "عندما عمل **بيتي** على فكّ الشيفرة لم يكن يعرف أسماء موظفي العيادة، أو **ويلي ويليامز**. كم الساعة الآن؟"

تطلّعت إلى الساعة: "الثالثة وعشر دقائق".

"لا يهم. لا أعتقد أن المذكرات ستفيدنا بالشيء الكثير". جذبني **رايان** نحوه وسألني: "أتشعرين بالرغبة في النوم؟"

"لست في ذلك المزاج يا **رايان**".

"كنت أفكر في حاسوب **كروكشنك** المحمول".

"يريدنا **غوليت** أن نعيده إليه غداً".

"أتريدين أن نجري محاولةً أخيرة للوصول إلى مفتاح الدخول؟"

"نعم".

أردت التحقق من شيء آخر أيضاً. أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟

سأل **رايان**: "هل وجدت رقم بطاقة توظيف **كروكشنك** في الشرطة؟"

"وجدت شارة، لكن دائرة شرطة شارلوت لا ترقّم هذه الشارات".

"هـــل احتفظ **كروكشنك** بأية أشياء تابعة للشرطة؟ هل احتفظ بمسدس؟ أو بأصفاد؟ أو حتى بمفتاح لهذه الأصفاد؟"

"نعم. لماذا؟"

"نحن الرجال الموجلون بتطبيق القانون لسنا معقّدين بعكس ما يعتقد البعض. ســأعطيك حــيلة يلجأ إليها رجل الشرطة القديم: استخدم رقم بطاقتك كمفتاح دخــول. ســأعطيك الآن حيلة يلجأ إليها رجال الشرطة الأكبر سناً: احفر رقم بطاقتك على جميع ممتلكاتك الشخصية".

ضــربتُ و**بــويد** رقمــاً قياسياً في سرعة النــزول على الدرج. تبعنا **رايان** بخطوات أكثر رشاقة. انضمّ **رايان** إلينا بعد أن توصلت إلى ما كنت أبحث عنه.

"حفر **كروكشنك** الأرقام قرب فتحة المفتاح".

رمــيت الأصفاد في وجه **رايان**، وانطلقت نحو الطاولة، ثم فتحت الحاسوب الذي يحمل علامة **دل** وشغّلته: "اقرأ الأرقام".

فعــل **رايــان** ذلــك. نقرت الأرقام على اللوحة. ظهرت نقاط سوداء على الشاشة الصغيرة البيضاء، ثم ظهرت ألوان شاشة "ويندوز".

"نجحنا!"

سأل **رايان**: "هل نتحقّق من البريد أولاً؟"

أمضيت عشر دقائق بالبحث عن البريد.

"الحاسوب مجهز للاتصالات اللاسلكية، لكنني لم أجد بريداً إلكترونياً. أشك في أن يكـــون مـــبنى ماغنولـــيا مانور مجهّزاً لهذا النوع من الاتصالات. أعتقد أن **كروكـــشنك** ربّمـــا استخدم المقاهي، أو المكتبات للوصول إلى الشبكة. وجدت مئات من الرسائل المحملة. تستطيع العودة إلى السرير إذا أردتَ".

"هل أنت متأكدة؟"

"سيستغرق هذا وقتاً طويلاً".

طـــبع **رايـــان** قبلة على رأسي. سمعت وقع خطواته على السجادة، ثم عندما صعد الدرج بعد ذلك. بقي **بويد** ملازماً قدميّ.

تلاشـــى كل شيء من ذاكرتي عدا شاشة حاسوب هذا الرجل الميت الخافتة الـــضوء. لاحظت نافذة **آن**، وهي قطعة مستطيلة من الزجاج الأسود الملتمع وراء وهج شاشة الحاسوب. شعرت بتوتر شديد في أعماقي أثناء قراءتي لملف بعد ملف.

تحوّل ضوء النافذة إلى اللون الرمادي، عندما انتهيت واسترخيت في مقعدي، وتـــراءى لي منظـــر المحيط الأطلسي الواسع الذي يتراءى وسط الضباب الصباحي الباكر.

انتهى الآن بحثي عن التفسيرات.

ثـــبت لي أن ظني كان في محله. عرفت ذلك، لكن الحقيقة جاءت كأقسى ما يتخيّله المرء. أستطيع تأجيل التفكير في هذا الأمر في الوقت الراهن.

بقـــي عندي واقعي الخاص الذي يتعيّن عليّ مواجهته. اتصلت بوحدة العناية المركـــزة في المستشفى. قالوا لي إنه لم تطرأ أية تطورات، وأن حالة **بيتي** لم تشهد تحسناً واضحاً، لكنها مستقرة.

هـــل أتـــصل **بكاتي** مجدداً؟ لا فائدة من ذلك. ستتسلّم رسالتي عندما تشغّل هاتفها الخلوي. وإذا لم تفعل ذلك، فلا بد أن اتصالاً آخر مني سيضطرني إلى ترك رســـالة أخرى. أما إذا لم يصلني اتصال منها في غضون الساعات القليلة القادمة، فسأعمد إلى الاتصال بالجامعة لكي أطلب منها المساعدة على تحديد مكانها.

استرخيت على الأريكة بعد كل هذا العناء.

31

همستُ: "هل أنت مستيقظ؟"

"أنا مستيقظ الآن".

"يُقتل الناس من أجل الحصول على أعضائهم".

"آه - ها".

مدّ **رايان** يده. أمسكت بها.

"توصلّ **كروكشنك** إلى هذه النتيجة".

استند **رايان** على مرفقه ورفع نفسه. تأملت شعره الأشعث، وعينيه الزرقاوين الجميلتين المثقلتين بالنعاس.

"خطرت الفكرة على ذهني، لكنني استبعدتها إلى درجة أنني لم أذكرها أمامك".

"إنها صحيحة".

تعدّت نبرة **رايان** حدود التهكّم: "يستيقظ مسافر مخدّر ليجد نفسه في حوض استحمام مليء بالثلج. ويضطر طالب جامعي لتحمل قطَب جراحية في أنحاء من جسمه بعد حفلة ماجنة. تصدّرت أخبار سرقة الأعضاء البشرية الأخبار منذ سنوات طويلة".

"إن ما اكتشفه **كروكشنك** هو أسوأ بكثير من أية أسطورة حضرية. ويتعرّض الناس للخنق حتى الموت، يا **رايان**، ثم تُنتزع أعضاؤهم من أجسادهم".

"لا نستطيع تحقيق اختراق وسط هذا الجحيم".

بدأت بتعداد النقاط على يدي: "أشخاص مفقودون بطريقة غامضة. هياكل عظمية تحمل علامات على إحداث حزوز فيها".

بدأ **رايان** بالتكلم، لكنني قاطعته على الفور: "إنها حزوزٌ تتوافق مع الشقوق التي يحدثها مبضع جراح. ولدينا شبه طبيب يعيش في الولايات المتحدة يبحث عن زميلٍ ضائعٍ له تخرّج معه من معهد الطب. ولدينا أيضاً منتجع مياه معدنية في المكسيك".

تحرّك **رايان**، ووضع وسادةً خلف رأسه: "دعيني أرى".

زحفت تحت الأغطية، وجلست على الطريقة الهندية، ثم فتحت حاسوب **كروكشنك** المحمول، ووضعته بين كاحليّ المتصالبين.

"أمضى **كروكشنك** قسماً كبيراً من وقته وهو يبحث موضوع زرع الأعضاء، أي السوق السوداء من هذه التجارة، وبحث أيضاً عن موضوع الأشخاص المفقودين في تشارلستون، ثم راقب مكاناً يدعى آبريغو آيلادو دو لوس سانتوس الموجود بالقرب من بويرتو فالارتا".

"هل هو المنتجع المكسيكي المذكور في الكتّيب السياحي؟"

قلت بصوت خافت: "نعم. إنه المنتجع الأخير".

قضمت جزءاً صغيراً من ظفري، وفكّرت بالطريقة التي يجدر بي اتباعها كي أطلع **رايان** عن هذه المعلومات، لأنني بدأت أفهمها لتوي.

"أصبحت مسألة زرع الأعضاء شائعة منذ بداية الخمسينيات تقريباً. ولم يعد من المستحيل أن يتبرّع أحد الأحياء بكلية، أو بجزء من كبده، وحتى بواحدة من رئتيه، مع أن هذا الأمر الأخير يُعتبر أمراً نادراً. أما بالنسبة لأعضاء مثل القلب، وقرنية العين، والرئتين، أو البنكرياس، فيتعيّن أن تأتي من متبرعين أموات.

تبقى المشكلة في عدم وجود أعضاء كافية في التداول. يخدمك الحظ إذا استطعت الاستفادة من متبرع حيّ، ولربما حظي المرء بوجود متبرع مناسب من أقاربه، أو من صديق، أو من محسن، ولو كان هؤلاء من القلائل ولا يتوفرون في كل وقت. وإذا أردت متبرعاً من الأموات، فعليك الانتظار لشهور، أو حتى لسنوات".

"ويمكن أن يموت المرء وهو ينتظر".

"يدخل الذين يحتاجون إلى متبرعين أموات في OPTN، أي **شبكة جمع وزرع الأعضاء**، وهي شبكة تديرها منظمة مستقلة لا تبغي الربح تدعى UNOS، **الشبكة المتحدة لتقاسم الأعضاء**. أنشأت UNOS قاعدة بيانات عن الأشخاص المؤهلين للحصول على أعضاء للزرع، بالإضافة إلى إيرادها لمعلومات عن كل مراكز زرع الأعضاء المنتشرة في أنحاء البلاد. تضع UNOS أيضاً السياسة الواجب اتباعها لتحديد الأولويات، وأسماء الأشخاص الذين سيحصلون على الأعضاء المناسبة لهم".

"وكيف يستطيع المريض الدخول إلى الشبكة؟"

"يتعيّن عليه أن يجد فريق زرع تعترف به UNOS. يقرّر ذلك الفريق ما إذا كان هذا الشخص مرشحاً مناسباً من الناحية الجسدية، والعقلية".

"وماذا يعني هذا؟"

"الأمر في غاية التعقيد هنا، لكن عادة ما يُستبعد مدمنو المخدرات، وشاربو الكحول، والمدخنون، على سبيل المثال. وتقوم UNOS أيضاً بتحديد المستلمين المحتملين بحسب وضعهم الصحي، والحاجة الملّحة لعملية الزرع، والأهلية، وطول مدة انتظارهم على القائمة. إنهم يريدون الحصول على الأعضاء المتوفرة، واستخدامها حيث تقدم أكبر فائدة".

وصل **رايان** إلى لبّ الموضوع هنا: "وهكذا يخرج المرفوضون، والذين تعبوا من الانتظار، من النظام".

"يقوم الوسطاء، أو السماسرة، بترتيب عمليات بيع الأعضاء البشرية إلى المرضى الذين يستطيعون الدفع. ويُلاحظ أن البائعين عادةً ما يكونون متبرعين بإرادتهم، وأن الكلى هي التجارة الأكثر شيوعاً. يلاحظ أيضاً أن الفقراء، الذين يعيشون في البلدان النامية، هم الذين يقومون ببيع أعضائهم إلى الأغنياء في معظم الحالات. تتجاوز كلفة هذه العملية أحياناً المئة ألف دولار، لكن جزءاً يسيراً فقط من هذا المبلغ يذهب إلى المتبرع".

"وهل يشيع هذا الأمر كثيراً؟"

"يمتلك **كروكشنك** أعداداً هائلة من الأبحاث في حاسوبه. تصف بعض مصادره هذه تجارة الكلى باعتبارها ظاهرة عالمية. وجاء في هذه المصادر أن نانسي – هوغز، وهي عالمة أنثروبولوجيا (علم الإنسان) تعمل في جامعة بيركلي، أسّست منظمة غير حكومية تدعى **مرصد الأعضاء البشرية**، والتي تدعي أنها وثّقت عملية جمع الأعضاء في الأرجنتين، والبرازيل، وكوبا، وتركيا، وجنوب أفريقيا، والهند، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة. وجد **كروكشنك** أيضاً معلومات عن إيران والصين".

نقرت عدة مفاتيح، وبدأت مع **رايان** بتصفح تقرير من الصين يتحدّث عن استخدام المجرمين الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام هناك، باعتبارهم متبرعين.

بدأت بفتح سلسلة من الملفات، وبدأنا نقرأ معاً بصمت: "باستطاعة المرء الاستفادة من عروض كميات بالجملة".

"تقدم مؤسسة صهيونية بمعظمها، رحلات زرع أعضاء إلى تركيا ورومانيا مقابل مبلغ 180,000 دولار أميركي. لقد اشترت امرأة من نيويورك كلية من متبرع برازيلي، ثم سافرت إلى جنوب أفريقيا لإجراء الجراحة في عيادة خاصة، وبكلفة إجمالية تبلغ 65,000 دولار أميركي. وتوجّه مواطن كندي إلى باكستان لشراء كلية بقيمة 12,500 دولار كندي".

"دعينا نتفحص هذا الموقع على الشبكة".

نقرت مفتاحاً لأحمّل ملفاً آخر. وجدت مستشفى في باكستان، يصف نفسه على أنه مؤسسة خاصة تضمّ خمسين سريراً، وتعمل منذ العام 1992. يقدّم الموقع صفقة تتضمّن قضاء ثلاثة أسابيع، مع تقديم ثلاث وجبات يومياً، وثلاث جلسات لعمليات غسل الكلى تسبق العملية الجراحية، ونفقات المتبرع، والعملية الجراحية، وعلاج ما بعد العملية لمدة يومين، وكل ذلك مقابل مبلغ 14,000 دولار أميركي.

بدا **رايان** مذهولاً، مثلي أنا: "هل هذا معقول!"

"تحرّم معظم البلدان مثل هذه الأعمال، ولكن ليس كلها. تشرّع إيران، على سبيل المثال، هذه النشاطات لكنها تضعها تحت رقابة الدولة".

فتحت ملفاً آخر: "يحرّم **القانون القومي الأميركي لزراعة الأعضاء** الذي صدر عام 1984 تقديم الأموال النقدية للذين يقدمون أعضاء بشرية للزرع. ويسمح قانون **وهب الأعضاء الموحد** للأفراد بوهب بعض أعضاء أجسادهم، أو كلها، بعد وفاتهم، لكن التعديل الذي صدر عام 1987 منع استيفاء مبالغ مالية مقابل الأعضاء التي يتبرعون بها".

"أفهم دفع المال مقابل الحصول على كلية، لكن ما لا أفهمه هو ارتكاب الجرائم؟"

فتحت عدة ملفات أخرى بعد ذلك.

جنوب أفريقيا. حزيران 1995. أُدين موسى موغيتي، ووجِد مذنباً، بقتل ستة أطفال من أجل الاستيلاء عن أعضائهم.

كيوداد خواريز، شيهواهوا، المكسيك. أيار (مايو) 2003. قتلت مئات النساء منذ عام 1993، واستمرّت الجثث بالظهور في الصحراء. ويدَّعي محققون اتحاديون أنهم يمتلكون دلائل تفيد أن النساء سقطن ضحايا شبكة دولية لتهريب الأعضاء البشرية.

بخارى، أوزبكستان. لا تاريخ. ألقي القبض على عائلة كورايف. وُجد في منزل هذه العائلة ستين جواز سفر لأشخاص مفقودين، ومبالغ كبيرة من المال، بالإضافة إلى أكياس تحتوي على أعضاء بشرية. ادّعت شركة كورا التي تملكها العائلة أنها تقدّم تأشيرات دخول، وفرص عملٍ خارج البلاد. أقدمت هذه العائلة، وبدلاً من تقديم التأشيرات، على قتل زبائنها، ونقل أعضائهم إلى روسيا وتركيا بمساعدة طبيب.

"يا الله".

قلت: "لكن سرقة أعضاء الذين ماتوا لتوهم هي أكثر انتشاراً في العالم، وليس فقط في بلدان العالم الثالث. قدّمت منظمة **مرصد الأعضاء البشرية** بالإضافة إلى ذلك تقارير عن حالات حدثت في الولايات المتحدة تسلّمت فيها عائلات المرضى، الذين ماتت أدمغتهم، عروضاً بدفع مبلغ مليون دولار مقابل السماح لجامعي الأعضاء البشرية بالحصول على جثث المرضى، ولكن بعد حصول الوفاة مباشرة".

امــتلأت الغـــرفة بالأنوار. نهضت، وفتحت الباب الزجاجي. أعادتني رائحة المحيط المتسللة عبره إلى أيام الرقص على الشاطئ مع شقيقتي الصغرى **هاري**، وإلى أيـــام الثرثـــرة على الشاطئ مع أصدقائنا الحميمين من المدرسة الثانوية، وإلى بناء القلاع الرملية على الشاطئ مع **كاتي** و**بيتي**.

بيتي. أحسست مرة أخرى بألم شديد في صدري.

أردت أن أعـــود إلى أحد أيام العطلة الصيفية الطويلة تلك، وأردت أن أنسى الأجساد المتعفنة، ومباضع الجرّاحين، والأنشوطات المعدنية.

أعـــادني صوت **رايان** إلى عالم الواقع مجدداً: "إذاً أنتِ تعتقدين أن شخصاً ما في عيادة **كنيسة رحمة الله** يبحث عن المتسكعين في الشوارع ليجمع أعضاءهم، وأن **كروكشنك** كان على وشك فضح هذا الشخص".

"أعـــتقد أن **كروكـــشنك** قد قُتل ليبقى صامتاً. وأتساءل أيضاً عن **هيلين فلين**".

"هل لديك أشخاص مشتبه بهم؟"

"لـــست متأكدة بعد. تشمل قائمة المشتبه بهم عدة أشخاص، لكن المشتبه به الرئيسي هي العيادة. لا يستطيع الشخص العادي الذي يسير في الشارع أن ينتزع كلية، هكذا وببساطة".

عدتُ إلى السرير، وفتحت ملفاً ثانياً.

"إن انتزاع عضو بشري ليس بتلك العملية المعقدة. لنأخذ القلب مثلاً. يجري شد الأوعية الدموية بإحكام أولاً، ثم يضخ محلول حافظ وبارد فيه. تُقطع الأوعية بعد ذلك، ثم يوضع القلب في كيسٍ مليء بمادة حافظة. يوضع الكيس بعدها وسط مكعبات الثلج في براد عادي، ويُنقلُ جواً، أو براً، إلى مقصده النهائي".

"وما هي حدود مدة صلاحية الأعضاء في هذه الحالة؟"

"تتـــراوح المدة ما بين أربع ساعات للقلب، وثماني ساعات للكبد، وثلاثة أيام للكلية".

"ألاحـــظ أن المدة قصيرة جداً بالنسبة للقلب، لكن هناك مدة كافية بالنسبة للمستفيدين من الكلى".

نقـــرتُ بعض المفاتيح الأخرى: "ينتظر هؤلاء المستفيدون إجراء جراحتهم في مؤســـسة معقمة تحتضنها التلال البعيدة. بحث **كروكشنك** في موقع أبريغو آيلادو دي لوس سانتوس. أتعرف ماذا تعني هذه العبارة؟"

هزّ **رايان** رأسه.

"إنها تعني مركز صحي منعزل. اقرأ ما هو مكتوب في موقعهم على الشبكة".

زاد العـــبوس في وجه **رايان** كلما تعمّق بالقراءة: "يقولون هنا إنهم يقدمون أنظمة علاجية فريدة للزبائن المؤهلين. ماذا يعنون بذلك بحق الجحيم؟ هل يريدون أن يكون الزبون ذا نسبٍ كي يستطيع العناية بالأقدام وأظافرها؟"

"إنهـــم يقـــصدون: اتـــصل بـــنا. قدّم لنا المعطيات، وإذا وجدنا أن حالتك ومواصفاتك تتطابقان مع شروطنا، فيمكننا تزويدك بكلية".

"أعتقد أن زرع الأعضاء ليس بمثل سهولة انتزاعها".

نظرت إلى عيني **رايان** مباشرة: "تتطلب عملية الزرع جرّاحاً يعمل في مؤسسة متطورة نوعاً ما".

اســـتنتجت من تعابير وجه **رايان** أنه يُفكر في نفس المسارات الاستدلالية التي تجـــول في خاطري، وأنه أخذ يسرع بالوصول إلى نفس النهاية المرعبة التي وصلتُ إليها. تكلّم **رايان** بعد مرور دقيقة كاملة.

"لـــديكِ هنا عيادة **كنيسة رحمة الله**، التي تقدِّم خدماتها للمدمنين، والمجانين، والمـــشردين. يختفي بعض المرضى بين الحين والآخر، ولا يلاحظهم أحد. لا يحتاج المرء إلا لطائرة صغيرة، وبرّاد، وطيارٍ لا يحب طرح الكثير من الأسئلة. ولعل المرء يـــستطيع اســـتخدام بغلٍ ضمن الحلقة، بالإضافة إلى استخدام طبيب جرّاح يتمتّع بخـــبرة، ويعمـــل في مؤسسة تقع في مكان منعزل تهتم بالأشخاص الذين يحتاجون لأعضاء بشرية شرط أن يكونوا مستعدّين لدفع مبلغ محترم".

قلـــت: "التحق **ليستر مارشال**، **ودومينيك رودريغز** في نفس المعهد الطبي، واختفيا عن الأنظار في نفس الوقت تقريباً. إن **رودريغز** طبيب جراح".

أكمـــل **رايان** من حيث انتهيت: "يجتمع زميلا تخرج معاً، ويضعان تصميماً لمؤسسة تقدِّم أعضاء بشرية مقابل المال. ينضمّ **مارشال** إليهما، ثم يذهب **رودريغز**

إلى بويرتو فالارتا، ويؤسس عيادة تحت قناع حمامات مياه معدنية".

قلت: "أو لعل **رودريغز** ترك سان دييغو ليمارس الطب في مكسيكو، ولربما تعرّض **مارشال** لمتاعب من نوعٍ معيّن، واتّجه جنوباً، وهناك اجتمعا ثانية".

"يقـــوم **مارشال** بانتزاع الأعضاء، أما **رودريغز** فيزرعها. لا يشكو المتبرعون هنا، إما لأنهم يقبضون المال، وإما لأنهم ميتون. ولا يتذمّر المستفيدون أبداً، لأن ما يقومون به هو غير قانوني بالمرة. وتستطيع المئة ألف التي يقبضونها شراء الكثير من وجبات المارغريتا".

قلـــت: "تصل كميات كبيرة من المخدرات غير المشروعة من مكسيكو إلى الـــولايات المتحدة جواً، وعلى الدوام. فلماذا لا تتجه الأعضاء البشرية في الاتجاه المعـــاكس؟ إنهـــا صغيرة الحجم، وسهلة النقل، والمكافأة جزيلة. يفسر هذا وجود الحزوز، والخنق، والجثث المخبأة".

"إنها قصة بيرك وهاير ذاتها، لكن على مستوى مختلف".

حـــطّ طائر نورس على سياج الشرفة. اتّجه **بويد** نحو الشبكة وهو يهزّ ذيله. حلّق الطائر مجدداً. استدار الكلب ونظر نحونا. نظرت **ورايان** نحو الكلب، وفكّرنا بالفكرة ذاتها. وتبرّع **رايان** بالنطق بها.

"إن كـــل مـــا لدينا هو مجرد تخمينات. يتعيّن علينا الحصول على معلومات عن خلفية **رودريغز**، وأن نجد ذلك الرجل في المكسيك. ويتعيّن علينا أيضاً أن نعرف أين أمضى **مارشال** السنوات الست المجهولة من تاريخه، ولماذا. نحتاج كذلك إلى الحصول على معلومات عن الطيارين والطائرات في منطقة تشارلستون، وكذلك عن الزوارق".

بدا **رايان** مشوشاً.

"أعـــتقد أن جثة **ويلي هيلمز** قد نقلت بحراً إلى جزيرة دي ويز. ونعلم أيضاً أن **أونيغ مونتاغيو** قد رميت في المحيط. أشك أن القاتل قد استعمل عبّارة في هاتين الرحلتين".

"ألا يمتلك كل شخص وجدّه قارباً في هذه المدينة؟"

فكّـــرت للحظة: "دعنا نراجع مذكرات **كروكشنك** مرة أخرى. أنت تعتقد أن بعض الأحرف التي استخدمها تمثّل الأحرف الأولى لبعض الكلمات. لعلك محق

في ذلك. ما رأيك لو نقابل بعض تشكيلات هذه الأحرف، مع أشخاص مفقودين آخرين في منطقة تشارلستون؟"

تابعت التفكير بصوت عالٍ: "إذا استطعنا اكتشاف التوافق هنا، فلربما نجد رابطاً ما بين الشخص المفقود، وبين عيادة **كنيسة رحمة الله**".

"استنتجت من التواريخ الموجودة في المذكرات، أن **كروكشنك** راقب المكان خلال شهرَي شباط (فبراير)، وآذار (مارس) هذه السنة".

زاد عقلي من وتيرة عمله: "حسناً. أعطتني **إيما** سجلات الأشخاص المفقودين. أعتقد أن هذه السجلات تغطي الفترة التي كان **كروكشنك** يجري فيها تحقيقاته. سأتفحّص آخر تاريخ شوهد فيه كل شخص مفقود، وسأكوّن لائحة على الحاسوب. أعتقد أننا نستطيع مقابلة هذه اللائحة مع خطط الطيران التي يسجلها طيارو الطائرات الصغيرة".

"يُعتبر ذلك عملاً مهماً من أعمال تطبيق القانون، وخصوصاً إذا اشتمل على أكثر من مطار واحد في منطقة تشارلستون. أعتقد أيضاً أن المهربين لا يسجلون خطط طيرانهم".

"حسناً، قد تتزامن كل حوادث الاختفاء هذه مع وقت إقلاع طائرةٍ ما من المطار".

"لنفترض أنهم لا يضعون الطائرة في حظيرة ما. لا يستطيع هؤلاء استخدام المطار للهبوط والإقلاع إذا لم يُثبتوا خطط طيرانهم".

خطرت في ذهني فكرة مفاجئة: "وماذا بشأن **كنيسة رحمة الله**؟ تمتلك الكنيسة طائرة خاصة بها. هل يُعقل أن يتخطّى هذا الأمر **مارشال**؟ ونعلم أن **هيرون** وموظفيه رفضوا الاستجابة لشكاوى **هيلين**. واختفت **هيلين** بعد ذلك".

"اعتقدت أن **هيلين** كانت متشككة بشأن إساءة استخدام الأموال".

"إنها رواية **هيرون**، لكنه رفض، مع موظفيه، مساعدة **كروكشنك** في محاولته إيجادها، ثم مات **كروكشنك** بعد ذلك. ورفض هؤلاء التعاون مع **بيتي** في هذه القضية، ثم أطلقوا النار عليه. هل يُعقل أن يكون أحد المسؤولين الكبار في **كنيسة**

رحمة الله متورطاً في كل ذلك؟ أوه، يا الله، تذكّرت الآن أن **كنيسة رحمة الله** تدير عيادات في المنطقة الجنوبية الشرقية!"

"دعينا لا ننجرف كثيراً. متى سيعود **غوليت**؟"

"يريد أولاً، وقبل كل شيء استعادة حاسوب **كروكشنك** هذا الصباح".

نـــزع **رايان** الأغطية عنه. أمسكت بيده: "لم يفعل **غوليت** شيئاً ليساعدني. أتعتقد أنه يحاول أن يحمي **هيرون**؟"

رفـــع **رايـــان** يدي إلى مستوى شفتيه، ثم طبع قبلة على ظاهرها: "أعتقد أن **غوليت** رجل عنيد".

"لعلك على حق. لكن هل لدينا ما يكفي لإقناعه؟"

"اتـــصلي **بإيمـــا**، واشرحي لها ما نفكّر به، وأبلغيها بشكاوى **هيلين** لوالدها **وهـــيرون**، ثم حدثـــيها عـــن اختفائها المفاجئ. فسّري لها علاقة **كروكشنك** مع **هـــيلين**، والملفات التي أعدّها **كروكشنك** عن بيرك وهاير، وحدّثيها عن الشبكة المتحدة لتقاسم الأعضاء (UNOS)، وعن تجارة الأعضاء البشرية، وعن **رودريغز**، بالإضافة إلى عيادة بويرتو فالارتا. أخبريها أيضاً عن الدليل الذي وجدته عن خنق **كروكـــشنك**، **وهيلمز**، **ومونتاغيو**. أخبريها أيضاً عن الحزوز التي تركها المبضع علـــى فقـــرات، وأضـــلاع، **هيلمز ومونتاغيو**. وحاولي أن تعرفي متى تتوقع **إيما** الحـــصول على تقرير تحليل الحمض النووي المتعلق بالرمش الذي وجدته مع عظام **هيلمز**".

"هل تخطِّط لخطف لبانة لفظها صاحبها؟"

قـــال **رايان**: "رأيت ذلك في مجلة تلفزيونية، لكنني الرجل الذي يفضّل علبة صودا مستعملة".

"أتـــت صـــدفة الحلزون التي احتوت على الرمش من كائنات تعيش في المياه العذبـــة، لكنها وُجدت مع جثة **هيلمز** المدفونة على شاطئ في المياه المالحة. يتعيّن علينـــا اكتشاف ما إذا كان **مارشال** يعيش قرب مستنقع من المياه العذبة، أو قرب مجرى مياه أو نهر".

"إنكِ مدهشة يا دكتورة **برينان**".

"فكّـــر في دي ويز أيضاً. يقلّ عدد سكان الجزيرة عن سكان ماي بيري. **لا** يـــوجد في الجزيرة جسر، أو أي شيء آخر، يصلها بالبر، كما أن العبّارة مخصصة للسكان وضيوفهم فقط".

شعرت بالتوتر، لكنني تابعت: "أين يتخلص المجرم عادة من جثة؟ إنه يضعها داخل منطقة يعرفها جيداً".

"يا لأفكارك اللامعة!"

"شكراً لك أيها التحري **رايان**".

"إلـــيك خطـــتي. اتـــصلي بالمستشفى، واستعلمي عن حالة **بيتي**. أحضري حاسوبك، ثم حضّري قائمة بآخر التواريخ التي شوهد فيها الأشخاص المفقودون. ســـأجري بعـــض الاتصالات الهاتفية في غضون ذلك. سنجري، عندما أفرغ من المكالمات، بعض الأبحاث معاً عن **مارشال**، وذلك الشخص النبيل في دي ويز".

تناول **رايان** بنطاله البحري القصير.

"لن يعرف المساعد **دواغ غوليت** ماذا سيصيبه".

32

أخـــبرتني الممرضة المسؤولة أن **بيتي** مستيقظ ويستطيع الكلام، وأن مؤشراته الحـــيوية مستقرة. أضافت أن الطبيب سيراه هذا الصباح، وسيقرّر عندها المدة التي يحتاجها للبقاء في المستشفى. شكرتها، ثم طلبت منها أن تحرص على إبلاغ **بيتي** أنني اتصلت لأطمئن عليه.

اختـــرت بعناية كلمات رسالتي الإلكترونية التي سأرسلها إلى **كاتي**. **"سيبقى والدك في المستشفى لعدة أيام. أطلق أحد الدخلاء رصاصة عليه في منـــزل آن في جزيـــرة النخـــيل. لا تجزعي. إنه يتعافى جيداً. إنه الآن في مستشفى الجامعة الطبية لكارولاينا الجنوبية في تشارلستون. سيخرج والدك من المستشفى قبل أن تـــتمكني مـــن الحضور إلى هنا، وسيُخبرك عمّا حصل عندما يراك ثانيةً. اقبلي حبي. والدتك"**.

عـــدت إلى لائحـــة الأشخاص المفقودين التي أعددتها. لاحظت أن أوقات اخـــتفائهم تعـــود إلى ما قبل خمس السنوات. دخل **رايان** إلى المطبخ عندما كدت أنتهـــي. ســـكب القهوة، وانضّم إليّ جالساً بقربي إلى الطاولة. فهمت من حاجبه المقوس أنني لا أبدو على أفضل صورة.

"لا تقلها يا **رايان**".

"تدينين لرجل يدعى جيري بالكثير من الشراب الاسكتلندي".

"ومن يكون جيري هذا؟"

"إنه شاب يعيش في كوانتيكو. أطلق التصفح الذي قمت فيه في قاعدة بيانات المركـــز الوطني للمعلومات عن الجرائم عملية بحث عن **دومينيك رودريغز**. وجده جيري لكن بوسيلةٍ أخرى". أضاف بعد أن رسم ابتسامة على شفتيه: "إن جيري هو رجل مخادع".

أمسكت شعري وجمعته كتلةً واحدة: "لا تلعب معي يا **رايان**".

"يشبه شعرك شعر غلينليفيت".

"عُلِم".

مرّت فترة صمت بينما ارتشف **رايان** قهوته: "إن **رودريغز** مواطن مكسيكي ولـــد في وادي الحجارة. إنه يعمل الآن بصفته رئيس العلاجات الصحية في آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس، الكائنة في بويرتو فالارت في المكسيك".

"أوضِح أكثر! لماذا ترك **رودريغز** سان دييغو؟"

"يتابع جيري عمله، حتى بينما نتكلم. لنتحدث الآن عن **ليستر مارشال**".

انتظرت **رايان** لينهي ارتشاف المزيد من القهوة.

"برز اسمه على الشاشة".

بدأ قلبي بالتحرك في صدري: "أنت تمزح. ماذا فعل **مارشال؟**"

"أخذ ذلك الطبيب الطيب حريته بالنسبة للأدوية".

"هل كان يصف أدوية على هواه؟"

"أفـــرط الرجل بوصف الأدوية. استطاع ذلك الطبيب أن يعيش حياة محترمة بإعطاء وصفات لمواد تقع تحت المراقبة. أقدم أحد زملائه على الوشاية به، فعلّقت رخـــصة **مارشـــال** على أثر ذلك، وعلى ما يبدو لم يتُب الرجل. أُبطلت رخصة **مارشـــال** بعـــد وصول شكوى ثانية عنه، وإجراء تحقيق معه. لم يسّر المحققون في تولـــسا، وهـــيأوا التهم الجرمية. أمضى **مارشال** ثمانية عشر شهراً في السجن، ثم اختفى".

"أين كان **مارشال** في الفترة الممتدة بين وجوده في تولسا وتشارلستون؟"

"يحقّق جيري في هذا الموضوع. هل أنهيت ترتيب تواريخ الاختفاء؟"

أبرزت لائحتي **لرايان**. فأسرع بإجراء بعض الحسابات الذهنية.

"افتـــتحت آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس منتجعها للينابيع المعدنية في عام اثـــنين وتسعين. وتوقّف **مارشال** عن ممارسة مهنة الطب في أوكلاهوما عام تسعة وثمانين. ترك الولاية عام واحد وتسعين بعد الفضيحة التي طالته، ثم ظهر هنا مجدداً عام خمسة وتسعين".

نقر **رايان** على القائمة وأضاف: "إذا تبيّن أن ما قاله ذلك الرجل المخمور الذي استجوبه مساعد **غوليت** صحيح، فسيعني ذلك أن **هيلمز** اختفى بعد أحداث الحادي عـــشر من أيلول (سبتمبر)، من عام 2001، أما الباقون فاختفوا بعد هذا التاريخ. يدلّ ذلـــك على أن **مارشال** و**رودريغز** قد استغرقا وقتاً طويلاً ليتعاونا، أو أننا بحاجة لفتح عدد من القضايا الباردة (العالقة). هل سمعت شيئاً جديداً من **غوليت**؟"

هززت رأسي، وتحرّرت كتلة الشعر من فوق رأسي.

أمـــسك **رايـــان** بعض خصلات شعري ووضعها وراء أذنيّ: "أتساءل ما إذا كانت أسماكه قد بدأت بالعض".

تـــناولت هاتفي الخلوي. وصلتني عاملة الهاتف عند **غوليت** به هذه المرة. لم أضيّع وقتاً على التحيات.

"يقوم **مارشال** بقتل الناس ليسرق أعضاءهم".

أجاب بنبرة باردة: "إنه اتهام خطير جداً. سمعت عن حادث إطلاق النار. هل لي أن أعرف كيف هي حالة المحامي؟"

"إنه يتعافى بشكل جيد، شكراً لاهتمامك".

"وهل حضرت شرطة جزيرة النخيل إلى مسرح الحادث؟"

"نعم".

"وكيف يفسرون ما حدث؟"

"إنهم يميلون إلى اعتباره عرضياً".

"هممم".

لم أفهم ماذا يقصد، لكنني لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بمتابعة الحديث.

"إن العلامات التي ظهرت في عظام **هيلمز** و**مونتاغيو** تتوافق مع شفرة مبضع جراحي".

حـــصلت على "همم" أخرى، ثم أخبرته ما اكتشفته في حاسوب **كروكشنك**. تـــوقّفت عن الكلام، وسمعت **غوليت** يُصدر صوتاً فسّرته على أنه يحثني على متابعة حديثي. لخّصت له الأشياء التي اكتشفناها حول **مارشال** و**رودريغز**.

قال برتابة: "هل ما زلت تتحدثين عن **هيلمز** و**مونتاغيو**؟"

"نعم، حتى الآن. تبيّن أن شخصاً مفقوداً يدعى جيمي راي كان مريضاً يتردّد على عيادة **كنيسة رحمة الله**. ومن يدري كم يوجد غيره من الأشخاص؟ أعتقد أن أحدهم قتل **كروكشنك** ليُسكته، قبل أن يتوجّه ليُبلغ السلطات. ويُحتمل أيضاً أن يكون هذا ما حصل مع **هيلين فلين** أيضاً".

"آه – ها".

"اختفى شخص يعاني من انفصام في شخصيته، ويدعى **لوني آيكمان** في العام 2004. أعـــاد أحد الصحفيين نشر قصته في آذار (مارس) الفائت. وُجدت والدة **آيكمان** ميتة في سيارتها يوم الثلاثاء الفائت. ويُحتمل أن يكون أحد الأشخاص قد قتلها لإخفاء علاقة **جيمي راي** ب**كنيسة رحمة الله**".

"نعرف أن أحد الضحايا قد دُفن، وأن ضحية أخرى جرى رميها في المحيط، وأحدهم شُنق على شجرة، وامرأة وُجدت مقتولة في سيارتها، لكننا لا نمتلك دليلاً واضحاً على أن شخصاً واحداً قد اقترف كل هذه الجرائم".

"يتمتّع الشخص الذي دبّر هذه الجرائم بالذكاء، مهما كانت هويته. ويُحتمل أنـــه نـــوّع في طـــريقة الجرائم حتى لا يُكتشف الرابط فيما بينها، وذلك في حالة اكتشاف الجثث. لكننا متأكدون من أمر واحد، لدينا ثلاث ضحايا ماتت خنقاً".

"أين تقع تلك العيادة المكسيكية؟"

"إنها تدعى آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس، وتقع في بويرتو فالارتا".

سمعت صوت استدارة كرسي **غوليت**. قال بعدها: "ماذا تريدينني أن أفعل؟"

"أحتاج لأية معلومات تستطيع جمعها عن ملكية، أو تأجير، الطائرات الخاصة في هـــذه المـــنطقة، وعلـــى الأخص الطائرات التي تستخدمها **كنيسة رحمة الله** أو **مارشـــال**. أريد الحصول كذلك على لائحة بالطائرات الخاصة المسجلة محلياً، إذا كان ذلك ممكناً".

"سأعيّن مساعداً ليهتم بهذه المسألة".

"أريـــد أيـــضاً رأيك بالشخص الذي يجد سهولة كبيرة باستخدام دي ويز كمكان لرمي الجثث".

"حضّرت لائحة بأصحاب المنازل في وقت اكتشاف جثة **هيلمز**. وجدت أن القلـــيلين جداً يمكثون في الجزيرة بصورة دائمة. ولاحظت أن معظم المنازل تُعتبر منـــزلاً ثانياً بالنسبة لمالكيها، وأن هناك قسماً كبيراً يؤجّر كبيوت سياحية. سآخذ وقـــتي لأتفحّص سجلات التأجير ابتداء من سنة 2001. أعتقد أن مالكي البيوت الذين يؤجّرون بيوتهم بأنفسهم لا يحتفظون بمثل هذه السجلات".

"نعم، افعل هذا. أين يعيش **مارشال**؟"

"انتظري لحظة من فضلك".

رنّ هاتـــف **رايـــان** الخلوي أثناء فترة انتظاري هذه. ردّ **رايان** على المكالمة. سمعت الكثير من كلمات "نعم"، و"آه – ها" أثناء تسجيله لبعض الملاحظات.

عـــاد **غولـــيت** إلى الخط: "يمتلك **مارشال** منـــزلاً يقع في فاندرهورست في جزيرة كياواه".

"إنـــه مكان بعيد بالنسبة لمروّج أدوية يعمل بدوام جزئي في عيادة مجانية. هل يمتلك زورقاً؟"

بـــدأ **غوليت** بالتأنيب الذي توقعته: "سأتحرّى عن الأمر، لكن أريدك أن لا تقومي أنت، ورجلك الذي ما زال ناشطاً، بمضايقة **مارشال** مجدداً. إذا كنت محقة بشأنه فليس من المنطقي أن تدفعيه لخطوة متسرعة".

بقـــيت مستيقظة طوال الليل، وها هي كياستي الجنوبية تتلاشى، وهي التي لم تكـــن يـــوماً إحدى حسناتي: "هل تقول إذا؟ إن **مارشال** هو رجل فاسد. اختفى مريضان كانا يترددان على العيادة التي يعمل فيها، بالإضافة إلى موظفة سابقة. والله وحده يعلم أين تقبع جثة **فلين**!"

"تقـــولين لي إن **رودريغـــز** لا يمـــتلك سجلاً إجرامياً. إنه مكسيكي غادر كاليفورنيا ليمارس الطب في المكسيك. لم يبرهن لي أحد عن وجود رابط بينه وبين كارولايـــنا الجنوبـــية. لا أمتلك سنداً قوياً لأطلب من السلطات المكسيكية إجراء

تحقيقات بشأنه. تعرفين جيداً، مثلما أعرف أنا، أن إجراء تحقيق عن رجل استناداً إلى أصله يُعتبر من المضايقات التي لا مبرر لها، أو نوعاً من التمييز العرقي".

"يُحتمل وجود مئة سبب يدفعنا للشك أن **رودريغز**...".

حـــرّك **رايان** يده ليجذب انتباهي، ثم ناولني ورقته. قرأت ما كتب فيها من ملاحظات.

"لم يظهـــر اسم **رودريغز** في قاعدة بيانات **المركز الوطني لمعلومات الجرائم** لأنه لم يرتكب جريمة في الولايات المتحدة. خسر **رودريغز** رخصته في كاليفورنيا بسبب ممارسته الجنس مع المرضى".

رمقت **رايان** بنظرة متسائلة. فأومأ ليؤكّد ما جاء في الورقة.

"وما أهمية ذلك بالنسبة لجريمة وقعت في ولاية كارولاينا الجنوبية؟"

لا أســـتطيع أن أصدق أن هذا الرجل العنيد بقي غير مقتنع: "هل تريدني أن أفرغ أمامك وعاء بسعة خمسة غالونات من الكلى على طاولتك لتصدق؟"

نطق **رايان**: "إنها نقطة جيدة".

بـــدا لي أن لهجـــة **غوليت** بدأت تشي ببعض المشاعر، الكراهية على وجه التحديد: "وجدت، أيتها الآنسة، من خلال عملي في تطبيق القانون أن التخمينات الجامحة ليست إلا بديلاً فاشلاً لوجود الدليل. أريدك أن تبذلي المزيد من التفكير في هذه النقطة. سآتي لآخذ الكمبيوتر. الزمي الهدوء قليلاً".

عدت للحديث عن ورقة **رايان**: "دعني أخمّن. يقول جيري المتعدد المواهب".

"إن جيري هو في قلب القضية الآن".

"إن **غولـــيت** هـــو في طريقه إلينا. إنه يصغي، لكنه لم يقتنع حتى الآن، وهو يعتقد أنني هستيرية".

"وماذا يتطلّب الأمر ليقتنع؟"

"يريد مستفيداً من زرع الأعضاء شعر بالذنب، ويضع نفسه بتصرف **جيري سبرينغر**".

حـــصلنا بعد مرور ساعتين على شيء أفضل، وذلك بفضل **جيري** الغامض، لكن المثابر. واجهت **غوليت** بمعلوماتي الجديدة عندما دخل من الباب.

"جـــايمس غارتلانـــد، مـــن إنديانابوليس، في ولاية إنديانا. كان في المرحلة الأخيرة من مرض الفشل الكلوي. أجرى عمليات غسل كلى لمدة ثلاث سنوات. ســـافر إلى بويرتو فالارتا في عام 2002. دفع الرجل مبلغ مئة وعشرين ألف دولار مقابل الحصول على كلية، وإقامة مؤقتة في آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس.

فيفـــيان فوس، من فلوريدا. وصلت إلى المرحلة الأخيرة من الفشل الكلوي. أجـــرت غسل كلى لمدة سنة ونصف. سافرت إلى بويرتو فالارتا في عام 2004. بلغت كلفة عطلة "فيفيان" لذلك المنتجع مئة وخمسين ألف دولار".

واجهـــت **غوليت** بالمعلومات التي زوّدنا بها **جيري**: "لا أعتقد أن المستفيدين المحظوظين سيكونون على درجة من الجنون كي يدلوا بشهاداتهم، لكن فليبارك الله مذكرات الإحضار".

أخـــذ **غوليت** وقتاً طويلاً لقراءة الورقة التي كتبها **رايان** خلال محادثته الثالثة مع **جيري**.

"هل يعمل رجلكم هذا في مكتب التحقيقات الاتحادي؟"

قال **رايان**: "نعم".

"وهل تكلّم شخصياً مع غارتلاند وفوس؟"

"نعم".

"وكيف حصل على الأسماء؟"

"اســـتطاع إقناع عميل رائع يتكلّم الإسبانية في كوانتيكو ليتحدث مع سيدة مكسيكية رائعة تعيش في آريغو".

"وهل لعب المال دوره؟"

"نعم".

"ولماذا تعاونا معه؟"

قال **رايان**: "يتمتّع **جيري** بشخصية جذابة".

اســـتمرّ **غوليت** بالتحديق بالورقة. أعتقد أنه انهمك بتنظيم الحقائق في رأسه. لاحظت أن وجهه كان جامداً كالصخر عندما رفع رأسه.

"هل يفكّر مكتب التحقيقات الاتحادي بالتدخل في هذه القضية؟"

"يسدي لي **جيري** خدمة في الوقت الحاضر. إن هذا يتماشى مع الطريقة التي تفكر بها، وأنا متأكد من أن المكتب الاتحادي سوف يتدخّل".

"إن ما قاله غارتلاند وفوس لا يشكل جريمة مع ذلك".

رفعت يديّ في الهواء.

استنشق **غوليت** الهواء، ثم زفره من خلال أنفه، ثم ربط حزامه: "ومع ذلك أقول لكم إن **مارشال** يحتفظ بزورق باي لاينر (عابر الخليج) يبلغ طوله ثلاثة وعشرين قدماً في بوهيكيت مارينا. يقول مدير المرفأ إن الزورق أبحر نهار السبت، ولم يعد حتى الآن".

قلت: "تحدثتُ ورايان مع **مارشال** نهار السبت".

لوّح **غوليت** بورقة **رايان**: "هل تحدثتما معه عن الأشياء التي وردت في هذه الورقة؟"

هززت رأسي بالنفي: "لكنني سألته عن **أونيغ مونتاغيو وهيلين فلين**".

نظر **غوليت** إلى ساعته. ونظرت و**رايان** إلى ساعتينا. أشارت العقارب إلى التاسعة وسبع وأربعين دقيقة.

"دعونا نحاول إيجاد مكان ذلك السيد لنتحدث معه، فربما كانت العيادة خارج نطاق صلاحياتي، لكن الأمر يختلف مع الجثتين".

لحقت **بغوليت** إلى العيادة برفقة **رايان**. لم نتحدث كثيراً في الطريق. شعرت بالتوتر قليلاً، لكنني شعرت أكثر بالإنهاك نتيجة إمضائي الليلة من دون نوم. استطعت فقط تخمين الأفكار التي تدور في ذهن **رايان**.

التقاني مساعدان خارج العيادة في ناسو. وصلت الوحدة الجنائية في الوقت الذي كان فيه **غوليت** يعطي توجيهاته لفريق المساندة. علمت أنه تمّ استصدار تفويض بتفتيش العيادة. ستتمكن وحدة مسرح الجريمة من قلب العيادة رأساً على عقب فور الحصول على هذه المذكرة. فكّر **غوليت** ملياً بموقفه في الطريق من جزيرة النخيل، واتصل بالسلطات في المكسيك. تمنّيت أن يحصل شيئاً مشابهاً في منتجع المياه المعدنية في بويرتو فالارتا.

بدأ قلبي يدق بعنف داخل صدري. ماذا لو أنني مخطئة؟ لا. لا يمكن أن أكون مخطـئة. إنه **مارشال** بالتأكيد. أعتقد أن هذا الرجل شرير، ويشعر باليأس لتجميع ثروة.

حـام رجـل أمن حول المنطقة لتغطية المدخل الخلفي للعيادة. تبعت **غوليت** بـرفقة **رايان** ورجل الأمن الآخر، ودخلنا من الباب الأمامي. رأيت **بيري** جالسةً أمام طاولتها. بقي رجل الأمن في المدخل، بينما تمركزتُ **ورايان في** طرفي الغرفة.

لاحظـت وجـود ثلاثة مرضى يجلسون على الكراسي البلاستيكية بانتظار مواعيدهم. شاهدت امرأة مسنّة سوداء، وشاب مستهتر يرتدي كنـزة صوفية، أما الثالث فبدا مثل مدرّب فريق مدرسي لكرة المضرب. راقبتنا المرأة المسنة من خلال نظـارة مـربعة وكـبيرة. توّجه الشاب المستهتر مع المدرب نحو المدخل، فتراجع مساعد **غوليت** ليفسح لهما الطريق.

سأل **غوليت بيري** بكل جدية: "أين الدكتور **مارشال؟**"

أجابت بلهجة عدائية: "إنه يعاين مريضاً".

تحـرّك **غولـيت** باتجاه الرواق الذي قادنا **مارشال** من خلاله قبل ثلاثة أيام. نهضت **بيري** من مكانها، ومدّت ذراعيها على عرض الرواق، وكأنها تريد أن تحمي منـزلها.

حافظـت تلـك الشابة على عدائيتها، لكنني لاحظت شيئاً من الخوف في صوتها: "لا تستطيع أن تذهب إلى هناك".

استمرّ **غوليت** في تحركه، وتبعناه جميعاً.

تـراجعت **بـيري في** خطـواتها، وأبقت على ذراعيها ممدودتين على طريقة النسور، واستمرّت في محاولتها إعاقة تقدمنا: "إنها عيادة يتواجد فيها مرضى".

أظهر صوت **غوليت** الصلابة الجنوبية المعروفة: "ابتعدي عن طريقنا يا آنسة، من فضلك".

شـعرت بالانـزعاج إلى درجة كدت معها أدفع **بيري** بنفسي لأحملها على التنحـي عـن طريقنا. أردت أن يمثل **مارشال** أمام الشريف بسرعة، أي قبل أن يستطيع الاتصال بشريكه في المكسيك.

ظهر الدكتور في تلك اللحظة خارجاً من عيادته، ورأيناه حاملاً لسجل بياني في يده: "ما هذه الجلبة، آنسة **بيري**؟"

خفضت **بيري** ذراعيها، لكنّ حملقتها بنا استمرّت. همّت بالكلام، لكنّ **مارشال** قاطعها بإشارة من يده.

بدا **مارشال** محتفظاً بهدوئه الكامل، وكان يرتدي معطف مختبرات أبيض اللون، ولاحظت شعره المُسرّح جيداً. فكّرت كيف يستطيع **ماركوس ويلبي** أن يهدئ من روع مريض صعب الانقياد: الشريف **غوليت**.

أومأ باتجاهي وتابع: "دكتورة **برينان**. أعتقد أن اسمك **برينان**، أليس كذلك؟"

بدأ قلبي بالقفز في مكانه. أردت تمزيق أوصال هذا الشرير، وأن أتأكد من أنه يدفع ثمن ما فعله.

جاء صوت **غوليت** جامداً كالصخر: "لدي يا دكتور **مارشال** مذكرة بحث في هذا المكان. نرغب بالحصول على معلومات تتعلّق بمرضى اختفوا تحت ظروف مشبوهة".

انفرجت شفتا **مارشال** عن ابتسامة تختصّ بها الزواحف وحدها.

"وما هي علاقتي باختفاء هؤلاء الأشخاص، أيها الشريف؟"

لم أستطِع كبح جماح الكلمات التي نطقت بها: "أنت تعلم بوجود أشياء هنا قد تسمح لنا بمعرفة سبب وكيفية موتهم".

تكلم **مارشال** مع **غوليت**: "هل هذا نوع من المزاح. إذا كان الأمر كذلك، أؤكد لك أنني لا أستمتع به".

بقيت ملامح **غوليت** خالية من أية تعابير: "سأطلب منك، يا سيدي، أن تتنحى جانباً أثناء قيامنا بالبحث. أفضّل بطبيعة الحال أن أجعل من هذه العملية سهلة قدر الإمكان لكلينا".

سألت **بيري** بصوت مرتجف: "ماذا يتعيّن عليّ أن أفعل؟"

تجاهل **مارشال** سؤالها، ولاحظت أن هدوءه الفولاذي يتناقض مع القلق المتزايد الذي أظهرته موظفة الاستقبال عنده، لكنه تحدّث إلى **غوليت**: "ما هذا

الجنون الذي يجري هنا أيها الشريف؟ أنا طبيب. إنني أساعد الفقراء والمرضى. أنا لا أقتلهم. إنك ترتكب خطأً هنا".

لم يتحوّل **غوليت** ببصره عن **مارشال**: "سيدي".

ناول **مارشال** السجل البياني **لغوليت**: "سوف تندم على هذا أيها الشريف".

صاحت **بيري**: "قل لي ماذا أفعل!"

"اهتمّي من فضلك بالمريض الذي يجلس في غرفة الفحص الثانية يا آنسة **بيري**".

انتظرت **بيري** لحظة، ونقّلت بصرها ما بين **غوليت**، و**مارشال**، وبيني. ثم نهضت بتثاقل بعد ذلك لتختفي من خلال أحد الأبواب.

أشار **غوليت** إلى **مارشال** ليتّجه إلى غرفة الانتظار: "سنقف بهدوء إلى أن يصل التفويض بالتفتيش".

ركّز **مارشال** عينيه على عينيّ. رأيت فيهما حقداً يصعب إخفاؤه.

مشى **مارشال** خلف المساعد الذي قاده ليجلس على أحد كراسي الفينيل، واستطعت تنشق رائحة عطره لما بعد الحلاقة، ولاحظت الحرير ذا اللون الأبيض المائل إلى الصفرة، والوهج الخفيف لشراريب الجلد. تحوّلت أصابع يديّ إلى قبضتين من الغضب. شعرت بالصدمة نتيجة غطرسة ذلك السافل، واستهتاره الممتزج بالغرور.

لاحظت شيئاً غريباً في صدغ **مارشال** الأيمن. نبض وريدٌ هناك مثل أفعى تمّ ابتلاعها.

33

انتظـــرنا في الخارج، وارتشفنا القهوة من أكوابٍ بلاستيكية. تجمّع حشدٌ صـــغير من الناس على الرصيف. لاحظ المتجمهرون سيارات الكروزر، وعربة كـــشف مـــسرح الجـــريمة. وصل المدعي العام المحلي حاملاً الإذن بالتفتيش، فتحـــركت عـــربة كشف مسرح الجريمة. وطلب **غوليت** من **رايان**، ومني، أن نجلس بهدوء أثناء قيام الفريق بتفتيش العيادة، وكذلك أثناء انهماكه مع مساعده باستجواب الموظفين.

مـــرّت ساعة. تفرّق المحتشدون ببطء بعد أن خاب أملهم بظهور أي شخص في الخارج.

عـــبر **غولـــيت** شـــارع ناسو إلى حيث جلستُ مع **رايان** مستندَين على الجيب.

سألته: "هل وجدتم شيئاً يؤدي إلى توجيه اتهامات؟"

"حصلت على عدة أشياء أريدك أن تريها".

لحقت **بغوليت** مع **رايان** إلى العيادة. رأيت **بيري** جالسةً إلى طاولتها، وتخضع للاســـتجواب. جلس **دنيالز** على أحد كراسي الفينيل. بدا الاثنان منـــزعجين مما يجري. لاحظت أن **مارشال** خرج لينتظر في سيارته.

سألت **غوليت**: "ماذا لو استخدم هاتفه الخلوي؟"

"في الواقع، لا أستطيع منعه لكنني أستطيع تتبع أية مكالمات يجريها".

قادنـــا **غولـــيت** إلى غـــرفة معاينة تقع في الطبقة الثانية. بدا المكان نموذجياً. ولاحظـــنا وجـــود كرسي، وطاولة للعمل، ومصباح طاولة متحرك، بالإضافة إلى طاولة فحص مغطاة بالأوراق.

تفحّصت الخزائن والجدران أثناء سيرنا فوق الأرضية المشمعة. رأيت الأكواب البلاســتيكية، وقضبان فحص الفم، والأوراق البيانية لفحص الأعين، وميزاناً لوزن الأطفال.

سأل **رايان** من خلفي: "ألم يجدوا مبضعاً لعيناً في هذا المكان؟"

"أتعني هذا؟"

اســتدرت نحـــو مـــصدر الصوت. ورأيت **غوليت** يحمل كيساً من النايلون الـــشفاف مـــن ذلـــك النوع الذي يُستخدم لجمع الأدلة. رأيت في داخل الكيس أنشوطة هي عبارة عن سلك معدني بسماكة ربع إنش.

تصوّرت **أونيغ مونتاغيو** أثناء صعودها إلى طاولة الفحص، وحيدة ومريضة، وقـــد وضـــعت ثقتها في ذلك الطبيب الطيب كي يحسّن صحتها. تصوّرتُ **أونيغ** أيـــضاً في ذلـــك البرميل الصدئ، وهي تتحلّل ببطء في المياه المالحة. تخيّلت أيضاً الكائـــنات البحرية أثناء محاولتها الدخول إلى البرميل لتحصل على شيء من جثتها المتعفنة. شعرت أن غضبي بدأ يتصاعد.

سأل **رايان**: "أين كانت هذه؟"

"كانت مخبأة في خزانة تحت طاولة العمل".

رأيـــت آثـــاراً لمـــسحوق الـــبودرة على السلك، فسألتُ: "هل عثرتم على بصمات؟"

هزّ **غوليت** رأسه.

لم أســتطع إخفـــاء الكـــراهية التي ظهرت في صوتي: "لعله استخدم قفازين طبيين، ومن المؤكد أنه لم يستخدمهما لحماية مرضاه".

قال **غوليت**: "اتبعيني".

لاحظت أن البابين الآخرين في الطابق العلوي يؤديان إلى غرفة كبيرة واحدة. خمّـــنت أن جدراناً كانت تؤلف غرفة نوم صغيرة وحماماً، قد أزيلت لتتشكل هذه

الغـــرفة. جُهِّـــزت هذه الغرفة ببراد، وحوض مزدوجٍ من الفولاذ الذي لا يصدأ، وطـــاولات عمــــل، وخزائن مماثلة لتلك الموجودة في غرفة الفحص. رأيت عموداً للحقـــن الوريدية في إحدى الزوايا. ووضعت طاولة للعمليات الجراحية في وسط الغرفة.

رأيـــت أربعـــة برادات صغيرة مثل تلك التي تُشترى من محلات وال مارت، والـــتي تُـــستخدم لـــنقل الأطعمة أثناء النـــزهات على الشواطئ. وُضعت أوراق تعريف دليلٍ لاصقة، بألوان حمراء وصفراء.

قال **رايان**: "إنها غرفة لإجراء عمليات جراحية خاصة".

أشـــار **غوليت** بيده إلى الغرفة: "الغرفة مجهزة بستائر للتعتيم، وأضواء خاصة بغرفة العمليات من أحدث طراز".

انتشرت أكياس جمع الدلائل على الطاولة. اقتربت منها كي أتفحّصها.

رأيـــت مـــشابك جراحية، وعشرين مقصاً على الأقل من مختلف الأنواع. ولاحظـــت أدوات إيقاف النـــزيف، وقماش جراحي، ومباضع جراحية. لاحظت أيضاً وجود مقابض لمباضع جراحية، وعلب لوضع الشفرات التي سبق استخدامها. شـــاهدت كـــذلك قـــسائم شحن خُتمت بكلمات **عيّنات بيولوجية من مركز التوريد**. لفت انتباهي أيضاً وجود أكياسٍ معقمة، وصوانٍ مكدسة تُستخدم لجمع العيّنات.

بدأ صدري بالغليان.

وجدت أنه يصعُب عليّ إبقاء الحيادية في صوتي عندما طرحت سؤالي: "وماذا بشأن ملفات المرضى؟"

قـــال **غولـــيت**: "تحـــضّر **بـــيري** كل السجلات المكتبية، كما أننا صادرنا الكمبيوتر".

"هل تصل المعلومات عن مرضى هذه العيادة إلى مسؤولي **كنيسة رحمة الله**".

هزّ **غوليت** رأسه: "إن العيادة هي مؤسسة مستقلة، وكل السجلات تبقى هنا في مكانها، لكنها تُتلف بعد ست سنوات".

سأل **رايان**: "ما هي رواية **بيري**؟"

"قالت إنها لم تلاحظ أي شيء غير اعتيادي، أما الدكتور **مارشال** فهو فوق مستوى الشبهات بالنسبة لها".

"وماذا بشأن **دنيالز**؟"

"يقـــول إنه لم يلاحظ أي شيء غير اعتيادي، أما الدكتور **مارشال** فهو فوق مستوى الشبهات بالنسبة إليه".

"وماذا بشأن الرجل الذي يتولّى التنظيف في العيادة؟"

"يدعـــى **أوديـــل تـــاوري**. إنه يأتي في الليالي، وهو متخلف عقلياً بعض الشيء. سيتحدث مساعدي مع **تاوري** في الغد. أشك في أن ذلك سيوصلنا إلى أي شيء".

سألت: "وماذا يحدث في المكسيك؟"

"ما إن أعرف شيئاً حتى أُبلغكما به".

"وماذا بشأن مكتب **مارشال**؟"

أدخـــل **غوليت** يديه الاثنتين في جيبـــي بنطاله، لكنهما خرجتا فارغتين، ثم ربت على جيب قميصه: "اكتشفت **وحدة كشف مسرح الجريمة** شيئاً سيعجبك. انتظري قليلاً".

مـــشى **غولـــيت** بخطوات متثاقلة، ثم عاد إلى القاعة. عاد، ودخل إلى غرفة العمليات الجراحية، وخرج حاملاً معه كيساً صغيراً لجمع الأدلة: "وجدنا هذا تحت رف الأقـــلام، وفي ثغرة مجوفة، داخل أحد أدراج مكتبه. استطاعت وحدة كشف مسرح الجريمة أن تسحبه بمساعدة آلة شفط".

شعرت بابتهاجٍ حلّ مكان الشعور بالاشمئزاز الذي شعرت به أولاً.

احـــتوى الكـــيس على صدفة صغيرة بنيّة اللون. لاحظت أنها تشبه الصدفة الصغيرة التي وجدتها في قبر **ويلي هيلمز**.

قـــال **غولـــيت**: أستأذنكم للحظة. يتعيّن عليّ إبلاغ هذا الطبيب الطبيب أنه تحت الاعتقال، وذلك للاشتباه بارتكابه جريمة قتل **أونيغ مونتاغيو**، وسأرتّب أمر اعتقاله ونقله".

تناولـــنا غداءً سريعاً، توقّفت بعده مع **رايان** في المستشفى. سمعنا أخباراً طيبة أخـــرى. بدأ **بيتي** بالتحدث بصورة طبيعية، واستعاد القليل من لونه. وقال الجرّاح إن ذلـــك المفكّـــر الـــذي جاء من لاتفيا عانى من تمزق في عضلاته، ومن بعض النـــزيف في الشرايين، وأنه سيشفى، وأن كل شيء سيعود إلى حالته الطبيعية من دون ترك أثرٍ دائم.

دُهشت للشعور بالاختناق الذي أحسسته في حنجرتي.

أدركت أنني سأشعر بالارتياح والامتنان لتحسن حالته، لكنني صُعقت بمدى عمق العاطفة التي اجتاحتني حيال هذا الأمر. شعرت أن الدموع ستنهمر من عينيّ عندما نظرت إلى الأنابيب، والأشرطة اللاصقة، والآلات التي تحيط به. أدركت أن الرصاصـــة كانت ستقتله لو وصلت إلى مسافة أبعد ببوصات قليلة باتجاه وسطه. مسحت دموعي عن خديّ متظاهرةً بأنني أقوم بجمع شعري.

أمسك **رايان** بيدي وضغط عليها. نظرت نحو الأعلى. وعرفت من التشوش الذي بان على وجهه بأنه لاحظ دموعي.

أبلغتـــنا **إيما** بأخبار جيدة هي الأخرى. لم يرتفع تعداد خلايا دمها، لكنها لم تنـــزل أيضاً. عدّلت لها الدكتورة **رسل** نظامها الغذائي، وجرعات أدويتها. أبلغتني أنها لم تعد تستبعد *كل* الكعك المحلى.

طلبـــنا من **إيما** الاتصال بعالِم الرخويات، وأن تسأله إن كان يستطيع فحص العينة في ذات اليوم، إذا توجهتُ و**رايان** إلى كولومبيا؟

قال إنه سيقوم بالفحص. يبدو أننا نُحرز نجاحاً!

اســـتغرقت الرحلة أقل من تسعين دقيقة. استقبلنا رجل يدعى **ليبينسكي** في رواق بـــناية مختبر الولاية. لاحظت أن **ليبينسكي** رجل طويل، ومفتول العضلات، ويتميز برأس أصلع ولامع، وأنه يضع حلقة في إحدى أذنيه. بدا أنه أكثر نظافة من *السيد نظيف* الذي هو نموذج أستاذ مادة علم الحياة.

قلتُ له: "شكراً لمجيئك".

هزّ **ليبينسكي** إحدى كتفيه المكتنـــزتين: "ليس لدي صفوف تعليمية اليوم، كما أن حرم الجامعة قريب من هنا".

اصطحبنا **ليبينسكي** إلى مختبر صغير تتواجد فيه خزائن تحتوي على عشرات الأدراج الطويلة والضيقة. رأيت طاولات طويلة طليت سطوحها بلون أسود، ووضعت فوقها صوانٍ للفحص. رأيت أيضاً العلب التي تحتوي على القفازات الطبية، وشرائح زجاجية، ومجاهر.

مدّ **ليبينسكي** يداً بحجم الأيدي التي تستخدمها المشجعات في المباريات الرياضية.

أخرجت كيس جمع الأدلة.

أخرج **ليبينسكي** الصدفة، ووضعها تحت المجهر. جلس ثم عدّل تركيز المجهر.

مرّت الثواني. مرّت دقيقة بأكملها. ومرّت خمس دقائق أخرى.

تبادلتُ **ورايان** النظرات من فوق ظهر **ليبينسكي** المنحني. رفع **رايان** حاجبيه وراحتي يديه. لماذا هذا التأخر الكثير. هززت كتفيّ.

قلّب **ليبينسكي** الصدفة.

انتشرت رائحة المواد المطهرة واللاصقة في الهواء الحار والرطب. حرّك **رايان**، الواقف إلى جانبي قدميه، ونظر إلى ساعته.

نظرت نحوه بالطريقة نفسها التي نظرت بها والدتي إليّ عندما بدأت أتململ في الكنيسة.

تنحنح **رايان**، واستدار، ثم تفحّص الخزائن.

قلّب **ليبينسكي** الصدفة، وغيّر مقدار التكبير.

وضع **رايان** ذراعيه بشكل متصالب. عرفت أنه سيدلي بتعليق. سأل **رايان**: "هل تحتوي هذه الخزائن على مجموعات نموذجية؟"

قال **ليبينسكي**: "همم".

"هل هي كمية كبيرة من الرخويات؟"

لم يقدّم **ليبينسكي** جواباً.

"لا بد أنه تعب كثيراً لينقلها إلى هنا".

أغمضت عينيّ وفتحتهما.

بدا **ليبينسكي** جامداً مثل **غوليت**. تسبّب الضوء الصادر عن المجهر بجعل شعرات صدره الملتفة تبدو مثل أسلاك بيضاء: "بلح البحر والرخويات ليسا الشيء ذاته".

"وماذا أيها الفتيان تعتقدان أن سانتا كلوز سيقدّم لكما؟"

قلـــت: "ننتظر أن يقدِّم لنا حلزوناً يعيش في المياه العذبة، ويدعى **فيفاباروس إنترتكتوس**".

"أرى أنكما فتى وفتاة طيبان".

قـــال **رايان** عندما وصلنا إلى 26-I: "إذاً لا ينتمي بلح البحر والرخويات إلى نفس العائلة. لنتصوّر ذلك".

أشارت عقارب الساعة إلى ما بعد السادسة عندما بدأنا بسلوك طريق العودة إلى تشارلـــستون. توقفـــنا قلـــيلاً عند متنـــزه **بيغي موريس**. تُعتبر آراء **موريس بيسينجر** السياسية هجومية، لكنه يحضّر صلصة مشاوٍ من الدرجة الأولى.

شـــعرت بالـــتعب نتيجة سهري في الليلة السابقة. التهمت شيئاً من اللحم، والمقـــالي، والشاي المحلى. أردت أن أتهالك على وسادتي، وأستسلم للنوم. ولكنني اتـــصلت، بدلاً من ذلك، كي أخبر **غوليت** بشأن تحديد نوع الحلزون الذي قدمه **ليبينسكي** لنا.

"تنتمي الحلزونات إلى نفس النوع الذي يعيش في المياه العذبة، مثل تلك التي وجدناها مدفونة مع **هيلمز**".

"ستحبين ما سأقوله لك".

هـــل فعـــلاً سمعـــت نغمة ما في صوت **غوليت**؟ هل تدلّ هذه النغمة على السعادة، أم على الارتياح؟

"أصـــدر مكـــتب المدعـــي العام مذكرة تفتيش ثانية بعد الانتهاء من تفتيش العيادة. قلبت وحدة كشف مسرح الجريمة منـــزل **مارشال** رأساً على عقب. يبدو أن الطبيب هو رجل ذو ذوق رفيع. وجدوا أن المكان يشبه الدير، وهو نظيف إلى درجة التعقيم. ووجدوا أيضاً القليل من الممتلكات الخاصة، لكنني أستطيع أن أقول إن **مارشال** هو هاوٍ لجمع المقتنيات".

لم يكـــن هـــناك من شك بشأن النغمة التي تميّز صوتي. جاءت كلماتي بمثابة الانتشاء: "الأصداف!"

"وجدنا مئات منها، وكلها مرقمة ومصفوفة في علب صغيرة وأنيقة".

سمعت صوتاً في مكان ما.

وضعني **غوليت** في وضعية الانتظار: "انتظري قليلاً".

أبلغت **رايان** بشأن هواية **مارشال** في هذا الوقت.

"أتمنّى أن لا يضع الرخويات وبلح البحر في الصينية ذاتها".

حمل إليّ **غوليت**، عندما استأنف حديثه، أخباراً جديدة.

"يتواجد زورق **مارشال** المسمى باي لاينر في كي لارجو، فلوريدا".

"يبدو أننا حصلنا على نتائج سريعة".

"أرسلت إلى جميع المراكز بطلب الحصول على معلومات عن مكان وصناعة هـــذا الـــزورق، ورقم تسجيله. شاهد رجال شرطة كي لارجو هذا الزورق منذ عشرين دقيقة مضت. قالوا إن اسم الزورق هو ***فلايت أوف فليمسي***".

"كانـــت **فلايت** (رحلة طيران) حقاً، لكنها ليست **فليمسي** (بسيطة)، لكن كيف وصل الزورق إلى "كي"؟"

"يدّعي سيّد يدعى ساندي مان أنه اشترى هذا الزورق في تشارلستون، وقال إنـــه قـــام برحلة إلى الجنوب يوم الأحد. تأكّدنا من صحة تواريخ الرحلة. ويقول الشهود إن ***فلايت أوف فليمسي*** قد رسى في وقت ما يوم الاثنين".

"وماذا يقول مان؟"

"إنه في الطريق إلى هنا ليُخبرنا".

"ورودريغز؟"

"اقـــتحمت شـــرطة بويـــرتو فالارتا منتجع آبريغو في وقت يقارب وقت اقتحامنا عيادة **مارشال**. ووجدت الشرطة هناك نفس التجهيزات التي وجدناها هـــنا تقريباً، لكنهم قالوا إنها تبدو أكثر تعقيداً هناك. يبدو أن هذا المنتجع هو مركز هام جداً".

"ورودريغز؟"

"لم يجدوه في المنتجع، ولا في منـــزله، ولا في النادي. قالوا إن إحدى السيارات مفقودة. وتقول صديقته إنه ربما ذهب بها إلى أواكساكا لزيارة أصدقائه".

"أعتقد أنه فرّ".

"يُحتمل هذا كثيراً".

"لا بد أن مارشال قد أنذره".

"ستمـــسك الشرطة المكسيكية به في النهاية، مع أنهم غير متأكدين من التهم التي سيوجهونها إليه".

"أقدم الرجل على بيع الأعضاء البشرية التي انتزعها من ضحاياه".

"أعـــتقد أن رواية محامي الدكتور **رودريغز** ستكون مختلفة. فإذا كانت لديه سجلات مزيفة عن مصادر الأعضاء التي زرعها، فسيكون من الصعب جداً الادعاء علـــيه. يتعيّن علينا إذاً أن نثبت وجود عملية تسليم عضو انتُزع من الضحايا، وأن نثبت علمه بها".

قلـــت باستهجان: "أتقول دكتور؟ هذا الرجل معاق عقلياً وهو يستحق أن يُـــسجن. لا يستحق أي شخص يرتكب جرائم القتل أن يُطلق عليه لقب دكتور. وينطبق الشيء نفسه على **مارشال**".

"لـــن يـــستطيع **مارشال** الذهاب إلى أي مكان، لأن قاضي التحقيق يحتجزه بتهمة ارتكاب جريمة من الدرجة الأولى".

"وماذا قال؟"

"قال إنه يريد تعيين محامٍ".

"يعطـــيه القانـــون حـــق عرض قضيته أمام قاضٍ خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. سيُطلق سراح **مارشال** بسند إقامة نهار الجمعة".

"إذا كان الأمر كذلك فلن نتركه. يقوم مساعدي بتفحص سجلات العيادة في هذه الأثناء".

"هل حصلت على الملف الذي أعددته على الكمبيوتر؟"

"انتهـــيت مـــن التدقيق بالمجموعة الأولى من الأسماء. لم أجد شيئاً. أعتقد أن **مارشال** قد ألغى كل المعطيات عن المرضى الذين قتلهم".

"يحتفظ الرجل بملف **مونتاغيو**".

"صحيح".

أبلغــت **رايان** بآخر التطورات بعدما انتهينا من الاتصال الهاتفي. استرخيت بعد ذلك وأغمضت عينيّ. شعرت بمزاجٍ جيد، في الواقع جيد جداً، مع أنني كنت مرهقة كثيراً.

يقــبع **مارشال** وراء القضبان، ويجري العمل على تجميع الدليل الذي سيدينه بجريمة القتل المتعمد، وتهم عديدة أخرى لا تُحصى.

لقد أطبقنا على شبكة دولية لتهريب الأعضاء البشرية. وتكونت عندي قناعة بأنــه ســيُقبض علــى **رودريغز** ويُحاكم، بالرغم من أنه تمكّن من الإفلات من الاعتقال في الوقت الراهن.

شــعرت بالارتــياح لأنني وفيت بقَسَمي لمساعدة **إيما**، ولهذا يستطيع الرجل الــذي دُفن في دي ويز، والرجل الذي عُلّق على شجرة، والسيدة التي وُضعت في البرميل، أن يرقدوا الآن جميعاً بسلام.

ينشغل **غوليت** بالعمل مع شرطة تشارلستون، وتكونت عندي قناعة راسخة بأنــه سيتمّ الحصول على أمكنة تواجد كل الأشخاص المفقودين في النهاية، ومن بيــنهم **آيكمــان**، **وتــيل**، **وفلــين**. أعتقد أيضاً أن مكتب التحقيقات الاتحادي سيتدخل، من دون شك، إذا ما تمّ خرق القوانين الاتحادية.

نظرت إلى الساعة الموجودة على لوحة قيادة الجيب عند دخوله باحة منــزل **البحر على امتداد أميال**. أشارت الساعة إلى أن الوقت 7:42. رنّ هاتفي الخلوي عــندما صــعدنا الــدرج. ضغطت على زر استقبال المكالمات، وتمنّيت أن يكون **غوليت** هو المتصل ليحمل إليّ خبر اعتقال **رودريغز**.

انساب صوت رجلٍ، لكنني لم أتمكن من تحديد صاحبه: "الدكتورة **برينان**".

"مَن المتصل من فضلك؟"

"أنا الدكتور **ليستر مارشال**. أحتاج إلى مقابلتك".

"ليس هناك أي شيء مطلقاً...".

"علـــى العكس تماماً. أعتقد أنني أسأت التعبير". صمت **مارشال** قليلاً قبل أن يضيف: "أنت هو الشخص الذي يحتاج لمقابلتي".

"أشك في ذلك".

"إن الـــشك بما أقوله لك ليس بالأمر الحكيم، يا دكتورة **برينان**. تعالي غداً. تعرفين أين تجدينني".

34

احتُجز **مارشال** في مركز الاعتقال الذي يقع في جادة ليدز، شمال تشارلستون. توجهتُ **ورايان** لرؤيته في الصباح التالي. تناقشت مع **رايان**، قبل استسلامنا للنوم، بسلبيات وإيجابيات الذهاب. وقف **رايان** إلى جانب عدم الذهاب، بينما دافعتُ عن إيجابيات مقابلة الرجل. وقف **غوليت** والمدعي العام المحلي إلى جانبي، وقالا إنه ليس هناك من شيء نخسره.

تملّكني الفضول في الحقيقة. أعرف أن غرور ذلك الرجل يصل إلى السماء. لماذا إذاً تنازل واتصل بي؟ هل يريد عقد صفقة؟ لم أجد ذلك أمراً منطقياً، لأن المساومة على الاعتراف هي من شأن المدعي العام المحلي.

وضعت نصب عينيّ هدفاً آخر بالإضافة إلى عامل الفضول. سبق لي أن رأيت **رايان** وهو يستجوب مشبوهين. شعرت بوجود فرصة أن يدين ذلك التافه نفسه، إذا أخذنا غرور **مارشال** بعين الاعتبار.

مررتُ **ورايان** بالإجراءات الأمنية الموجودة في مركز الاعتقال. صعدت وإياه إلى غرفة الاستجواب التي تقع في الطابق الثاني. ووجدنا **مارشال** ومحاميه هناك جالسين إلى طاولة معدنية رمادية اللون. ظهر توتر **مارشال** بوضوح فور رؤيته **رايان**. و لم يقف الرجلان عندما دخلنا.

سأل المحامي: "من هذا؟"

قلتُ: "إنه حارسي الشخصي".

قال المحامي: "لا".

هززت كتفي دلالة على عدم الاكتراث، واستدرت لأنصرف.

رفع **مارشال** يده فالتفت المحامي إليه، ثم أومأ **مارشال** بشدو. أشار لنا المحامي بوجوب أن نجلس.

اخترتُ أن أجلس **ورايان** على الكرسيين المقابلين للرجلين. عرّف المحامي عن نفسه بكونه **والتو تاكرمان**. إنه رجل قصير وأصلع، يتمتع بجفنين مثقلين بشرايين دقيقة حمراء اللون.

تكلّم **تاكرمان** أولاً، متطلعاً نحوي: "يريد الدكتور **مارشال** الإدلاء بتصريح. يمكـــنك أنت، ***وفقط*** أنت، طرح الأسئلة المتعلقة بذلك التصريح. وإذا خرج أي ســـؤال عـــن حدود ذلك التصريح فسأعمد إلى إيقاف الاجتماع فوراً. هل هذا مفهوم آنسة **برينان؟**"

قلت بصوت بارد: "أنا دكتورة".

رسم **تاكرمان** ابتسامة متملقة على شفتيه: "دكتورة **برينان**".

من يكون هذا الرجل بحق الجحيم؟ إن **مارشال** يضيّع وقتي. بقيت في مكاني رغم دافعٍ أغراني بالمغادرة.

ربت **تاكرمان** على كتف موكله: "ابدأ يا **ليستر**".

وضـــع **مارشال** يديه على الطاولة. بدا أقل أناقةً بكثير بثياب السجن التي دل لونها على غسلها مرات عديدة.

"وقعت في مصيدة".

"حقاً".

أبقـــى **مارشال** عينيه مركزتين عليّ: "ليس هناك من دليل متين يربطني بهذه الجرائم".

"يمتلك المدعي العام المحلي رأياً معاكساً".

"إن ما لفّق هو دليل ظرفي محض".

"تعرضت **أونيغ مونتاغيو**، **وويلي هيلمز**، **ونوبل كروكشنك** للخنق بواسطة أنشوطة سلكية. وجدت الشرطة أنشوطة مثلها في عيادتك، كما أنك تركت حزوزاً ناتجة عن مبضع جراحي في عظامهم".

"يستطيع أي شخص أن يشتري مبضعاً جراحياً".

"إن عيادتك مجهزة بكل تجهيزات غرفة العمليات الجراحية، وهذا أمر غير معتاد بالنسبة لمؤسسة توفّر حبوب الأسبرين، وضمادات الجروح الصغيرة".

"لم تكن غرفة عمليات بالمعنى المهني المتعارف عليه، لأنهم كانوا يطلبون مني أحياناً استئصال دملة، أو القيام بخياطة جراحية بسيطة. وطلبت تجهيز العيادة بإضاءة جيدة".

سبق أن تناقشت مع **غوليت**، والمدعي العام المحلي، بشأن صوابية زيارة **مارشال**. توصلنا إلى قرار يقضي بضرورة التحدث معه، وحدّدنا الطريقة التي سأنتهجها. اقترح المدعي العام المحلي أن أبدو صريحة، وأن أوجد الانطباع بأنني أعطيه بعض النصائح، بينما لا أكشف في الحقيقة أي شيء يجهله المتهم. وافق **رايان** على أن هذه الطريقة قد تكون مفيدة.

"اقتحمت شرطة بويرتو فالارتا منتجع شريكك".

رسمت بأصابعي علامة بين هلالين على هذه الكلمة الأخيرة: "نعرف أن **رودريغز** قد تدرّب ليصبح جراحاً، ونحن نمتلك إقرارات من مرضى استلموا كلى من مؤسسته. نعرف أنك **ورودريغز** التحقتما بمعهد طبي سوياً، وأنكما مُنعتما من مزاولة المهنة بسبب مخالفات وتجاوزات لترخيصيكما الطبيين".

سبق للمدعي العام المحلي أن تحدّث عن هذه المعلومات مع **مارشال**.

"معلوماتك صحيحة جداً، لكن المشهد الذي اختلقته يُعتبر تخمينياً بالكامل".

لم نكن متأكدين من أن **مارشال** يعرف شيئاً عن الأصداف. سبق أن قررنا أن أثير الموضوع معه كي نعرف ردّ فعله: "هل تستمتع بعلم الرخويات يا دكتور **مارشال**".

تجاهل **مارشال** السؤال.

"هل تفتقد مجموعتك لبعض العينات؟ ربما ***فيفاباروس إنترتيكستوس؟***"

قال **تاكرمان**: "يصعب اعتبار السؤال متعلقاً بالموضوع".

"إنـــني أتحـــدث عن صدفة ***فيفاباروس إنترتيكستوس*** التي وُجدت مع **ويلي هيلمز**، والتي تماثل صدفةً وُجدت على طاولة مكتبك. دُفن **ويلي هيلمز** في رمال شـــاطئ دي ويـــز. إن ***فيفاباروس إنترتيكستوس*** من الأنواع التي تعيش في المياه العذبة".

"اسألي نفسك يا دكتورة **برينان** لماذا أحمل الأصداف معي أثناء التخلص من جثة؟ أنا متأكد من أنك ستعتبرين كل ذلك مجرد معلومات ملفقة".

"هـــل توحـــي أن شخصاً ما قد وضع الأصداف على جسد **هيلمز**، وعلى طاولتك من أجل أن يلقي بظلال الشك عليك؟"

"نعـــم. لم يفعل ذلك أصلاً كي يلقي بالشك عليّ أنا. أقدم ذلك الشخص علـــى هذا من أجل تسليط الضوء على عنصر ملفق في القضية، بحيث يوحي بأن الجـــثة أتت من منطقة أخرى، وذلك في حال اكتشافها. قرّر القاتل توجيه أصابع الاتهام نحوي بعد زيارتك للعيادة، وذلك بوضعه تلك الصدفة في طاولتي. لم أتعوّد أخذ الأصداف معي إلى العيادة".

"ومن عساه يكون هذا القاتل؟"

"**كوري دنيالز**".

"ومن أين حصل **دنيالز** على هذه الأصداف؟"

ردّ **مارشـــال** مـــستهجناً وساخراً: "كان باستطاعته الحصول عليها من أي مستنقع. فكّري في هذا. إذا أردت توجيه ظلال الشك إلى جامع أصداف حقيقي، فلمـــاذا تختارين نوعاً يتوافر في هذه المنطقة كالذباب العادي؟ يستطيع أي شخص يتمـــتع بنـــصف نسبة الذكاء أن يختار نوعاً أكثر فرادةً. لا يُستغرب هذا الأمر مع **دنيالز**، فالرجل من النوع البليد".

"اكتـــشفت رمـــشاً داخل تلك الصدفة. إنه رمش أسود اللون، لكن **ويلي هيلمـــز** كـــان رجلاً أشقر الشعر. هل استمتعت بمسح الفم يا دكتور **مارشال**؟ سيعطينا ذلك الرمش معلومات هامة عن الحمض النووي".

أخـــرج **مارشال** نَفَساً طويلاً، وحدّق بالسقف. بدا مثل أستاذ انـــزعج من تلمـــيذه الكسول: "تذكّري، حتى ولو كان رمشي، بأنني عملت مع **دنيالز** بشكل يومـــي. اعـــتاد الرجل على الدخول بسهولة إلى مكتبي، كما أن شعرات الجسم تتساقط باستمرار".

لم أرد على هذا.

عـــادت عينا **مارشال** لتنظرا باتجاهي: "دعيني أطرح عليك هذا السؤال. هل وُجد أي دليل مع الضحايا الآخرين؟"

أدركـــت أن المدعـــي العام المحلي لم يتحدّث عن هذا الموضوع مع مارشال ومحاميه. ولم أرغب بتزويد محامي الدفاع بمعلومات عمّا لا نعرفه. أجبت: "لست مخوّلة للتحدّث بهذا الموضوع".

عكـــست نبرة **مارشال** نوعاً من الازدراء الخالص: "لأنك تعرفين أن الجواب هو لا، وإلا كنت سأُتهم بارتكاب تلك الجرائم. فكّري بنقطة ضعف منطقك. هل تعـــتقدين أنني متيقظ جداً بحيث لا أترك دليلاً واحداً مع الضحايا الآخرين، ومع ذلـــك أسمح لصدفة تحتوي على رمشٍ بالسقوط في قبر **ويلي هيلمز**؟ وتقولين إنني تركت صدفةً أخرى في طاولتي؟"

بدا السؤال نوعاً من الخطابة، ولهذا لم أرد عليه.

فرد **مارشال** أصابع يده: "هل أعمتك كراهيتك لي إلى الحدّ الذي منعكِ من التفكير بأنني وقعت في فخٍ نُصب لي؟"

"أتعني **كوري دنيالز**؟"

"نعم".

هـــززت رأســـي من الدهشة: "لا يمتلك ممرض المهارات اللازمة لاستئصال أعضاء حية. وأن يفعل ذلك بقربك ومن دون علمك!".

"إن الاستئصال ليس عملاً صعباً، وعلى الأخص إذا لم يكترث المرء بما يحدث للمتبرع. دقّقي مع **دنيالز** لأنه يمتلك السجلات".

"دعـــني أفهـــم ما تقوله جيداً. إنك تدعي أن **كوري دنيالز** اعتاد على قتل مرضاك أنت، وبيع أعضائهم لزميل صفك السابق؟"

بدأ وريد في جبهة **مارشال** بضخّ كميات لا حصر لها من الدماء: "إن ما أدّعيه هو أنني وقعت في مصيدة".

سأل **رايان**: "لماذا تخلّصت من زورقك؟"

ارتفعت يد **تاكرمان** بسرعة الصاروخ. استطعت أن ألاحظ وجود آثار من النيكوتين على أصابعه.

قاطع **مارشال تاكرمان** قبل أن يتمكّن من الاعتراض على مشاركة **رايان** في هذه المقابلة.

"استغرقت عملية البيع شهوراً عديدة. قدّم لي رجل صيد رياضي يدعى **ألكسندر مان** عرضاً لشرائه في الخريف الماضي، ثم فشل في الحصول على قرض. استعرقه الأمر لغاية الآن ليعيد ترتيب عملية التمويل".

لم يقل **رايان** شيئاً. سبق لي أن رأيته يتبّع هذه الطريقة عدة مرات. يضطر معظم المتهمين لمعاودة الحديث عندما يواجهون بالصمت، وهذا هو فعله **مارشال** الآن.

"تستطيع التأكد من روايتي عندما تتحدّث مع الرجل".

مرّرت مع **رايان** بفترة صمت أخرى.

وجّه **مارشال** طلباً إلى **تاكرمان**: "أريد قلماً وورقة".

"**ليستر**...".

حرّك **مارشال** يداً بصبر نافد.

تناول **تاكرمان** قلم حبر جاف ودفتر أوراق رسمية صفراء اللون من حقيبته. بدأ **مارشال** يكتب بهدوء، ثم مزّق ورقة، وناولني إياها.

"إنه مصرف مان. اتصلي بهم".

طويت الورقة من دون أن أقول شيئاً، ووضعتها في حقيبتي الصغيرة: "إن الطيار الذي يعمل عندك سيروي لنا قصة مثيرة".

بدا **مارشال** مرتبكاً للحظة: "طيار؟"

أبقيت نظري مركزاً على **مارشال**.

"عن أي طيار تتحدّثين؟"

"لم آت إلى هنا كي أوقعك بفخ، يا دكتور **مارشال**. أتيت كي أسمع قصتك".

لكنني أتيت خصيصاً لأوقعه بالفخ، ولهذا ذكرت الطيار أمامه. أعرف أن **غوليت** لم ينته بعد من تتبع سجلات الطائرات، أو التحري عن الوسيلة المتبعة لتهريب الأعضاء إلى المكسيك.

لعق **مارشال** شفتيه: "إن ما تقولينه هو سخافة بالكامل، لأنني لا أوظف طياراً".

أغمض **مارشال** عينيه، وعندما فتحهما لاحظت أن شيئاً بارداً وصلباً قد أضيف إلى نظرته حين ثبّت نظرته عليّ.

"الوضع بسيط جداً. أوقعني **دنيالز** بالفخ بفضلك، و**غوليت** ومدعيه العام المحلي البليد الذي صدّق دليلاً ظرفياً بشكل سافر. إنني لا أستمتع بهذا. إن هذه الاتهامات الملفقة تسيء إلى سمعتي كطبيب".

"هل هذا هو أهم شيء يا دكتور؟ الاسم واللقب؟ أم العصي والأحجار؟"

"إنني لا أكسر العظام، بل أشفيها".

هززت رأسي لأنني شعرت باشمئزازٍ منعني من الإجابة.

شبك **مارشال** أصابع يديه مجدداً.

"أعلم أنك تكرهينني لأسباب عديدة. حنثت بقسم أبقراط الطبي. وتعاطيت المخدرات منذ سنوات عديدة. لكن كل ذلك تغيّر الآن".

شبك **مارشال** أصابع يديه بقوةٍ أكبر حتى ابيضّ الجلد الذي يكسوها.

"قبلت وظيفتي الحالية مع **كنيسة رحمة الله** كي أعوّض عن الهدر الذي أوقعته في مهاراتي وحياتي. لا أشك في أنك اكتشفتِ أنني أمضيت بعض الوقت في السجن. التقيت خلال سنوات السجن هذه بأشخاصٍ لم أتخيّل يوماً أنهم يعيشون على هذه الأرض. شاهدت العنف بأم عيني، ورأيت اليأس. أقسمت عند خروجي من السجن أن أضع مهاراتي الطبية في خدمة المعدمين".

سمعت حركة في الكرسي الموجود إلى جانبي. لم يقتنع **رايان** بما سمعه.

"أعلم أنني أبدو مذنباً. إنني مذنب فعلاً بأشياء عديدة، لكن ليس بهذه القضية. سأبقى مثلما كنت طبيباً شافياً بالرغم من أخطائي السابقة. أنا لم أقتل هؤلاء الناس".

رفع **مارشال** قبضتيه نحو ذقنه وتنفس بعمق: "لعلني أسأت الحكم على الشخص الذي أساء إليّ".

أخرج **مارشال** الهواء من رئتيه.

"إن لم يكن **دنيالز** هو الذي أوقع بي، فلعله شخص آخر".

قال لي **رايان** بعدما غادرنا مركز الاعتقال: "أحسنتِ بالنسبة لموضوع الطيار".

"توقعت أن يُقدم **مارشال** على زلة لسان".

"إنه مراوغ كالثعلب".

"إذا كان فعلاً هكذا، فلماذا أراد التحدث إليّ؟"

"إنك أذكى من **غوليت**، ولربما طلب المدعي العام المحلي الاعتراف بكل شيء".

"أتعتقد هذا فعلاً؟"

"نعم أعتقد ذلك. وأعتقد أن السراويل القصيرة هي أفضل ما توصلت إليه الموضة".

قلت: "أمتلك سروالاً قصيراً".

رفع **رايان** حاجبه على طريقة غروشو: "لو أنني رأيت ذلك السروال فربما كنت غيّرت رأيي بسنوات السبعينيات".

"إذا كان **مارشال** بهذا المستوى ستصبحين محقة بشأن تمضية **دنيالز** فترة في السجن".

"ماذا تعرف بهذا الشأن".

لم تستغرق رحلتنا بالسيارة إلى مركز الشريف وقتاً طويلاً. خرجت من سيارة الجيب، وسرعان ما لاحظت آديل بيري تصرخ في الرواق الأمامي. رأيت كلب **غوليت** ينام تحت صف من الأشجار المحيطة بالمبنى.

تلاشت قوة صراخ **بيري**، والتمع جلدها الأسود، ولاحظت أن بلوزتها الحمراء المصنوعة من البوليستر قد تبقّعت من العرق. بقي الكلب في مكانه مع أنها كانت قريبة جداً منه.

توقّفت **بيري** قليلاً. ظننت لأول وهلة أنها ستتجنّب المرور بقربنا، لكنها انطلقت، بدلاً من ذلك، كالسهم نحونا مثلما يفعل سباح ماهر في بداية غطسه.

بدا وجهها المنتفخ بالعضلات كرةً من الغضب: "لماذا تفعلون هذا؟ لماذا تحاولون تدمير هذا الرجل الطيب؟"

قلت لها: "أقدم الدكتور **مارشال** على قتل عدة أشخاص".

"إنه حديث لا معنى له".

"نمتلك الأدلة الدامغة على صحة كلامنا".

مرّرت **بيري** راحة يدها على جبهتها، ثم مسحتها بتنورتها: "أتمتع بضغط دمٍ عالٍ يكفي لإطلاق صاروخ. ضاعت وظيفتي، لكن الفواتير ستستمر بالظهور. إذا قُتلتُ، فأنتِ والشر - طة مسؤولان عن موتي".

"منذ متى وأنتِ تعملين في عيادة **كنيسة رحمة الله**؟"

وضعت **بيري** راحة يدها الكبيرة على ردفها: "لا تمتلكين حقاً بتوجيه أي سؤال لي".

"لا. هذا صحيح، لكنني أجد أنه من المستغرب أنك لا تريدين التحدث عن أي شيء يساعد التحقيق".

مسحت **بيري** عرقها مجدداً: "أعمل فيها منذ خمسة أشهر. لماذا تضايقونني؟ ولماذا تضايقون **دنيالز**. إنهم يحشرونه وكأنه شطيرة جبن".

"يحتمل أن يكون **دنيالز** قد رأى أو سمع شيئاً".

"إنهم لا يحصلون على أية معلومات منه".

"وماذا يعني هذا الكلام".

"يعني أنه ما من شيء يُقال".

حملقت بنا **بيري** للمرة الأخيرة قبل أن تسرع نحو موقف السيارات.

أمسك **رايان** بالباب الزجاجي العريض، وقال: "ما زلت أعتقد أنها تكرهنا".

علمنا أن **دنيالز** ما زال ينتظر في غرفة الاستجواب، وشاهدنا **غوليت** وهو يراقبه من خلال واجهة شفافة.

وصـــفت **لغوليت** تفاصيل لقائي مع **مارشال**. أصغى **غوليت** مبقياً يديه في جيبيه. وانشغل **رايان** بتفحّص **دنيالز**.

سألته: "أتعتقد أن رواية **مارشال** عن إيقاعه بالمصيدة فيها شيء من الصحة؟"

الــتفت **غوليت** نحو الواجهة الزجاجية مرة أخرى: "هذا الرجل لم يوقع به. يبدو غبياً".

"وماذا يقول؟"

"يقول إنه ولد في عام اثنين وسبعين، ولا يمتلك سجلات مهمة. التحق بكلية تشارلستون عام تسعين. أنهى مقرراً دراسياً. يقال إن **دنيالز** وقع على مصدر مال مهم عندما تعرّف على امرأة عادية، لكن الأوزة الذهبية قطعت المال عنه، وهكذا هرب إلى تكساس. التحق بمعهد لتعليم التمريض في إل باسو، بينما عملت صديقته لتدفع فواتيره المستحقة".

"لكن لماذا اختار تكساس بالذات؟"

"إنها موطن صديقته. حصل الرجل على إجازة لممارسة التمريض في عام أربع وتسعين، وبدأ بالعمل في نفس المستشفى الذي تدرّب فيه".

"وأين يقع هذا المستشفى؟"

"إنه فرع من جامعة تكساس. أستطيع التأكد من ذلك".

"وكيف انتهى بالعمل هنا؟"

"ساءت العلاقات لأنه استقبل الكثير من جيرانه. وبّخته صديقته في النهاية، ثم حــصلت علــى أمرٍ يمنعه من استقبال الآخرين في المنــزل. خالف الرجل القرار، وانــتهت العلاقة بالشجار حيث انتهت هي أسفل الدرج بعظمة ترقوة مكسورة. حُكـــم على **دنيالز** بالطرد لمدة ست سنوات، ونفذ ثلاث منها. اختفى الرجل عن الأنظار لفترة من الزمن كسر يده فيها، ثم عاد إلى تشارلستون في عام 2000. بدأ العمل في العيادة في عام 2001. لا يمكننا الوثوق بقواه العقلية".

قال **رايان**: "أو لعله على قدر عالٍ من المهارة".

جاءت نبرة **غوليت** مليئة بالسخرية: "يا سيدي".

"لا تقدم مطلقاً على استبعاد الأشياء غير المحتملة".

"ثق بكلامي. ما من وجود هنا لمفتاح فاي بيتا كاب في جعبة هذا الرجل".

قلت: "حصل **دنيالز** على إجازة لممارسة التمريض. لا يمكن للرجل أن يكون غبياً لهذه الدرجة".

أخـــرج **غولـــيت** أنفاســـه من أنفه: "فلينقذني الله من نظريات المؤامرة. إن **مارشال** هو رجل قذر، ويحاول البحث عن كبش فداء".

"ماذا يقول **دنيالز** عن **مارشال**؟"

"لنقل أنه غير متحمس للتحدث عن رئيسه".

سأل **رايان**: "إذاً لماذا تستمرّ باحتجازه؟"

"أحتجزه لسلوكه المريب، ولأعطيه فترة هدوء كي يتعلم احترام القانون".

شاهدنا **دنيالز** وهو يتفحّص ضرساً بظفر إبهامه. فوجئت عندما طلب **رايان** إذناً لاستجوابه.

جـــاءت نبرة **غوليت** متحمسة بعض الشيء: "والآن ما الذي يدفعني **لأسمح** لك بذلك يا رجل التحري؟"

قال **رايان**: "أعتقد أنني اكتشفت أساساً نوعاً من التنسيق بين الرجلين".

هزّ **غوليت** كتفيه، وأبقى يديه في جيبيه: "استخدم آلة التسجيل إذاً".

35

راقبت **رايان مع غوليت** أثناء دخوله غرفة الاستجواب. نظر **دنيالز** إلى الأعلى، ثم مدّ رجلية، واسترخى في جلسته، واضعاً إحدى ذراعيه على الطاولة، بينما وضع الأخرى خلف الكرسي.

سأله **رايان**: "أتذكرني يا **كوري**؟"

"أعرف أنك رجل التحري المستقيم".

"اقتربتَ كثيراً من الحقيقة".

"أحتاج لتدخين سيجارة".

قال **رايان**: "أعتقد أن الأمر صعب عليك".

بدا **دنيالز** مندهشاً للحظة قصيرة، ثم عاد لوضعية الملل.

رحت أفكّر، أي نوعٍ من *التنسيق* يقوم بين الرجلين؟

سأل **رايان**: "هل تمانع بتسجيل هذه المقابلة؟"

"وهل أستطيع أن أعترض؟"

"إن تسجيل المقابلة هو لمصلحتك، ومصلحتي أيضاً".

شغّل **رايان** آلة التسجيل، واختبر عملية التسجيل، ثم أعلن عن اسمه، واسم الشاهد، والوقت، والتاريخ.

بدأ **رايان** بالكلام: "وقع رئيسك بالكثير من المشاكل".

"وما دخلي أنا بهذا؟"

"ماذا كانت مسؤولياتك في عيادة **كنيسة رحمة الله**؟"

"أنا ممرّض".

"قل لي ماذا تفعل بالضبط؟"

"إنني أقوم بمهمة تمريض الناس".

"إنها مهمة يسهل اكتشافها".

"تستطيع القيام بما شئت".

"بدأ يتكوّن لدي انطباع أنك غير متحمس لهذه المحادثة يا **كوري**".

"ماذا؟ أتريدني أن أقترب من النار؟"

"ربما سيصيبك شيء من ألسنتها".

"لن تستطيع اتهامي بأنني تخلّصت من هؤلاء الأشخاص".

"ومن قال لك إننا نريد أن نفعل ذلك؟"

"ألا يحاول **مارشال** إلقاء المسؤولية عليّ؟"

"إنه يحاول ذلك في الحقيقة".

مرّر **دنيالز** يده في شعره: "تعرضت للمضايقة من قبل. أستطيع أن أتفاوض، لكنني أحتاج إلى سيجارة بالفعل".

"لماذا اخترتَ التمريض؟"

"ماذا؟"

"انظر إلى نفسك! هل يبلغ طولك ستة أقدام وخمس بوصات؟ إنك رجل صلب. لماذا اخترت التمريض؟"

"إنها تعطي مدخولاً جيداً، كما أن الطلب كثير عليها".

"وهل حدَّدت معاشك؟"

"نعم".

أشار **رايان** إلى وشم **دنيالز**.

"أين أمضيت عقوبتك؟"

"أمضيتها في هنتس فيل".

"وما هذا الندبة؟"

أجـــاب **دنيالز** مستهجناً: "ادّعت تلك العاهرة أني صفعتها، وصدق القاضي كل تفاهاتها".

رســـم **دنيالز** شكل مسدس بأصابع يده اليمنى، وتظاهر أنه يطلق الرصاص على **رايان**: "لا يستطيع المرء العبث مع التكساسيين".

نظرت بدوري إلى وشم **دنيالز**. شاهدت أشكال جماجم، وقلباً مخترقاً بسهم، وعـــناكب متربصة في شباكها، وأفاعي ملتفة، على ساعده. إنه وشم رائع. بدأت أتساءل متى سيخيّم الهدوء ثانية عندما وجّه **رايان** يده باتجاه حزام **دنيالز**.

"أرى أنك مثل رجل **هارلي**".

"إذاً".

"امتلكتُ ذات مرة درّاجة إليكترا رائعة، موديل خمسة وتسعون. أحببت تلك الدراجة أكثر من والدتي".

تطلّع **دنيالز** مباشرة نحو **رايان** للمرة الأولى: "هل تسخر مني؟"

"يكـــذب الرجل بعدة أمور. يكذب عن طوله، وقوته مثلاً، لكنه لا يكذب أبداً بشأن دراجته".

صفع **دنيالز** صدره بيده: "امتلكت دراجة موديل 2004، إيغل فات بوي قوية".

"يا لك من رجل قنوع".

قال **دنيالز** ساخراً: "إن الانتقال بالدراجة هو شأن المخنثين".

"ليس هناك من شعور في العالم يعادل الارتحال، والريح تصفع وجهك".

"لعلك محق".

ســـأل **رايان** وهو يبتسم: "هل كنت تتصيّد ذات مرة، واكتشفت فجأة أن الإسمنت يملأ فمك؟"

"لا أبداً".

ابتـــسم **دنيالـــز** ابتسامة عريضة، ووضع ذراعيه على الطاولة، وحرص على وضـــع راحتي يديه إلى الأعلى. لاحظت أن أحد معصميه محاط بندبة على شكل هلال: "هل فعلت الراهبة هذا".

هزّ **دنيالز** رأسه دلالة على إنكاره: "صدمتني راهبة بسيارة هيونداي. وجدت نفسي بعد ذلك في قسم الطوارئ في المستشفى، ووجدتها تصلي لأجلي. كان المشهد في المستشفى أفظع من الحادث نفسه".

"لم يتوقف الألم منذ الحادث".

"لم تكف هذه الراهبة عن متابعة حالتي، وهي تشعر بذنب كبير. أبلغتها أن تنسى الأمر. هذا هو ثمن ركوب الدراجة يا صديقي، إنه ثمن ركوب الدراجة".

"هل حصل ضرر دائم لك؟"

"تركت المرأة هذه العلامة، لكن من يهتم؟ ما تزال يدي اليمنى قوية".

هزّ الرجل رأسه مرة أخرى: "إنها الراهبة".

أومأ **رايان** دلالة على تفهمه، لأن راكبي الدراجات الزملاء يحارون بأخطاء أقدارهم. بادر **دنيالز** إلى الكلام أولاً.

"اسمع يا رجل. أنا آسف لموت هؤلاء الأشخاص، لكن لا علاقة لي بذلك".

"إننا لا نحاول إلصاق التهمة بك يا **كوري**. إنها مجرد عملية لجمع المعلومات، وكل ما نريد معرفته هو ما إذا كنت لاحظت **مارشال** يفعل، أو يقول، شيئاً غريباً".

"سأكرّر لك ما قلته لذلك الشريف النازي. حرص **مارشال** حتى الهوس على شيئين: إبقاء المكان نظيفاً، والغياب عن مكتبه".

"ما هي الغاية من وجود غرفة كبيرة في الطابق العلوي"؟"

هزّ **دنيالز** كتفيه: "لا أعرف. لم أرَ أي شخص يدخلها غير الرجل المولج بتنظيفها".

"ألم تجد في ذلك أية غرابة؟"

"اسمع. إنني أحضر إلى العمل، وأقوم بوظيفتي، ثم أغادر المكان".

"هل لاحظت أي شيء غريب يقوم به **مارشال**؟"

"تكلمت عن هذا الموضوع مرةً بعد مرة. لا أريد أن أفضح الرجل، لكن **مارشال** كان رئيساً مناسباً. هل يرضيك هذا؟"

"وماذا بشأن **هيلين فلين**؟"

استرخى **دنيالز** في جلسته مجدداً: "اللعنة. لا أدري. كانت أشبه بالراهبة التي كلّمـــتك عـــنها. كانت متأنقة، ولطيفة جداً مع المرضى. حاولت التقرب منها، وكتبت إليها بعض الأسطر، لكن تلك الحسناء صدّتني ببرودة. لا أريد التوسل من أجل هذا الشيء. أتعرف ماذا أقصد؟"

"هل توافقت **هيلين** مع **مارشال**؟"

انشغل **دنيالز** بالنقر بإصبعه على الطاولة، محدثاً صوتاً مزعجاً.

"**كوري**؟"

هـــزّ **دنيالز** كتفيه: "لا أعرف. توافقا في البداية، لكنها أصبحت عصبية فيما بعد، وخصوصاً عند حضور الطبيب. أعتقد أنه كان يتقرّب منها هو الآخر".

"هل تعرف لماذا تركت عملها؟"

"قال **مارشال** إنها استقالت، ثم وظّف **بيري** مكانها".

استمرّ **دنيالز** بالنقر على الطاولة: "أتعلم أن شعاري هو: لا تطرح أسئلة، ولا تخبر أحداً بشيء".

"هل اعتاد **مارشال** العمل حتى وقت متأخر؟"

"كان يسمح لي، **ولبيري** بالمغادرة باكراً".

مرّت لحظة. تجمّد إصبع **دنيالز** في مكانه.

أومأ **دنيالز** بشدة وهو يتكلّم: "آه. فهمت ماذا تقصد. يوجد هنا شيء ليس على ما يرام، فالرجل يعمل طبيباً، أما الاحتجاز فكان من مهمة **بيري**".

غادرنـــا مركز الشريف، وقصدنا المستشفى. وجدنا **بيتي** في غرفة خاصة موجودة في طابق الدرجة الأولى. انتظر **رايان** في الردهة بينما صعدت إلى ذلك الطابق.

وجـــدت ذلـــك المثقف القادم من لاتفيا مستيقظاً، وعلى شيء من الغرابة. ارتدى ثوباً أخضر اللون، لكن ممرضته كانت صماء. لاحظت أن ثوبه ضيق جداً، وبدا أن خدّيه قد تأثرا بالبرد. ارتحت لتذمره مع أنه كان مزعجاً. شعرت بحبور في قلـــبي، لأنـــه بدأ بالتعافي. أخيراً اتصلت **كاتي**، واستطعت أن أطمئنها بشأن شفاء والدها الوشيك.

اتصلت **ليلي برايان** ذلك المساء. قالت إنها كانت بصحبة أصدقائها في مونتريال، وأنها ترغب برؤيته. وعدها **رايان** أن يكون هناك يوم الجمعة. أوشكت عطلته على الانتهاء، وتعيّن عليه أن يعود إلى العمل يوم الاثنين. إن مغادرته قبل يومين من انتهاء عطلته يعني أنه سيتمكّن من قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع ابنته. أخبرني بهذه التطورات وهو يبتسم. عانقته، واستمرينا بالعناق لفترة طويلة جداً، وتاهت أفكار كل واحد منا بالآخر. خرجت في النهاية بزوجٍ غير متضرر، أما هو فانتهى مع ابنة وجدها حديثاً.

قرّرتُ و**رايان** أن نقضي الليل سوية. انتهى عملي في تشارلستون، وتمّ التعرف على هويات الهياكل العظمية المجهولة لدى **إيما**، وبقيت أمام **مارشال** الكثير من الصعوبات، ولعلها صعوبات أسوأ بكثير. وارتحت لأن حالة **بيتي** تتحسن بسرعة، ولأن **ليلي** بدأت تتقرّب من والدها. تناولنا عشاءً مؤلفاً من شرائح اللحم، وسرطانات البحر، في مطعم يقع في **كوين 82**.

تحدثت مع **رايان** بحذر بمواضيع عديدة أثناء تناولنا للعشاء، وركّزنا على المواضيع المحايدة، والتزمنا بالتحدث بصيغة الماضي والحاضر فقط. لم يسألني **رايان** عن المستقبل، وأنا لم أقدّم ضمانات من جهتي. لم أستطع تقديم أية ضمانات، لأنني ما زلت مشوشة ومضطربة بشأن قوة استجابتي لتواجد **بيتي** بالقرب مني، بالإضافة إلى مواجهته مع الموت.

قدّمت الكثير من التهاني لنفسي، وضحكت كثيراً، وحتى أنني تبادلت الأنخاب مع **رايان**. أردت في بعض الأوقات أن أضع يدي بيد **رايان**، لكنني لم أفعل. لم أتوقف عن التساؤل عن سبب تردّدي منذ ذلك الوقت.

غادر **رايان** بعد تناوله الفطور صبيحة يوم الثلاثاء. تبادلت وإياه قبلات الوداع. لوّحت له حتى اختفت سيارة الجيب عن نظري، ثم عدت إلى منزل **آن**. وجدت المنزل فارغاً فيما عدا الكلب والهرة. صمّمت على البقاء في تشارلستون حتى يتمكّن **بيتي** من العودة إلى شارلوت. لم أضع خططاً أخرى غير هذه.

أمضيت مساء يوم الثلاثاء في منزل **إيما** برفقة **بويد**. اندفع **بويد** عندما فتحت **إيما** الباب الأمامي، وكاد يسقطها أرضاً. شعرت فوراً وكأنني تلقيت ضربة

في صـــدري. تلاشى كل ذلك الوميض من وجه **إيما**، ولاحظت أن جلدها أصابه الشحوب، ومع أن اليوم كان حاراً إلا أنّها ارتدت بذلة صوفية وجوارب. جهدتُ كثيراً للمحافظة على ابتسامتي في مكانها.

ســبق **لغولــيت** أن أبلغ **إيما** أنه تمّ إلقاء القبض على **مارشال**. جلسنا على كرسيين هزّازين في الشرفة، وتحدثنا عن أحاديثي مع الطبيب والممرض الذي يعمل معه. جاء رد فعلها فورياً وقاطعاً.

"هــل يديــر **دنيالــز** حلقة دولية لتجارة الأعضاء البشرية، ويقوم بالإيقاع برئيـــسه؟ أعطيني لحظة للتفكير في هذا. أنت رأيت الدليل. إن **مارشال** هو رجل بغيض، وهو مجرم بالتأكيد".

"نعم".

جاءت سخرية **إيما** مطابقة لسخرية **غوليت**: "ماذا؟ ألستِ مقتنعة؟"

"بالطبع أنا مقتنعة، لكن هناك أمران ما زالا يقلقانني".

"وهما؟"

"لم نجد في مكتب **مارشال** أي شيء خاص به، لكن كيف نفسّر، مع ذلك، وجود تلك الصَدَفة؟"

"يــوجد مليون سبب لوجودها. أراد أن يأخذها لمنــزله، لكنه نسي أمرها لاحقــاً. ويُحتمل أن تكون قد سقطت من أحد الأوعية، وغابت عن عينيه داخل طاولة مكتبه، وهكذا لم يعرف بأمر وجودها من الأساس".

"قُتل **هيلمز** في عام 2001. هل بقيت هذه الصَدَفة في دُرج **مارشال** طيلة هذا الوقت؟"

"إننا لا نتكلم عن صدفات القواقع يا **تمب**. إنها أشياء غاية في الصغر".

"هذا صحيح".

نهـــض **بويد** على قائمتيه لدى رؤيته سنجاباً. وضعت يدي على رأسه. حرّك شعرات حاجبيه باتجاهي، لكنه بقي مكانه.

مضيت لأشرح وجهة نظري: "لكنّ **مارشال** رجل ذكي. لماذا يحمل أصدافاً معه أثناء انشغاله بدفن جثة؟"

"يُحتمل أن تكون الصَدَفة قد وضعت مع جثة **هيلمز** أثناء لفّها بالقماش، ولم يلاحظ **مارشال** وجودها".

استنتجت من حركة رأس **بويد** أنه ما زال يتتبّع السنجاب.

قلتُ: "قالها **غوليت** بنفسه. **مارشال** رجل دقيق جداً. لا يتناسب ما تقولينه مع شخصية الرجل".

"يقع جميع الناس بالأخطاء آخر الأمر".

"ربما".

لمست رأس **بويد**، وجعلته ينحني نحو الأسفل. استقرّ، بتردّد، بين قدميّ.

أحضرت **إيما** الشاي المثلج، واكتفينا نحن الاثنتين بالتأرجح فوق مقعدينا بصمت.

رأينا، خارج السياج، رجلاً يسير، وامرأة تجرّ عربة، وصبيين يركبان دراجتيهما. سمعت أصوات الكلب عدة مرات دلالة على اهتمامه المستمر بروكي.

سألتها: "كيف سيكون تعداد خلايا الدم برأيك؟"

"ومن يعرف؟"

تذكّرت بعض الأسماء التي أعددتها في ملفي في جهاز الحاسوب. تذكّرت **باركر إثريدج، وهارمون بو، ودانيال سنايب، وجيمي راي تيل، وماثيو سمرفيلد، ولوني آيكمان**.

"هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً **إيما**؟"

"بالتأكيد".

"لماذا لم تخبريني بشأن **سوزي روث آيكمان**؟"

بدت **إيما** في حيرة حقيقية: "مَن؟"

"أتحدث عن والدة **لوني آيكمان** التي وُجدت ميتة داخل سيارتها الأسبوع الماضي. ألا تعتبرين ذلك من ضمن الوفيات المشكوك بأمرها؟"

"وأين عُثر عليها؟"

"كانت في الطريق السريع رقم 176، إلى الشمال مباشرة من غوز كريك (جدول الأوز)".

"إنها في مقاطعة بيركلي. لا تقع المنطقة من ضمن صلاحياتي، لكنني أستطيع الحصول عن بعض المعلومات عنها".

أعرف بالطبع أن المنطقة لا تقع ضمن صلاحياتها. شعرت بالغباء لأنني شككت بصديقتي. هل سأسألها أيضاً عن حادث السفينة السياحية، الذي تحدّث **وينبورن** عنه في مقالته عن **آيكمان**؟ لعله يتعيّن عليّ نسيان الأمر، لأنه ليس من شأني".

بدأت **إيما** بالشحوب عند الساعة الرابعة والنصف. دخلنا إلى المنزل، وتناولت بعض السباغيتي من ثلاجتها، وحضّرتها مع الصلصة. تجوّل **بويد** في أنحاء المطبخ معترضاً تنقلاتي.

تذكّرت حديثي الهاتفي **مع** شقيقة **إيما**، عندما رأيتها تعيد ترتيب بعض أغراضها، بدلاً من الانصراف لتناول طعامها. أخبرتها أن **سارة** ستعود من إيطاليا في غضون الأيام القليلة القادمة، ووعدتها أن أحاول الاتصال بها ثانية. أصرّت **إيما** كي أترك الأمر عند هذا الحدّ.

توجّهت برفقة **بويد** إلى المنزل عند الساعة السادسة. تجوّل الكلب في المقعد الخلفي عدة مرات، متنقلاً بين نافذة وأخرى، لكنه توقّف بين حين وآخر ليلعق خدي الأيمن، وأذني اليمنى.

انعطفت بالسيارة لأدخل إلى طريق **البحر على امتداد أميال**، وكان **بويد** في منتصف دورته. توقف الكلب فجأة، وصدرت زمجرة خافتة من حنجرته.

أسرعت للتطلع بعينيّ في مرآة السيارة الخلفية. فرأيت عربة رباعية الدفع تكاد تجتاح مؤخرة سيارتي.

36

ناولني **غوليت**، ومن دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، نسخة من صحيفة **بوست آند كوريه**. تفحّصت صفحتها الأولى.

ضرب **وينبورن** ضربته مجدداً. لاحظت أن تقريره هذه المرة لم يُحشر من ضمن الأخبار المحلية. ظهرت في الصفحة الأولى أسماء **كروكشنك، وهيلمز**، وأخبار الإطباق علـــى العيادة، والقبض على **مارشال**. أُرفقت المقالة مع صورة للقس **أوبري هيرون**، رافعـــاً قبضته نحو السماء، وهي طريقته المميزة للدعاء. تضمّنت المقالة إشارات حول أدلة محتملة، والعدد النهائي للضحايا، والخطر الذي يحيق بالجمهور.

شعرت بالتشوش لفترة قصيرة، ثم تحوّلت مشاعري لتصبح غضباً خالصاً.

"يا للدودة الحقيرة!"

راقـــبني الشريف، وبدا وجهه متحجراً مثل تماثيل باتري. أدركت ما يحدث بشكل مفاجئ.

"أعتقد أنك لا تظن، جدياً، أنني أبلغت **وينبورن**".

حملق **غوليت** بي: "أنت قلتِ لي إنك تعرفينه".

حملقت فيه بدوري: "وأنت قلتَ لي إنه غير مؤذٍ".

"لا أحـــب أن يصبح التحقيق الذي أقوم به مثل حلقة من حلقات تلفزيون الواقـــع الرخيصة. غضب **هيرون**، وأصبحت وسائل الإعلام أكثر حدّة، كما أن هواتفنا لا تكفّ عن الرنين، مثل أجراس الكنائس في أيام الآحاد".

"لماذا لا تفتش في فنائك الخلفي".

"هل تقولين إن التسريب جاء من دائرتي؟"

قلت له وأنا أطوي الصحيفة وأدفعها باتجاهه: "لا أعرف ماذا أقول. تأكّد من أن قصة التعرف على جثة **كروكشنك** لم تأتِ مني، لأن **وينبورن** كان يتحرّى عن اختفاء **كروكشنك** قبل أشهر. لم أقل له إننا نمتلك جثة **كروكشنك**".

"يمتلك **هيرون** أصدقاء نافذين".

"إنه يمتلك أصدقاء بالطبع، لأنه على علاقة جيدة مع...".

"يقدر ذلك الرجل على جعل الحياة لا تُحتمل بالنسبة لموظف رسمي منتخب محلياً، بما في ذلك شريف المقاطعة، سواء كان على علاقة جيدة مع... أم لا".

اخترق نباح **بويد** المكتوم أصواتنا المرتفعة. مشيت نحو سيارتي وفتحت بابها. انطلـــق **بويد** منها وراح يتنقّل ما بين أجمة وأخرى، وركض مثيراً الغبار بمخالبه. رجع بعد ذلك ليدخل أنفه بين رجلي **غوليت**.

أردت أن أحيي ذلك الكلب.

صفع **غوليت** أذني الكلب.

بدأ الكلب بلعق يد **غوليت**.

فكّرت في نفسي، *أيها الخائن*، وحوّلت حملقتي نحو الكلب.

قلت: "امتلك **وينبورن** معلومات عن الضحايا والاعتقالات، لكنه لا يعرف شيئاً عن الدوافع".

طوى **غوليت** الصحيفة ودفعها نحو راحة يده: "أوافق معك، فلو كان يعرف أي شيء عن **رودريغز**، أو سرقة الأعضاء البشرية، لكان أورد هذه المعلومات في مقالته".

"مـــا هـــي كمـــية المعلومات التي يُحتمل أن **وينبورن** قد حصل عليها على افتراض أنه تنصّت على المكالمات اللاسلكية للشرطة؟"

تفحّـــص **غولـــيت** وجهـــي لفتـــرة وجيزة: "يُحتمل أنه حصل على بعض المعلومات، لكن ليس كل هذه. لن يقول له راديو حركة الشرطة بأننا حدّدنا هوية الـــرجل المعلّـــق علـــى الشجرة على أنه **كروكشنك**. أعتقد أنه حصل على هذه المعلومة من مصدرٍ آخر".

تبيّن لنا لاحقاً أن إفشاء **وينبورن** لقصة **كروكشنك** حمل بعض الإيجابية.

تلقّـــى محوّل المكالمات الهاتفية في مكتب الشريف مكالمة في وقت مبكر من صباح يوم الجمعة. يمتلك **باري لوناريتي** حانةً تقع في شارع كينغ تدعى **ليتل لونا**. قرأ مالك الحانة، أي **لوناريتي**، اسم **كروكشنك** الوارد في مقالة **وينبورن**، فتذكره علـــى الفـــور. تحـــركت ذاكرة الرجل بعد مرور ساعات. بحث الرجل في قسم الأغـــراض المفقودة، والموجودة في حانته. وجد **لوناريتي** هناك سترة تحمل محفظة تعود إلى **نوبل كروكشنك**.

بدأت بشحذ ذاكرتي بدوري عندما اتصل بي **غوليت**.

"هل دعيت حانة **ليتل لونا** ذات مرة باسم **دبل أل**؟"

"أعتقد أن هذا صحيح".

"إنها الحانة الوحيدة التي تذكّرها **بينكني**. أعتقد أن **كروكشنك** حمل معه ســـترة **بيـــنكني**، وترك سترته مكانها. أعتقد أيضاً أن **بينكني** كان مخموراً تلك اللـــيلة، وأصيب بصداع نتيجة الإفراط بالشرب في الصباح التالي. نسي الرجل كل شيء عن ثيابه، وركّز على محفظته. هل يتذكّر **لوناريتي** متى تُركت السترة في حانته؟"

"يقول إن ذلك حصل منذ عدة أشهر".

لم أعتـــبر أن هـــذه المعلومات مهمة بشكل خاص، فيما عدا إرضاء فضولي، والـــتأكد من إحدى النقاط الغامضة. اعتقدنا جميعاً أن **كروكشنك** كان حياً منذ بضعة أشهر خلت.

حـــصل **غولـــيت** أيضاً على تقرير مفصّل عن المكالمات الهاتفية الواردة إلى منـــزل **مارشال**، وإلى عيادة **كنيسة رحمة الله**.

"تـــناولت المكالمات الواردة أموراً متنوعة تشمل أحاديث عن إصلاح سيارة، وعن تسريحات للشعر، ومواعيد مع طبيب أسنان".

"يبدو أنه رجل يتمتّع بشعبية".

"أعتقد مع ذلك أننا نعاني من مشكلة في تلك العيادة".

لم أقاطعه.

"يستطلب الأمر الكثير من الجهد لتفحص كل الأرقام، لكننا وجدنا نمطاً واضحاً فيها. تبيّن لنا أن أحداً لم يتّصل بالعيادة، أو منها، خارج الدوام الرسمي لها. تُطفأ الأنوار في العيادة ما بين الرابعة والنصف، والخامسة". سمعت هنا أنفاس **غوليت** في سماعة الهاتف: "مع ذلك لاحظت مكالمة غريبة. أجريت مكالمة مع منزل **نوبل كروكشنك** في الرابع والعشرين من شهر آذار، وبالتحديد عند الساعة السابعة ودقيقتين من بعد الظهر".

"لا! هل **مارشال** هو الذي أجراها؟"

"أجريت المكالمة من مكتبه".

"إذاً ما هي المشكلة؟"

"تواجد **مارشال** في الرابع والعشرين من شهر آذار مع حملة تبرعات لمكافحة الضمور العضلي، في سمرفيل. أكّد الشهود حضوره هناك من الساعة السادسة والنصف وحتى العاشرة".

إذاً من اتصل **بكروكشنك** يا ترى؟

هل اتصل قاتل ما ليرتّب موعداً مع الضحية؟

انتظري قليلاً. فكّري. تتبعي السلسلة، وتساءلي إلى أين توصلك. إنها توصل للمكالمة الهاتفية، ثم إلى موت **كروكشنك**.

قلت: "تدلّ كل المؤشرات على أن آخر آذار (مارس) هو تاريخ وفاة **كروكشنك**. لم يقبض الرجل الشيك الذي أرسله إليه **فلين** في آخر شهر شباط (فبراير). وانتهت حركة بطاقة الاعتماد المالية العائدة له في ذلك الوقت. إننا نعلم أن **وينبورن** رأى **كروكشنك** في التاسع عشر من شهر آذار (مارس). أعتقد أن **كروكشنك** مات قبل أن يكتشف أنه حمل سترةً غير سترته، وإلا لكان حاول استرجاع محفظته. ويُحتمل أنه قُتل في نفس الليلة التي تلاقى فيها مع **بينكني** في حانة ليتل لونا. نعرف أيضاً أن **بينكني** قدّم بلاغاً إلى الشرطة. هل تستطيع سحب هذا التقرير؟"

"سأحصل عليه قريباً".

اتصل بي **غوليت** مجدداً في غضون عشرين دقيقة.

"قدّم **بينكني** بلاغاً يقول فيه إن محفظته سُرقت في السادس والعشرين من شهر آذار (مارس). وأضاف أن محفظته سُرقت في الليلة السابقة".

"اتصل أحدهم **بكروكشنك** من عيادة **كنيسة رحمة الله** يوم الرابع والعشرين من آذار (مارس). يُحتمل إذاً أن يكون **كروكشنك** قد توفي في الخامس والعشرين. لا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد مصادفة".

"إذاً من هو الشخص الذي أجرى المكالمة؟ هل هو مخبر؟ أم أنه الشخص الذي يقوم بالتنظيف؟"

"ماذا لو كان **مارشال** صادقاً؟ وماذا لو كان أحد الأشخاص يحاول الإيقاع به؟"

"أتعنين **دنيالز**؟"

بدا **غوليت** وكأنني قلت له إن ميلوسوفيتش مرشح لنيل جائزة نوبل للسلام.

"أعلم أن ما أقوله يبدو بلا معنى. تشير بعض الدلائل نحو **مارشال**، ونحن تتبعناها، لكن هناك صحة في بعض ما يقوله. أعلم أننا أمام عيادة مجهزة لإجراء عمليات جراحية، ولدينا الأنشوطة المعدنية، والضحايا الذين كانوا في عداد المرضى. أعتقد أن كل هذه دلائل ظرفية. ونعرف أن **دنيالز** يعمل في تلك العيادة أيضاً. ماذا نعرف عنه؟"

"إن وجود **دنيالز** لا يفسّر لنا روابط **مارشال** مع **رودريغز**، ولا يفسّر لنا لماذا تخلّص **مارشال** من زورقه. نعرف أيضاً أن **مارشال** هو من كان يقوم بجمع الأصداف، ونعرف أن صدفَةً منها وُجدت مع جثة **ويلي هيلمز**. دعينا لا نضيّع وقتنا. أعتقد أن **مارشال** متورط، وأن ذلك الرمش سيثبت ذلك. أعتقد من الجيد أن نفكر ببلاغ **بينكني** هذا، لكن عليّ مواجهة جيشٍ من الصحافيين الذين يعسكرون خارج مكتبي".

"هل من أخبار جديدة حول **رودريغز**؟"

"لا".

"هل وجدت أي علاقة له مع طيار، أو طائرة ما".

"لا. إنها مسألة تخصّ المدعي العام المحلي، أما بالنسبة إليك فأعتقد أن مهمتك قد انتهت".

تركني **غوليت** أنصت إلى فراغ.

مثُل **ليستر مارشال، ووالتر تاكرمان** أمام القاضي. جادل **تاكرمان** أن موكّله هو طبيب، وعضو محترم في المجتمع. جادل الادعاء بدوره في احتمال هروبه. أمر القاضي **مارشال** بتسليم جواز سفره، وبدفع كفالة مقدارها مليون دولار. بدأ **تاكرمان** بترتيب أمر الكفالة، وهكذا سيُطلق سراح **مارشال** قبل حلول الليل.

اكتشفت أن **غوليت** على حق. انتهت مهمتي عند هذا الحدّ. لم يتبقَ لي سوى القليل من أعمال التحري، وتحضير عناصر المحاكمة. إن ما بقي من العمل هو من شأن مساعدي الشريف، والمختبر الجنائي، والمدعي العام المحلي. تبقى أمور تقررها عوامل كثيرة من بينها سجلات المكالمات الهاتفية، وسجلات المرض، وأقراص الحاسوب الصلبة، والتسلسل الزمني للأحداث، ومخططات رحلات الطائرات، وإفادات الشهود، والأشرطة التلفزيونية التي تظهر تقدّم التحقيق المثير الذي تجريه الشرطة، وكل المظاهر البراقة، وأجهزة التقنية العالية. لا أرى الأمر على هذا النحو، لأن القضايا القوية تُبنى نتيجة ساعات وساعات من التفكير العميق الذي يرهق الدماغ. ويتعيّن على المحقق أن يتبع كل زاوية من زوايا القضية، وأن يغربل أكوام المعطيات، وأن لا يُغفل شيئاً.

قدّمت مساهمتي الخاصة بي، ومع ذلك لا أستطيع أن أترك الأمور عند هذا الحدّ. بقيت نفس الفكرة تجول في ذهني: ماذا لو كان **مارشال** مستقيماً؟ وماذا لو أننا نمسك برجل بريء؟

كان الأجدر بي أن أكون سعيدة لتوقيف المجرمين، وأن أشعر باسترخاء أكبر ممّا شعرت به منذ أسابيع. وجدت نفسي، بدلاً من ذلك، متوترة مثلما يشعر مدمن بعد تناوله لكمية كبيرة من المخدّر. عجزت عن القراءة، والنوم، أو حتى عن الجلوس ساكنة. واستمرّت نفس الشكوك بالتوارد على ذهني مرةً بعد مرة. ماذا لو كان **مارشال** يقول الصدق؟ هل ما زال القاتل طليقاً، ويخطّط لقضاء عطلة مفاجئة في المكسيك؟

أخـذت **بـويد** في نـزهة على الشاطئ، ثم استحممت. حضّرت شطيرة، وتـناولت طبقاً من شنكي مونكي. شاهدت الأخبار على جهاز التلفاز، وأصغيت إلى مذيع الأخبار وهو يذيع التقرير عن جلسة إطلاق سراح **مارشال** بكفالة.

شعرت بالتوتر فأطفأت الجهاز، ورميت جهاز التحكم عن بعد على الأريكة. يا الله القدير! ماذا لو أنني ارتكبت خطأً ما؟

شـعرت بالإحـباط عند الساعة الواحدة. تناولت مفاتيحي، وخرجت من المنـزل بعـد أن تفحّصت مجدداً عنوان **دنيالز** في الصفحات البيضاء. لم تتكوّن عـندي فكرة عن المعلومات الجديدة التي يمكن أن أحصل عليها. أيمكنني أن أعلم شيئاً عن سلوكه، أو شيئاً عن تعابيره؟

لم أجـد **دنيالـز** على الشاطئ، أو بين الأمواج. تقع شقته في مجمّع ملعب للغولـف الـذي يضمّ أشجاراً خضراء حسنة التشذيب، وملاعب كرة المضرب، وبحيرة صغيرة، وبركة ماء. بدا أن كل شقة من هذه الشاطئ قد قُطع سقفها طولاً، وبقي النصف الباقي يشير نحو السماء. بدا لي التصميم المبتكر رائعاً.

يعيش **دنيالز** في الشقة رقم 4-B. تركت سيارتي، ووضعت نظارتي الشمسية، وقبعة واقية من الشمس. هل بإمكانكم الآن تذكّر حلقات مسلسل ***كولومبو***؟

تقدمت لأقرأ أرقام عدة شقق، تبيّن لي بعدها أنه يجدر بي التوجه نحو مجموعة مـن الفـيلات الموجودة إلى يساري. تلتوي الممرات حول مجموعات من أشجار الـصنوبر، والتي زُرعت تحتها أجمات الآس والكرنب المخملية الألوان، وهي التي ستـصبح أشـجاراً ذات يوم. لاحظت أن رذاذ الماء ينطلق من صنابير (حنفيات) مخفية، فتنعكس أضواء الشمس، وتعطي سحراً أكبر لرائحة الأزهار والتراب.

شـاهدت أثناء مروري أنواعاً عديدة من سيارات البيمر، والبنـز، وأنواعاً حديـثة من السيارات رباعية الدفع، وجميعها مركونة أمام شقق أصحابها. رأيت الأجـساد المسمرة المدهونة بالزيت، على مقاعد البحر المتناثرة على جانب بركة الـسباحة. ابتعد **دنيالز** إذاً عن الأماكن السكنية الرخيصة، واعتراني نفس الشعور الـذي أحسست به عندما وجدت عنوان **دنيالز بروكس** في دليل الهاتف. كيف يتمكّن ممرض يعمل في عيادة للفقراء من السكن في هذه الشقق الفخمة؟

لم أضع خطة كي أتبعها، لكنني قرّرت أنه حالما أجد شقة **دنيالز** فسأتصرف حسب ما أراه مناسباً.

أحســـست أنـــه من المناسب أن أطرق الباب، لأن ذلك يتماشى مع طريقة *كولومبو*.

ما من جواب.

حاولت ثانية، وكانت النتيجة ذاتها. نظرت من خلال النافذة العالية والضيقة التي تتوازى مع الباب.

يـــبدو أن **دنيالز** يحبّ اللون الأبيض، فالجدران بيضاء، وإطار الأغصان الذي يحـــيط بالمرآة أبيض اللون، والمقاعد الطويلة بيضاء اللون، وخزائن المطبخ وأسطح الطـــاولات كلـــها بيضاء اللون. رأيت درجاً أبيض اللون أيضاً يؤدي إلى الطابق الثاني. لم أستطع رؤية أشياء أكثر.

"أتبحثين عن **كوري**؟"

استدرت فور سماعي لهذا الصوت.

نظرت لأرى حمالات حمراء اللون، وقبعة من قش، وسروالاً قصيراً (برمودا)، وقميصاً دُرر عليها شعار خدمة البريد الأميركية.

"لم أقصد إخافتك سيدتي".

استعاد قلبي هدوءه، وقلت للرجل: "لا. أعني نعم. هل **كوري** موجود هنا؟"

"إنه رجل من النوع الذي يسهل تخمين تحركاته، فعندما لا يعمل ترينه يخرج لصيد السمك". ابتسم رجل البريد في وجهي، ولاحظت أنه يضع إحدى يديه في جيبه، بينما يمسك مجلة بالأخرى.

"هل أنت صديقة **لكوري**؟"

ذهـــب ليصطاد السمك؟ إذاً فالرجل يمتلك زورقاً؟ صممت على الصيد أنا الأخرى: "ممم. يحبّ **كوري** زورقه كثيراً".

"يتعـــيّن على الرجل أن يبتعد في بعض الأحيان. إنه عالم مُثير، أليس كذلك؟ تجـــدين رجلاً كبيراً مثله يعمل ممرضاً، بينما يرسلون الفتيات الصغيرات للقتال في العراق".

بدأ عقلي يعمل على هذه المعلومات الجديدة. إذاً يمتلك **دنيالز** زورقاً! أجبت موافقةً: "إنه عالم محيّر فعلاً!"

صـــعد رجل البريد ثلاث درجات، ورأيته يمسك بالمجلة الملفوفة: "هل أضعها في الصندوق؟"

"بالتأكيد".

"طاب يومك سيدتي".

انتظرت لبعض الوقت حتى ابتعد ساعي البريد، ثم عبرت السقيفة، وتوجّهت نحـــو الصندوق، ورحت أفتش في بريد **دنيالز**. وجدت مجلة ***بوتينغ، وباور بوت.*** احتوت باقي الموجودات على ظروف ومنشورات، وجميعها مرسلة إلى **كوري آر. دنيالـــز**. لاحظت أن ظرفاً واحداً فقط حمل عنوان المرسل إليه، **كوري راينولدس دنيالز**.

أسقطت رزمة البريد في الصندوق، وعدت إلى سيارتي.

إن أقـــرب مكـــان من شقة **دنيالز** ترسو فيه الزوارق موجود في **بوهيكيت مارينا**، أي بعد مدخل جزيرة سي بروك. يبدو هذا المكان مناسباً جداً للانطلاق.

وصـــلت إلى المكان بعد دقائق قليلة. تحدّثت مع امرأة جعلتها كثرة التعرض للشمس شديدة السمرة، وترتدي بذلة سباحة ضيقة وشديدة الصغر، فأرشدتني إلى زورق مخصّص لرياضة صيد السمك عند الرصيف رقم أربعة.

شاهدت الحبال المربوطة بصواري القارب أثناء سيري نحو رصيف الرسو. هل أن ما أشاهده هي شراشف؟ ومن عساه يضع شراشف بوجه الريح؟ وقعت بحيرة شديدة فعلية.

لا يعـــدّ قارب **دنيالز** من بين الأكبر، فلعل طوله لا يزيد عن خمسة وثلاثين قدماً. يتميّز هذا القارب بمقدمة حادة وبسياج معدني يصل إلى منتصفه، أما لوحة قيادته المركزية فمغطاة، وهو مزود بمنصة خارج مؤخرته. لاحظت أن القمرة ربما تتـــسع لمـــنامة أربعـــة أشخاص. رحت أتفحّص كل التفاصيل في الزورق بعينين مركـــزتين. شاهدت الكراسي الثابتة، والأذرع المعدنية الممتدة، وحاملات قصبات الـــصيد، ومركـــز حفظ الطعوم. إنها الحياة المرفهة. تأكّدت من أن المركب مجهز

لصيد الأسماك، لكنه لم يكن كذلك في هذا اليوم بالذات. بدا كل شيء في مكانه، لكنني لم أشاهد أي أثر **لدنيالز**.

قدّرت أن المنـــزل يساوي نصف مليون دولار، ولعل القارب يساوي ثلاثمئة ألـــف دولار أخـــرى. كـــيف استطاع الحصول على هذا المبلغ؟ لا بد أن الرجل يتعاطى أعمالاً قذرة.

يـــرى الإنـــسان أحياناً مشهداً معيناً، وأحياناً يشمّ رائحة معينة، ويسمع في أحـــيان أخرى كلمة منطوقة، وغالباً لا يكون هناك حافز معين. يلتمع شيء ما في ذهنك فجأة، وتتذكّر أشياء لم تكن لتخطر على بالك.

وقعت عيناي على اسم القارب.

بوينغ!

37

هَني تشايلد.

لا بد أن أحد الأغنياء يدفع الفاتورة.

يعيش ابن أخي هنا، وهو يمتلك قارباً رائعاً.

كوري راينولدس دنيالز.

ألثيا هونيكت يونغ بلود. هَني.

تزوجت **هَني** من أحد أفراد عائلة **راينولدس**. عاد أحد أبناء شقيق زوجها إلى تشارلستون. تركت هذه المرأة القارب لابن شقيقها.

تعيش **هَني** في جزيرة دي ويز.

دُفن **ويلي هيلمز** في جزيرة دي ويز.

إن **كوري دنيالز** هو ابن شقيق زوج **هَني يونغ بلود**. يعرف **كوري** هذا جزيرة دي ويز جيداً.

هل **مارشال** محق؟ هل قبضنا على الرجل الخطأ؟ وهل يمتلك **دنيالز** القسوة والذكاء ليكون الرجل الرئيسي وراء هذه القضية؟

هل أتصّل **بغوليت**؟

لا. أريد الحصول على المزيد من المعلومات.

أريد الذهاب إلى ميناء آخر. جلست وراء المقود، واتجهت إلى جزيرة النخيل.

احـــتاجت *آجي غواي* لعشر دقائق كي يهدر محركها. واستغرق العبور إلى جزيرة دي ويز عشرين دقيقة أخرى. بدا هذا الوقت دهراً بالنسبة لي.

وقـــف الحظ إلى جانبي هذه المرة. وجدت عربة غولف متروكة عند رصيف الرسو. أسرعت لركوبها، واتجهت نحو المركز الإداري للجزيرة.

وجـــدت آنـــسة **هَـــني** في متحف الطبيعة، ورأيتها منشغلة بتنظيف حوض للمخلـــوقات البحرية في حوض الغسيل. لاحظت أنها تحمل صندوقاً فوق مرفقها يحتوي على أصداف بحجم قبضة اليد.

"آنسة **هَني**. أنا سعيدة لأني حظيت بك".

"حظيت بي؟ وهل يمكنك إيجادي في أي مكان آخر من بلاد الله الواسعة؟"

"أنا...".

لاحظـــت بعـــض أيدي السرطانات هنا، وهناك تستكشف العالم الخارجي بحذر. أومأت هَني نحو الصندوق: "إنني أنظّف بيت هذه السرطانات الناسكة".

تـــباطأت حـــركة أيدي السرطانات المليئة بالعقد، لكنها استمرّت بملامسة الـــصندوق. جاءت مقاطع كلمات المرأة الرباعية مشدّدة وهي تقول: "هل تعرّض **كوري** لحادث جديد؟"

"إنـــنا نـــبحث بـــبعض المسائل المتعلقة بالعناية بالمرضى الذين يتردّدون على عـــيادات **كنيسة رحمة الله**، وكيفية استخدام الموظفين، إلى ما هناك من أمور. إنني مهتمة بالتدريب الذي تلقّاه **كوري**".

تـــردّدت المـــرأة قلـــيلاً: "إن كلمة ممرض لا تشمل الرجال إلا قليلاً، أليس كذلك؟".

"طبعاً، إن هذه التعابير الشائعة هي محيرة فعلاً".

انهمكت **هَني** بالتنظيف بكل قوتها إلى درجة أن مفاصل يديها كانت ترتدّ مع حركتها.

"درس **كـــوري** كـــي يصبح طبيباً، لكنه اتبع هواه بدلاً من ذلك. أعتقد أن الفتيان يكبرون مع السنين. ماذا نستطيع أن نفعل؟"

"ألم يتدرّب **كوري** في تكساس؟"

"أجل، لقد تدرّب هناك".

"أين؟"

"تدرّب في جامعة تكساس. اعتاد أن يسميها **UTEP**. هل هذا اسم جامعة؟ يبدو اسماً يلائم نوعاً من رذاذ معالجة فطريات القدمين".

ملأت **هَني** حوض الأسماك بالماء.

سألتها: "لماذا عاد إلى تشارلستون؟"

"وقع في بعض المتاعب، وفقد وظيفته، تأذّى قليلاً، ثم وقع في عجز مالي".

رفعـــت المرأة المسنة رأسها، وما لبثت عيناها الشاحبتان أن رسمتا عبوساً لا مثيل له.

"كنت أتوقع أن يصبح ابن شقيقي طبيباً بارعاً".

"أنا متأكدة من ذلك. ما هي اختصاصات التمريض التي تدرّب عليها؟"

"تدرّب في البداية على أعمال قسم الطوارئ، ثم على الجهاز العصبي بعد ذلك، وعمل قبل عودته في غرفة العمليات أيضاً. عمل في التمريض الجراحي لمدة سنتين. إنه عمـــل معقد بالنسبة لي، لكنك لا تستطيعين إقناعي أن عمل الذين يعملون بالتفصيل والخياطة أسهل. نعم. أبلى **كوري** حسناً بالنسبة للأموال التي أنفقتها عليه".

بالكاد أصغيت لما قالته، لأن حقيقتين متباينتين خطرتا على بالي.

تـــزايد قلقي من أن نكون قد أمسكنا بالرجل الخطأ. يقترب القاتل الآن من أوصاف **دنيالز**.

ودنيالز حرّ طليق.

شعرت بموجة برد تخترقني.

يتعيّن عليّ الآن الاتصال **بغوليت** هاتفياً. لا. يتعيّن عليّ التحدث مع **غوليت**. اقتربت الآن من تصديق رواية **مارشال** القائلة إن **دنيالز** يحاول الإيقاع به، وذلك عكس كل الدلائل. إن إقناع الشريف بالتبصر في هذه الفكرة يتطلّب حديثاً مضنياً وجهاً لوجه.

امـــتلأت الطرقات في مساء الجمعة هذا بسيارات الوافدين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. استغرقتني القيادة باتجاه شمال تشارلستون حوالى ثلاثة أرباع الساعة.

وجدت **غوليت** في مكتبه. بدا متوتراً كالعادة.

تناولت كرسياً، وجلست قبالة مكتب الشريف مباشرة، وقلت له: "**أريدك** أن أُسمعكَ أمراً هاماً جداً".

نظر الشريف في ساعته، ثم زفر دلالة على امتعاضه. أتت رسالته واضحة: من الأفضل أن يكون هذا الأمر مهماً، وأن يكون قصيراً.

"يدّعي **مارشال** أن **دنيالز** أوقع به".

تفحّصني **غوليت**: "أصبحت مستهدفاً من الجميع ابتداءً من الحاكم ونـزولاً. هل تقولين الآن إنني سجنت الإنسان الخطأ؟"

"إنني أقول إن هناك احتمالاً قوياً بذلك".

"يتعيّن علينا أن نشوي **مارشال** ثلاث مرات وأكثر".

"يقول **مارشال** إن دليلنا ضده دليل ظرفي".

بدأ **غوليت** بالاعتراض على كلامي، لكنني تابعت حديثي.

"إنه محق إلى حدٍّ ما، لأن الدليل الذي جمعناه إلى الآن يبرهن أن عدداً من المرضى قد قُتلوا في تلك العيادة. يتمكّن أي شخص من إخفاء أنشوطة سلكية، وهناك احتمال أن يقوم أي شخص بإخفاء الصدفة في طاولة مكتب **مارشال**. تعرف أن هذا هو الذي سيستند عليه الدفاع".

"إن الأمور التي سيجادل فيها الدفاع، والأمور التي سيعتقدها المحلفون، هما أمران مختلفان جداً".

مضيت بمجادلتي: "قلت بنفسك إن هناك مشكلة في سجلات المكالمات الهاتفية. اتصل أحدهم **بنوبل كروكشنك** من مكتب **مارشال** في الليلة التي كان **مارشال** غائباً فيها عن مكتبه".

"انشغل **كروكشنك** بتحقيق خاص، وأي شخص يمكنه الاتصال به بطريقة غير قانونية".

أيقنت أن **غوليت** لا يريد أن يقتنع. قبض **غوليت** على رجل، وعلى طبيب بوجه خاص. يريد أن تكون قضيته محكمة، وأنا دفعته في ذلك الاتجاه بنفسي. وافق المدعي العام المحلي، وها أنا أُغيّر موقفي.

"إن اســـم **دنيالـــز** الكامل هو **كوري راينولدس دنيالز**، لكنني أعتقد أنك تعـــرف ذلك سلفاً، لكن الذي لا تعرفه هو أن **لدنيالز** زوجة عمّ تعيش في جزيرة دي ويز. أعطته زوجة عمّه هذه قارباً".

"إن امتلاكه قارب صيد، ومعرفته بجزيرة دي ويز لا يجعلانه قاتلاً".

"شَـــغِلَ **دنيالز** وظيفة في مستشفى لمدة ثلاث سنوات بعد انتهائه من معهد التمريض. لم يعمل الرجل في عيادة عامة على الدوام".

صـــدر صوت من المقعد الجلدي عندما استرخى **غوليت** عليه: "لا يعد ذلك دليلاً كافياً".

"عمـــل الـــرجل كممرضٍ جراحي، كما نظّف الكثير من الجروح، وراقب العمليات الجراحية، وامتلك الفرصة ليتعلّم طريقة إجراء العمليات".

"إن مناولة الأدوات الجراحية لا تجعل منه جراحاً".

"لا يستدعي هذا العمل بالذات جراحاً، كما أنه لا يتطلّب إبقاء المرضى على قـــيد الحياة. لا يتطلّب الأمر سوى معرفة كيفية انتزاع الأعضاء البشرية وحفظها جيداً.

فكّر بالتوقيت. عاد **دنيالز** إلى تشارلستون في عام 2000، وبدأ العمل في العيادة في عام 2001. اختفى **ويلي هيلمز** في شهر أيلول (سبتمبر) من عام 2001".

رأيت أوّل ظلال الشك في عينَي **غوليت**، فمضيت في آخر محاولة لي لترسيخ فكرتي.

انـــشغل **كروكـــشنك** بتحميل المقالات التي تتحدّث عن تهريب الأعضاء على حاسوبه. قرأت عدداً قليلاً من هذه المقالات عندما كنت أتفحّص القرص الـــصلب في الحاســـوب، لكـــنني لم ألاحظ أهمية مقالٍ معيّنٍ منها إلا في هذه اللحظة.

قُتل عددٌ يقدّر بأربعمئة امرأة وفتاة منذ عام 1993 في كويداد شواريز وشي هـــوا هـــوا، الواقعتيْن في المكسيك. يُعرف أيضاً أن سبعين شخصاً آخرين قد تمّ الإبـــلاغ عـــن اختفائهم. تتنوّع مهن الأشخاص الذين اختفوا، فمنهم الطلاب، وموظفـــون في المتاجر، وعاملون في مصانع التجميع، وبعض هؤلاء صغار في السن

ولا تـــتعدى أعمارهم عشر سنوات. وجدت بعض الجثث مدفونة في قبور ضحلة في الـــصحراء، وبعضها وُجد في مواقع بناء وباحات السكك الحديدية المنتشرة في أنحاء المدينة.

"تولّى مكتب المدعي العام المكسيكي في عام 2003 عدة قضايا منها. ويقول المحققون الاتحاديون إنهم يمتلكون دليلاً على أن بعض الضحايا لقوا حتفهم على يد عـــصابة دولية لتهريب الأعضاء البشرية. وتحدّثت مقالة أعدتها وكالة الأسوشيتد برس والتي اكتشفتها **كروكشنك**، عن شاهد عيانٍ تعرّف على رجل أميركي عضو في هذه الشبكة".

وجّهت نظرة ضاغطة أخرى باتجاه **غوليت**.

"تـــدرّب **دنيالـــز** وعمل في إل باسو، تكساس. وتقع كويداد شواريز على مسافة قريبة جداً من إل باسو".

"أتقولين إن **دنيالز** قد تورّط في أعمال هذه الشبكة؟"

"أقول فقط بوجود احتمال تورطه. تواجد الرجل في إل باسو، إذاً فحتى ولو لم يـــتورط، فلا بدّ أنه سمع عن قتل أشخاص في المنطقة. ويُحتمل أن يكون الرجل أجـــرى بعض الاتصالات مع بعض الأشخاص، أو ربما التقط الرجل الفكرة وجاء إلى هنا كي يقيم وكالته الخاصة".

مرّر **غوليت** يداً من فوق فكّه.

"يعيش **دنيالز** في سي بروك، وهو يمتلك قارباً ثميناً جداً".

"أتقولين إنه ينتمي إلى عائلة **راينولدز**؟"

"إنـــه أمـــر قد يحمل، أو لا يحمل، أهمية معينة. أعرف أنه إذا نظرنا إلى هذه الحقائـــق كلاً على حدة، فلن تبدو مريبة. أتكلّم عن حقائق مثل معرفة جزيرة دي ويز، وامتلاك قارب، وامتلاك إمكانية الوصول إلى عيادة **كنيسة رحمة الله** والمرضى الـــذين يتردّدون عليها، والتدرب الجراحي، والتواجد في إل باسو، ومستوى الحياة المكلف، وكذلك ذلك الاتصال الغامض الذي جاء من هاتف **مارشال**. لكن، إذا جمعنا كل هذه الحقائق معاً...".

لم أعبّر بالكلمات عن الاستدلال الذي أردت أن يفهمه **غوليت**.

تسمّرت عينا **غوليت** بعينيّ. لم ينبس أحدنا ببنت شفة.

كسر الهاتف نطاق الصمت برنينه. سمعت رنّة، ثم ما لبثت أن أصبحت أربع رنّات، لكن **غوليت** تجاهلها.

تتـــرك بعض اللحظات بصماتها الدائمة في الذاكرة. أدركت أن هذه اللحظة هي منها.

تذكرت أنني رأيت مربعاً يومض باللون الأحمر على جهاز الهاتف. سمعت صـــوت أحـــدهم في الممر ينادي شخصاً يدعى **آل**. تراقصت ذرات الغبار في أضواء الشمس المتسللة عبر الستائر. لاحظت طرف عين **غوليت** اليمنى يتحرك فجأة.

مـــرّت ثوان. مرّت دقيقة. أدخلت امرأة رأسها من خلال الباب، وهي ذات المرأة التي أرسلها **غوليت** لتهدئة أقربائه من أسرة هايبرليس المتخاصمين.

"اعـــتقدت أنـــك تـــريد أن تعرف. أُطلق سراح **مارشال**، وقد عقد مؤتمراً صـــحفياً قبل قليل، لكنّ المحامي هو الذي تولّى الكلام. حرص **مارشال** على لعب أفضل دور للمتهم البريء من دون أن ينطق بكلمة واحدة".

أومأ **غوليت** إيماءةً ذات مغزى.

"يعتقد **تايـــي** أنه أوشك على العثور على الطيار الذي نبحث عنه".

"أخبريه أنني سأوافيه بعد قليل".

نظرت إلى ساعتي. يُحتمل أن يكون **دنيالز** على وشك مغادرة البلدة، ولربما أصـــبح علـــى بعـــد مئات الأميال من تشارلستون. اخترقتني رعشة من الخوف لاحتمال تمكّنه من الهرب.

سألتُ: "هل ستفكّر بإلقاء القبض على **دنيالز**؟"

"بأية تهمة؟"

"لأنه ضرب كلبه، أو لأنه بصق على الرصيف، أو لأنه تبوّل من على مقدمة قاربـــه. لا يهمـــني، طالما تحضره إلى وسط المدينة، وتصدر مذكرات تفتيش من المحكمـــة. أريـــدك أيضاً أن تفتّش منـــزله، وسيارته، وأن تراجع سجل مكالماته الهاتفية، مثلما فعلتَ مع **مارشال**. يُحتمل أن تصل إلى شيء هام".

وضع **غوليت** إحدى يديه على الهاتف: "تلاحقني وسائل الإعلام مثلما يلاحق الذئب أشلاء الجيف، كما أن **هيرون** غاضب جداً من انتشار أخبار **كنيسة رحمة الله** في وسائل الإعلام. أمضيت صباحي بتلقي اللوم من رئيس البلدية ومن الحاكم. إن آخر شيء أحتاجه هو إلقاء قبضٍ آخر مشكوكٍ بأمره".

"استصدر إذاً مذكرات لتفتيش منزله وقاربه".

"وإلى ماذا ستستند هذه المذكرات؟ هل أقول إنني أصدرها لأنني أشك بوجود شيء لم ننتبه إليه؟ إذا فعلت ذلك، سأصبح حديث الصحافة".

"يمكنك القول إنه مساعد، ومحرضٌ محتمل للعصابة، أو أنه متآمر معها. يمكنك استخدام نفس التهم التي برّرت بها مذكرات التفتيش التي صدرت بحق **مارشال**. اسمع، أعرف أنه يصعب على المرء التفكير **بمارشال** سوى أنه ذلك الرجل النذل، والجشع، الذي قتل أشخاصاً مرضى وضعفاء لا حول لهم".

"دافعتِ جيداً عن هذه النقطة. هل تدافعين الآن عن هذا الرجل؟"

شعرت بجفاف في حنجرتي. بلعت ريقي: "إن كل ما أقوله هو إنني غير متأكدة. أعتقد أنه من الواجب أن تقوم بالتحقق من احتمال كون **دنيالز** هو القاتل. يتعيّن عليك اعتقاله إذا توافر لديك أدنى شك في تورّطه بالجرائم".

"إنني غير معتاد على كل هذه الأمور القانونية الدقيقة التي تستخدمينها في مهنتك أيتها الدكتورة، لكنها ليست الطريقة التي تجري الأمور بها هنا. لا أستطيع إلقاء القبض على الناس بسبب الشكوك، كما أنني لا أمتلك مثل هذه الشكوك. أنت تمتلكين الشكوك بشأن **دنيالز**، لكنني أعتقد أن **مارشال** مذنب بالتأكيد".

كانت هذه أول مرة أسمع فيها **غوليت** يتحدّث فيها بمثل هذه الحدّة.

تكلّمت بحدّة أكبر مما قصدت في البداية: "إذا ظلّ **دنيالز** طليقاً فبإمكانه أن يقتل مرة أخرى".

انتفخت عضلات فكّي **غوليت**، ثم ما لبث أن استرخت: "يقتلُ مَن؟ لن تُجرى أية عمليات جراحية في تلك العيادة بعد الآن".

"كنت أفكّر **بمارشال**. إنه طليق، لكن إذا أقدم **دنيالز** على قتل **مارشال** فسينتهي التحقيق. سيفترض الناس أن صديقَ الضحايا أو أحد أقربائهم هو الذي أقدم على قتله، ويبقى **دنيالز** طليقاً في هذه الحالة".

لم يحـــد **غولـــيت** ببصره عني، لكنه ضغط على زر في الهاتف. سمعت صوتاً إلكترونياً ينساب عبر سماعة الهاتف.

"**زام زاو**".

"هل غادر **مارشال** مبنى المحكمة؟"

"غادر منذ أربعين دقيقة".

"وماذا يفعل؟"

"رافقـــه رجل يرتدي بذلة. توقّف أمام مكتب في شارع برود. بقي الرجل، لكن **مارشال** توجَّه جنوباً باتجاه الجادة السابعة عشرة".

"أعتقد أنه يتوجَّه نحو منـــزله".

"ابقَ في إثره".

"هل يتعيّن عليّ تتّبعه في الخفاء؟"

"لا. دعه يعلم أنك تتبعه".

ضغط **غوليت** على الزر، وما لبث خط الاتصال أن انقطع.

تابعت ضغطي على **غوليت**: "يتعيّن علينا بالفعل إلقاء القبض على **دنيالز**".

"أنت على حق بأمرٍ واحد. إن معظم الدلائل ضد **مارشال** هي ظرفية، لكن الأشـــياء التي أعطيتني إياها بشأن **دنيالز** ليست أفضل بكثير". وقف **غوليت** هنا: "دعيني أرى بنفسي الأشياء التي توصَّل إليها **تايبـــي**".

وجدنا المساعد **تايبـــي** جالساً وراء جهازَي كمبيوتر في غرفة تقع في الطابق الـــثاني، ورأينا رزَم الأوراق المطبوعة تنتشر حول لوحة مفاتيح الجهاز الذي يعمل عليه.

سأل **غوليت** ما إن دخلنا الغرفة: "ماذا لديك؟"

الـــتفت **تايبـــي** نحونا، وبدا وجهه أكثر تركيزاً تحت أضواء الفلورسنت مما كان عليه في الخارج.

"وجـــدت أن تـــسجيلات المكالمـــات الهاتفية لمنـــزل **مارشال** لم تعطنا أية معلـــومات جديـــدة، لـــذلك فكّرت بيني وبين نفسي من أين يجري هذا الرجل اتصالاته؟ هل يجريها من هاتف بالأجرة؟ ومن أي واحد من هذه الهواتف؟"

وضع **تايي** إصبعاً على جبهته: "استخرجت تسجيلات المكالمات في ناساو، وتفحّصت المكالمات الصادرة القريبة زمنياً من تاريخ آخر مكالمة أجريت مع آخر شخص مفقود".

سألت: "أتعني **جيمي راي تيل**؟"

"أجل. أجرى **تيل** آخر مكالمة له في الثامن من شهر أيار. بدأت بالعمل على اللائحة، وتفحّصت الأرقام مقابل الأسماء. اكتشفت، لحسن الحظ، أن كشك ناساو ليس أكثر مراكز الاتصالات شعبية في المدينة. وجدت شيئاً عندما أنهيت تفحّص نصف القائمة".

"اتصل أحدهم بهاتف خلوي يمتلكه **جاسبر دونالد شورتر**، وذلك في السادس من شهر أيار عند الساعة التاسعة والدقيقة السابعة والثلاثين صباحاً. استغرقت المكالمة أربع دقائق. أُجريت مكالمة مع نفس رقم الهاتف في التاسع من شهر أيار، عند الساعة السادسة والأربع دقائق مساءً. استغرقت المكالمة سبعاً وثلاثين ثانية".

قال **غوليت**: "أُجريت المكالمة الأولى قبل يومين من آخر اتصال أجراه **تيل**. وأُجريت المكالمة الثانية بعد مضي يوم واحد على إجراء ذلك الاتصال. هل تفحّصت مكالمات **شورتر**؟"

قلّب **تايي** بعض أوراقه المطبوعة: "ستعجبك هذه الواقعة. يمتلك **شورتر** سجلاً عدلياً. أمضى الرجل ست سنوات من العمل مع سلاح الجو، لكنه طُرد من الخدمة بعد اكتشاف مخدرات داخل رزمة كان يُزمع إرسالها من دانانغ (في فيتنام)، إلى الولايات المتحدة. أعرف أن إعفاء ضابط من الخدمة يعادل الطرد غير المشرّف لرجل مجنّد. يجعل هذا الأمر من إيجاد وظيفة أخرى في المستقبل أمراً عسيراً جداً".

استخرج **تايي** ورقة من أوراقه المطبوعة.

تفحّصت مع **غوليت** محتويات هذه الورقة. وجدنا أن هذه الوثيقة هي عبارة عن نسخة مصورة عن سجل **شورتر** العسكري.

عمل **جاسبر دونالد شورتر** طياراً في فيتنام.

38

قال **غوليت**: "إذاً كان **شورتر** طياراً".

تـــناول **تايبــــي** ورقةً أخرى: "وما زال طياراً. إنه يمتلك طائرة سيسنا 207، ورقم تسجيل ذيلها هو N3378Z".

قال **غوليت**: "إنها الطائرة المفضلة لدى مهرّبي المخدرات".

وافقه **تايبــــي**: "أجل سيدي. إنها طائرة بمحرك واحد، وتستطيع الطيران على ارتفـــاع منخفض، كما أنها تستطيع الهبوط في أي حقل. إن طائرة 207 هي خيار ســـيئ في ما يتعلّق برحلات التهريب الطويلة. لا تستطيع هذه الطائرة الطيران من هـــنا إلى بويرتو فالارتا من دون إعادة التزود بالوقود. وهناك مشكلة أخرى، لأن كـــل طائرة تطير في الولايات المتحدة يجب أن تكون مسجلة رسمياً، وهكذا يصبح رقـــم التـــسجيل مـــرتبطاً بـــصاحبها مباشرة. اعتاد مهربو المخدرات على سرقة الطائـــرات، أو شـــرائها من مالكيها السابقين، ثم يعمدون إلى طلاء رقم تسجيلها ليكتبوا رقماً مزيفاً فوقه".

"جِد الطائرة، وإذا عرفت مكان **شورتر**، ابقَ معه واتصّل بي".

"أجل سيدي".

استدار **غوليت** لينصرف، لكن تبقى عندي سؤال أخير **لتايبــــي**.

"أين يعيش **شورتر**".

"إنه يسكن في سي بروك".

شعرت بموجة من الدهشة: "أين يسكن بالتحديد في سي بروك؟"

نقــر **تايبـــي** بعض المفاتيح على لوحة حاسوبه، فظهرت لائحة على شاشة الحاسوب.

"إنه يسكن في فيلات بيليكان غروف".

تحوّلت الموجة إلى إعصار.

استدرت مندفعة نحو **غوليت**.

"يسكن **دنيالز** في فيلات بيليكان غروف أيضاً".

توقّف **غوليت** لكنه استمرّ بالإمساك بمقبض الباب.

"أتقولين إن الرجلين يسكنان في نفس المجمّع؟"

"نعــم! نعم! لا يمكن لهذا أن يكون مجرد مصادفة. أعتقد أن **مارشال** يقول الحقيقة، ولا بد أن يكون القاتل هو **دنيالز** نفسه!"

تغيّر شيء في ملامح **غوليت**. أومأ بطريقة موحية: "سأقبض عليه".

قلت له: "أريد أن أرافقك".

تفحّصني غوليت بتعابير صارمة: "سأعلمك فور القبض عليه".

غادر الرجل بعد أن تفوّه بهذه الكلمات.

لم يتبقَ أمامي أي شيء أفعله فيما عدا الذهاب إلى المنـــزل، والانتظار.

أخـــذت **بويد** في نـــزهة، ثم تناولت وجبة غداء مثلجة، وانصرفت لمشاهدة الأخـــبار. شـــاهدت مذيعـــة أخبار قلقة تذيع تقريراً عن حريق نشب في إحدى المجمعات السكنية. تحوّل قلقها ليصبح نوعاً من الصدمة الهادئة، عندما بدأت بتغطية أخـــبار **مارشال**. أظهرت الصور عيادة، ثم ظهر **مارشال** عندما كان أصغر سناً، وظهـــر مقطع مصوّر يُظهر **هيرون** يترأس المصلين في ملعب فسيح. أظهر الشريط كذلك **مارشال وتاكرمان** يغادران مبنى المحكمة.

لم أركّـــز كـــثيراً على هذه الأخبار، لأنني استمريت بالتفكير في كل واقعة عرفتها، وداومت على التطلع إلى ساعتي. اكتشفت في كل مرة أنه لم تمضِ سوى دقائق معدودة.

هل **دنيالز** هو القاتل فعلاً؟ لا بد أن يكون القاتل **دنيالز**؟ هل عثر **غوليت** عليه؟ ولماذا كل هذا التأخير؟

سقيت مجموعة الصبار التي تحتفظ بها **آن**، وجمعت كومة ثياب لغسلها، ثم أفرغت غسالة الأطباق.

تصادمت الأفكار في رأسي، لكن لم أجد أمامي أي شخص كي أناقش شكوكي معه، ولكي أجري معه مقابلة للاحتمالات ما بين **دنيالز ومارشال**. احتجت للتحدث مع **رايان** لكي أحصل على وجهة نظره. فكّرت بالاتصال به، لكنني قرّرت تركه لكي يركّز على ابنته **ليلي**. انشغل **بيردي** بضفدعة. بدا **بويد** مهتماً، لكنه كان محدثاً مريعاً.

اتصل **بيتي** قرابة الساعة السادسة والنصف، وبدا أنه متعب ومتوتر. أخبرته أنني سأحضر إلى المستشفى كي أوجز له أحداث الأربعة أيام الماضية.

وجدت **بيتي** منهمكاً بقراءة عدد يوم الجمعة من صحيفة ***بوست آند كوريه***. أسرع إلى طي الصحيفة عندما رآني، واشتكى من الطعام، ومن الضمادات التي تثير الحكة، ومن أولى جلسات الفحص التي يجريها.

قبّلت جبهة **بيتي**، وقلت له: "ألسنا ثقباً أسود من الاحتياجات؟"

"يدعى هذا التنفيس عن المصاعب، لكنك لم تصغي إليّ فعلاً".

اعترفتُ: "لا".

"أخبريني ماذا حدث".

أخبرته كل شيء. أخبرته عن غرفة العمليات الجراحية المؤقتة، وعن سرقة الأعضاء البشرية، والأنشوطة السلكية، والصدفتين، **وأونيغ مونتاغيو**، **وويلي هيلمز**، والأشخاص المفقودين، **ورودريغز**، ومنتجع آبريغو آيلادو دي لوس سانتوس الموجود في بويرتو فالارتا.

أخبرت **بيتي** أن **رودريغز ومارشال** كانا زميلتين في المعهد الطبي، وأنهما قد أوقفا عن مزاولة مهنتيهما. أُوقف **مارشال** بسبب المخدرات، أما **رودريغز** فأوقف بسبب اعتداءات جنسية أقدم عليها، وأن **مارشال** قد أمضى مدة قصيرة في الحبس الفعلي. أضفت قائلة إن **مارشال** قد باع قاربه، وذلك بعد أن انتهيتُ **ورايان** من

استجوابه في العيادة، ثم أنهيت حديثي معه بإعطاء وصف لعملية اعتقال **مارشال**، وإطلاق سراحه بكفالة بعد ذلك بوقت قصير.

قال **بيتي**: "لا شك في أنك فخورة بنفسك".

بدا أنني عدت للاقتناع بهذه الوقائع. لكن لا، لا بد أن يكون **دنيالز** هو الفاعل.

"أعتقد أنني أقنعت **غوليت** بالقبض على الرجل الخطأ".

"لا تقتنعي بكل شيء تفكرين به".

صفعت معصم **بيتي** الذي تلوى نتيجة ألم مبالغ فيه. نظرت إلى ساعتي.

قال **بيتي**: "لا يستطيع أحد إقناع **غوليت** بشيء".

"لعلك على حق، لكنني ضغطت عليه كثيراً، ويعاني **غوليت** كثيراً الآن نتيجة لذلك".

"ومن يجعله يعاني؟"

رحت أحك إبهامي الأيمن بأسفل إبهامي الأيسر: "إنه يعاني من الصحافة، ومن **هيرون**، ومن أصدقاء القس النافذين. ماذا لو كنا مخطئين؟ سيتعيّن على **غوليت** تقديم الكثير من التفسيرات في الانتخابات القادمة".

"يبدو الدليل مقنعاً جداً بالنسبة لي".

"إنه دليل ظرفي بكامله".

"لكن الدليل الظرفي الكافي يصبح مقنعاً بما فيه الكفاية بالنسبة للمحلفين إذا صدقوه".

اقترب **بيتي** مني، وفصل ما بين يديّ المتشابكتين. تطلّعت إلى ساعتي. أين **غوليت** بحق الجحيم؟

سأل **بيتي**: "إذا لم يكن **مارشال** مذنباً، فمن ترشحين غيره؟"

تلوتُ على مسامعه المعلومات التي جمعتها عن **كوري دنيالز**.

أخبرته عن القارب، وعن معرفته الوثيقة بجزيرة دي ويز، وعن عمله كمساعد ممرض في العمليات الجراحية. أخبرته أيضاً عن تواجده في إل باسو خلال فترة كثرت فيها الجرائم المريعة، والتي يرتبط بعضها بتهريب الأعضاء البشرية. أخبرته

كذلك عن المكالمات التي أُجريت من مكتب **مارشال** أثناء غيابه عن العيادة، وعن سكنه في نفس مجمّع الفيلات الذي يسكنه طيار ذو سمعة ملطخة. قلت له إنه نفس الطيار الذي تلقّى اتصالات قبل اختفاء **جيمي راي تيل** وبعد الاختفاء مباشرة، وقلت له إن هذه الاتصالات أُجريت من هاتف عمومي يبعد ياردات قليلة عن العيادة.

قال **بيتي** بعد أن انتهيت: "ألا يُعقل أن يكون **مارشال ودنيالز** يعملان معاً".

"إنه احتمال وارد، لكنني لا أنفك عن التفكير بحديثي مع **مارشال**. إنني أكره الرجل، لكن بعض النقاط التي يعرضها تبدو معقولة. إن ترك الأصداف مبعثرة في مكتبه لا يتناسب مع شخصيته. نعرف أيضاً أنه كان في الخارج عندما تلقّى هاتف **كروكشنك** المنزلي المكالمة من العيادة. يسهل علينا تفحّص سجل عملية بيع القارب. وإذا كان الرجلان يعملان معاً، فلماذا تتوجّه أصابع الاتهام إلى **دنيالز**، إلا إذا كان **مارشال** يحاول أن يسبق شريكه بعقد صفقة اعترافه مع المدعي العام المحلي؟"

"هل كدّس **مارشال** أو **دنيالز** الأموال؟"

"يقول **غوليت** إنه ما من دليل على هذا، مع أنه من السهل إخفاء الأموال النقدية. ويعيش **دنيالز** بمستوى يفوق كثيراً مستوى معيشة الممرض".

وصفت **لبيتي** ما رأيته في ***هوبي تشايلد***، وفيلا سي بروك، وشرحت له ارتباطات **دنيالز** العائلية.

"تتحدثين عن آل راينولدس الذين يعملون بتجارة الألومينيوم".

"بالضبط، لكن هذا لا يعني شيئاً".

نظرت بطرف عيني إلى ساعتي. مرّت خمس دقائق منذ أن نظرت فيها آخر مرة.

بدت منطقة أسفل إبهامي بلون أحمر قان: "تطلب الأمر بعض الإقناع، لكن **غوليت** توجّه أخيراً للقبض على **دنيالز**، لكن الدلائل ضد **دنيالز** ظرفية هي الأخرى. آمل أن تؤدي عمليات البحث، وبعض التسجيلات الهاتفية إلى شيء مهم".

"وماذا بشأن الرمش؟"

"يستغرق تحليل الحمض النووي بعض الوقت".

"وهل عاد ذلك النقيب المضحك (**رايان**) إلى منطقة التندرا؟"

"نعم".

"وهل تشتاقين إليه؟"

"نعم".

استنشقت أثراً من عطر **رايان** في وسادتي ذلك الصباح، وشعرت حينها بوحشة أعمق مما توقّعته. شعرت بفراغ. هل هذا إحساس بقرب انتهاء علاقتي معه؟

أعاد **بيتي** فصل يديّ مجدداً، وظلّ ممسكاً بواحدة منها.

هززت رأسي.

رنّ هاتفي الخلوي بعد مضي عشر دقائق. ومض رقم هاتف **غوليت** على الشاشة. شعرت بتسارع في نبضات قلبي. ضغطت على زر الاستقبال.

"لم نجد **دنيالز** في بوهيكيت، أو في منزله. وجدنا القارب في مكان رسوه المعتاد، لكنني أرسلت نشرة لجميع المراكز بأوصاف سيارته".

"هل حدث تقدّم بالنسبة لشورتر؟"

"لم نجد له أثراً، لكن الطائرة مركونة في مدرج خاص قرب طريق كليمنت فيري. إن الطيران محدود جداً هناك، ولا يمتلكون برج مراقبة، لكنهم يبيعون المحروقات. يقول الحارس إن **شورتر** ينقل مجموعة من رجال الأعمال بطائرته إلى شارلوت صباح كل نهار أحد. أضاف أنه اعتاد في أمسيات أيام الجمعة على القيام بأعمال صيانة دورية. سيكون **تايبي** بانتظاره عندما يظهر هناك".

"ماذا يفعل **مارشال**؟"

مرّت فترة سكون. استطعت أن أسمع على الطرف الآخر من الخط أصواتاً صادرة عن جهاز الراديو الذي يستخدمه **غوليت**.

"أضاع **زام زاو** أثره".

لم أصدّق: "أضاع أثره؟ كيف أضاع أثره؟"

"انقلبت شاحنة ذات ثمانية عشر دولاباً في مكان لا يبعد كثيراً عن مركزه، فأمرته أن يذهب للمكان، لأن الشاحنة صدمت سيارتين".

"يا الله!"

"إنه تدبير مؤقت. علمت أن **تاكرمان** دعا لمؤتمر صحفي عند العاشرة من صباح الغد. سيتظاهر **مارشال** بالوداعة أمام الجمهور، وسنستأنف تتّبعه بعد عقد المؤتمر".

نظرت نحو المريض بعد انتهاء الاتصال. ووجدته نائماً لحسن الحظ.

نظرت ثانية نحو هاتفي الخلوي، فلاحظت إشارة تدلّ على وجود رسالة صوتية في وضعية الانتظار. استمعت إلى الرسالة الصوتية.

أتت الرسالة من **إيما**، وجاء فيها: "اتصلي بي. أحمل أخباراً لك".

تذكّرت أنني نسيت أثناء حديثي مع **تايبي** حقيبتي الشخصية في مكتب **غوليت**. لا بد أن **إيما** هاتفتني في ذلك الوقت.

نقرت زر E على لوحة الاتصالات السريعة. أجابتني الآلة المجيبة **لإيما** بعد أربع رنات.

"اللعنة!"

أتى صوت **إيما** الحي مقاطعاً صوتها المسجل في اللحظة التي كنت أعتزم فيها قطع الاتصال.

"انتظري على الخط".

انتهت الرسالة، وسمعت صوت بيب طويل. سمعت صوت نقرة، ثم تغيّرت نوعية الصوت.

سألتني **إيما**: "أين أنت الآن؟"

"إنني في المستشفى".

"إذا ضبطك الموظفون وأنتِ تتحدثين في هاتفك الخلوي، فسيسببون لك المتاعب. كيف حال **بيتي**".

أجبتها بصوت أعلى قليلاً من الهمس: "إنه نائم".

"أعرف أنك تعبتِ كثيراً أنت **وغوليت**".

"**إيما**، أخشى أن نكون قد ارتكبنا خطأً".

"حقاً؟"

نهضت، وأقفلت الباب، ثم أسمعت **إيما** نسخة موجزة عن الأمور التي أخبرتها **لبيتي**. أصغت إليّ من دون أن تقاطعني.

"لا أعـــرف مـــا إذا كانـــت أخـــباري ستحسم شيئاً. حصلت على نتائج فحوصات الحمض النووي اليوم. إنه رمش **مارشال**".

"أنت محقة. ستثبت النتيجة شيئاً في الحالتين، وهي ستضيّق مجال الاحتمالات. ســـيثبت لدينا إما أن يكون **مارشال** قد تخلّص من الجثة، أو أنه شارك في التخلص منها، أو أن أحداً قد أوقع به حتى في وقت دفن الجثة. لكن لماذا الإيقاع به في ذلك الـــوقت؟ يبدو لي أن ذلك النوع من التخطيط الطارئ، هو نوعٌ من الذهاب بعيداً في الافتراضـــات. وهل تحدث عملية الإيقاع عن طريق رمشٍ بحق الله؟ يشبه هذا الأمـــر حـــبكة فيلم تلفزيوني عندما يجد رجال الشرطة خلية جلد وسط مساحة واسعة من الأراضي. وما هي فرص إيجاد رمش في هذه الحالة؟"

"ومن ترشحين ليكون المجرم؟"

"أرشّح **دنيالز**. إنه بطيء بما يكفي ليعتقد أن شيئاً من هذا النوع يمكن له أن ينجح".

"إنني أرشّحه أيضاً. دعيني أعرف التطورات".

"سأفعل".

وضـــعت هاتفـــي الخلوي في وضعية التذبذب. مرّت الدقائق ببطء. عدت للعبث بمنطقة أسفل إبهامي، وما لبث الجهاز أن تحرّك متذبذباً.

إنه **غوليت**.

"اســـتطاعت شرطة جزيرة النخيل تحديد موقع سيارة **دنيالز** في رصيف ميناء دي ويز".

"هل ذهب لرؤية زوجة عمه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا ذهب؟ ولماذا لم يستخدم قاربه الخاص؟"

تجاهل **غوليت** أسئلتي. وجدت أنه على حق، لأن لا علاقة لها بالموضوع.

"إنـــي أجري اتصالاتي مع دي ويز لأعرف ما إذا كان **دنيالز** هناك. عيّنت مساعدين لي ليلازموا شقته، وآخرين ليكونوا في بوهيكيت. سنقبض عليه".

"اتصل بي من فضلك عندما تقبض عليه. يشعرني هذا الرجل بالتوتر".

لاحظت أن **بيتي** يشخر. حان الوقت كي أذهب.

حاولت أن لا أحدث ضجيجاً أثناء رفعي للصحيفة عن سرير **بيتي**، وفي نفس الـــوقت وقعـــت عيناي على صورة مبرغلة بالأسود والأبيض، ويظهر فيها **أوبري هـــيرون**. أظهـــرت الصورة **هيرون** في وضع تضرّع، وبدا رأسه منحنياً، أما عيناه فكانتا مغمضتين، ولاحظت أن إحدى ذراعيه قد ارتفعت فوق رأسه.

إنها ذراعه اليسرى.

ضربتني فكرة مثل أمواج التسونامي (أمواج المحيط الزلزالية). إنها فكرة جاءت بطريقة عفوية، و لم أتوقعها، لكنها صدمتني.

شبكت أصابعي يأساً، ورحت أهمس:"اللعنة. اللعنة. اللعنة".

بدأت الصحيفة تهتز في يدي، بينما راحت الرؤى تصرخ في عقلي.

تذكرت ثلاث ضحايا مع كسور في فقراتهم العنقية، وكلها من جهة اليسار.

تذكرت الأنشوطة السلكية ذات الحلقات التي تمكّن من استخدام قوة مميتة.

تـــصوّرت **كوري دنيالز** وراء زجاج يمكّن من الرؤية باتجاه واحد. تصوّرت يـــداً تـــرتفع مـــن خـــلال شعر الرأس. وتصوّرت إصبعاً ينقر على لوحة مفاتيح حاسوب، وذراعاً تتسلل خلف ظهر كرسي، وتخيّلت ندبة حول المعصم.

تصوّرت **ليستر مارشال** وهو يقلّب صفحات سجل مريض، ثم وهو يكتب كلمات على أوراق رسمية.

توضّحت عندي فجأة كل هذه التصورات المتنوعة.

تحدّث **دنيالز** عن ضرر دائم تعرّض له نتيجة حادث دراجة نارية. تنحصر قوة يديه في يده اليمنى فقط.

تذكّـــرت الآن أن **مارشال** قلّب صفحات ملف **مونتاغيو** بيده اليسرى، وأنه كتب بيده اليسرى أيضاً.

كان **دنيالز** أيمنّ، بينما كان **مارشال** أيسرّ.

تذكرت أن أداة لشد الأسلاك قد تدلّت من رأس ضحية من جهة الخلف.

تذكّـــرت أيضاً أن أحدهم قد استخدم القوة على الجهة اليسرى لرقاب كل من **مونتاغيو**، **هيلمز**، و**كروكشنك**. شُنق الثلاثة من الجهة اليسرى للعنق.

أعلم أنني دفعت **غوليت** ليقبض على **دنيالز**.

أعلم أيضاً، الآن، أن القاتل لا يمكن أن يكون **دنيالز**.

أين هو **مارشال** الآن؟

39

تـــركت الـــصحيفة تـــسقط من يدي، ثم تناولت هاتفي الخلوي، وطلبت **غوليت**.

لا جواب.

اللعنة!

اتـــصلت بمركز اتصالات دائرة الشريف. أخبرتني الموظفة أنه من غير الممكن الاتصال **بغوليت**.

"يتعيّن عليّ أن أتصل به. الآن".

"هل تتّصلين للإبلاغ عن حدوث جريمة؟"

"إن **غوليت** هو في طريقه للقبض على رجل يدعى **كوري دنيالز**. اتصلي به، واطلبي منه أن يتّصل **ببرينان** قبل المضي قُدُماً بأي شيء".

تناهى إليّ صوتها المليء بالحذر: "هل أنتِ مراسلة صحفية".

"لا. أنـــا **تمـــبرنس بـــرينان**. أعمـــل مع مكتب المحققة الجنائية. إنني أمتلك معلومات مهمة للشريف. إن الاتصال به هو أمرٌ شديد الأهمية".

مرّت لحظةٌ من التردد.

"ما هو رقم هاتفك؟"

أعطيتها إياه: "كيف لي أن أتّصل بالمساعد **تايبـــي؟**"

"لا أستطيع أن أعطيك رقمه".

بذلت جهداً كبيراً لعدم الصراخ في أذنَي المرأة: "اتصلي **بتايـــي** من فضلك. اطلبي منه أن يتّصل بي على نفس الرقم، وأبلغيه نفس الرسالة".

أنهيت المكالمة بعد أن شعرت بإحباط كبير.

نظـــرت إلى **بيتي**. لاحظت من حركة عينيه أنه لم يصل بعد إلى مرحلة النوم العمـــيق. فكّرت بالمغادرة، لكنني قرّرت الانتظار قليلاً. ماذا لو اتصّل **غوليت** أو **تايــــي** أثناء نـــزولي بالمصعد، حيث لا تستطيع الإشارات الهاتفية أن تصل؟

بدأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وعدت لمعالجة أسفل إبهامي بأسناني.

ليتّصل أحدهما، اللعنة!

لم يُصدر الهاتف أية حركة.

ليتّصل أحدهما!

كـــيف أمكـــنني أن أكون بهذا الغباء؟ وكيف وصلت إلى هذا المستوى من الـــسذاجة؟ راوغني **مارشال** مثلما تفعل السمكة، في وقت كان من الأجدر بي أن أجمع قطع اللغز المتناثرة.

اهدئي قليلاً يا بريتان. لم يضع منا أي شيء، وما زال مارشال متهماً، وهو سيخضع للمحاكمة. نستطيع إطلاق سراح دنيالز إذا كان بريئاً.

تجاهلت نصيحتي لنفسي مثلما تعوّدت أن أفعل دائماً. ملأني القلق والغضب بسبب غبائي. بدت منطقة أسفل إبهامي مثل قطعة لحم مسلوخة.

جرّب عقلي التفكير ببعض المنطق.

يمتلك غوليت أسباباً للقبض على دنيالز، لكنه يستطيع أن يطلق سراحه إذا ظهرت حقائق جديدة. إذا حدث ذلك، فلن يموت أحد.

الموت؟

جمُـــدت في مكـــاني بعد أن سيطرت عليّ سلسلة متنوعة من التصورات التي تؤدي بدورها إلى إدراك حقائق مرعبة.

إن **مارشـــال** هـــو القاتل، ومع ذلك فالدلائل المستخدمة ضده ظرفية. من يستطيع إثبات جرمه؟

أعتقد أنه الطيار.

إذا كـــان **شــــورتر** هو فعلاً أداة النقل التي استخدمها **مارشال**، فإن **مارشال** الآن هـــو حر طليق. وإذا تحدّث المدعي العام المحلي مع **شورتر**، فربما سيعمد هذا الأخير إلى التفاوض. وإذا انقلب **شورتر** فإن شهادته قد تؤدّي إلى إعدام **مارشال** و**رودريغز**.

يتميّز **مارشال** بالقسوة، وأعلم أن **مارشال** استطاع أن يتملّص من **زام زاو**، وهـــو الآن حـــرّ طليق. أعرف أيضاً أن **مارشال** سوف يتفهّم المخاطرة التي يمثّلها **شــــورتر** بالنـــسبة إليه. سيحاول الرجل التخلص من هذه المخاطرة، وإذا نجح في مسعاه هذا، فربما سيستطيع التملّص من الإدانة.

رحــــت أنقر لوحة مفاتيح هاتفي الخلوي، لكن ممرضة فتحت الباب في هذه الأثـــناء. زمّـــت شفتيها، وأشارت إلى يدي وهزّت رأسها دلالة على معارضتها استخدام الهاتف.

وضعت الهاتف في جيبـــي، وخرجت مسرعة من الغرفة لأنـــزل إلى قاعات الانتظار. أشارت لوحة الأزرار الشاحبة على الجدار إلى أن المصعد يتّجه صعوداً.

هيا!

انفتح الباب. أسرعت بالدخول، وانطلقت بين الموجودين داخل المصعد قبل أن يستطيعوا التراجع. بدأ المصعد بالنـــزول. انصرفت أنظار الجميع للتطلع بشرود في أرقام الطوابق، والتي توالت على الوميض في اللوحة الداخلية للمصعد.

هيا!

لاحظت أن الردهة خالية من الناس. خرجت من المصعد، واتصلت **بغوليت**.

لا جواب.

اللعنة!

مــــاذا يحدث في ميناء الرسو؟ وماذا يحدث في جزيرة دي ويز؟ أو في منـــزل **دنيالز**؟ أو في بوهيكيت؟

وماذا كان يجري في المدرج القريب من طريق كليمنتس فيري؟

تركّـــز قلقـــي الأكبر على **تايبـــي** الذي لم تكن لديه أدنى فكرة عن الخطر المحدق بشورتر. وأعرف أن **شورتر** لن يتوقّع هجوماً من **مارشال**. وسيخسر ذلك

الطبـــيب القليل إذا ما تخلّص من الطيّار الذي استخدمه، لكنه سيربح الكثير. ولا يعلم **مارشال** أن **دنيالز** ملاحقٌ، وهو ربما يخطّط لجعل جريمة قتل **شورتر** تبدو من عمـــل **دنيالز**. هل يستطيع **مارشال** إطلاق الرصاص؟ هل هو من أطلق النار على **بــيتي**؟ أعلم أن دائرة شرطة جزيرة النخيل لم تستطع معرفة أي شيء بشأن حادثة إطـــلاق الـــنار، وكذلك لم تسفر عملية تفتيش مكتب **مارشال**، ومنـــزله، عن اكتشاف وجود مسدس فيهما.

ركبت سيارتي بأنفاس متقطعة. أدرت مفتاح التشغيل. تردّدت قليلاً.

هل أتوجّه إلى جزيرة النخيل؟ أم هل يجدر بي أن أقصد **غوليت**؟

هـــل من الأفضل لي أن أتوجّه إلى طريق كليمنتس فيري؟ أم إلى حيث يقبع **تايبـــي**؟

أعرف أن **تايبـــي** الآن في خطرٍ شديد.

كـــم عدد الأشخاص الذين قتلهم **مارشال**؟ وإذا أخطأ **تايبـــي** بإلقاء القبض علـــى **شورتر** فلن يتردّد **مارشال** لحظةً واحدة بقتله هو الآخر. أعرف أن **تايبـــي** هـــو الأكثر تعرضاً للوقوع ضحية المفاجأة، لأنه من السهل جداً اكتشاف سيارة الكروزر التي يستخدمها، ولن يكون **تايبـــي** مستعداً لردّ اعتداءٍ عليه.

اتـــصلت بدائرة الشريف بأصابع مرتعشة. ردّت عليّ نفس الموظفة كما في المرة الأولى. أعطيتها اسمي. بدأت الموظفة بالكلام. أوقفتها قبل أن تكمل عبارتها، وطلبت منها أن تخبر **غوليت وتايبـــي** أن اتصالهما بي هو أمر ضروري جداً.

"لا نستطيع الاتصال بالشريف **غوليت**، وبالمساعد **تايبـــي** في الوقت الحاضر".

"اتـــصلي به باللاسلكي، أو بالهاتف، أو عن طريق الحمام الزاجل. أريدك أن توصلي رسالتي إليهما بأية طريقة تشائين".

سمعت شهيقاً عميقاً.

"يُحتمل أن يتعرض المساعد **تايبـــي** لخطرٍ شديد".

قطعت الاتصال.

مـــاذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟ كان **غوليت** جازماً بشأن عدم تواجدي أثـــناء عملية اعتقال **دنيالز**، وحتى أنه لم يُعلمني عن مكان وجوده. أعرف أن **تايبـــي**

سيكون عند المدرج في هذا الوقت، لكنني لا أعرف مكان وجود هذا المدرج. لم يتبقَّ أمامي سوى الانتظار في المنـــزل. أنا متأكدة من أن أحد الرجلين سيتّصل بي قريباً.

نـــسيت ترك أحد المصابيح الكهربائية مضاءً في المنـــزل. وجدت أن الظلام يلفّ منـــزل **البحر على امتداد أميال**، بالرغم من أن قمراً غير مكتمل قد أضفى وهجاً خافتاً على الجدران الخارجية، وبدا وكأنه صادر عن مصباح باهت.

نبح **بويد ما** إن أدرت المفتاح، ثم أخذ يثب في دوائر حولي. وضعت حقيبتي الشخصية على الأرض، وتوجّهت مباشرة نحو هاتف المنـــزل. لم ترد أية رسائل.

بدا المكان مخيفاً. غاب عنه **بيتي، ورايان**. هناك الكثير من الغرف، والكثير من الهـــدوء الـــذي يخيّم على شخص وحيد. شكرت الله على وجود الكلب والهر. مسّدت الحيوانين كلٌّ بدوره.

شـــغّلت التلفاز، وشاهدت برنامج الأخبار الرئيسية ***هيد لاينـــز نيوز*** لفترة قـــصيرة، لكنني لم أستطع التركيز ذهنياً على هذا البرنامج. لماذا لم يتّصل **غوليت وتايبـــــي**؟ قلقت لوجود **مارشال ودنيالز** طليقين، وأيضاً لأن مساعدي الشريف يجدّون في أثر الرجل الخاطئ. ويُحتمل أن يكون القاتل يجهّز نفسه ليضرب مجدداً، وهنا يكمن مدى الإلحاح في هذه المسألة.

هل هناك فعلاً إلحاح في الموضوع؟

وجّهـــت الاتهامـــات ضد **مارشال**، واستُدعي للتحقيق، ثم أُطلق بكفالة (أو بـــسند إقامة). أعرف أن ظهور دليل إضافي ضده لن يتسبّب بتوقيفه مجدداً. يبقى الإلحـــاح بإلغاء عملية اعتقال **دنيالز**. تساءلت عمّا سيحصل إذا ما حاول الفرار، وجُـــرح في محاولته هذه؟ وما هي الفائدة التي سيجنيها محامي **مارشال**، في المؤتمر الصحفي، من عملية توقيف **دنيالز**؟

ليتّصل أحدهما. اللعنة. ليتّصل أحدهما الآن!

شـــعرت بقلـــق عميق، فتناولت هاتفي الخلوي، وزجاجة كوك للحمية، ثم مـــشيت صوب الشاطئ. عبّر **بويد** عن سخطه لأنني أقفلت الباب بوجهه، فانطلق يخدشه بغضب، لكنني لم أرغب بفقدان أثره في العتمة المخيّمة.

وجـــدت المـــدّ مرتفعاً، وهذا ما ترك مساحةً قليلة ما بين الرمال وحافة مياه المحـــيط. لم أشاهد مشاةً يسيرون بتثاقل فوق الزبد الأبيض للأمواج في هذا الوقت المتأخر من المساء. تناولت كرسي بحرٍ من الغرفة القريبة من البحر، وحملته إلى حافة المياه.

اســـترخيت في جلستي، ووضعت أصابع قدمي في الرمال، وبدأت بارتشاف مـــشروبي، ثم قبعت أنتظر وصول الاتصال. شاهدت انعكاس ضوء القمر يتراقص فـــوق الأمواج مشكّلاً أنماطاً متنوعة. أبعدت الرياح المياه عن حدودها. بدا الجو مسكّناً ومهدئاً. بدأت بالاسترخاء، أو كدت أسترخي.

تذكّـــرت **بيتي ورايان**، **ورايان وبيتي**. لماذا هذا التناقض الذي يفرض نفسه بيـــنهما؟ بدأت تطفو داخلي مشاعر خلتُ أنني نسيتها، مسببةً القلق في نفسي. إنه أمـــرٌ غـــريب ومفاجئ، لكنه لم يستدعِ أي إجراءٍ من جانبي. هل سيستمرّ القلق بالسيطرة عليّ؟ سأنتظر وأرى.

اقتـــرب مـــن جهـــة اليسار رجل يسير وحده. نظرت نحوه بطريقة عفوية. لاحظـــت أن الرجل يرتدي بلوزة ذات قبعة. إنه أمر غريب في هذه الليلة الباردة. لفتني جسده المفتول العضلات. انحرف الرجل كي يمرّ ما بين الكرسي الذي أجلس عليه، والرمال.

شعرت بالاختناق فجأة. تطاير من بين يديّ جهاز الهاتف، وعلبة الكوك.

صُدمت للسرعة التي تحرّك الرجل بها، وبقوته الجسدية أيضاً.

أمسكت بعنقي. رحت ألهث، وبالكاد استطعت الكلام.

جاءت كلمتي أقرب إلى الهمس: "توقّف!"

هـــسهس صـــوت سمعـــته من قبل: "تمتّعي بالمنظر أيتها المغرورة، والعاهرة المتطفلة. إنه آخر مشهد سترينه في حياتك".

يائسةً، رحت أخدش لحمي بيدي.

"حاول **فلين وكروكشنك** الإيقاع بي، فعالجت أمرهما، لكنك تطفلتِ على أمـــور لا تخـــصّك، ودمّـــرتِ عملي. إنني أقدم خدمة قيّمة. إنني آخذ القليل من الأعضاء السليمة الموجودة عند أشخاصٍ متشردين لا قيمة لهم، ثم أرسلها إلى حيث

يعــرفون كــيف يــستخدمونها بطريقةٍ أفضل. إنني آسف لأنني لا أستطيع انتزاع أعضائك".

تــزايدت قوة ذلك الشيء الملتف حول عنقي. عجزت عن التنفس. عجزت عن الصراخ، وسيطرت غشاوة على بصري.

"تسببتِ لي بأذى كبير. حان وقت الانتقام يا دكتورة **برينان**. قولي وداعاً".

دخلــت كلماته بصعوبة في ذهني المعذّب. شعرت أن رئتيّ تحترقان، وراحت كل خلية من خلايا جسمي تصرخ طلباً للهواء. بدأ العالم بالتلاشي بالنسبة لي.

كافحي!

انــدفعت بكل ما تبقى لي من قوة إلى الأعلى والخلف. أصاب رأسي المندفع أسفل ذقنه، وتسبّبت حركتي هذه بدفعه إلى الوراء. استرخت قبضته عن عنقي.

اندفعت نحو المياه، وحاولت الغطس في الأمواج. أمسك الرجل بخصلةٍ كثيفة من شعري فأرجعني إلى الخلف.

فقــدت تــوازني وسقطت أرضاً، وامتدت رجلاي إلى الأمام. لم أتمكن من الــتقلب إلى أيــة جهــة لأن اليد التي أمسكت شعري دفعتني إلى الأسفل بقوة، فضغطت ذقني على صدري. توجّهت اليد الأخرى نحو رقبتي.

تــركتني اليدان لسبب غامض. جهدت لأقف لكن ركبتيّ لم تحملاني. خفّ الــضغط علــى رقــبتي، ثم ما لبثت أن سمعت صوتاً ثانياً. سبق لي أن سمعت هذا الصوت أيضاً.

"أوقعِ بي بسبب هذه، أيها اللقيط المجنون".

عصفت الدماء في أذنيّ، أم أنه صوت الموج يا ترى؟

رفعت رأسي بما يكفي لأشاهد **كوري دنيالز**، ولاحظت يده اليسرى الهائلة في الــتفافها حــول عنق **مارشال**، وشاهدت ذراعه اليمنى تمسك بذراع **مارشال** بإحكامٍ خلف ظهره. تلوّى وجه **مارشال** من الألم.

وشعرت بالسرور لهذا الوضع.

40

انكسرت الحرارة التي تميّزت بها ليلة السبت، وبدأ يوم آخر من صباحات أيام الآحاد الرائعة التي تتميّز بها هذه المناطق المنخفضة. جلستُ وبيتي في الغرفة القريبة من البحر، وانصرفنا لتقليب صفحات الجرائد التي استطعت شراءها من متجر هذه الجزيرة الذي يدعى ***الأحمر والأبيض***.

عبَــر ظــلٌ بطيء الحركة صفحة الرياضة في جريدة ***شارلوت أوبزرفر*** أثناء تركيــزي عليها. تطلّعت نحو السماء فرأيت فوق رأسي مجموعة من طيور البجع تنساب في الهواء على شكل حرف V.

ســكبت كوباً آخر من وعاء القهوة العازل للحرارة، ووضعت قدمي فوق الــسياج، ورحــت أستطلع المنطقة المحيطة بي. شاهدت مياه الأمواج تتراجع أمام الــرمال، فأفــسحت المجــال مع تراجع كل موجة لمساحات جديدة تضاف إلى الــشاطئ. تراقصت طائرات ورقية صغيرة في سماء الجانب الجنوبي الغربي من أفق جزيــرة ســوليفان. وصدحت الطيور بأصوات تغريدها الصباحية، فوق الأشجار الكثيفة المحيطة بالطريق الواسعة.

أخــبرني **بــيتي** في مساء اليوم الفائت، أي عندما كنّا في طريق عودتنا من مستشفى MUSC، أن أحد شركائه في مكتب المحاماة سيأتي يوم الاثنين ليأخذه إلى شــارلوت بسيارته. أضاف أن **بوك فلين** وأصدقاءه قد وظّفوا محاسبين من أجــل متابعة التدقيق في حسابات **أوبري هيرون**. وصل **بيتي**، قبل إصابته، إلى

شكوك في أن تكون **كنيسة رحمة الله** تهدر أموال المتبرعين.

لم أجـــادل بشأن خطة **بيتي**. سررت لأن ذلك المثقف القادم من لاتفيا يتعافى بسرعة. أعلم أنه متلهف للعودة إلى زبائنه.

تحـــدّثت هاتفياً مع **تيم لارابي**، وهو الطبيب المعتمد في مقاطعة ماكلينبيرغ، ومع **بيار لامانش**، وهو رئيس قسم الطب الشرعي في مونتريال. علمت منهما أن مركـــز شارلوت استلم جمجمةً وطفلين رضيعين محنطين. علمت أيضاً أن هيكلين عظميين غير كاملين قد وصلا إلى مختبرات LSJML. أكّد لي الطبيبان أنه بالإمكان تأجيل القضيتين، وسمحا لي بالبقاء في تشارلستون كي أكون إلى جانب **إيما**.

ولكي أنجز مهمةً أخيرة.

أوشكت على فتح صحيفة ***أتلانتا جورنال – كونستيوشن***، عندما سمعت، وشـــعرت، بوقع خطوات فوق الممر الخشبي. استدرت لأرى **غوليت** يتّجه نحونا. وضـــع الرجل نظارة راي – بانـــز، وارتدى سروالاً كاكياً، وقميص جينـــز من دون أن يُـــدرز علـــيها الاسم. افترضت أن هذه هي الملابس المدنية التي اختارها الشريف لهذا اليوم.

أومأ **غوليت** باتجاه **بيتي**، ثم باتجاهي: "صباح الخير".

أجبتُه و**بيتي** في وقتٍ واحد: "صباح الخير".

جلس **غوليت** على مقعد في الغرفة المجاورة للبحر: "سررت لرؤيتك تتحسّن يا سيدي".

نقر **بيتي** على وعاء القهوة العازل للحرارة: "إنني أتحسّن فعلاً. أتريد قهوة؟"

"شكراً لك. لا".

مدّ **غوليت** قدميه إلى الأمام، وأسند ذراعيه المفتولتين بالعضلات فوق فخذيه الضخمتين: "أجريت حديثاً ممتعاً مع **ديكي دوبري**. يبدو أن ديكي يوظّف رجلاً يتمـــتّع بطمـــوح كبير، لكن بقدرة عقلية محدودة. يدعى الرجل **جورج لاينيارد**.

اســـتدار **غوليت** نحوي وقال: "قرأ **ديكي** نسخته من التقرير الذي أرسلته إلى عالِم آثـــار الولاية، فاستشاط غضباً. أساء **لاينيارد** تفسير ملاحظات رئيسه بشأن سلخ جلدك. إنني أكرّر هنا التعبير الذي استخدمه الرجل".

لم أستطع منع الاشمئزاز الذي شعرت به من التأثير على صوتي: "هل ظن **لاينيارد** أن على شخصٍ ما أن يطلق النار عليّ؟"

"ليس إطلاق النار عليك بالتحديد، بل بمضايقتك. اعترف **لاينيارد** بإلقاء زجاجة شراب الشعير على صندوق النفايات، وبإطلاق النار على المنزل. يقول الرجل إنه لم يقصد إيذاء أي شخص". وجّه **غوليت** نظارة الراي بانز باتجاه **بيتي**: "دخلت أنت إلى المطبخ في توقيت غير مناسب".

سألته: "ألم يتورّط **ديكي** شخصياً في هذا العمل؟"

"جنّ جنون **دوبري** عندما أطلقت سراح **لاينيارد**. ظننت لوهلة أنني سأشهد جريمة أخرى في المكان". أخذ **غوليت** نَفَساً عميقاً، ثم أخرجه: "إنني أصدقه. يتعدى الرجل حدود اللياقة بين وقتٍ وآخر، لكنه ليس مجرماً".

لم يبدِ **بيتي** أي اهتمام بشأن **لاينيارد**، بل سأل: "وماذا حدث مع **مارشال**؟"

"توصّل المدعي العام إلى عقد صفقة معه. يقوم **مارشال** بإعطاء اسم كل ضحية من ضحاياه وموقع وجودها، وتوافق الولاية في المقابل على عدم إعدامه".

قلت مستهجنةً وساخرةً: "يتعيّن على الولاية أن تنتزع منه كليةً، ورئةً، واحدةً على الأقل".

لمحت ما يشبه شبح ابتسامة على شفتَي **غوليت**: "سأمرّر اقتراحك هذا. أتوقع أن يقبل المسؤولون هذا الاقتراح، لكنني أشك في أن يأخذوا به".

سأل **بيتي**: "هل بدأ بالكلام؟"

"إنه يتكلّم مثلما يتحدّث مراهق في هاتفه الخلوي".

سبق لي أن علمت بما حدث، لأن **غوليت** اتصل بي بعد تسليم **مارشال** إلى المدعي العام صبيحة يوم الأحد. شعرت بمزيج اعتدت عليه من الحزن والغضب، وذلك عندما فكّرت في المجزرة التي ارتكبها هذا الرجل.

ارتكب **مارشال** جريمته الأولى في صيف عام 2001، وكانت ضحيته مومساً تدعى **كوكي غودين**. قُتل **ويلي ويليامز** في شهر أيلول (سبتمبر) من ذلك العام. دُفنت الجثتان في جزيرة دي ويز، لكن من دون الكلى والكبدين.

عرف **مارشال** بسجّل **كوري دنيالز**، فوظّفه بعد ارتكابه لجريمته الأولى لهذا السبب. خطّط **مارشال** منذ البداية لزرع بعض الدلائل التي تحرف الشكوك باتجاه **دنيالـــز**، وذلك تحسباً لتورّط **كنيسة رحمة الله** في يوم من الأيام. تبيّن له أن حفر القـــبور هو عمل جسدي شاق، كما اكتشف أنه لا يحبه. اكتسب **مارشال** جرأة أكـــبر حـــين لم يلاحظ أحد اختفاء **غودين وهيلمز**، فغيّر طريقته بالتخلص من الجثث، من دفنها في قبر ضحل إلى دفنها في البحر.

قتل **مارشال روز ماري مون وإثريدج باركر** في عام 2002، وقتل **روبي آن واتلي** في عام 2003، ثم قتل **دانيال سنايب ولوني آيكمان** في عام 2004، أما آخر ضـــحيتين له فكانا **أونيغ مونتاغيو، وجيمي راي تيل**. وجد المدعي العام أنه من الصعب أن تأتي الصدف بعاصفة، مثل التي جلبت البرميل الذي ضمّ **مونتاغيو** نحو الممر المائي للأخوين مولتري، وتؤدّي إلى الكشف عن بقايا ضحايا آخرين.

اكتـــشفت أنني على حق في ما يتعلّق **بهيلين فلين ونوبل كروكشنك**. بدأت **فلـــين** العمـــل في **كنيسة رحمة الله** في عام 2003. وتأكّدنا أن الشكوك التي أبدتها حـــيال الأمـــور المالية هي التي أثارت عدم ثقتها في مجريات أمور العمل. لم تدرك **هـــيلين** أن **كنيـــسة رحمـــة الله** لا تقدم إلا أدنى حدّ من التمويل للعيادة، ولذلك انـــزعجت مـــن التـــناقض ما بين حالة العيادة في ناسو، وبين مستوى معيشة **مارشـــال**. أرادت **هيلين** التأكد من شكوكها، وهكذا بدأت بالتطفل على الحياة الشخـــصية للطبـــيب. لم تستطع **هيلين** الحصول على دليل يؤكد إساءة استخدام الأموال، لذلك اشتكت لوالدها **ولهيرون**.

اكتشف **مارشال** أن **هيلين** تراقبه، فخنقها لأنه خشي أن تتوصل إلى الحقيقة، ثم رمـــى جثـــتها في مياه المحيط. أرسل **مارشال** مفتاح شقتها مع قيمة الإيجار إلى صـــاحبة الشقة، ثم لفّق قصة انتقالها إلى كاليفورنيا. وشاءت سخرية الأقدار أن لا تعرف **هيلين** أبداً بالجرائم التي اقترفها **مارشال**، أو سرقة الأعضاء البشرية التي أقدم عليها.

تـــوجّب الـــتخلص من **كروكشنك** أيضاً، لكنه كان محققاً خاصاً، وشرطياً سابقاً، كما أن **بوك فلين** زبونه. توجّب أيضاً وضع خطة أكثر إحكاماً، لأن هناك

أشخاصاً سيفتقدونه. تفحّص **مارشال** سجّل **كروكشنك**، فاختار اللجوء إلى خدعة الشنق، لكنّ آليالها بدت صعبة.

قلتُ: "أشعر بالفضول لأن **كروكشنك** لم يكن ضخماً، لكنه كان قوياً بما يكفي. كيف تمكّن **مارشال** من التغلب عليه؟"

"تتبع **مارشال كروكشنك** حتى ماغنوليا مانور، وبدأ بملاحقته عند خروجه في المساء. اكتشف **مارشال** أن **كروكشنك** يحبّ احتساء الشراب، وأن حانة ***ليتل لونا*** هي إحدى أماكنه المفضلة.

لاحظ **مارشال** عندما تواجد في إحدى الليالي في حانة ليتل لونا أن **كروكشنك** أفرط في الشرب. توجّه **مارشال** إلى هاتف عمومي يتواجد قرب مدخل الحانة، واتّصل بها. أعطى **مارشال** أوصاف **كروكشنك** لموظف الحانة الذي ردّ عليه، وسأل إن كان موجوداً في الحانة.

استدعى موظف الحانة **كروكشنك** كي يتحدّث في الهاتف. عرّف **مارشال** عن نفسه باعتباره **دنيالز**، وقال إنه يمتلك معلومات مهمة عن **هيلين فلين**، وعن العيادة. وافق **مارشال** على لقاء **كروكشانك** في ماغنوليا مانور.

وجد **كروكشنك** نفسه في عجلة من أمره ليصل إلى مكان اللقاء بحيث إنه تناول سترةً غير سترته في طريق خروجه.

هذا ما حدث بالضبط، وكان يحمل مفاتيح سيارته في جيب سرواله، وهكذا لم يلاحظ أن السترة ليست له. قاد **كروكشنك** سيارته بعصبية كبيرة بحيث خشي **مارشال** أنه سيتعرض لحادث قبل وصوله إلى منزله. لم يخدم الحظ **كروكشنك** في هذا الوقت.

وجد **كروكشنك** صعوبة في إيجاد مكان لإيقاف سيارته، وهكذا توفر **لمارشال** وقت كاف ليستطلع المكان خلال اقترابه من ضحيته. واعتاد **مارشال** حمل أنشوطتهً السلكّية في مثل هذه المهمات، وذلك تحسباً لفرصة تسنح فجأة لارتكاب جريمة.

تعثّر **كروكشنك** في محاولته إقفال أبواب سيارته. لم يلحظ **مارشال** وجود أي شخصٍ في الجوار، بالإضافة إلى أن الشارع كان معتماً. قفز **مارشال** إلى خلف

كروكـــشنك مباشرة، ووضع الأنشوطة حول رأسه قبل أن يتمكن من الإحساس بالخطر".

"لكن، كيف تمكّن من إحضار الجثة إلى محمية الغابة؟"

"أسدل **مارشال** إحدى ذراعَي **كروكشنك** حول رقبته، ووضع ذراعه هو حول خصر **كروكشنك**. بدا منظرهما وكأن أحدهما يجرّ رفيقه السكير إلى منـــزله، وذلك في حال رآهما أحد الأشخاص. تمكّن **مارشال** بعد ذلك من المناورة بإدخال الجثة إلى المقعـــد الأمامي لسيارته، ثم قاد السيارة بعيداً. مرّ **مارشال** بموقف سيارات معتم تابع للكنيسة، وهكذا أوقف سيارته هناك، ونقل الجثة إلى الصندوق.

بعـــد ذلـــك تـــوجّه إلى منـــزله، وتناول حبلين، ثم توجّه بالسيارة إلى غابة فرانسيس ماريون. أوقف **مارشال** السيارة في نفس المكان الذي وُجدت الجثة فيه. نقل **مارشال كروكشنك** من صندوق السيارة، وجرّه أرضاً إلى الغابة. وصل المجرم إلى الـــشجرة، فربط حبلاً تحت إبطَي **كروكشنك**، وألقى الحبل الآخر فوق فرع الشجرة، ثم رفع الجثة حتى ارتفعت قدماه عن الأرض. أحضر **مارشال** سلماً قابلاً للطـــي وجـــرّ الجثة عليه، ثم استخدم هذا السلّم كي يثبّت حبلاً ثانياً حول رقبة **كروكـــشنك** ويربطه حول فرع الشجرة. عمد **مارشال** بعد ذلك إلى قطع الحبل المربوط حول الجذع، ثم سحب السلم، وغادر المكان".

"وماذا حدث لسيارة **كروكشنك**؟"

"أخـــذ **مارشال** مفاتيح سيارة **كروكشنك** بعدما انتهى من خنقه. أعتقد أن **مارشال** دُهش كثيراً عندما وجد محفظة تحمل اسم رجل آخر، لكنه قرّر أخيراً أنه عثـــر على الرجل المطلوب، لكن السترة ليست سترة ذلك الرجل. نظر المجرم إلى هـــذا الأمر وكأنه فأل حسن. قاد **مارشال** سيارة **كروكشنك** إلى المطار في اليوم التالي لخنقه، وأوقفها في المكان المخصص لإيقاف السيارات لفترات طويلة. وضع **مارشال** لوحات تسجيل السيارة التي انتزعها في حقيبة يد. استأجر سيارة أجرة من المطار ليعود إلى المدينة. ونقلت الشرطة السيارة، بعد مرور شهر على إيقافها، إلى موقف مخصّص للسيارات التي تخلّى عنها أصحابها. أعتقد أن **مارشال** اعتبر نفسه، في ذلك الوقت، الرجل الذي لا يُقهر".

سأل **بيتي**: "وماذا حصل ليلة الجمعة؟"

أشـــار **غوليت** إلى طريق بعيد نسبياً عن المنـــزل: "وصل **مارشال** إلى المحيط باستخدام ذلك الطريق العام، وأراد الوصول إلى منـــزلك من الشاطئ. تستطيع أن تتصوّر سروره عندما رأى الدكتورة **برينان** جالسة فوق الرمال".

ارتفعت يدي بصورة لا شعورية نحو عنقي، وتفحّصت الندبة التي أسماها **بيتي** *قلادتي الطبيعية*: "لماذا كان **دنيالز** يلاحق **مارشال؟**"

"لم تكـــن تجـــارب **دنيالز** مع القوى الأمنية بالمرضية بالنسبة إليه. إنه يشكّ برجال الشرطة على الدوام، كما أنه شكّ في أن **مارشال** يحاول الإيقاع به، ولذلك قـــرّر أن يجمـــع الأدلة بنفسه. صمّم الرجل على ملاحقة **مارشال** حتى يجد برهاناً قاطعاً يدلّ على قذارة الرجل".

"لماذا لم يستخدم **دنيالز** سيارته؟"

"تـــصوّر أن **مارشـــال** ســـيتعرّف عليها. تحتفظ الآنسة **هَني** بسيارة في بر الجزيرة، وهكذا استخدم **دنيالز** سيارتها، وترك سيارته عند رصيف الرسو".

لم يفارقني الشعور بفظاعة الحادث: "ألم يشكّ **دنيالز** بشيء قبل القبض على **مارشال**، وقبل خضوعه للاستجواب؟"

"ســـبق أن قلت لك إن الرجل يتمتع بمعدل ذكاء محدود، سواء أكان ممرضاً مسجلاً في النقابة، أم لا".

"لماذا كان عدائياً جداً عند إجراء المقابلة معه؟"

هزّ **غوليت** كتفيه: "إنه يكره رجال الشرطة".

"وماذا بشأن **هيرون** وأصحابه في **كنيسة رحمة الله؟**"

هزّ **غوليت** رأسه: "يتمتّع **مارشال** باستقلالية كاملة بإدارة العيادة طالما يتقيّد بالمـــوازنة المخصصة له. يبدو أن العاملين في العيادة لم يعرفوا شيئاً عن الأشياء التي يقوم بها زميلهم الطبيب".

سبق لي أن علمت أن طائرة السيسنا كانت قد اختفت عندما وصل **تايبـــي** لـــيلة الجمعـــة إلى ذلـــك المدرج، لذلك سألت **غوليت**: "وهل سمعتم شيئاً عن **شورتر؟**"

"تمكّنت دائرة شرطة لوبوك من إلقاء القبض عليه عند الساعة العاشرة والأربعين دقيقة من مساء البارحة. وقدمت إلى هنا لأخبرك بهذا".

سألت: "هل طار **شورتر** إلى تكساس؟"

"تعيش صديقته السابقة في لوبوك".

سأل **بيتي**: "وهل يتعاون مع التحقيق؟"

هزّ **غوليت** راحَتي يديه علامة على لا *بأس*: "يدّعي شورتر أنه يشغّل رحلات عارضة ومستأجرة بصورة قانونية. يعترف الرجل أنه يقوم بنقل حمولة لصالح **مارشال**، لكنه ينكر أية معرفة له بطبيعة هذه الحمولات. أضاف أن **مارشال** اعتاد أن يتّصل قبل يوم، أو يومين، بشكل مسبق، ثم يُحضر براداً إلى المطار في وقت يتّفقان عليه. اعتاد **شورتر** أن يطير إلى المكسيك، ويحطّ بالطائرة في صحراء تقع خارج بويرتو فالارت، حيث يسلّم البراد إلى رجل مكسيكي يدعى **خورخي**. اعتاد **مارشال** أن يدفع مبلغ عشرة آلاف دولار نقداً مقابل كل رحلة. ويقول **شورتر** إنه لم يعتد على طرح الأسئلة".

"ولماذا هروبه يوم الخميس؟"

"يقول **شورتر** إن إلقاء القبض على **مارشال** قد أخافه، وخصوصاً بسبب مشكلاته القانونية السابقة التي علق بها".

بقينا صامتين للحظة من الوقت بسبب تأملنا بما قيل. بادرت إلى الكلام.

"إذا أخذنا سجّل **شورتر** بعين الاعتبار، أعتقد أن **شورتر** كان ينقل الأعضاء البشرية من تشارلستون إلى المكسيك، ثم يعود بالمخدرات إلى الولايات المتحدة".

"إن شرطة لوبوك تستعرض هذا الاحتمال، ولهذا فإنها تنسّق مع السلطات الاتحادية. تقوم السلطات الآن بتفتيش الطائرة. أعتقد أنه لو أقدم **شورتر** على إزالة وصلة واحدة من طرف أي جناح، فإنه سيتعرّض للإدانة. وأعتقد أيضاً أن روايته ضعيفة. وجدت السلطات دليلاً على أن ذيل الطائرة قد أعيد طلاؤه عدة مرات، ويدلّ ذلك على احتمال وضع أرقام تسجيل مزيفة عند استخدام الطائرة في عمليات غير شرعية. ولا تمتلك السلطات المكسيكية أي سجلات تدلّ على دخول الطائرة للمجال الجوي المكسيكي".

ســـأل **بيتي**: "هل أعطى **مارشال** معلومات حول ماذا كان يجري على الجهة الأخرى؟"

"اعتاد **مارشال** على الاتصال **برودريغز** عندما يجد مريضاً يتردّد على العيادة، وفي نفـــس الوقت يناسب متطلبات أحد زبائن **رودريغز**. كانت الضحية شخصاً متشرداً على الدوام، أو شخصاً لا يلاحظ أحد اختفاءه".

"عـــندها يـــسارع **رودريغـــز** الموجود عند الطرف المكسيكي إلى الاتصال بالشخص المتلقّي، والذي يستقلّ طائرة إلى بويرتو فالارتا. ينفّذ **مارشال** ضربته في تشارلستون، ويقوم **شورتر** بنقل العضو المنتزع ليلاً باتجاه الجنوب".

قال **بيتي**: "وكيف استطاع **مارشال** ضمان تعاون **شورتر** معه؟"

"يعيش **شورتر** في نفس المجمّع السكني الذي يعيش فيه **دنيالز**. اعتاد الرجلان علـــى شرب شراب الشعير معاً، وتبادل أخبارهما. ويبدو أن **دنيالز** روى **لمارشال** شـــيئاً عن ماضي **شورتر**، أو أن **مارشال** قد سمع **دنيالز** وهو يتحدّث عن طيار له ســـوابق. بـــدا **شورتر**، على أية حال، مرشحاً مناسباً ليعاونه على تنفيذ مشروع جديـــد له. يبدو أن **مارشال** بحث عن الرجل، وألقى الطعم بوجهه، وهكذا وقع **شورتر** في الفخ الذي نُصب له".

"ألم يعلم **دنيالز** أن جاره ينقل شحنات لصالح رئيسه؟"

"لم يمتلك الرجل أية فكرة عن هذا الموضوع".

سألت: "ما هي الأشياء التي يعلمها **شورتر** بالفعل برأيك؟"

"تـــتوافق رواية **مارشال** كثيراً مع زعم **شورتر** بأنه كان مجرد ساعٍ. ويقول الرجل إن **شورتر** لم يسأل أبداً عن محتويات الأوعية المبردة".

قلتُ: "حسناً. إذاً لم يشكّ ذلك الطيار الشريف أنه ينقل سلعاً ممنوعة".

هزّ **غوليت** كتفيه: "يشتري مبلغ عشرة آلاف دولار الكثير من عدم الاكتراث".

"ومـــاذا بـــشأن **رودريغز**؟ هل كان من ضمن حلقة الحصول على الأعضاء البشرية التي يديرها **مارشال**؟"

"أدار الاثـــنان عملاً ناجحاً. يقول **مارشال** إنهما اشتركا بالتخطيط معاً منذ عام خمسةٍ وتسعين".

"تخـــرّج **رودريغـــز** و**مارشال** من المعهد الطبي في عام واحد وثمانين. كيف اجتمعا ثانيةً؟"

"حـــافظ الرجلان على الاتصال فيما بينهما. علم **مارشال** بعد خروجه من المستشفى في عام واحد وتسعين، أن زميله القديم أصبح طبيباً غير مرموق في مهنته هو الآخر. اتصّل **مارشال** بالطبيب غير الشريف الوحيد الذي يعرفه، ثم توجّه إلى المكـــسيك. مضت عدة سنين على عمل **رودريغز** في ذلك المنتجع الرياضي، كما أنـــه أدار إلى جانب عمله عيادة صغيرة خاصة به. تعاون الرجلان على إنجاز عملٍ إثـــر آخر، إلى أن توصّلا إلى عملٍ يدرّ عليهما الكثير من الأرباح من دون مخاطرة كـــبيرة. اتفّق الرجلان على أن يحصرا عملهما كل سنة بمتبرعين لا يلاحظ غيابهم أحـــد، وأن يتقاضـــيا مبلغاً يتراوح ما بين مئة ألف، ومئتي ألف دولار عن العضو البشري الواحد، وأن يبقيا في الظل بقية الأوقات".

"يبقـــى الـــسؤال الوحـــيد عن مكان ممارسة **مارشال** للجزء المتعلّق به من المـــشروع. جـــاء حـــلّ هـــذه المعضلة عندما فتحت **كنيسة رحمة الله** عيادتها في تشارلستون. لم تتشدّد الكنيسة في مستوى المؤهلات التي طلبتها بالنظر إلى الراتب الـــضئيل الذي تعرضه. استطاع **مارشال** إبراز وثائق مزورة، وحصل على إجازة لمـــزاولة مهـــنة الطـــب في كارولاينا الجنوبية. بدأ **رودريغز** في هذا الوقت بشراء معـــدات طبية مستعملة من حدودنا الجنوبية. تمكّن الرجلان من الانطلاق بمهنتهما بغضون سنوات قليلة".

سألتُ: "هل تمّ تحديد مكان وجود **رودريغز**؟"

"ليس بعد. لكن ***الشرطة الاتحادية*** ستنال منه".

"وبماذا ستتهمه؟"

"ما تزال السلطات المكسيكية تفكّر في هذا الأمر".

سيُنكر **رودريغز** معرفته بأمر الجرائم، وسيدّعي أنه تلقّى تأكيدات بأن عملية الحصول على هذه الأعضاء كانت قانونية تماماً.

"يقـــول **مارشال** إن **رودريغز** هو الذي خطّط للعملية بكاملها. ويدّعي أيضاً أنه ليس المورّد الوحيد **لرودريغز**".

قلتُ: "اعترف **مارشال** بارتكابه إحدى عشرة جريمة. كيف يمكننا التأكد من عدم وجود ضحايا آخرين؟"

وجّه **غوليت** نظارة الراي بانــز نحوي: "هناك شيء ما في أعماقي يوحي لي بوجــود ضــحايا آخــرين. أعتقد أن **مارشال** أعطانا أسماء الضحايا التي نعرفها، وأضاف اسم غودين لتثبيت مصداقيته لدينا".

بقي أمران مصدر قلقٍ لي.

"يُعتــبر **مارشــال** شخصاً دقيقاً بشكلٍ صارم. فكيف يمكن أن يكون بهذا الإهمال بشأن تلك الصدفتين؟"

ارتسمت ملامح ابتسامة على شفتَي **غوليت** هذه المرة: "أعتقد أنه سيتأمّل في هــذه المــسألة تكراراً في السّنوات التالية. يقول **مارشال** إنه اشترى حقيبة ملأى بالأصــداف في الــيوم الذي قتل فيه **ويلي هيلمز**. أضاف أنه تمنّى أن يجد شيئاً ذا قيمة بين المجموعة. وقال الرجل إن أفضل تفسير يُمكن له التفكير فيه هو أن تكون إحــدى الأصــداف قد وجدت طريقها إلى ردن قميصه، أو إلى جيبه. أضاف أنه يُحــتمل أن يكون ذلك قد حدث في السوق، أو ربما في طريق عودته إلى العيادة. انتهت تلك الصَدَفَة أخيراً مع **هيلمز**. ويتذكّر **مارشال** أنه تفحّص الأصداف تحت المجهــر، ثم تركها في دُرْج طاولته لوقت قصير. وأضاف أن أحد الأشخاص لا بد وأن يكون قد مزّق العلبة التي تحتوي على الأصداف".

"وهكذا سقطت صَدَفة من ثياب **مارشال** على جثة **هيلمز**، وتسلّلت صَدَفة أخرى في إحدى تجاويف طاولة مكتبه. لم يلحظ **مارشال** أياً من هاتين الصدَفتين".

أومــأ **غوليت**: "أظهر **مارشال** صدمته أكثر من أي شخص آخر عند ظهور هــذه الكائــنات الصغيرة. تعيّن عليه إجراء تفكير سريع كي يُدخل عنصر إقحام الصدفتين في المشهد الذي اختلقه، والمتعلق بإيقاع **كوري دنيالز** به".

قال **بيتي**: "لكن وجود المحار (نوع من الرخويات) أفشل هذا المخطط".

عبّــرت عــن المسألة الثانية التي تشغل بالي: "من هو الشخص الذي اتّصل **بكروكشنك** من عيادة **مارشال**؟"

"**أوديل تاوري**".

"هل هو الرجل المسؤول عن التنظيف؟"

أومـــأ **غوليت**: "إن **تاوري** هو رجل بطيء الفهم، لكنه استطاع تذكّر هذه الـــواقعة لأنها حصلت خارج دوام عمله الرسمي. يقول الرجل إن **مارشال** قد أمره باستخدام هاتف عيادته في وقت محدد. أضاف أنه يتوقّع وصول مكالمة إلى عيادته، لكـــنه لن يستطيع إجراء المكالمة في ذلك الوقت. أمره **مارشال** أنه إذاً لم يردّ أحد فـــإن علـــيه أن يقطع الخط، ثم يسلم الورقة التي تحتوي على الرقم إلى **مارشال** في الـــيوم التالي. ويمتلك **مارشال** دليلاً على أنه كان في مكان آخر خارج عيادته في ذلك الوقت. وإذا ثارت ظلال الشك، فإن أقل ما ستفيد به تلك المكالمة هو إلقاء الغموض على صورة ما حدث، وتوجيه الشكوك نحو **دنيالز** في أفضل الحالات".

مرّت فترة صمت.

خفّض **غوليت** نظره نحو يديه: "علمت أن الآنسة **روسو** مريضة جداً".

شعرت بدوامة في رأسي، وقلت: "إنها كذلك".

علمـــتُ أن **إيمـــا** تعاني من الحمى عندما زرتها يوم الخميس. وصلت درجة حـــرارتها في ذلك اليوم إلى 102 (فهرنهايت)، وعانت أيضاً من تعرّق شديد، ومن غثيان قوي.

أمرت الدكتورة **رسل** بإدخال **إيما** إلى المستشفى لأنها شكّت بوجود التهابات عـــندها. اتصلتُ **بسارة بيرفيس** يوم السبت صباحاً. غادرت **سارة** على الفور إلى تشارلستون، بالرغم من أنها كانت قد وصلت للتو من رحلة لها إلى إيطاليا.

اســـتطعتُ و**إيما** إجراء أحاديث مطولة قبل وصول شقيقتها. رويت لها كل الأمـــور الـــتي حدثت منذ يوم الخميس. أبلغتني **إيما** أن المحقق الجنائي في مقاطعة بيركلـــي قد جزم أن وفاة **سوزي روث آيكمان** كانت طبيعية، وأنها نجمت عن أزمة قلبية حادة.

أخبرتني **إيما** بعد ذلك بقصّة حادثة السفينة السياحية.

توفّـــي مـــسافر أثناء وجود السفينة في عرض البحر. رست السفينة في ميناء تشارلستون، وأعطت أرملة الرجل الإذن بحرق جثته، ووقعت المستندات المطلوبة، ثم غـــادرت بـــصحبة جـــرة الرماد. ظهرت بعد ذلك امرأة أخرى في مكتب **إيما**

وادّعت أنها زوجة الرجل المتوفى، وطالبت بجثته. أظهرت الوثائق أن السيدة الثانية هـــي زوجـــة الرجل بالفعل. أضافت **إيما** أن دعاوى قضائية قد رُفعت بخصوص ترتيبات التخلص من رماد الرجل.

بلعـــت **إيمـــا** ريقهـــا، ولاحظت أنها تتعب من التحدث بسرعة: "ترك هذا المخـــادع وراءه امرأتين تتنازعان على بقاياه يا **تمب**. إنني أعتبر أن هذا الرجل هو من القلائل المحظوظين".

أحسست بارتعاش في صدري، وحاولت أن أُسكتها، لكنها تابعت الحديث.

"سأموت من دون أن يلاحظ أحد ذلك بالرغم من وجود أشخاص عديدين في حـــياتي. سيتذكّرني بعضهم، ولعلهم سيشتاقون إلي. أجهز **مارشال** و**رودريغز** على المشردين في هذا المجتمع. أجهزا على الذين يقبعون في الحضيض، وعلى الذين لا يحـــزن عليهم أحد. لم يبلّغ أحد عن اختفاء **كوكي غودين**، وكذلك الأمر مع **هيلمز** و**مونتاغيو**، وبفضلك أنت يا **تمب** تمّ التعرّف على جثتيهما".

عجـــزت عـــن الكلام فمسّدت شعر **إيما**، وتقطّعت أنفاسي، وكدت أنفجر بالنشيج.

تابع **غوليت** الكلام بعد فترة من تفكيره الحالم: "لا يبدو هذا عدلاً".

قلتُ موافقةً: "لا. لا يبدو هذا عادلاً".

"إنها امرأة رائعة وتتمتّع بمهنية حقيقية".

وقف **غوليت**. ووقفت بدوري.

"أعتقد أنه من الأفضل أن لا نتساءل، وأن لا نشكك بالقدَر الذي يفرضه الله على البشر".

لم أجد جواباً مناسباً لهذا الكلام، فامتنعتُ عن الرد.

"أنجزت عملاً عظيماً يا دكتورة. تعلّمت بعض الأشياء بعد أن عملت معك".

مدّ **غوليت** يده. فوجئتُ، لكنني صافحته.

أبلغت **غوليت** بآخر جزء مجهول من اللغز.

"لم يصدر التسرب من مكتبك أيها الشريف. عملت **لي آن ميلر** في المشرحة الـــتابعة لمستشفى MUSC. تبيّن أن المخبر الذي أفشى الخبر ***لوينبورن كان*** تقنيّاً

يعمل في المشرحة، وفي سنته الدراسية الثانية". سبق **لإيما** أن أبلغتني هذه المعلومات يوم السبت.

بـــدأ **غوليت** بالكلام، لكنني قاطعته. إنني لا أريد اعتذاراً منه إذا كان الرجل يريد تقديمه لي، لأنه اتهمني بعرقلة التحقيق.

قلـــت مؤكدة: "كان الرجل يعمل هناك، **لأن** ذلك السيد عاطل عن العمل حالياً".

فكّر **غوليت** برهة طويلة، ثم التفتَ نحو **بيتي**.

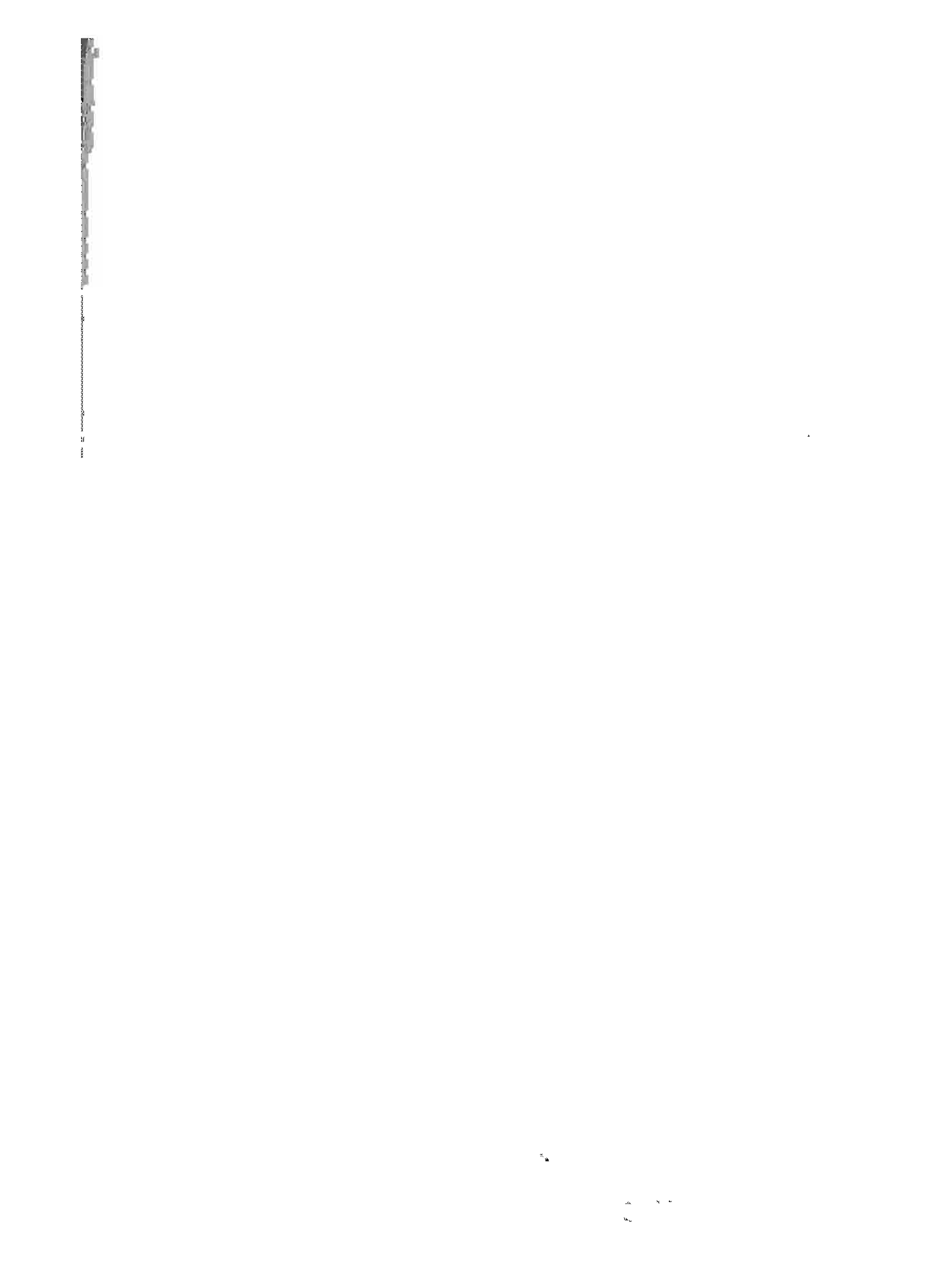
"أتمنّـــى لك كل خير يا سيدي. هل تريد أن تبقى على اطلاع بالنسبة للتهم الموجهة ضد **لانيارد**؟ أتوقّع أن يقدّم الرجل التماساً للعفو عنه".

"الأمـــر متـــروك لـــك أيها الشريف. إنني أقبل ما تقبله أنت والمدعي العام. تستطيع أن تبلغني بالنتيجة عندما ينتهي كل ذلك، هذا إذا لم يكن لديك مانع".

أومأ **غوليت**: "سأفعل".

اتّجه نحوي وقال: "أتناسبك الساعة السابعة صباحاً، يوم الثلاثاء؟"

قلت: "سأكون جاهزة".



خاتمة

تـــساقط رذاذ خفيف مع انبلاج الفجر، واستمرّ ذلك خلال الصباح. وتحوّل لـــون السماء من الأسود القاتم إلى الرمادي، ثم إلى اللون الرمادي الممتزج باللون الأزرق، لكن الشمس بقيت قرصاً بلون أبيض ملطخ.

وصلنا إلى جزيرة دي ويز عند الساعة الثامنة. وقفنا في غابة بحرية تبعد خمس يـــاردات عن الشاطئ الذي يغمره المد. راحت النسائم تعصف بأوراق الأشجار الملتمعة الرطبة. تساقطت قطرات الماء على الغطاء البلاستيكي حينما عرّضته للعراء بواســـطة المالج الذي حملته بيدي. قرقع حذاء **ميلر** الثقيل أثناء دورانها لتلقط صوراً لهذا المنظر الحزين بواسطة كاميرا "النيكون" التي تمتلكها.

وقف **غوليت** فوقي تماماً، ولاحظت أن وجهه خلا من كل انفعال. تلاعبت النسائم الشاردة بسترته المصنوعة من النايلون. راقب **مارشال** هذا المشهد من عربة الغولف، ولاحظت أنه وضع يديه المصفدتين بشكل متصالب، بينما وقف مساعد في الشرطة إلى جانبه.

خـــيّم جـــو مناسب من السكون المطبق على المكان، هذا إذا استثنينا المطر والرياح والكاميرا. إنه جو من المهابة والكآبة.

تمكـــنتُ و**ميلر**، من تحرير جثة **كوكي غودين** من مدفنها المؤقت عند حلول الظهيرة. تصاعدت رائحة كريهة في المكان، وتراجعت حشرات أم أربعة وأربعين إلى الظلمـــة عـــندما رفعنا تلك الحزمة الكئيبة، ثم عندما نقلناها إلى عربة الشحن المقفلة التي كانت بالانتظار.

رأيت **مارشال**، بطرف عيني، وهو يرفع يده ليغطي أنفه وفمه.

نهضت صباح يوم الجمعة، وارتديت تنورة بلون أزرق داكن، وبلوزة بيضاء، ثم قـــدتُ سيارتي نحو كنيسة مايكل المشيخية. تركت سيارتي في باحة السيارات،

ومشيت نحو سوق المدينة القديمة. رجعت إلى الكنيسة بعد أن اشتريت ما أريده.

فوجئت بحشد من الناس داخل الكنيسة فاق العدد الذي توقّعته. رأيت شقيقة **إيما**، **سارة برفيس**، شاحبةً وصامتة. وقف زوج **سارة** والأولاد إلى جانبها. رأيت **غوليت**، وعدداً من موظفيه. رأيت كذلك **لي آن ميلر**، والموظفين الذين عملوا مع **إيما** في مكتب المحقق الجنائي. تواجد أيضاً عشرات الناس الذين لا أعرفهم.

راقبت المشاركين في المأتم طيلة مراسم الصلاة، لكنني لم أشارك في الترتيل، أو في الصلوات. لم أفعل، لأنني أدرك أنني سأستغرق في البكاء إذا فتحت فمي.

وقفت في مكان يبعد قليلاً عن موقع القبر في الجبانة، وشاهدت التابوت عند إنـــــزاله، ثم رحت أراقب الحاضرين وهم يسيرون واحداً بعد الآخر لإلقاء حفنة من التراب فوقه. اقتربتُ بعد أن تفرّق الحشد.

وقفت لحظات طويلة فوق القبر، وانهمرت الدموع فوق خديّ.

شـــعرت أن رجفةً تخترق صدري، وقلتُ: "أنا هنا لأودّعك، أيتها الصديقة العزيزة. تعرفين أننا سنفتقدك كثيراً".

أسقطتُ، بأيدٍ مرتعشة، باقة الأزهار، وتلوت دعواتي، فوق تابوت **إيما**.

خـــيّم الظلام على نهار الجمعة. استلقيت لوحدي في سريري الموحش جداً، وغمـــرني الحزن والأسف لرحيل **إيما**. سيأتي الغد، وسأصطحب **بيردي** و**بويد** إلى شارلوت. سأشعر بحزنٍ لأنني سأغادر هذه المناطق المنخفضة. أعرف أنني سأشتاق لـــرائحة الـــصنوبر، ورائحة الأعشاب البحرية، والملح. سأشتاق إلى تعاقب أضواء الشمس والقمر على صفحة المياه.

أريد أن أساعد **بيتي** على التعافي فور عودتي إلى شارلوت. لم أستطع فعل ذلك مع **إيما**، وعجزت عن تحفيز خلاياها السليمة على طرد عناقيد الخلايا من جـــسدها، وهـــي الخلايـــا التي أودت بحياتها في نهاية الأمر. سأظل أفكّر بعدم إخـــلاص زوجي، ولن يفارقني تعلقي به، والذي أعجز عن فهمه. سأحاول أن أفـــصل ما بين هذه المشاعر وبين مشاعر الحنان التي أحدثتها ابنتنا التي هي جزء منه، مثلما هي جزء مني.

ستمـــضي عدة أسابيع قبل أن أوضّب حقائبي، وأقود سيارتي إلى المطار، ثم أســـتقلّ رحلـــتي المتوجهة إلى كندا. سأعبر عبر جمارك مونتريال، ثم أستقّل سيارة أجـــرة إلى شقتي في وسط المدينة. وسأتوجّه إلى مكان عملي في المختبرات في اليوم الـــتالي، وســـيكون **رايان** هناك، لكن مع وجود أحد عشر طابقاً نـــزولاً يفصلني عنه. من يدري ماذا سيحصل؟

أعرف شيئاً واحداً على وجه التأكيد، وهو أن **إيما** كانت محقة. قالت لي **إيما** إنـــه بغض النظر عمّا سيحصل في النهاية، فإنني سأعتبر نفسي من بين المحظوظين، فحياتي مليئة بالناس، الناس الذين يحبونني.



من الملفات العدلية
للدكتورة كاتي رايكس

أشعر أحياناً بحيرة كبيرة، لأن الحقل الذي أعمل فيه نال نصيبه من الشهرة بعد مرور سنوات من التجاهل.

اكتشفت عندما أنهيت دراساتي التي تخصّصت فيها، أن هناك القلائل من رجال الشرطة، أو المحققين، الذين سمعوا شيئاً عن الأنثروبولوجيا العدلية، أو علم الإنسان العدلي، وأن عدداً أقل من هؤلاء يطبقونه. علمت أيضاً أن المهنيين المختصين بتطبيق القانون والنظام لا يعرفون إلا القليل عن هذا العلم، أما عامة الناس فلا يعرفون شيئاً عنه.

تزايدت المعرفة بهذا العلم واستخداماته مع مرور السنين، لكن عدد الممارسين المجازين لهذا العلم، في أميركا الشمالية، يبقى قليلاً جداً. يقدّم هؤلاء استشارات للقوى الأمنية التي تطبّق القانون، وقضاة التحقيق، والأطباء الشرعيين، كما أن الجيش يوظّف عدداً منهم.

أصابتنا الشهرة، مع ذلك، بشكل مفاجئ. كثرت في البداية روايات الأدب الشعبي التي كتبها مؤلفون مثل، جيفيري ديفر، وباتريشيا كورنويل، وكارين سلاوتر، وبالطبع كاثي رايكس. وأتت المسلسلات التلفزيونية بعد ذلك، وأصبح علم الإنسان العدلي على كل شفة ولسان بعد مسلسلات مثل ***C.S.I***، الذي اجتذب ملايين المشاهدين. وانتشرت أيضاً مسلسلات مثل ***كولد كايس*** (قضية باردة)، ***ومن دون أثر***. وسبق أن ظهر في السبعينيات من القرن الماضي مسلسل ***كوينسي***، لكنّ الأنثروبولوجيا تألّقت الآن مع مسلسلات مثل ***عبور الأردن***، ***استجواب دافنشي***، ***وتشريح***. وينشغل عشرات العلماء في القنوات الفضائية الآن بالتطلع في المجاهر، وبالمحاكاة، وبحل الألغاز. وبرز أخيراً مسلسل ***بونز***، أو عظام (الذي يُعرض في هذه الأيام على قناة mbc 4 الفضائية).

يُعتبر مسلسل **بونز** أحدث مسلسل تلفزيوني جنائي، كما اشتهرت الشخصية البارزة في المسلسل **تمبرنس برينان**، وهي عالمة الأنثروبولوجيا الخيالية التي ابتكرتها في كتابي الأول **ديجا ديد** منذ عشر سنوات. تظهر **تمب**، في الحلقات الأولى من هذا المسلسل، في بداية مسيرتها المهنية، وتعمل لدى معهد جيفرسون، بالإضافة إلى العمل مع مكتب التحقيقات الفيدرالي. ولا يبتعد هذا الوضع عن واقع هذا المكتب الذي كان من بين أوائل المؤسسات التي اعترفت بقيمة الأنثروبولوجيا العدلية، وهو المكتب الذي استعان بالعلماء في المتحف السميثوني للمساعدة على حلّ الألغاز المتعلقة بالعظام، في وقت مبكر يعود إلى بداية القرن العشرين.

ظهرت الأمور مشوشة، وغير منظمة، في ذلك الحين. تغيّرت الأمور الآن مع اكتساب الأنثروبولوجيا العدلية الاعتراف الرسمي بها في عام 1972، أي حين أنشأت **أكاديمية العلوم العدلية** كلية **الأنثروبولوجيا الفيزيائية**. أنشئ بعد ذلك بوقت قصير **مجلس الأنثروبولوجيا العدلية**.

وسّع العاملون في مجال الأنثروبولوجيا العدلية نشاطاتهم لتشمل التحقيق بانتهاكات حقوق الإنسان. تأسّست مختبرات، ونُبشت المقابر الجماعية في الأرجنتين وغواتيمالا، وجرى نفس الأمر بعدها في رواندا، وكوسوفو، وفي أماكن أخرى. تزايد كذلك الدور الذي يلعبه هذا العلم في مجالات الإنقاذ أوقات الكوارث العامة. عملنا أيضاً في مجالات تحطّم الطائرات، والفيضانات التي اجتاحت المقابر، والتفجيرات، وفي موقع مركز التجارة العالمي، وكان آخر هذه المجالات الكوارث التي نجمت عن أمواج المحيط الزلزالية (التسونامي) وإعصار كاترينا.

تحوّلنا إلى نجوم بعد سنوات من العمل في الخفاء، لكنّ الجمهور بقي مشوشاً بشأن التسميات المحددة لأعمالنا. تساءل كثيرون، من هو الباثولوجي (عالِم التشريح)؟ وما هو الأنثروبولوجي؟ وماذا تعني عبارة عدلي؟

إن علماء التشريح الباثولوجيين هم علماء متخصصون بالعمل في مجال الأنسجة اللينة. أما الأنثروبولوجيون فهم الذين يعملون في مجال العظام. يختصّ الباثولوجي بالمتوفين حديثاً، والذين بقيت جثثهم سليمة نسبياً. أما الأنثروبولوجي فهو يختصّ في حالات الهياكل العظمية التي تُنبش من المقابر الضحلة، أو جثة

مـــتفحمة في برميل، أو في حالة وجود عظام في صناديق خشبية، أو طفل محنّط في صـــندوق موجـــود في غرفة علوية. يعمل الأنثروبولوجي العدلي على حلّ مسائل تحديد هوية الضحايا، وزمن وطريقة الوفاة، مستخدماً المؤشرات العظمية، وتشريح الجـــثث بعد حدوث الوفاة. وتعني كلمة عدلي تطبيق النتائج العلمية على المسائل القانونية.

لا يعمـــل أي شخصٍ وحده، لكنّ العمل البوليسي الحقيقي يشمل مشاركة الكـــثيرين، بالـــرغم من تمجيد التلفزيون للبطولات الفردية لعالِمٍ، أو مخبرٍ، يعمل وحده. يستطيع **الباثولوجي** تحليل الأعضاء والدماغ البشريين، بينما ينصرف **عالِم الحـــشرات (الحشراتي)** على تحليل الحشرات، أما **عالم طب الأسنان** العدلي فهو يهـــتمّ بسجلات الأسنان، أما **البيولوجي (الأحيائي) الجزيئي** فهو يهتمّ بالحمض الـــنووي، وينـــصرف **الباليـــستي** إلى الاهتمام بالرصاصات وغلافاتها، بينما يهتمّ **الأنثروبولوجي العدلي** بفحص العظام. ويشترك كثير من اللاعبين بجمع قطع اللغز مع بعضها حتى تظهر صورة واضحة لما حدث.

درســـت في الـــبداية علم الآثار، وتخصصت في البيولوجيا العظمية. شققت طريقي نحو الأنثروبولوجيا العدلية عندما تلقيت طلباً للمساعدة في التحقيقات التي جـــرت بـــشأن مقتل أحد الأطفال. عند ذلك، تمكنت من كشف هوية صاحب العظام. تبيّن أن الضحية كانت فتاةً في الخامسة من عمرها عندما خُطفت، وقُتلت، ثم أُلقـــيت في غابـــة قـــريبة من شارلوت الواقعة في ولاية كارولاينا الشمالية. لم يُكتـــشف القاتـــل أبداً، لكن الظلم والوحشية اللذين ميّزا هذه القضية غيّرا مجرى حـــياتي. حـــزنت عـــند معرفتي أن حياة فتاة صغيرة قد اختُصرت باستهتارٍ يتميّز بالوحشية. تحوّلت نحو التحقيقات العدلية، ولم أشعر بالأسف لأنني تركت الاهتمام بالعظام القديمة لأعمل في قضايا الأشخاص الذين ماتوا حديثاً.

أمـــيل إلى الـــتفكير بـــأن روايـــاتي لعبت دوراً صغيراً في لفت الأنظار إلى الأنثـــروبولوجيا العدلـــية. إنني أقدّم للقراء نظرةً خاطفة عن تجاربي، والقضايا التي أعمـــل علـــيها في مهنتي، وذلك عن طريق الشخصية الخيالية التي ابتكرتها، وهي **تمـــبرنس بـــرينان**. تـــستند رواية ***ديجا ديد*** على أول تحقيقات أجريتها عن جريمة

تسلسلية. وتستمدّ رواية ***ديث دوجور*** أحداثها من العمل الذي قمت به للكنيسة الكاثوليكـــية، ومـــن عملـــية الانتحار الجماعي التي حدثت بين أفراد طائفة معبد الـــشمس. وتـــستوحي رواية ***قرارات مميتة*** من عدة عظام أرسلتها **هيلز آنجلز في كيبـــيك**. واستندت رواية ***رحلة مميتة*** على الأعمال التي قمت بها في مجال عمليات الإنقـــاذ من الكوارث. واستوحيت أحداث رواية ***أسرار القبور*** من مشاركتي في نبش مقبرة جماعية في غواتيمالا. ورأت رواية ***عظام عارية*** النور بفضل عظام أيائل قمـــت بفحـــصها لصالح مجموعة من خبراء الحياة البرية. وتشكّلت رواية ***مونداي مورننغ*** نتيجة اكتشاف ثلاثة هياكل عظمية في قبو مطعم بيتزا.

تخـــتلف طـــريقة معالجة أحداث رواية ***رفقًا بالعظام*** قليلاً عن طريقة معالجتي المعتادة للروايات السابقة، لأنها لا تستند على قضية أو قضيتين، لكنها تستند على قـــضايا وتجـــارب مهنية متباينة. استندت في روايتي هذه على مواقع دفن تعود إلى أزمـــنة غابرة، وكنت عملت فيها في بداية عملي المهني. أدخلت أيضاً قصة صف دراســـة آثـــار مـــيداني كنت علّمته في جامعة **كارولاينا الشمالية في شارلوت**، وكذلك استندت إلى قضية كلّفتني بها شخصياً قاضية تحقيق عندما سلّمتني هيكلاً عظمياً في كيسٍ من النايلون. استفدتُ أيضاً من علامات حزوزٍ كنت قد أجريت تحليلات عليها في إطار تحقيقٍ في جريمة، ومن كسورٍ في فقرات عنقية حدثت لأحد المشاة عندما تعرّض لحادث، وفرّ الجاني في حينها. وظّفت أيضاً مشاهداتي لضحية وُجدت معلقة على شجرة، ولم يتبقَ من الجثة إلا الهيكل العظمي.

تـــستفيد هـــذه الرواية، وهي الأحدث التي كتبتها، من عملي الشخصي في المختـــبرات التي تحلّل عناصر الجريمة، وفي مواقع وقوع الجرائم، وهو الشيء الذي يـــصدق على كُتُبي الأخرى. أضفت لمسةً من علم الآثار، وأسطورة أو اثنتين من مشاهد الحياة في المدن. أدخلت في هذه الرواية كذلك تقارير وسائل الإعلام حول الأعـــضاء البشرية المسروقة، وأضفت عليها نكهةً من أوقات عطلاتي التي قضيتها على شاطئ جزيرة النخيل. حسناً! هذه هي رواية ***رفقًا بالعظام***.

حول المؤلفة

كاثي رايكس هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية تعمل في **مختبرات العلوم القضائية والطـــب الشرعي** في مقاطعة كيبيك، وهي مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتـــشغل المؤلفة منصب نائب رئيس **الاتحاد الأميركي للعلوم العدلية**، كما تشغل مقعـــداً في **المجلـــس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة**. وتُعتبر كاثي رايكـــس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدّى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنثـــروبولوجيا العدلـــيين المجازين من **المجلس الأميركي للأنثروبولوجيا العدلية**. تعمـــل الكاتـــبة أيـــضاً بصفتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في **جامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت**، وهي من مواطني شيكاغو، حيث تسلّمت شهادة دكتوراة في الفلـــسفة مـــن جامعة **نورث ويسترن**. تقسّم الكاتبة وقتها هذه الأيام ما بين مدينتَـــي شـــارلوت ومونتريال. ويُذكر أن رواية ***ديجا ديد*** هي التي أوصلتها إلى الـــشهرة، وذلـــك عـــندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة ***نيويورك تايمز***. فازت هذه الرواية أيضاً **بجائزة إليس لأفضل أول رواية** لعام 1997. احـــتلّت الروايات التالية التي كتبتها المؤلفة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صـــحيفة نيويورك تايمز، ومنها ***ديث دو جور، قرارات مميتة، رحلة مميتة، أسرار القبور، عظام عارية، مونداي مورننغ، وكروس بونـــز***. ورواية ***رفقاً بالعظام*** هي الـــرواية التاسعة التي تُبرز فيها الكاتبة شخصية **تمبرنس برينان**. موقع الكاتبة على شبكة الإنترنت: www.kathyreichs.com.



«إنها رواية رائعة تنسج على منوال أفضل القصص البوليسية الجنوبية! وأي متعة تفوق مشاهدة تمب بريتان وهي تعود لوظيفتها مجدداً، لكنها تعود هذه المرة إلى بيئة كارولاينا الجنوبية الواقعية. إن حبكة رايكس التي لا نظير لها، والتي تجمع مشاهد علمية نفسية، هذا عدا الحبكة العاصفة، تجعل من قراءة رواية لغز العظام أمراً ضرورياً».

– جيفيري ديفر، مؤلف روايتي القمر البارد، والبطاقة الثانية عشرة

تعالج كاثي رايكس موضوعاً آخر يستحوذ على انتباه العالم، وذلك في روايتها الجديدة لغز العظام، بعد النجاح الباهر الذي حققته رواية Cross Bones. تضع هذه القضية عالمة الأنثروبولوجيا العدلية، تمبرنس بريتان وسط المعمعة المرعبة لمشروع يحمل أبعاداً دولية.

تجد تمب نفسها عالقة بتدريس طلبة صف آثار غير متحمسين، يعملون ميدانياً على نبش مقابر تقع على شاطئ من شواطئ تشارلستون، وتعود للأميركيين الأصليين، تعثر تمب وسط العظام القديمة، على هيكل عظمي توفي صاحبه منذ سنين قليلة. وتعمد صديقتها الحميمة، إيما روسو، وهي المحققة الجنائية المحلية إلى إقناعها بالبقاء لتساعد بالتحقيقات.



تسارع تمب للموافقة على البقاء ومساعدة صديقتها على حل هذه القضية، وذلك بعد أن كشفت لها سراً مقلقاً من أسرارها.

يبدأ عدد الضحايا بالتصاعد. وُجِد رجل مجهول الهوية معلقاً على شجرة في عمق الغابات. وظهرت جثة أخرى داخل برميل. تكتشف تمب كسوراً غامضة على عظام عدة جثث، بالإضافة إلى دلالات على عمليات خنق. تتبع تمب آثار المجرم لتصل إلى عيادة مجانية في أحد الشوارع، والتي تضم موظفين عدائيين، وطبيباً مشكوكاً بأمره، وواعظاً من خلال محطات التلفزيون. وتتكاثر الدلائل في أماكن تبدو عادية في الظاهر، ثم تسرع تمب إلى استخدام معارفها الفريدة لتعزز القضية الموكلة بها، حتى ولو ظلّ الشريف المحلي متشككاً، ولو تعرضت حياتها للتهديد.

تكتشف تمب أن حياتها العاطفية أصبحت معقدة بعض الشيء هي الأخرى. جاء رايان، وهو صديقها الحالي، من مونتريال لزيارتها، أما زوجها السابق بيتي، فحضر كي يحقق باختفاء مواطنة. سكن زوجها السابق معها في منزل صديقة لهما يقع على شاطئ البحر. يتنافس رايان وبيتي على اجتذاب انتباهها. تجد تمب نفسها منشغلة بمشاعرها بالرجلين معاً، وبصورة أعمق مما توقعته.

«لغز العظام» هي رواية مثيرة وأنيقة. إنها تبرز نوع الجرائم الكبيرة التي تتصدر عناوين الأخبار كل أسبوع. يُذكر أن مسلسل Bones مستوحى من هذه الرواية، وهو المسلسل الذي تعرضه محطة تلفزيون «فوكس». تستمر الكاتبة بأسلوبها الرائع، ولم تكن تمب أكثر إثارة فيما سبق من الروايات.



كاثي رايكس، هي عالمة أنثروبولوجيا عدلية تعمل في مختبرات العلوم القضائية والطب الشرعي في مقاطعة كيبيك، أي أنها مثل الشخصية الخيالية التي ابتكرتها. وتشغل المؤلفة منصب نائب رئيس الاتحاد الأميركي للعلوم العدلية، كما تشغل مقعداً في المجلس الاستشاري الكندي الوطني لخدمات الشرطة. وتُعتبر كاثي رايكس واحدة من مجموعة قليلة لا يتعدى عددها ستة وخمسين عالماً من علماء الأنثروبولوجيا العدليين المجازين من المجلس الأميركي للأنثروبولوجيا العدلية. تعمل الكاتبة أيضاً بصفتها أستاذة لمادة الأنثروبولوجيا في جامعة كارولاينا الشمالية في شارلوت. ويُذكر أن رواية «ديجا ديد» قد أوصلتها إلى الشهرة، وذلك عندما أصبحت ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز. فازت هذه الرواية أيضاً بجائزة «إيليس» لأفضل أول رواية لعام 1997. احتلت الروايات التي كتبتها المؤلفة مكانها في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز، ومنها رواية «الإثنين الأسود» التي صدرت بالعربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون، بالإضافة إلى Death du Jour، Deadly Decisions، Fatal Voyage، Grave Secrets، Bare Bones، وCross Bones. موقع المؤلفة على شبكة الإنترنت www.kathyreichs.com.


ISBN 978-9953-87-271-1
9 789953 872711

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
هاتف 5756421 – فاكس 5752854
info@madboulybooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص.ب. 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف 785107/8 (1-961+) فاكس 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني asp@asp.com.lb





